رواية

باتريشا هايسمث

مستر ريبلي الموهوب

ترجمة رشا صادق

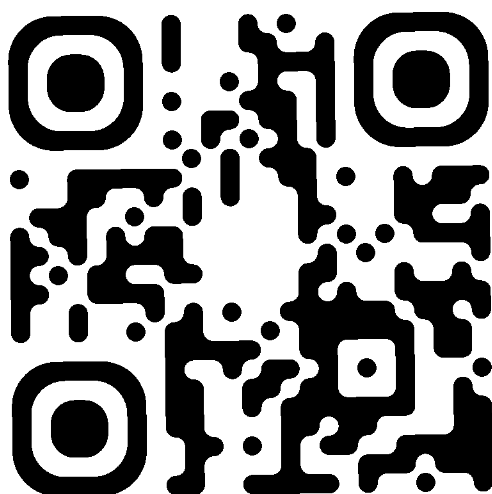




مكتبة

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

انقر هنا .. اتبع الرابط!



telegram @soramnqraa

مستر ريبلي

الموهوب

روايـــة 

Author: **Patricia Highsmith**	اسم المؤلف: باتريسيا هايسميث
Title: **The Talented Mr. Ripley**	عنوان الكتاب: مستر ريبلي الموهوب
Translated by: **Dr. Rasha Sadek**	ترجمة: د. رشـا صـادق
P.C.: **Al–Mada**	الناشر: دار المدى
First Edition: **2023**	الطبعة الأولى: **2023**



للإعلام والثقافة والفنون

Al-mada for media, culture and arts

بغداد: حي أبو نؤاس - محلة 102 - شارع 13 - بناية 141

Iraq/ Baghdad- Abu Nawas-neigh. 102 - 13 Street - Building 141

+ 964 (0) 770 2799 999   + 964 (0) 780 808 0800

+ 964 (0) 790 1919 290

بيروت: بشامون - شارع المدارس

Beirut: Bchamoun - Schools Street

+ 961 175 2617   + 961 706 15017

+ 961 175 2616

دمشق: شارع كرجية حداد- متفرع من شارع 29 أيار

Damascus: Karjieh Haddad Street - from 29 Ayar Street

+ 963 11 232 2276   + 963 11 232 2275

+ 963 11 232 2289   ص.ب: 8272

باتريسيا هايْسميث

مكتبة
t.me/soramnqraa

مستر ريبلي الموهوب

ترجمة : د. رشا صادق



باتريسيا هايْسميث

باتريسيا هايْسميث (1921–1995)، روائيّة أمريكيّة وكاتبة قصّة قصيرة، اشتهرت بروايات التشويق والإثارة البوليسيّة التي تدور عن شخصيّات مضطربة سيكولوجيّاً، تحلّل فيها طبيعة الشعور بالذنب، والبراءة، والخير، والشرّ.

ألّفت عشرات القصص القصيرة، فضلاً عن اثنتين وعشرين رواية، تحوّل بعضها إلى أفلام سينمائيّة، كفيلم «غرباء في قطار» للمخرج ألفرد هيتشكوك عام 1951، و«كارول» عام 2015، أمّا رواية «مستر ريبلي الموهوب» فقد ظهرت مرّتين على الشاشة الفضيّة، عامي 1960 و 1999.

باتريسيا هايْسميث هي «شاعرة الرهبة» كما وصفها الروائيّ غراهام غرين، لا يمكنك أن تقرأ أعمالها دون أن تتلفّت خلفك خائفاً، مرّة تلو المرّة.

تنويه

تَرِدُ في الرواية العديد من الحوارات باللغة الإيطاليّة، قمتُ بنقلها إلى اللغة العربيّة توخيّاً لتماسك السرد وتسهيل متابعته، ما عدا بعض المفردات المألوفة المفهومة من خلال السياق.

المترجمة

-1-

ألقى توم نظرة إلى الخلف، ورأى الرجل يخرج من حانة غرين كيج متجّهاً صوبه، فحثّ خطاه. هذا الرجل يلاحقه بلا شكّ! لقد لمحه قبل خمس دقائق، ولاحظ بأنّه يتفحّصه بإمعان من طاولته، كأنّه غير متأكّد تماماً من هويّته. كان ذلك كافياً بالنسبة لتوم كي ينهي شرابه على عجل، ويدفع ثمنه، من ثم يغادر بسرعة.

عند الزاوية، انحنى توم للأمام وهرول عبر الجادّة الخامسة. ها هي حانة راؤول، هل يغامر بدخولها كي يحتسي شراباً ثانياً؟! هل يجرّب حظوظه هكذا؟! أم يتابع طريقه إلى بارك آڤينو، ويحاول أن يتوارى عن عيني الرجل في مداخل الأبنية المعتمة؟!

دخل إلى حانة راؤول.

اتّجه إلى مكان فارغ عند البار، تلفّت حوله بشكل أوتوماتيكيّ، مستطلعاً وجود أيٍّ من معارفه. ها هو ذا ذلك الرجل الضخم ذو الشعر الأحمر -دائماً ما ينسى اسمه- جالساً إلى إحدى الطاولات مع فتاة شقراء. لوّح ذو الشعر الأحمر له بيده، فردّ عليه توم بتحيّة فاترة. ارتكز بإحدى ساقيه إلى مقعد عند البار، والتفت صوب الباب بتحدٍّ، لكن بعفويّة وقحة.

«جِن وتونِك من فضلك»، قال للبارمان.

هل هذا هو نمط مَن سيرسلونه لملاحقته؟! هو، ليس هو، هو، ليس هو؟! لا يبدو كمُتحرٍّ أو كشرطيّ على الإطلاق، بل كرجل أعمال أو كأب، حَسَن اللباس، حَسَن التغذية، شعره أشيب عند الصدغين، ويطغى عليه نوع من عدم اليقين بشأن توم. هل هذا هو نمط الرجال الذين يتولّون مهمّة كهذه؟! ربّما سيتجاذب معه أطراف الحديث في حانة، من ثمّ... بانغ! يدٌ على كتفه، واليد الأخرى ترفع شارة شرطيّ: توم ريبلي، أنتَ رهن الاعتقال!

راقب توم الباب... وها هو ذا! ألقى الرجل نظرة على المكان، وأشاح ببصره فوراً عندما لمح توم. خلع قبّعته المصنوعة من القشّ، وجلس بعيداً عند زاوية البار.

يا إلهي! ماذا يريد؟! إنّه ليس شاذّاً بكلّ تأكيد، فكّر توم للمرّة الثانية، دماغه المعذَّب صاغ الكلمة وشكّلها لتوّه كأنّها ستحميه. الأفضل أن يكون الرجل شاذّاً على أن يكون شرطيّاً، بوسعه أن يقول للشاذّ بكلّ بساطة: «كلّا، شكراً لك»، من ثمّ يبتسم ويمضي في طريقه. عدّل جلسته على المقعد، واستعدّ.

رأى الرجلَ يشير إلى البارمان بالتريّث قليلاً، من ثمّ نهض ومشى صوبه، وها هو يقف أمامه! حدّق توم إليه مشلولاً. لا يمكن أن يحكموا عليّ بأكثر من عشر سنوات، فكّر، أو خمس عشرة، لكن إن كنتُ حَسَن السلوك في السجن... اجتاحته موجة من الندم الموجع اليائس، ما أن تحرّكت شفتا الرجل.

«اعذرني! هل أنت توم ريبلي؟».

«أجل».

«اسمي هربرت غرينليف. أنا والدُ ريتشارد غرينليف». تعابير وجه الرجل حيّرت توم، أكثر ممّا لو صوّب مسدّساً إلى رأسه! الوجه كان ودوداً، مبتسماً، ومفعماً بالأمل.

«أنت صديق ريتشارد، أليس كذلك؟».

رسمت كلماتُ الرجل رابطاً واهياً في دماغ توم: دِكِي غرينليف! شابّ طويل أشقر الشعر، ويملك بعض المال! لقد تذكّره. «أوه، دِكِي غرينليف! أجل»، قال.

«بأيّ حال، أنت تعرف تشارلز ومارتا شرايفر، إنّهما من أخبراني عنك، وقالا بأنّك قد... آه، هل يمكننا الجلوس إلى إحدى الطاولات؟».

«أجل» أجاب توم بلطف، وحمل كأسه. تبع الرجل إلى طاولة فارغة، في مؤخّرة الحانة الصغيرة. نجوتُ! فكّر، أنا حرّ! لن يعتقلوه، هذا الرجل جاء لأمر مختلف كليّاً، لا يتعلّق باختلاس ضخم، أو بالاحتيال بواسطة البريد، أو أيّاً كان ما يسمّونه! لعلّ ريتشارد واقع في ورطة، لعلّ مستر غرينليف يريد مساعدة مثلاً أو نصيحة، وتوم يعرف بالضبط ماذا ينبغي أن يُقال لأبٍ مثله.

«لم أكن واثقاً من أنّك توم ريبلي!» قال مستر غرينليف، «لقد رأيتك مرّة واحدة فقط من قبل، ألم تأتِ إلى منزلنا مع ريتشارد ذات مرّة؟!».

«أظنّ ذلك».

«لقد أعطاني الزوجان شرايڤر أوصافك أيضاً. نحن جميعنا نحاول أن نتواصل معك، لأنّهما يرغبان بأن نلتقي في منزلهما. أخبرهما أحدهم بأنّك تتردّد إلى حانة غرين كيج بين حين وآخر... هذه هي الليلة الأولى التي أخرج فيها للبحث عنك. لذلك، أعتقد بأنّني محظوظ!»، وابتسم. «أرسلتُ لك رسالة في الأسبوع الماضي، أظنّ بأنّك لم تستلمها»، أضاف.

«كلّا، لم أستلمها». مارك لا يحوّل إليّ بريدي، فكّر توم. تبّاً له! لعلّ العمّة دوتي أرسلت شيكاً! «لقد انتقلتُ من المنزل في الأسبوع الماضي»، قال بصوت عال.

«آها! فهمتُ. لم أقل الكثير في رسالتي... فقط أنّني أودّ أن ألتقي بك، وأتحادث معك. يعتقد آل شرايڤر بأنّك تعرف ريتشارد معرفة وثيقة».

«أنا أتذكّره، أجل».

«ألا تتبادلان الرسائل حاليّاً؟!»، ولاحت خيبة الأمل على وجهه.

«كلّا، لم أرَ دِكِي منذ سنتين تقريباً».

«إنّه في أوروبا منذ سنتين. لقد مدحك الزوجان شرايڤر كثيراً، ويعتقدان بأنّ ريتشارد سيصغي إلى رأيكَ لو كتبتَ له. أريده أن يعود إلى الوطن، لديه مسؤوليّات هنا... لكنّه يتجاهل حاليّاً كلّ ما نحاول أنا أو والدته إخباره به».

احتار توم!

«ماذا قال آل شرايڤر؟!».

«لقد قالا... من الواضح أنّهما يبالغان قليلاً بشأن الصداقة المتينة التي تربطك بريتشارد، ويظنّان بأنّكما تتراسلان طيلة الوقت. كما ترى، أنا لا أعرف سوى بعض أصدقاء ريتشارد فقط!». ألقى نظرة على كأس توم كأنّه يريد أن يعرض عليه احتساء مشروب آخر على الأقلّ، لكنّها ما تزال شبه ممتلئة.

تذكّر توم بأنّه ذهب إلى حفلة كوكتيل في منزل آل شرايڤر، بصحبة دِكي غرينليف. لعلّ صداقة الزوجين شرايڤر بآل غرينليف أمتن من صداقته معهما، وهكذا بدأت هذه القصّة. لم يلتقِ بهما سوى ثلاث أو أربع مرّات طيلة حياته، آخرها كانت عندما حَسَب ضريبة الدخل لتشارلي شرايڤر، فكّر توم. تشارلي كان مخرجاً تلفزيونيّاً مستقلّاً، ضائعاً بين حساباته الماليّة العديدة، واقتنع بأنّ توم عبقريّ لأنّه تمكّن من احتساب ضريبة تقلّ قيمتها عمّا حسبه هو شخصيّاً، ودون أن يخالف القانون! لعلّ تشارلي شرايڤر اقترح اسمه على مستر غرينليف، بناء على تلك القصّة. ربّما قال له بأنّ توم ذكيّ، رابط الجأش، نزيه للغاية، ومستعدّ دائماً لإسداء خدمة للآخرين... هذا خطأ صغير!.

«ألا تعرف شخصاً مقرّباً من ريتشارد، بوسعه أن يؤثّر قليلاً عليه؟»، سأل مستر غرينليف على نحو مثير للشفقة نوعاً ما.

هناك بادي لانكِنو، فكّر توم، لكنّه لم يرغب بإلقاء مهمّة كهذه على عاتق بادي. «أخشى بأنّني لا أعرف أحداً!» قال وهو يهزّ رأسه، «لماذا لا يرغب ريتشارد بالعودة؟».

«يقول إنّه يفضّل الحياة هناك، لكنّ مرض والدته تفاقم حاليّاً... حسناً، إنّها مشاكل عائليّة! آسف لأنّني أزعجك» قال مستر غرينليف، ومرّر يده شاردَ الذهن على شعره الرماديّ الخفيف الممشّط بأناقة. «يقول إنّه يرسم. لا ضير في ذلك، لكنّه ليس رسّاماً موهوباً. موهبته بتصميم الزوارق أعظم، لو أنّه يصبّ تركيزه عليها!». رفع رأسه عندما خاطبه النادل، ثم قال: «ويسكي مع صودا من فضلك، ديورز. ألا تريد كأساً؟».

«كلّا، شكراً»، أجاب توم.

نظر مستر غرينليف إلى توم وكأنّه يعتذر. «أنت الوحيد الذي أصغى إليّ من بين أصدقاء ريتشارد، جميعهم يعتقدون بأنّني أتدخّل في حياته»، قال.

فهم توم السبب بسهولة. «أتمنّى حقّاً لو أستطيع مساعدتك»، قال. تذكّر الآن أنّ مصدر دخل دِكي كان شركة لبناء القوارب، قوارب بحريّة صغيرة. لا شكّ بأنّ والده يريد منه العودة للوطن، كي يتولّى إدارة شركة العائلة. ابتسم

توم لمستر غرينليف ابتسامة لا معنى لها، من ثمّ أنهى كأسه جالساً على حافّة كرسيّه ومتأهّباً للمغادرة، لكنّ خيبة الأمل على الوجه أمامه أصبحت محسوسة نوعاً ما.

«أين يقيم في أوروبا؟» سأل توم، مع أنّه لا يبالي إطلاقاً.

«في بلدة تدعى مونجيبِللو، إلى الجنوب من نابولي. لا يوجد فيها شيء، ولا حتّى مكتبة عامّة كما أخبرني، وهو يقسّم وقته ما بين الإبحار والرسم. لقد اشترى منزلاً هناك... ريتشارد لديه مدخوله الخاصّ، ليس ضخماً، لكنّه كافٍ كما يبدو لتغطية نفقات الحياة في إيطاليا. حسناً، كلُّ امرئٍ وما يهوى، لكنّني لا أفهم ما الذي يشدّه إلى ذلك المكان»، ابتسم مستر غرينليف بشجاعة. «ألا أقدّم لكَ شراباً، مستر ريبلي؟»، سأل عندما عاد النادل بكأس الويسكي والصودا.

توم يرغب بالمغادرة، لكنّه لم يشأ أن يترك الرجل وحيداً مع كأسه المليئة. «شكراً لك، أودّ ذلك»، قال وهو يعطي كأسه الفارغة للنادل.

«أخبرني تشارلي شرايفر بأنّك تعمل في مجال التأمين»، قال مستر غرينليف بودّ.

«أجل، لكن فيما مضى. أنا...» ولم يرغب بإخباره بأنّه يعمل الآن في «دائرة الإيرادات الداخليّة»، ليس الآن على الأقلّ. «أنا أعمل حالياً في قسم المحاسبة، ضمن وكالة للإعلان»، قال.

«آها!»

صمتا كلاهما لبرهة. عينا مستر غرينليف مثبّتتان على توم، ونظرته جائعة بائسة. ماذا بوسع توم أن يقول بحقّ السماء؟! ندم لأنّه قَبِل الشراب. «كم عمر دكي الآن بأيّ حال؟»، سأل.

«إنّه في الخامسة والعشرين».

وأنا كذلك! فكّر توم. لا بدّ أنّ دِكِي يقضي الآن أسعد أوقات حياته هناك. دَخْل، منزل، زورق... لماذا سيرغب بالعودة إلى الوطن؟! توضّح وجهُ دكي أكثر في ذاكرته: ابتسامة عريضة، شعر أميل للشقرة ذو تموجّات حادّة، ووجه مرح. دكي محظوظ، أمّا هو... ماذا يفعل الآن في الخامسة والعشرين؟!

بالكاد يتدبّر أمره من أسبوع إلى أسبوع، لا يملك حساباً مصرفيّاً، ويتهرّب من الشرطة للمرّة الأولى في حياته! إنّه موهوب بالرياضيّات... لكن تبّاً! لماذا لا يدفعون له لقاء موهبته هذه في مكان ما؟! أدرك توم بأنّ عضلاته كلّها توتّرت الآن، وبأنّ أصابعه سحقت علبة الثقاب أفقيّاً إلى أن أصبحت مسطّحة. إنّه يشعر بالملل، الملل اللعين، ملل، ملل! يريد أن يرجع إلى البار، كي يجلس هناك... وحيداً!.

ارتشف رشفة من شرابه، وقال بسرعة: «يسرّني أن أكتب إلى دكي، إن أعطيتني عنوانه. أعتقد بأنّه سيتذكّرني، لقد ذهبنا معاً إلى حفلة نهاية الأسبوع ذات مرّة في لونغ آيلاند كما أذكر. خرجنا معاً لجمع المحّار، وتناولناه كلّنا على الفطور»، وابتسم. «مرض اثنان من الموجودين آنذاك، ولم تكن حفلة جيّدة جدّاً، لكنّني أتذكّر أنّ دكي حدّثنا يومها عن السفر إلى أوروبا. لا بدّ أنّه غادر بمجرّد أن...».

«أتذكّر ذلك!» قال مستر غرينليف، «إنّها عطلة نهاية الأسبوع الأخيرة التي قضاها ريتشارد هنا. أظنّ أنّه أخبرني عن المحّار!»، وضحك بصوت عالٍ نوعاً ما.

«لقد زرتُ شقّتكَ عدّة مرّات أيضاً» تابع توم بحماس، «أراني دِكي بعض نماذج السفن الموضوعة على طاولة في غرفته».

«إنّها مشروعات طفولته فحسب!» قال مستر غرينليف مبتهجاً، «هل عرض عليك الهياكل التي صمّمها؟ أو رسوماته؟».

لم يحدث ذلك، لكنّ توم أجاب بفطنة: «أجل، بالطبع! رسومات بقلم الحبر، بعضها مدهش حقّاً!». لم يرَ توم تلك الرسومات، لكن بوسعه أن يتخيّلها: تصاميم دقيقة، تظهر فيها كلّ حافّة وكلّ برغي وكلّ مزلاج. بوسعه أن يتخيّل دكي مبتسماً وهو يحمل تلك الرسومات كي يعرضها عليه، وبوسعه أيضاً أن يقضي دقائق طويلة بوصف تلك التفاصيل كي يُدخل السرور على قلب مستر غرينليف، لكنّه ضبط نفسه.

«أجل، ريتشارد موهوب برسم التصاميم»، قال مستر غرينليف بنوع من الرضا.

«إنّه كذلك»، وافق توم. لقد تفاقم شعوره بالملل، وهو يعرف هذا الإحساس جيّداً: يتنابه في الحفلات أحياناً، لكنّه يشعر به غالباً عندما يتناول العشاء مع شخص ما رغماً عنه، وعندها ستطول الأمسية أكثر فأكثر بالنسبة له. سيبقى فائق التهذيب لساعة أخرى كاملة إن اضطرّ إلى ذلك، قبل أن ينفجر شيء ما بداخله، ويجبره على الهرب راكضاً. «يؤسفني أنّني مشغول بالعمل حاليّاً، وإلّا لذهبتُ بنفسي لرؤية ريتشارد كي أقنعه. لربمّا سأنجح بذلك»، قال توم، لمجرّد أنّ مستر غرينليف يرغب بسماع هذه الكلمات من فمه.

«إن كنتَ تفكّر بذلك جدياً، هذا هو... لا أعرف، هل تخطّط للسفر برحلة إلى أوروبا، أم لا؟».

«كلّا».

«لطالما تأثّر ريتشارد بأصدقائه! لو أنّ باستطاعتك أنت -أو أيّ شخص من معارفه- أن تأخذ إجازة من عملك... سأرسلك كي تتحدّث معه. أعتقد أن هذا سينفعنا أكثر من ذهابي أنا شخصياً... بأيّ حال، لا يمكنك أن تأخذ إجازة من عملك الحاليّ كما أظنّ، أليس كذلك؟».

خفق قلب توم فجأة، لكنّه رسم على وجهه ملامح من يفكّر بما سمع. إنّها فرصة! شيء ما في أعماقه شمّ رائحةَ تلك الفرصة، وانقضّ عليها قبل أن يستوعبها دماغه. وظيفته الحاليّة: لا شيء. ربّما يضطرّ إلى مغادرة المدينة مرغماً عمّا قريب، كما أنّه يرغب بالرحيل عن نيويورك بأيّ حال. «قد أستطيع ذلك» قال بحذر والتعبير ذاته ما يزال مرتسماً على وجهه، كأنّه يستعرض الآن في ذهنه آلاف الالتزامات الصغيرة التي ستمنعه من الرحيل.

«يسرّني أن أتكفّل بمصاريفك إن ذهبتَ...هذا أمرٌ مفروغ منه! هل تعتقد حقّاً أن بإمكانك تدبّر مسألة السفر؟ لنقل، في هذا الخريف؟».

إنّه منتصف أيلول. حدّق توم إلى الخاتم الذهبيّ في بنصر مستر غرينليف، ذاك الذي يحمل شعار العائلة ويزيّنه هلال شبه ممحو. «أعتقد ذلك. تسرّني رؤية ريتشارد مجدّداً، خاصّة إن كنت تحسبني قادراً على مدِّ يد العون»، قال.

«أعتقد هذا أجل! أظنّ بأنّه سيصغي إليك، وإن أخذنا بعين الاعتبار أنّ الصداقة التي تجمعكما ليست وطيدة... سيدرك بألّا مصلحة لك في

الأمر، لو شرحتَ له بحزم ضرورةَ العودة إلى الوطن» استند مستر غرينليف بظهره على الكرسيّ، ونظر إلى توم راضياً. «الأمر المضحك هو أنّ جِم بورك وزوجته -جِم هو شريكي- مرّا ببلدة مونجيبللو في العام الماضي أثناء قيامهما برحلة سياحيّة بحريّة، ووعدهما ريتشارد بأنّه سيعود في بداية الشتاء... أي الشتاء الماضي. لقد خاب أمل جم، لكن لماذا سيصغي صبيّ في الخامسة والعشرين، إلى رجل عجوز في الستينيّات من عمره تقريباً؟! ستنجح أنت غالباً حيث فشِلْنا نحن».

«آمل ذلك!»، ردّ توم بتواضع.

«ما رأيك بشراب آخر؟ براندي فاخر مثلاً؟».

-2-

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، عندما انطلق توم إلى منزله. لم يرغب بأن يرى مستر غرينليف المبنى الحقير المشيّد من الآجرّ البنيّ حيث يقيم بين الشارعين الثالث والثاني، أو لافتة «غرف للإيجار» المعلّقة عليه، لذلك رفض اقتراحه بأن يقلّه بالتاكسي. لقد انتقل للإقامة في غرفة بوب ديلانسي منذ أسبوعين ونصف، وهو شابّ يعرفه معرفة سطحيّة، لكنّه الوحيد من بين كلّ أصدقائه ومعارفه في نيويورك الذي عرض عليه مأوى، عندما لم يجد مكاناً يقيم فيه. لم يدعُ توم أيّاً من أصدقائه إلى غرفة بوب، فضلاً عن أنّه لم يخبر أحداً عن عنوانه الحاليّ في المقام الأوّل. المزية الأساسيّة هنا، هي إمكانيّة تلقّي البريد باسم «جورج ماك ألْبِن» دون أن يخاطر بافتضاح أمره، ولكن... ذلك المرحاض النتن في آخر الردهة والذي لا يُقفَل بابه، وتلك الغرفة المفردة الكئيبة، التي توحي بأنّ آلاف الأشخاص عاشوا فيها، وتركوا خلفهم قذاراتهم دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء تنظيفها، فضلاً عن أكوام من مجلّات ڤوغ وهاربر بازار المكدّسة، وسلطانيّات كبيرة مصنوعة من الزجاج المغشّى تتناثر في كلّ الزوايا، مليئة بخيوط متشابكة وأقلام رصاص وأعقاب سجائر وفواكه متعفّنة! عمل بوب في السابق كمصمّم حرّ لواجهات المحلّات والمتاجر الكبرى، أمّا العمل الوحيد الذي يحصل عليه حاليّاً بين حين وآخر، فهو تزيين واجهات متاجر الأنتيكات في الجادّة الثالثة، التي يعطيه بعضها سلطانيّات من الزجاج المغشّى كأجر. صُعِق توم في البداية بسبب قذارة المكان، ولأنّه يعرف شخصاً ما يعيش على هذا النحو، لكنّه شعر بأنّ بقاءه في هذه الغرفة لن يطول كثيراً، وها قد ظهر مستر غرينليف الآن! سيظهر شيء ما دائماً وأبداً، تلك هي فلسفة توم في الحياة.

قبل أن يرتقي الدرجات البنيّة اللون، توقّف توم وتطلّع بحرص يميناً

وشمالاً. لا يوجد أحد، باستثناء امرأة عجوز تنزّه كلبها، ورجل مسنّ يسير مترنّحاً عند زاوية الشارع، قادماً من الجادّة الثالثة. إن كان ثمّة ما يكرهه توم، فهو الإحساس بوجود من يتعقّبه... وهو شعور يراوده طيلة الوقت مؤخّراً!

صعد الدرجات راكضاً. القذارة تزعجه كثيراً الآن، فكّر وهو يدخل إلى الغرفة. ما أن يحصل على جواز سفر، سيبحر مباشرة إلى أوروبا في مقصورة من الدرجة الأولى على الأغلب، وسيحضر له النادل مختلف الأشياء بمجرّد أن يضغط على زرّ. سيتأنّق لتناول العشاء، سيتهادى إلى قاعة الطعام الضخمة، وسيتجاذب أطراف الحديث مع المسافرين الجالسين إلى طاولته كأنّه جنتلمان! يحقّ له أن يهنّئ نفسه على ما فعله اليوم، فكّر، لقد تصرّف بالطريقة الصحيحة، ولم يشعر مستر غرينليف بأنّه احتال عليه كي يدعوه للذهاب إلى أوروبا، بل على العكس تماماً! لن يخذل مستر غرينليف أبداً، فكّر، وسيبذل ما في وسعه لإقناع دِكي بالعودة. مستر غرينليف رجل نزيه، يعتقد بلا شكّ بأنّ جميع من في العالَم نزيهون مثله، أمّا توم فنسي عملياً وجود هؤلاء الأشخاص.

خلع جاكيته ببطء وفكّ ربطة عنقه، واعياً لكلّ حركة يقوم بها كأنّه يتفرّج على حركات شخص آخر. فوجئ بأنّه يقف منتصب القامة أكثر الآن، وبأنّ نظرة مختلفة كلياً تلوح على وجهه. إنّها إحدى المرّات القليلة في حياته، التي يشعر فيها بالرضا عن نفسه! مدّ يده إلى داخل خزانة بوب الغاصّة بالملابس، وحرّك علّاقات الثياب بعنف يميناً وشمالاً كي يفسح مكاناً لبزّته، من ثمّ توجّه إلى الحمّام. اندفعت نافورة ماء من الدوش القديم الصدئ باتّجاه الستارة، ونافورة أخرى لولبيّة عشوائيّة بالكاد تكفي للاغتسال، لكنّها أفضل من استعمال حوض الاستحمام القذر.

لم يجد بوب عندما استيقظ صباحاً، واكتشف بعد إلقاء نظرة على سرير شريكه، بأنّه لم يرجع إلى الغرفة ليلاً. قفز من السرير، اتّجه إلى الموقد ذي الشعلتين، ووضع غلّايّة القهوة على النار. حَسَنٌ أنّ بوب غائب في هذا الصباح، لأنّه لا يرغب بإخباره عن رحلته الأوروبيّة، فكلّ ما سيفكّر به ذلك الوضيع النتن، هو أنّ توم ربح رحلة مجّانيّة! وكذلك إد مارتن على الأرجح، وبيرت ڤيسر، وأصدقاؤه الوضيعون الآخرون. لن يخبر أحداً منهم بالأمر، ولن يودّعهم.

صفر توم لحناً، إنّه مدعوّ اليوم للعشاء في شقّة آل غرينليف في بارك آڤينو. خلال خمس عشرة دقيقة، استحمّ وحلق ذقنه، ارتدى بزّة وربطة عنق مخطّطة بدت له مناسبة لصورة جواز السفر، ثمّ تمشّى في الغرفة جيئة وذهاباً حاملاً كوباً من القهوة الداكنة بيده، بانتظار وصول بريد الصباح. بعد أن يقرأه، سيذهب إلى راديو سيتي كي يستخرج جواز سفر. ماذا ينبغي أن يفعل بعد الظهر؟ هل يزور معرضاً للفنون، كي يتجاذب أطراف الحديث حوله مع آل غرينليف مساء؟ هل يجمع بعض المعلومات عن شركة «بورك-غرينليف ووتر كرافت»، كي يثبت لمستر غرينليف بأنّه يأخذ مهمّته على محمل الجدّ؟.

تناهى الصوت الخافت المنبعث عن غطاء صندوق البريد إلى أذنيه عبر النافذة المفتوحة، فمضى إلى أسفل الدرج. انتظر إلى أن وصل ساعي البريد إلى الدرجات السفلى، من ثمّ غاب عن البصر تماماً، قبل أن يأخذ الرسالة الموجّهة إلى جورج ماك ألبن من حافّة الصندوق. فتح الظرف، وسحب شيكاً قيمته مئة وتسعة عشر دولاراً وأربعة وخمسون سنتاً، يُدفَع إلى «جابي دائرة الإيرادات الداخليّة». إنّها مسز إديث دبل يو. سوبْراو العجوز الطيّبة! تدفع من دون تذمّر، ومن دون أن تتصل هاتفيّاً. هذه بشارة جيّدة!.

صعد توم إلى الأعلى، ومزّق ظرف رسالة السيّدة سوبراو، ثمّ رماه في القمامة. وضع الشيك بداخل ظرف من الورق الأسمر، من ثمّ خبّأه في الجيب الداخليّ لأحد معاطفه المعلّقة في الخزانة. هذا سيرفع رصيد شيكاته الإجماليّ إلى 1863 دولاراً وأربعة عشر سنتاً كما حسب في ذهنه. مؤسفٌ أنّه غير قادر على صرفها، وأنّه ما من أحد دفع له نقداً بعد، أو حرّر شيكاً باسم جورج ماك ألبن. سبق لتوم أن عثر على بطاقة هويّة مراسل بنك، تحمل تاريخاً قديماً بوسعه تعديله، لكنّه خشي من أنّه لن ينجو بفعلته إن صرف الشيكات، حتّى لو زوّر رسالة تفويضٍ تخوّله استلام المبلغ الكليّ، أيّاً كان مقداره. بالتالي، ما يقوم به الآن لا يتعدّى عمليّاً مزحة، أو هواية بريئة عاديّة. إنّه لا يسرق المال من أحد، وسيمزّق الشيكات قبل أن يسافر إلى أوروبا، فكّر.

ما يزال هناك سبعة مرشّحين على قائمته. ألا يجدر به أن يجرّب اسماً واحداً منهم بعد، في الأيّام العشرة الباقية على سفره؟! عندما تمشّى عائداً

إلى الغرفة البارحة بعد لقائه بمستر غرينليف، فكّر بأنّه سيتوقّف عمّا يقوم به لو دفعت كلٌّ من مسز سوبراو وكارلوس دو سيڤيلا مالاً. مستر دو سيڤيلا لم يحرّر شيكاً بعد، ولا بدّ من الاتّصال به هاتفيّاً لإدخال بعض الرعب على قلبه، فكّر توم. التعامل مع مسز سوبراو كان في غاية السهولة، وهذا ما أغراه بتنفيذ حيلته مرّة إضافيّة أخيرة.

من حقيبته الموجودة في الخزانة، تناول صندوق قرطاسيّة بنفسجيّ اللون، فيه بضع أوراق صقيلة بيضاء، تتكدّس تحتها استمارات مختلفة أخذها من دائرة الإيرادات الداخليّة، حيث عمل قبل بضعة أسابيع كموظّف في المستودع. توجد في قعر الصندوق قائمة أعدّها بعناية، تضمّ أسماء أشخاص يعيشون في برونكس أو بروكلين، ومن المستبعد أن يقوموا بزيارة شخصيّة إلى مكتب الدائرة في مدينة نيويورك: فنّانون، وكتّاب، وآخرون يعملون لحسابهم المستقلّ، لا يتقاضى أيٌّ منهم راتباً تُقتَطع منه الضرائب، ويكسبون ما بين سبعة آلاف إلى اثني عشر ألف دولار سنويّاً. مع مبلغ كهذا، خمّن توم، نادراً ما يلجأ أولئك الأشخاص إلى محاسبين محترفين يحسبون لهم مقدار الضريبة المتوجّبة عليهم، ومن المنطقيّ إذن اتّهامهم بارتكاب خطأ مقداره مئتان أو ثلاثمئة دولار في حساباتهم. قائمته تضمّ وليام جي. سلاترر / صحفيّ، فيليب روبيلارد / موسيقيّ، فريدا هُوين / رسّامة كتب أطفال، جوزيف جي. جناري / مصوّر فوتوغرافيّ، فريدريك ردنغتون / فنّان، فرانسيس كارنيجس... انتاب توم حدسٌ طيّب حول ردنغتون، وهو فنّان كوميكس، أي إنّه لا يعرف رأسه من قدميه على الأرجح.

انتقى توم استمارتَي «إنذار حول خطأ في الحساب»، ودسّ بينهما ورقة كربون، من ثمّ نسخ بسرعة البيانات الموجودة على قائمته تحت اسم ردنغتون: الدخل 11250 دولاراً، الإعفاءات 1، المبلغ المُقتَطع 600 دولار، الرصيد 0، المبلغ المحوَّل 0، الفائدة (تردّد هنا لحظة) 2.16 دولاراً، المبلغ المتبقّي 233.76 دولاراً. من ثمّ، تناول ورقة آلة كاتبة مختومة بعنوان «دائرة الإيرادات الداخليّة» في لكسنغتون آڤينو، شطب العنوان بجرّة قلم مائلة، وطبع تحته:

السيّد المحترم،

نظراً لضغط العمل في مكتبنا المعتاد في لكسنغتون آفينو، يجب أن ترسل ردّك إلى: قسم التعديلات / عناية السيّد جورج ماك ألبن، E.187 الشارع 51، نيويورك 22، نيويورك.

شكراً لك

رالف إي. فيشر (المدير العامّ لقسم التعديلات).

خربش توم توقيعاً لولبيّاً غير مقروء على الورقة، وخبّأ بقية الاستمارات تحسّباً لعودة بوب فجأة، من ثمّ تناول الهاتف، فقد قرّر أن يوجّه إلى مستر ردنغتون إنذاراً أوليّاً. أخذ رقمه من الاستعلامات، واتّصل به، فوجده في المنزل. شرح له توم الوضع باختصار، وعبّر عن دهشته لأنّ مستر ردنغتون لم يستلم بعدُ الإنذار الذي أرسله له قسم التعديلات.

«لا بدّ أنّنا أرسلنا الإنذار قبل بضعة أيّام» قال توم، «وسيصلك غداً بلا شكّ. كان لدينا الكثير من العمل هنا».

«لكنّني سدّدتُ الضريبة!» ردّ الصوت على الطرف الآخر من الخطّ متفاجئاً، «وكانت كلّها...».

«هذه الأمور قد تحصل أحياناً كما تعلم، عندما تكسب دخلك من عمل مستَقلّ ولا تجني راتباً تُقتَطع منه ضريبة ثابتة. لقد راجعنا إيراداتك الماليّة بدقّة يا مستر ردنغتون، ولا مجال للخطأ، كما أنّنا لا نرغب بالحجز على المكتب الذي تعمل لصالحه، أو على أموال وكيل أعمالك أو أيّاً كان...»، قهقه توم هنا، لأنّ الضحكة الودودة الحميمة غالباً ما تصنع المعجزات، ثمّ أضاف: «لكن... حسناً، سنضطرّ إلى ذلك إن لم تسدّد خلال ثمانٍ وأربعين ساعة. يؤسفني أنّ الإنذار لم يصلك، لكن كما قلتُ لك، نحن مشغولون».

«هل أستطيع أن أتحدّث إلى شخص ما، إن جئتُ بنفسي إلى المكتب؟» سأل مستر ردنغتون بقلق، «تبّاً! إنّه مبلغ كبير!».

«حسناً، بالطبع يمكنك ذلك!». دائماً ما يصبح صوت توم ودوداً في

هذه المرحلة، أشبه بصوت رجل عجوز لطيف في الستينيّات من عمره، سيكون صبوراً للغاية إن زاره مستر ردنغتون، لكنّه لن يتنازل عن سنت واحد مهما قال هذا الأخير وأيّاً كانت أعذاره، لأنّ «جورج ماك ألبن» يمثّل دائرة الضرائب في الولايات المتّحدة الأمريكيّة في نهاية المطاف. «أجل، يمكنك أن تقابلني بكلّ تأكيد» تابع توم، «لكن لا مجال للخطأ بتاتاً يا مستر ردنغتون. لا أودّ أن أضيّع وقتك، يمكنك القدوم لو أردتَ، لكنّ كلّ سجلاتك موجودة الآن هنا بين يديّ».

ساد الصمت، لن يسأله مستر ردنغتون أيّ شيء عن السجلّات، لأنّه لا يعرف على الأرجح من أين يجب أن يبدأ. بأيّ حال، إن طلب إيضاحاً عمّا يحدث، سيسمع من توم شرحاً طويلاً عن الدخل الصافي مقارنة بالدخل المُستَحَقّ، الرصيد المَدين مقارنة بحساب موارد الدخل، الفائدة التي تبلغ 6% سنويّاً والتي تتراكم بدءاً من تاريخ استحقاق الضريبة عن أيّ رصيد إلى أن يتمّ تسديدها، وتُحسَب اعتماداً على الضريبة المفروضة على العائدات الأصليّة... إلخ. سيشرح توم كلّ ما سبق ببطء، كأنّه دبّابة شيرمان لا يمكن إيقافها. حتّى الآن، لم يصرّ أيٌّ من أفراد قائمته على القدوم شخصيّاً كي يسمع المزيد من هذا الشرح، وها قد استسلم مستر ردنغتون بدوره، كما استشعر توم من صمته.

«حسناً!» قال مستر ردنغتون بصوت مَن ينهار، «سأطلع على الإنذار عندما أستلمه غداً».

«حسناً، مستر ردنغتون» قال توم، وأغلق الخطّ.

جلس لبرهة وهو يقهقه، ويعصر راحتيه الرقيقتين بين ركبتيه... من ثمّ، قفز واقفاً، أزاح الآلة الكاتبة الخاصّة ببوب جانباً، مشّط شعره البنيّ الفاتح بأناقة أمام المرآة، وانطلق إلى راديو سيتي.

-3-

«أهـلاااااًّ... توم، يا بنيّ!» قال مستر غرينليف بصوت يَعِدُ بمارتيني ممتاز، وعشاء فاخر، وسرير لقضاء الليلة إنّ شعر توم بأنّه مرهق للغاية وغير قادر على العودة إلى منزله. «إميلي! هذا توم ريبلي»، أضاف.

«سعيدة للغاية بلقائك!»، قالت إميلي بودّ.

كانت كما تخيّلها توم بالضبط: شقراء، طويلة نوعاً ما، ونحيلة، تتعامل معه بأسلوب رسميّ يجبره على التصرّف بلباقة، لكنّه أسلوب لا ينفصم عن النوايا الطيّبة الساذجة تجاه الناس أجمعين، تماماً كزوجها.

قادهما مستر غرينليف إلى الصالون. أجل، سبق لتوم أن كان هنا مع دِكي.

«مستر ريبلي يعمل في مجال التأمين»، أعلن مستر غرينليف لزوجته. فكّر توم بأنّ مضيفه احتسى عدّة كؤوس من الشراب قبل قدومه، أو أنّه متوتّر للغاية! لقد شرح له البارحة، عن وكالة الإعلانات التي ادّعى بأنّه يعمل معها.

«ليست مهنة مشوّقة!»، قال توم بتواضع، موجّهاً كلامه لمسز غرينليف، وعندها دخلت خادمة إلى الغرفة، حاملة صينية عليها مارتيني ومقبّلات.

«لقد زارنا مستر ريبلي سابقاً» قال مستر غرينليف، «جاء إلى هنا مع ريتشارد».

«آه! حقّاً؟! لا أظنّ بأنّني التقيتُك سابقاً مع ذلك» وابتسمت، «هل أنت من نيويورك؟».

«كلّا، أنا من بوسطن» أجابها توم، وهي الحقيقة.

بعد حوالي نصف ساعة تقريباً -أي في الوقت المناسب تماماً برأي توم، لأنّ مضيفيه أصرّا على جعله يحتسي الكأس تلو الكأس من المارتيني- انتقلوا من الصالون إلى غرفة السفرة، حيث توجد مائدة معدّة

لثلاثة أشخاص، عليها شموع، وفوط ضخمة كحليّة اللون، ودجاجة كاملة بالجيليه البارد، والأهمّ: صلصة مايونيز بالكرّاث! توم مولع بهذه الصلصة، أو هذا ما يدّعيه على الأقلّ.

«وكذلك ريتشارد!» هتفت مسز غرينليف، «ولطالما أحبّ الطريقة التي يعدّها بها طاهينا. مؤسفٌ أنّك لا تستطيع أن تأخذ له القليل منها معك!».

«سأضعها بين الجوارب!» علّق توم مبتسماً، فضحكت مسز غرينليف وقالت إنّها تريد منه أن يأخذ لريتشارد بعض الجوارب الصوفيّة السوداء من متجر بروكس برذرز، من النوع الذي يفضّل ارتداءه دائماً.

الحديث كان مملّاً، أمّا العشاء فرائع. ردّاً على سؤال مسز غرينليف، قال توم إنّه يعمل في شركة للإعلانات اسمها «روتنبرغ، فلمنغ، وبارتر»، لكنّه عندما ذكر الشركة مجدّداً، تعمّد أن يقول «ردنغتون، فملنغ، وباركر»، ولم يبدُ على مستر غرينليف بأنّه انتبه لذلك. ذكر توم اسم الشركة مرّة ثالثة، عندما جلس هو ومستر غرينليف وحدهما بعد العشاء في غرفة الجلوس.

«هل درستَ في بوسطن؟»، سأل مستر غرينليف.

«كلّا يا سيّدي. لقد درستُ في برنستون لفترة، من ثمّ ذهبتُ لزيارة إحدى عمّاتي في دنفر، وارتدتُ الجامعة هناك». انتظر توم برهة، آملاً أن يسأله مستر غرينليف شيئاً ما عن برنستون، لكنّه لم يفعل. بوسع توم أن يناقش تاريخَ النظام التعليميّ، القيودَ المفروضة في حرم الجامعة، جوَّ حفلات نهاية الأسبوع الراقصة، الميولَ السياسيّة للطلّاب... إلخ، لأنّه عقد صداقة حميمة في الصيف الماضي مع أحد طلّاب جامعة برنستون الذي لم يتحدّث عن أيّ شيء سواها، فضلاً عن أنّ توم استدرجه كي يحدّثه بالمزيد والمزيد عنها، تحسّباً لوقت ستنفعه تلك المعلومات فيه.

قال توم لمستر غرينليف إنّ عمته دوتي في بوسطن هي من ربّته، وإنّها أخذته كي يقيم في دنفر عندما كان في السادسة عشرة من عمره، وإنّه أنهى المرحلة الثانويّة هناك. في الحقيقة، تردّد رجل شابّ اسمه دُون ميزل على منزل عمّته «بِي» في دنفر آنذاك، سبق له أن درس في جامعة كولورادو، وتوم يشعر بأنّه هو أيضاً ارتاد تلك الجامعة بدوره.

«هل درستَ اختصاصاً محدّداً؟»، سأله مستر غرينليف.

«لقد قسّمتُ وقتي نوعاً ما بين المحاسبة، والأدب الإنجليزيّ» ردّ توم مبتسماً، موقناً بأنّها إجابة مملّة لن تجذب أحداً للخوض في تفاصيلها.

عادت مسز غرينليف حاملة ألبوم صور فوتوغرافيّة، فجلس توم بجانبها على الكنبة بينما قلّبت الصفحات: ريتشارد يخطو أولى خطواته، ريتشارد في صورة ملوّنة بشعة تشغل صفحة بأكملها من الألبوم، مرتدياً زيّ «الصبيّ الأزرق[1]» وواقفاً مثله بالضبط لكن بخصلات شعره المجعّد الطويل. لم يشدّ الألبوم انتباه توم، إلّا بعد أن انتقلا إلى صور ريتشارد وهو في السادسة عشرة من عمره: نحيل، طويل الساقين، وتجعيدات شعره أكثف. لم يتغيّر ريتشارد كثيراً بين عمر السادسة عشرة والثلاثة والعشرين أو الأربعة والعشرين (حيث تنتهي صوره) كما اكتشف توم، وأدهشته ابتسامته الساذجة المشرقة التي لم تتبدّل كثيراً بدورها. لم يقوَ على مغالبة شعوره بأنّ ريتشارد ليس ذكيّاً جدّاً، أو أنّه يحبّ التقاط الصور لنفسه، خاصّة وهو يبتسم ابتسامة عريضة للغاية ظنّاً منه بأنّه سيبدو أشدّ وسامة... وهذا تصرّف لا ينمّ بدوره عن ذكاء!.

«لم يتسنّ لي بعد إلصاق هذه الصور في الألبوم»، قالت مسز غرينليف وهي تناوله كدسة من الصور الفوتوغرافيّة. «كلّها من أوروبا»، أضافت.

أثارت تلك الصور اهتمام توم أكثر: دِكي في مقهى باريسيّ كما يبدو، دِكي على الشاطئ... إلخ، وكان متجهّماً في العديد منها.

«بالمناسبة، هذه مونجيبللو» قالت مسز غرينليف، وأشارت إلى صورة يظهر فيها دِكي وهو يجرّ زورقاً ذا مجاذيف فوق رمل الشاطئ. في الخلفيّة، توجد جبال صخريّة جافّة وبيوت بيضاء صغيرة تتناثر على طول الشاطئ. «والفتاة هنا... إنّهما الأمريكيّان الوحيدان اللذان يقيمان هناك، هي ودكي».

«مارج شيرْوُد» أضاف مستر غرينليف، الذي كان جالساً في الناحية المقابلة من الغرفة، منحنياً للأمام وهو يتابع تسلسل الصور عن كثب.

تظهر الفتاة برداء السباحة على الشاطئ، وهي تلفّ ذراعيها حول

1- بورتريه شهير للفنّان توماس غينسبورو، تصوّر فتى بالطول الكامل يرتدي بزّة زرقاء اللون ويحمل قبعته بيده. يعود تاريخها إلى عام 1770 تقريباً. المترجمة.

ركبتيها. تبدو معافاة وبسيطة، شعرها الأشقر قصير مشعّث، وتوحي بأنّها شخص طيّب. هناك أيضاً صورة أخرى لريتشارد بالشورت، وهو يجلس على درابزين شرفة منزله مبتسماً، لكنّها ابتسامة مختلفة كما لاحظ توم، لأنّ ريتشارد يبدو أكثر اتّزاناً في الصور الأوروبيّة.

انتبه توم إلى أنّ مسز غرينليف تحدّق مطرقة الرأس إلى السجّادة أمامها، فتذكّر تلك اللحظة على مائدة العشاء حين قالت: «أتمنّى لو أنّني لم أسمع بأوروبا قطّ!»، وكيف رمقها مستر غرينليف بنظرة قلقة من ثمّ ابتسم له، وكأنّه سمع زوجته تردّد هذه العبارات من قبل. رأى توم دموعاً تترقرق في عينيّ مسز غرينليف، وها هو زوجها ينهض ويقترب منها.

«مسز غرينليف!» قال توم برقّة، «أريدك أن تعلمي أنّني سأبذل كلّ ما في وسعي لإقناع دكي بالعودة».

«باركك الربّ يا توم، باركك الربّ»، وشدّت على يد توم التي ترتاح على فخذه.

«إميلي! ألّا تظنّين أنّ موعد نومك قد حان؟»، سألها مستر غرينليف وهو ينحني فوقها.

هبّ توم واقفاً حين نهضت مسز غرينليف. «أتمنّى أن تزورنا مجدّداً قبل أن تغادر يا توم!» قالت له، «نادراً ما يزورنا شبابٌ في المنزل بعد أن رحل ريتشارد. أنا أفتقدهم».

«يسعدني أن آتي مرّة أخرى»، أجابها توم.

واكبها مستر غرينليف وخرجا من الغرفة، بينما ظلّ توم واقفاً، يداه متدليّتان إلى جانب جسده، ورأسه مرفوع. رأى نفسه في مرآة كبيرة معلّقة على الحائط: إنّه مجدّداً ذلك الشابّ المحترم منتصب القامة. أشاح ببصره فوراً، إنّه يقوم بالصواب، ويتصرّف كما ينبغي... لكنّه يشعر بتأنيب الضمير. عندما قال لمسز غرينليف قبل قليل: «سأبذل كلّ ما في وسعي»... حسناً، إنّه يعني ما قاله، كما أنّه لا يحاول أن يخدع أحداً.

بدأ يتعرّق، فحاول أن يسترخي. لِمَ القلق؟! إنّه بأفضل حال اليوم. عندما قال ما قاله عن العمّة دوتي... شدّ توم قامته ورمق الباب، ما يزال مغلقاً.

عندما قال ذلك، شعر للمرّة الأولى اليوم بعدم الراحة، وبالزيف، كأنّه يكذب... لكنّها كانت عملياً الحقيقة الوحيدة في كلامه: مات والداي عندما كنتُ صغيراً، وربّتني عمّتي في بوسطن.

عاد مستر غرينليف إلى الغرفة. بدا وجهه لتوم وكأنّه ينبض، ويتضخّم أكثر فأكثر. أغمض توم عينيه وفتحهما. شعر برعب مفاجئ، وبرغبة تدفعه للانقضاض قبل أن يتعرّض للهجوم.

«ما رأيك أن نتذوّق بعض البراندي؟» قال مستر غرينليف وهو يفتح خزانة بجانب المدفأة.

هذا فيلم! فكّر توم. خلال دقيقة، سيقول صوتُ مستر غرينليف أو شخص ما آخر: «حسناً! توقّفوا!»، وسيسترخي مجدّداً ويكتشف أنّه ما زال في حانة راؤول، وكأس الجن والتونك أمامه... كلّا، بل في حانة غرين كيج.

«هل اكتفيتَ؟» سأله مضيفه، «لا تشرب إن لم ترغب بذلك».

أومأ توم برأسه إيماءة غامضة، فاحتار مستر غرينليف للحظة، من ثمّ صبّ كأسي براندي.

اجتاح خوف بارد جسد توم. تذكّر ما حصل في الصيدليّة في الأسبوع الماضي، على الرغم من أنّ ذلك انتهى الآن، وأنّه لم يكن خائفاً حقّاً. ليس الآن! قال لنفسه. توم يعطي رقم هاتف الصيدليّة الموجودة في الجادّة الثانية، إلى الأشخاص الذين يصرّون على التحدّث إليه مجدّداً حول ضريبة الدخل، مدّعياً بأنّه رقم هاتف دائرة التعديلات، كما يخبرهم بأنّه سيستقبل اتّصالاتهم بين الساعة الثالثة والنصف والساعة الرابعة عصراً، يومي الأربعاء والجمعة فقط من كلّ أسبوع. في هذا التوقيت، يتسكّع توم بالقرب من كابينة الهاتف الموجود في الصيدليّة، بانتظار أن يرنّ. عندما رمقه الصيدلانيّ بارتياب في المرّة الثانية التي تواجد فيها هناك، ادّعى توم بأنّه ينتظر اتّصالاً من حبيبته. في يوم الجمعة الماضي، رفع توم سمّاعة الهاتف فسمع على الفور صوت رجل يقول: «أنت تعرف عمّاذا نتحدّث، أليس كذلك؟ نحن نعرف أين تقيم، إن أردتَ منّا القدوم إليك... لقد جلبنا لك الأشياء، هل جهّزت لنا ما نريده؟». الصوت مُلحّ، لكنّه مراوغ. ظنّ

توم أنّها خدعة، وعجز عن النطق بتاتاً. من ثمّ، قال الصوت: «اسمع! نحن قادمون مباشرة إلى منزلك».

شعر توم بساقيه تذوبان تحته وهو يخرج من كابينة الهاتف، ورأى الصيدلانيّ يحدّق إليه بغرابة، والهلع يلوح على وجهه. عندها، توضّح معنى تلك المكالمة من تلقاء ذاته: الصيدلانيّ يبيع المخدّرات، وظنّ بأنّ توم هو محقّق شرطة جاء كي يقبض عليه بالجرم المشهود. انفجر توم ضاحكاً، وخرج من الصيدليّة وهو يقهقه بصوت عالٍ، لكنّه مشى مترنّحاً لأنّ ساقيه مشلولتان بسبب الخوف.

«هل تفكّر بأوروبا؟»، قاطعه صوت مستر غرينليف.

تناول توم الكأس من يد مضيفه، وأجاب: «أجل».

«حسناً، آمل أن تستمتع بالرحلة يا توم، وأن تتمكّن من إقناع ريتشارد. بالمناسبة، لقد استلطفتك إميلي كثيراً. لقد أخبرتني بذلك دون أن أسألها». فَتَلَ مستر غرينليف كأس البراندي بين راحتيه، ثمّ قال: «زوجتي مصابة باللوكيميا، توم».

«آه! هذا خطير للغاية، أليس كذلك؟».

«أجل، قد لا تعيش أكثر من سنة».

«يحزنني سماع ذلك!»، قال توم.

سحب مستر غرينليف ورقة من جيبه، وقال: «لقد أعددتُ قائمة بالسفن. أعتقد أن الرحلة المعتادة عبر ميناء شِربورغ هي الأسرع، والأكثر متعة. ستستقلّ القطار بمجرّد وصولك إلى باريس، من ثمّ تأخذ القطار الليليّ عبر جبال الألب إلى روما، وبعدها إلى نابولي».

«يناسبني هذا!»، قال توم متحمّساً.

«ستضطرّ إلى ركوب الباص من نابولي، كي تصل إلى قرية ريتشارد. سأكتب إليه وأخبره عنك، لكنّني لن أقول له إنّني مَن أرسلك!»، أضاف مستر غرينليف مبتسماً. «سأقول له إنّنا التقينا فحسب. لا بدّ أن ريتشارد سيستضيفك في منزله، وإن عجز عن ذلك لسبب ما أو لآخر، فهناك

فنادق في البلدة. أتوقّع أنّك وريتشارد ستنسجمان معاً... الآن، بخصوص النقود!». ابتسم مستر غرينليف ابتسامة أبويّة، وتابع: «أقترح أن أعطيك شيكات مسافرين[1] بقيمة ستمئة دولار، فضلًا عن ثمن التذكرة ذهاباً وإياباً. هل يناسبك ذلك؟ سيكفيك هذا المبلغ شهرين تقريباً، وكلّ ما يتوجّب عليك فعله إن احتجتَ المزيد يا بنيّ، هو أن ترسل لي برقيّة. أنت تبدو لي كشابّ يبعثر نقوده هنا وهناك».

«يلائمني هذا يا سيّدي».

تزايد حبور مستر غرينليف واسترخى أكثر فأكثر مع البراندي، أمّا توم فازداد صمتاً ومرارة. أراد أن يغادر، لكنّه يرغب في الوقت نفسه بالذهاب إلى أوروبا، وبنيل رضا مضيفه. هذه اللحظات على الكنبة، عذّبته أكثر من تلك التي شعر خلالها بالملل في الحانة أمس، لأنّ مزاجه لم يتبدّل حتّى الآن. نهض عدّة مرّات وكأسه في يده، وتمشّى جيئة وذهاباً بين الكنبة والموقد، واكتشف بأنّه يبدو حزيناً كلّما نظر في المرآة.

ثرثر مستر غرينليف عن الزيارة التي قام بها مع ريتشارد إلى باريس، حين كان هذا الأخير في العاشرة من عمره... لم تكن قصّة مسليّة إطلاقاً! فكّر توم بأنّ بوسعه البقاء في شقّة الزوجين غرينليف، لو وقع في مشاكل مع الشرطة خلال الأيّام العشرة القادمة. سيقول إنّه سلّم شقّته على عجل أو شيئاً ما من هذا القبيل، ويختبئ هنا بكلّ بساطة. انتابه شعور بغيض، وكأنّه مريض حقّاً.

«مسترَ غرينليف، أظنّ أنّه يجدر بي الذهاب» .

«الآن؟! لكنّني أريد أن أريكَ... حسناً، لا يهمّ. ربّما في المرّة القادمة».

أدرك توم بأنّ عليه أن يسأل «تريني ماذا؟!»، وأن يتحلّى بالصبر ريثما يشرح له مضيفه ما يريد، لكنّه لم يستطع ذلك.

«أريدك أن تزور أحواض السفن بالطبع!» قال مستر غرينليف بمرح،

1- كانت فيما مضى بديلاً للعملة الحقيقيّة، يستخدمها السيّاح في البلدان الأجنبيّة، كوسيط نقديّ آمن يغنيهم عن السفر عبر البحار مع مال في جيوبهم. يصدرها البنك عادة، ويؤمّنها ضدّ السرقة أو الضياع. تلاشى استعمالها عمليّاً في حقبة الثمانينيّات بعد ظهور بطاقات الائتمان. المترجمة.

«متّى تستطيع مغادرة عملك؟ أثناء استراحة الغداء فقط كما أظنّ؟! أودّ لو تَصِفُ لريتشارد كيف تبدو الأحواض حالياً».

«أجل، بوسعي القدوم خلال استراحة الغداء».

«اتّصل بي في أيّ يوم، يا توم. لديك بطاقتي الشخصيّة مع رقم هاتفي الخاصّ. أبلغني قبل قدومك بنصف ساعة، وسأرسل رجلاً يصطحبك من عملك بالسيّارة. سنتناول شطيرة ونحن نتمشّى، من ثمّ سيعيدك الرجل مجدّداً بالسيّارة».

«سأهاتفك» قال توم، وشعر بأنّه سيغمى عليه لو بقي دقيقة واحدة بعد في هذه الردهة شحيحة الإضاءة، لكنّ مستر غرينليف استأنف الثرثرة، وسأله إن كان قد قرأ كتاباً ما لهنري جيمس.

«يؤسفني أنّني لم أفعل يا سيّدي، لم أقرأ هذا الكتاب تحديداً»، قال توم.

«حسناً، لا يهمّ» قال مستر غرينليف، وابتسم.

تصافحا، عصر مستر غرينليف يدَ ضيفه في يده لفترة طويلة، من ثمّ انتهى كلّ شيء، لكنّ ملامح الألم والخوف ظلّت مرتسمة على وجه توم كما لاحظ وهو ينزل بالمصعد. استند إلى زاوية المصعد مرهقاً، سيندفع راكضاً من باب المبنى حالما يصل إلى البهو الأرضيّ، وسيركض ويركض طيلة الطريق إلى البيت.

-4-

أصبح الجوّ العامّ في المدينة أغرب مع مرور الأيّام، وكأنّ شيئاً ما اختفى من نيويورك -واقعيّتها، أو أهميّتها- التي بدأت بتقديم عرض خاصّ به وحده، عرض ضخم من الباصات وسيّارات التاكسي، من الأشخاص الذين يهرولون مستعجلين على الأرصفة، من برامج التلفزيون التي تُعرَض في كلّ حانات الجادّة الثالثة، من مداخل دور السينما المضاءة في وضح النهار، من المؤثّرات السمعيّة لآلاف وآلاف أبواق السيّارات والأصوات البشريّة التي تثرثر دون طائل... كأنّ نيويورك بأكملها ستنهار ما أن تغادر سفينته رصيفَ الميناء يوم السبت، ستنهار مصدرة فرقعةً كحزمة من ألواح كرتون منصوبة على منصّة.

لعلّه خائف! إنّه يكره الماء، ولم يسافر سابقاً إلى أيّ مكان بحراً، ما عدا ذهاباً وإياباً من نيويورك إلى نيو أورليانز عندما عمل على زورق موز. أمضى معظم وقته آنذاك في بطن الزورق، وبالكاد لاحظ بأنّه يبحر. في المرّات القليلة التي صعد فيها إلى السطح، سبّب له منظر الماء الخوفَ أوّلاً من ثمّ شعوراً بالغثيان، وكان يهرول راكضاً إلى باطن الزورق، حيث يستعيد الشعور بالراحة على النقيض ممّا يعتقده الناس عادة. لقد مات والداه غرقاً في ميناء بوسطن، وهذه الحادثة قد تكون السبب من وجهة نظره، لأنّه يخشى الماء منذ نعومة أظافره، ولم يتعلّم السباحة قطّ. إنّه يشعر الآن بالغثيان والخواء كلّما فكّر بأنّ الماء سيحمله خلال أقلّ من أسبوع -ماء عمقه أميال- وبأنّه سيضطرّ إلى رؤيته مطوّلاً، لأنّ المسافرين عبر المحيطات يقضون معظم وقتهم على ظهر السفينة. فضلاً عن ذلك، الإصابة بدوار البحر هي تحديداً أمر سوقيّ برأيه! لم يعانِ من دوار البحر سابقاً، لكنّه أوشك أن يصاب به عدّة مرّات في الأيّام الأخيرة، لمجرّد التفكير بالرحلة إلى شِربورغ.

قال لبوب ديلانسي بأنّه سينتقل من الغرفة خلال أسبوع، لكنّه لم يخبره عن وجهته، ولم يبدُ على بوب بأنّه مهتمّ بهذا بأيّ حال، فهما لا يلتقيان معاً إلّا نادراً في هذه الغرفة الموجودة في الشارع الحادي والخمسين. بعدها، ذهب توم إلى منزل مارك بريمينغر في شرقي الشارع الخامس والأربعين -المفاتيح ما تزال بحوزته- كي يجلب غرضاً أو اثنين نسيَهما هناك، ظنّاً منه بأنّ البيت سيكون خالياً، لكنّ مارك عاد فجأة بصحبة شريك سكنه الجديد جول، وهو شابّ نحيل غبيّ يعمل في دار للنشر. أدّى مارك مسرحيّة «تصرّف وكأنّه منزلك» المهذّبة أمام جول، لكن لو لم يكن هذا الأخير موجوداً، لشتم مارك توم بألفاظ مقذعة لا يتفوّه بها حتّى البحّارة البرتغاليّون. مارك (واسمه بالولادة -ويا للسخرية!- هو مارسِلوس)، هو شابّ مغفّل قبيح يملك دخلاً مستقلّاً، ويهوى مساعدة الشباب الذين يعانون من ضائقة ماليّة مؤقّتة، باستضافتهم في منزله المكوّن من طابقين والذي يضمّ ثلاث غرف نوم، كما يهوى أيضاً أن يلعب دور الربّ من خلال إعطائهم تعليمات عمّا يسمح لهم بالقيام به في منزله، وعمّا لا يسمح لهم به، وكذلك بإسداء النصائح حول حياتهم وأعمالهم، نصائح عفنة عادة. بقي توم هناك ثلاثة أشهر، واستمتع بمفرده طيلة نصف تلك المدّة تقريباً، لأنّ مارك كان في فلوريدا آنذاك، لكنّه أقام الدنيا وأقعدها عندما عاد ووجد بعض الأواني الزجاجيّة مكسورة -لعب دور الربّ مجدّداً، الآب الصارم- عندها استشاط توم غضباً، إلى حدّ أنّه -وللمرّة الأولى في حياته- دافع عن نفسه وصرخ على مارك الذي طرده إلى الشارع، بعد أن أجبره على دفع ثلاثة وستّين دولاراً ثمناً للأواني المكسورة. يا له من بخيل عجوز! يليق به أن يكون امرأة عجوزاً، فكّر توم، تدير مدرسة للبنات، وشعر بالأسف المرير لأنّه التقى بمارك بريمينغر يوماً! سيسعد أكثر كلّما أسرع بنسيان غباء مارك، وعينيه الأشبه بعيني خنزير، وفكّه الضخم، ويديه القبيحتين المزدانتَين بالخواتم المبهرجة، وكيف يلوّح بهما في الهواء آمراً كلّ من حوله بفعل هذا أو ذاك.

كليو كانت الوحيدة من بين أصدقائه، التي يودّ إخبارها عن رحلته إلى أوروبا، ولذلك ذهب لرؤيتها في يوم الخميس السابق لسفره. كليو دُوْبِل هي امرأة نحيلة، سوداء الشعر، يتراوح عمرها ما بين الثلاثة والعشرين إلى

الثلاثين عاماً -توم لا يعرف بالضبط- تعيش مع والديها في غرايد سكوير، وترسم رسومات صغيرة -منمنمات في الواقع- على قطع صغيرة جدّاً من العاج لا يزيد حجمها عن طابع بريديّ، ولا يمكن رؤيتها إلّا باستعمال عدسة مكبّرة، فضلاً عن أنّ كليو تستعين بها كي ترسم. «لكن، فكّر كم من الملائم أن أكون قادرة على حمل رسوماتي كلّها في علبة سيجار. الفنّانون الآخرون يحتاجون إلى الكثير والكثير من الغرف، كي يحفظوا لوحاتهم!»، قالت له.

كليو تقيم في جناح مستقلّ مزوّد بمطبخ وحمّام صغير في مؤخرة شقّة والديها، تسوده العتمة طيلة الوقت، لأنّ الضوء لا يدخله إلّا عبر باحة خلفيّة صغيرة، تنمو فيها أشجار آيلنطس باسقة تحجب نور الشمس. لذلك، تترك كليو المصابيح مضاءة في جناحها دائماً، مصابيح خافتة توحي بالليل أيّاً كانت الساعة. فيما عدا ليلة لقائهما الأوّل، لم يرَ توم كليو إلّا ببناطيل مخمليّة ضيّقة متعدّدة الألوان، وقمصان حريريّة مخطّطة برّاقة. لقد أعجب أحدهما بالآخر منذ اللحظة الأولى مباشرة، ودَعَتْه كليو لتناول العشاء في شقّتها في المساء التالي، من ثمّ صار يزورها باستمرار، لكنّهما بطريقة ما أو بأخرى لم يفكّرا إطلاقاً بأن يصطحبها لتناول العشاء في مطعم، أو للذهاب إلى المسرح، أو للقيام بأيّ نشاط يُفترَض أن يقوم به رجل شابّ بصحبة فتاة. لا تتوقّع منه كليو أن يجلب لها زهوراً، أو كتباً، أو شموعاً، عندما يزورها لتناول العشاء أو الكوكتيل، لكنه يقدّم لها هدايا صغيرة أحياناً لأنّ هذا يُفرِحها. كليو هي الوحيدة التي يستطيع أن يخبرها عن سفره إلى أوروبا ولماذا سيسافر، وهو ما فعله.

تحمّست كليو كما توقّع، افترّت شفتاها الحمراوان عن ابتسامة ملأت وجهها الشاحب الطويل، وضغطت براحتيها على فخذيها المخمليّين، ثمّ صاحت: «تومي! هذا رائع! بل في غاية الروعة... وكأنّه مشهد من مسرحيّة لشكسبير أو ما شابه!».

هذا هو رأي توم أيضاً، لكنّه احتاج إلى سماعه من فم شخص آخر فحسب.

انشغلت به كليو طيلة المساء، وسألته عن تحضيراته، هل جهّز الكلينكس، دواء الزكام، الجوارب الصوفيّة... إلخ، لأنّ مطر الخريف بدأ يتساقط في أوروبا، وماذا عن لقاحاته أيضاً؟ فطمأنها توم بأنّه استعدّ جيّداً.

«لا تأتي لوداعي يا كليو، لا أريد أن يودّعني أحد».

«بالطبع لا!» قالت كليو وقد تفهّمته تماماً، «أوه تومي! كم هذا ممتع! هل ستكتب لي عن كلّ ما يحصل معك بخصوص دكي؟ أنت الوحيد من بين معارفي الذي سيذهب إلى أوروبا لسبب محدّد».

حدّثها عن الزيارة التي قام بها إلى باحة السفن الخاصّة بمستر غرينليف في لونغ آيلاند، حيث توجد أميال وأميال من الطاولات والآلات التي تصنع أجزاء معدنيّة برّاقة، وتصقل الخشب وتلمّعه، بالإضافة إلى الأحواض الجافّة التي تضمّ هياكل قوارب مختلفة الأحجام، كما أبهرها بترديد المصطلحات الخاصّة بأجزاء السفن التي سمعها من فم مستر غرينليف، ووصف لها العشاء الثاني في منزل هذا الأخير وكيف أهداه ساعة معصم. أراها الساعة، ليست باهظة الثمن لكنّها ممتازة، وهي ما سيختارها توم لو اشتراها بنفسه: وجهها أبيض يخلو من الزخارف، تحيط به أرقام رومانيّة سوداء ناعمة ضمن إطار بسيط مذهّب، ولها سوار من جلد التمساح. «لقد ذكرتُ له بالصدفة قبل عدّة أيّام بأنّني لا أملك ساعة! قال توم، «لقد تبنّاني حقّاً وكأنّني ابن له». كليو هي أيضاً الوحيدة بين معارفه، التي يستطيع إخبارها بذلك.

تنهّدت كليو. «يا للرجال! أنتم وحدكم المحظوظون! لا يمكن أن يحصل أمر كهذا مع فتاة على الإطلاق! الرجال أحرار بلا حدود»، قالت. ابتسم توم، لأنّه يعتقد أنّ العكس هو الصحيح، ثمّ سأل: «هل أضلاع الخروف هي ما يحترق؟!»، فقفزت كليو وهي تصرخ.

بعد العشاء، أرته كليو خمساً أو ستّاً من رسوماتها الأخيرة. اثنتان منها بورتريه رومانسيّ لرجل شابّ من معارفهما، يرتدي قميصاً أبيض بياقة مفتوحة، أمّا الثلاث الأخرى فهي مشاهد طبيعيّة خياليّة لأرض تشبه الأدغال، استوحتها كليو من أشجار الآيلنطس خارج نافذتها. شَعرُ القرود الصغيرة في الرسومات مُنفَّذٌ بإتقان مبهر حقّاً، فكّر توم، إذ إنّ كليو تستخدم العديد من الفراشي المؤلّفة من شعرة واحدة فقط، ومع ذلك تختلف أقطارها من العريضة نسبيّاً إلى تلك الدقيقة للغاية! شربا زجاجتي نبيذ ميدوك كاملتين تقريباً من خزانة المشروبات الخاصّة بوالديها، وشعر توم

بالنعاس الشديد إلى درجة أنّه رغب بقضاء الليلة بطولها نائماً حيث يستلقي الآن على الأرض. كثيراً ما ناما جنباً إلى جنب، على السجّادتين الضخمتين المصنوعتين من فرو الدبّ أمام الموقد. الصفة الرائعة الأخرى التي تمتاز بها كليو، هي أنّها لا تتوقّع منه أن يطارحها الغرام ولم ترغب بذلك أبداً، وهو ما لم يفعله بتاتاً. أخيراً، في حوالي الثانية عشرة إلّا ربع، أجبر توم نفسه على النهوض كي يغادر.

«لن أراك مجدّداً، أليس كذلك؟!»، قالت كليو بحزن عند الباب.

«أوه! سأعود خلال ستّة أسابيع» قال توم، على الرغم من أنّه لا يظنّ ذلك حقّاً. انحنى للأمام، وطبع قبلة أخويّة مطوّلة على خدّها العاجيّ. «سأشتاق لكِ، كليو»، قال. عصرت كتفه، لا يتذكّر بأنّها لمستْه يوماً إلّا بهذه الطريقة.

«سأشتاق لك أيضاً»، قالت.

في اليوم التالي، انطلق توم لإحضار ما أوصت عليه مسز غرينليف من متاجر بروكس برذرز: دزّينة من الجوارب الصوفيّة السوداء، وروب حمّام. لم تقترح مسز غرينليف لوناً محدّداً للروب، بل تركت له انتقاءه بنفسه، فاختار توم روباً بنيّاً داكناً من قماش الفلانل، له زنّار وجيوب كحليّة. ليست القطعة الأجمل في المتجر برأي توم، لكنّه شعر بأنّ ريتشارد سيختار هذا الروب بالذّات لو كان هنا، وأنّه سيفرح به. بعد أن سجّل الجوارب والروب على حساب آل غرينليف، لمح قميصاً غير رسميّ من الكتّان السميك ذا أزرار خشبيّة، أعجبه كثيراً. من السهل أن يضيفه إلى فاتورة آل غرينليف، لكنّه لم يفعل، بل دفع ثمنه من ماله الخاصّ.

-5-

بدأت صبيحة يوم الإبحار -والذي انتظره بشوق عارم- بداية بشعة! تبع توم مضيفَ السفينة إلى كابينته، مهنّئاً نفسه على صرامته مع بوب وإصراره بألّا يودّعه أحد، لكن ما أن دخل إلى الكابينة حتّى تعالت صيحات تهليل جمّدت الدم في عروقه!

«أين الشمبانيا يا توم؟ كنّا بانتظارك!».

«يا ولد! هذه الغرفة مقرفة! لماذا لا تطلب منهم غرفة أخرى لائقة؟».

«تومي! خذني معك!» قالت عشيقة إد مارتن، التي لا يطيق توم رؤيتها.

كلّهم هنا! معظمهم أصدقاء بوب الوضيعون، يتمدّدون على سريره، على الأرض... في كلّ مكان! لقد اكتشف بوب قصّة سفره، لكن لم يخطر ببال توم إطلاقاً بأنّه قد يُقدِم على أمر مماثل!.

تطلّب منه الوضع الكثير من ضبط النفس، كي لا يقول بصوت جليديّ: «لا توجد شمبانيا على الإطلاق!». حاول أن يحيّيهم جميعهم، وأن يبتسم، على الرغم من أنّه كاد ينفجر بالبكاء كطفل صغير. رمق بوبَ بنظرة غاضبة، لكنّه كان منتشياً لتوّه بعقار ما. توم لا تزعجه عادة سوى بضعة أمور فحسب، فكّر كي يبرّر شعوره بينه وبين نفسه، وهذا بعض منها: المفاجآت الصاخبة، الرعّاع، السوقيّون، الوضيعون الذين ظنّ بأنّه تركهم خلفه بمجرّد أن صعد إلى السفينة... وإذ بهم يوسّخون الغرفة التي سيقضي فيها الأيّام الخمسة التالية!.

توجّه توم إلى بول هبارد، الشخص الوحيد المحترم بين الموجودين، وجلس بجانبه على الكنبة الصغيرة الواطئة. «مرحباً بول!» قال بهدوء، «آسف بخصوص كلّ ما يحدث».

«أوه!» ردّ بول بسخرية، «كم ستغيب؟ ما المشكلة يا توم؟! هل أنت مريض؟».

هذا رهيب! فظيع! استمرّت الضجّة والضحكات، وتحسّست الفتيات الفراش ونظرن إلى المرحاض. حمداً لله أنّ الزوجين غرينليف لم يأتيا لوداعه! لقد اضطرّ مستر غرينليف للسفر إلى نيو أورليانز لقضاء بعض الأعمال، أمّا مسز غرينليف فقالت لتوم عندما اتّصل بها صباحاً كي يودّعها، بأنّها متوعّكة ولا تستطيع القدوم إلى الميناء.

أخيراً، وضع بوب أو سواه أمامهم زجاجة ويسكي، فأخذوا جميعهم يشربون باستعمال كأسين وجدوهما في الحمّام، إلى أن جاء أحد مضيفي السفينة بصينية عليها كؤوس إضافيّة. رفض توم أن يمسّ الشراب، وتعرّق بغزارة، فخلع جاكيته كي لا يوسّخه. دسّ بوب كأساً في يده، ما رتّبه ليس مجرّد مزحة: لقد قَبِل توم ضيافة بوب لمدّة شهر، ويتوجّب عليه الآن أن يتبسم على الأقلّ، لكنّه لم يقوَ على ذلك إطلاقاً، وكأنّ وجهه منحوت من الغرانيت. لكن، إن أبغضوه جميعهم من الآن فصاعداً... ماذا سيخسر؟!

«بوسعي الاختباء هنا تومي!» قالت الفتاة المصمّمة على الاختباء في زاوية ما، كي تسافر معه. لقد حشرت نفسها جانبيّاً في خزانة ضيّقة، لا يزيد حجمها عن خزانة المكانس.

«أودّ أن أراهم يقبضون على توم بصحبة فتاة في غرفته!»، قال إد مارتن ضاحكاً.

حدّق توم إليه غاضباً، ثمّ قال لبول: «دعنا نخرج من هنا، كي نستنشق بعض الهواء».

وسط كلّ تلك الجلبة، لم يلاحظ الآخرون أنّهما غادرا الغرفة. وقفا عند الدرابزين في مؤخّرة السفينة. اليوم غائم، والمدينة على يمينهما تحوّلت إلى أرض بعيدة رماديّة، وكأنّ توم ينظر إليها من أعالي البحار الآن، لو لم يكن هؤلاء الأوغاد بداخل كابينته.

«بماذا كنتَ مشغولاً؟» سأله بول، «اتّصل إد كي يخبرني بأنّك ستسافر. لم أرك طيلة أسابيع!».

بول هو أحد الأشخاص الذين يعتقدون بأنّه يعمل لصالح وكالة أسوشيتد برس، لذلك اختلق توم قصّة جيّدة عن مهمّة أوكلت إليه، «في

الشرق الأوسط غالباً» قال كي يوحي بأنّها مهمّة سريّة. «كان لديّ الكثير من العمل الليليّ مؤخّراً» أضاف، «لذلك لم ألتقِ بك كثيراً. لطف منك أن تأتي إلى هنا كي تودّعني».

«لا حصص لديّ هذا الصباح». أخرج بول الغليون من فمه وابتسم، ثمّ أضاف: «هذا لا يعني بأنّني لم أكن لآتي بأيّ حال من الأحوال! الحصص عذرٌ مُستهلَك!».

ابتسم توم. بول يدرّس الموسيقا في مدرسة للبنات في نيويورك كي يكسب معيشته، لكنّه يفضّل أن يؤلّف الموسيقا في أوقات فراغه. لا يتذكّر توم كيف التقيا بالضبط، يتذكّر فقط أنّه ذهب إلى شقّة بول في ريڤرسايد، لتناول فطور يوم الأحد بصحبة آخرين، وأنّ بول عزف لهم مقطوعة من تأليفه على البيانو أعجبته كثيراً.

«هل أقدّم لك شراباً؟ دعنا نبحث عن البار» قال توم، لكنّ مضيفاً ظهر في تلك اللحظة وهو يقرع جرس غونغ[1] ويصيح: «الزوّار إلى الشاطئ من فضلكم! كلّ الزوّار إلى الشاطئ».

«هذا يشملني»، قال بول.

تصافحا، ربّت كلٌّ منهما على كتفي الآخر، وقطعا وعداً بتبادل البطاقات البريديّة، من ثمّ غادر بول.

بوب وأفراد عصابته سيبقون إلى آخر لحظة، فكّر توم، إلى أن يُطرَدوا على الأرجح. استدار فجأة، وصعد درجاً ضيّقاً أشبه بالسلّم، فوجد نفسه أمام سلسلة تتدلّى منها لافتة كُتِب عليها «المسافرون من الدرجة الثانية حصراً»، لكنّه قفز فوق السلسلة إلى سطح السفينة. لن يعترض أحد بكلّ تأكيد على انتقال مسافر من ركّاب الدرجة الأولى، إلى القسم المخصّص للدرجة الثانية، فكّر. لا يطيق النظر إلى عصابة بوب مرّة أخرى! لقد دفع إيجار أسبوعين لبوب، وأعطاه قميصاً جيّداً وربطة عنق كهديّة وداع. ماذا يريد أكثر؟!

1- عبارة عن قطعة معدنيّة دائريّة مسطّحة مختلفة الأحجام، يتمّ قرعها بمطرقة خاصّة. المترجمة.

لم يجرؤ على النزول إلى كابينته، إلّا بعد أن تحرّكت السفينة. دخل بحذر، فارغة! غطاء السرير الأزرق الأنيق مرتّب، منافض السجائر نظيفة، ولا أثر يدلّ على أنّ عصابة بوب كانت هنا أصلاً. استرخى توم وابتسم، هكذا تكون الخدمة الحقيقيّة! إنّه تقليد عريق راقٍ، تتبعه خطوط كونارد على متن السفن البخاريّة البريطانيّة، وما إلى هنالك. رأى سلّة فواكه على الأرض بجانب سريره، فاختطف المغلّف الأبيض الصغير المرفق بها بلهفة، وقرأ البطاقة الموجودة فيه: «رحلة سعيدة، وليباركك الربّ يا توم. أطيب الأمنيات لك. إميلي وهربرت غرينليف». مقبض السلّة طويل، يغلّفها السولوفان الأصفر بإحكام، مليئة بالتفّاح والإجاص والعنب، ولوحين من الحلوى، والعديد من زجاجات عرق السوس الصغيرة. لم يتلقّ توم أبداً «سلّة رحلة سعيدة» من قبل، وهي بالنسبة إليه مجرّد شيء باهظ الثمن يراه في محلّات بيع الأزهار، ويثير سخريته دائماً، أمّا الآن فقد ترقرقت الدموع في عينيه! دفن وجهه بين راحتيه فجأة، وبكى.

-6-

مزاج توم كان رائقاً ولطيفاً، لكنّه لم يحبّذ الصحبة على الإطلاق. أراد أن يستغلّ وقته بالتفكير، ولم يبالِ بالتعرّف على أيٍّ من المسافرين، بل اكتفى بإلقاء تحية ودودة مبتسماً، إن التقى عرضاً بالأشخاص الذين يجلس بصحبتهم إلى مائدة الطعام. لقد بدأ بتقمّص دورٍ معيّن على السفينة، دور رجل شابٍّ جديٍّ ينتظره عملٌ مهمّ، لبقٍ، دمثٍ، متحضّر، ومشغول.

انتابته نزوة مفاجئة بارتداء قبّعة، فاشترى واحدة من متجر السفينة: قبّعة ذات طراز تقليديّ من الصوف الإنجليزيّ الناعم، لونها رماديّ مائل للزرقة. بوسعه أن يُسدِل مقدّمتها للأسفل، ويغطّي وجهه كلّه تقريباً سواء رغب بأخذ قيلولة حقّاً على سطح السفينة، أو بالتظاهر بأنّه نائم. تنفرد القبّعة عن سواها من أغطية الرأس، بأنّها «متعدّدة الأغراض»، وتساءل لِماذا لَم يفكّر بارتداء واحدة من قبل؟! سيبدو كجنتلمان ريفيّ، أو بلطجيّ، أو رجل إنكليزيّ، أو رجل فرنسيّ، أو رجل أمريكيّ عاديّ غريب الأطوار، وفقاً للطريقة التي يعتمرها بها.

تسلّى توم بتجربة القبّعة أمام المرآة في كابينته. لطالما ظنّ بأنّ وجهه عاديّ للغاية، يُنسى بسهولة فائقة، وتعلوه مسحة مروَّضة لا يفهمها إطلاقاً، وكذلك مسحة خوف مبهم لم يتمكّن من محوها قطّ. إنّه وجه شخص ملتزم التزاماً مطلقاً بالتقاليد، فكّر. القبّعة غيّرت كلّ ذلك، وأسبغت عليه لمسة ريفيّة: غرينتش، كونيتكت... إلخ، وهو الآن رجل شابّ لديه دخل خاصّ، تخرّج لتوّه من جامعة برنستون. لربمّا يشتري غليوناً يتماشى مع القبّعة أيضاً! سيبدأ حياة جديدة الآن، وداعاً لكلّ أولئك الوضيعين الذين تسكّع معهم، وسمح لهم بالبقاء في حياته خلال السنوات الثلاث الأخيرة التي قضاها في نيويورك. شعوره الآن يشبه ما يتخيّله عن شعور المهاجرين، الذين يتركون

كلّ شيء خلفهم في بلد أجنبيّ، يتركون أصدقاءهم وعلاقاتهم وأخطاء ماضيهم ويبحرون إلى أمريكا، حيث يبدؤون صفحة جديدة نظيفة! أيّاً كان ما سيحصل مع دِكي، سيتصرّف كما ينبغي، وسيعرف مستر غرينليف بأنّه فعل ذلك، وسيحترمه لهذا السبب.

قد لا يعود إلى أمريكا بعد أن ينفد المال الذي أعطاه إيّاه مستر غرينليف، لربّما يجد وظيفة ممتعة في فندق ما على سبيل المثال، حيث يحتاجون شخصاً ذكيّاً حَسَن المظهر يتحدّث الإنجليزيّة. لربّما يصبح مندوباً لشركة أوروبيّة، ويسافر في كلّ أرجاء العالَم. لربّما يلتقي شخصاً بحاجة إلى خدمات شابّ مثله بالضبط، يعرف كيف يقود السيّارة، ويتقن التعامل مع الأرقام، وبوسعه أن يسلّي الجدّة العجوز أو أن يرافق الابنة إلى الرقص. إنّه متعدّد المواهب، والعالَم واسع! أقسم توم لنفسه بأنّه سيتمسّك بالعمل ما أن يحصل عليه، الصبر والالتزام! قدماً نحو الأفضل!.

«هل لديكم رواية السفير لهنري جيمس؟» سأل توم الموظّفَ المسؤول عن مكتبة الدرجة الأولى، عندما لم يجدها على الرفوف.

«آسف يا سيّدي، ليست موجودة»، قال الموظّف.

أصيب توم بخيبة الأمل، لأنّها الرواية التي سبق لمستر غرينليف أن سأله إن كان قد قرأها أم لا، ويشعر الآن بأنّ من واجبه قراءتها. توجّه إلى مكتبة الدرجة الثانية، فوجدها هناك. عندما أعطى رقم كابينته للموظّف المسؤول كي يستعيرها، اعتذر منه هذا الأخير قائلاً إنّه لا يحقّ للمسافرين على متن الدرجة الأولى أن يستعيروا كتباً من هنا، وهو ما توقّعه توم أصلاً. أعاد الكتاب إلى مكانه مذعناً، على الرغم أنّه من السهل، بل من السهل جدّاً، أن يتمشّى المرء إلى جانب الرفّ ويدسّ الرواية تحت معطفه!.

اعتاد أن يتمشّى صباحاً عدّة دورات على ظهر السفينة، لكن ببطء شديد، بحيث إن الناس الذين يتمشّون على عجل من حوله في نزهتهم الصباحيّة، كانوا يمرّون به مرّتين أو ثلاث مرّات قبل أن ينهي جولة واحدة. بعد ذلك، يجلس على أحد الكراسي القابلة للطيّ على السطح، يتناول الحساء، ويفكّر أكثر بمصيره. بعد الغداء، يذرع كابينته جيئة وذهاباً مستمتعاً

بالخصوصيّة والراحة، دون أن يقوم بأيّ شيء على الإطلاق. يجلس أحياناً في قاعة الكتابة[1]، ويستخدم قرطاسيّة السفينة كي يكتب بعناية رسائل إلى آل غرينليف، ومارك بريمينغر، وكليو. بدأت رسالته إلى الزوجين غرينليف بتحيّة مهذبّة، شكرهما على سلّة الفواكه والإقامة المريحة، من ثمّ تسلّى بإضافة فقرة متخيّلة سابقة لأوانها، كي يخبرهما بأنّه عثر على دِكي، وأنّه يقيم معه الآن في منزله في مونجيبللو، وأنّه يحقّق تقدّماً بطيئاً لكن ثابتاً على صعيد إقناعه بالعودة للوطن، كما حدّثهما عن السباحة وصيد السمك وحياة المقهى، وانجرف مع أفكاره إلى حدّ أنّه ملأ ثماني أو عشر صفحات أدرك أنّه لن يرسلها إطلاقاً بالبريد، لذلك أضاف أيضاً بأن دِكي ليس مهتمّاً بمارج من الناحية العاطفيّة، وقدّم لهما تحليلاً شاملاً عن شخصيّة مارج، فقال إنّها ليست السبب الذي يحول بين دِكي وبين العودة كما تظنّ مسز غرينليف... إلخ، وظلّ يكتب إلى أن غطّت الأوراقُ الطاولة، وصدح النداء الأوّل الذي يدعو المسافرين إلى تناول العشاء.

في أمسية أخرى، كتب رسالة مهذّبة لعمّته دوتي:

عمّتي العزيزة، (نادراً ما يخاطبها هكذا في رسائله، ويستحيل أن يفعل وجهاً لوجه)

كما تلاحظين من القرطاسيّة، أنا في أعالي البحار. لقد قبلتُ عرض عمل مفاجئ لا يسعني أن أشرحه لكِ الآن. يؤسفني أنّني اضطررتُ للمغادرة على عجل، ولم يتسنّ لي القدوم إلى بوسطن كي أودّعك، فقد تنقضي شهور أو سنوات قبل أن أعود.

أريد منك فقط ألّا تقلقي عليّ، وألّا ترسلي المزيد من الشيكات. شكراً لك، شكراً جزيلاً على الشيك الأخير الذي أرسلتِه قبل حوالي الشهر، لا أعتقد أنّك أرسلت غيره قبل رحيلي. أنا بخير وفي قمّة السعادة.

مع حبّي، توم.

لا ضرورة أن يتمنّى لها دوامَ الصحّة، لأنّها قويّة كثور، لذلك أضاف:

1- قاعة موجودة ضمن السفن القديمة، بوسع المسافرين أن يستمتعوا فيها بجوّ من الهدوء والرفاهيّة للقراءة أو لكتابة الرسائل. المترجمة.

ملاحظة: لا أملك فكرة عن مكان إقامتي الجديد، لذلك لا يمكنني أن أزوّدك بعنواني.

هذا السطر جعله يشعر بأنّه أفضل حالاً، لأنّه قطع كافّة الصلات بينه وبينها بكلّ تأكيد، ولم يعد مضطرّاً لإخبارها بعنوانه. لا مزيد من الرسائل الساخرة المليئة بالانتقادات، لا مزيد من المقارنات الخبيثة بينه وبين والده، لا مزيد من الشيكات التافهة ذات القيمة الغريبة التي تبلغ إمّا ستّة دولارات وثمانية وأربعين سنتاً، أو اثني عشر دولاراً وخمسة وتسعين سنتاً بالضبط، وكأنّها ترسل له ما تبقّى معها من الفكّة بعد أن سدّدت فاتورة، أو بعد أن أعادت غرضاً ما إلى المتجر. بالمقارنة بين دخل العمّة دوتي، وبين ما ترسله له، تلك الشيكات مجرّد إهانة! عمّته تصرّ على أنّ تربيته كلّفتها أكثر بكثير من نقود التأمين، التي حصلوا عليها بعد وفاة والده. لعلّ هذا صحيح، لكن لماذا تصرّ على تذكيره بذلك دائماً؟! هل يعقل أن يواظب إنسان ما على إذلال طفل هكذا؟! العديد من العمّات والعديد من الغرباء أيضاً، قاموا بتربية طفل دون مقابل، وكانوا سعداء بهذا فحسب.

بعد أن انتهى من كتابة الرسالة إلى عمّته، نهض توم وتمشّى على سطح السفينة كي يتخلّص من تأثيرها. توم يغضب دائماً عندما يكتب إليها، كما يكره أن يجاملها. مع ذلك، لطالما أرادها أن تعرف مكانه لأنّه محتاج إلى شيكاتها التافهة، واضطرّ إلى كتابة العديد من الرسائل إليها كي يبلغها بتغيّر عنوانه... نقودها لا تلزمه الآن، وسيعيش بعيداً عن تلك النقود، إلى الأبد!.

تذكّر فجأة أحد أيّام الصيف حين كان في الرابعة عشرة من عمره، وذهب في رحلة إلى الريف مع العمّة دوتي وإحدى صديقاتها، وعلقوا في ازدحام مروريّ في مكان ما. كان الحرّ قائظاً، فأرسلته عمّته كي يملأ الترمس بالماء البارد من محطّة الوقود، لكنّ المركبات انطلقت فجأة. تذكّر كيف ركض بين السيّارات الضخمة التي تتحرّك ببطء إنشاً فإنشاً، دون أن يستطيع الوصول إلى باب سيّارة العمّة دوتي مهما فعل، لأنّها ظلّت تتقدّم للأمام بأسرع ما تستطيع كلما أوشك على لمس المقبض، دون أن تنتظره ولو دقيقة واحدة، وهي تصرخ من نافذتها طيلة الوقت: «هيّا! هيّا أيّها البطيء!». عندما نجح أخيراً برمي نفسه في السيّارة، ودموع الإحباط والغضب تسيل على خدّيه،

قالت العمّة دوتي بخيلاء لصديقتها: «مخنّث! إنّه مخنّث منذ طفولته، تماماً كوالده!». تجاوزه لتلك المعاملة، ووصوله إلى ما هو عليه اليوم، هما معجزة! لكن، ما الذي جعل العمّة دوتي تعتقد بأنّ والده مخنّث؟! تساءل توم، هل استطاعت أن تكتشف شيئاً؟! شيئاً واحداً فقط على الأقلّ؟! لا يعتقد ذلك.

مضطجعاً في الكرسي القابل للطيّ، متسلّحاً على الصعيد المعنوي بجوّ الرفاهية من حوله، وعلى الصعيد الجسديّ بوفرة من المأكولات المعدّة بعناية، حاول توم أن يتفحّص ماضيه بطريقة موضوعيّة. لا ينكر أنّ السنوات الأربع الأخيرة كانت بمجملها مضيعة للوقت، سلسلةٌ من الوظائف العشوائيّة، تتخلّلها فترات طويلة مضنية من البطالة التامّة، وفترات من انحطاط المعنويّات لأنّه مفلس، ممّا يدفعه إلى عقد صداقة مع أشخاص أغبياء سخيفين، إمّا لأنّه لا يرغب بالبقاء وحيداً، أو لأنّهم قادرون على تقديم معونة ما مؤقّتاً، كما فعل مارك بريمنيغر. إنجازاته لا تدعو للفخر، خاصّة إن أخذ بعين الاعتبار الطموحات الكبيرة التي ساقته إلى نيويورك. لقد أراد أن يصبح ممثّلاً، وعلى الرغم من أنّه كان في العشرين من عمره آنذاك، لكنّه لم يملك أدنى فكرة عن الصعوبات التي ستعترضه، أو عن التدريب اللّازم، أو حتّى عن الموهبة الضروريّة. آمن بأنّه موهوب، وكلّ ما عليه فعله هو أن يعرض على مُنتِج سينمائيّ بعضاً من الاسكتشات المنفردة التي ألّفها -كذلك الاسكتش عن مسز روزڤلت التي تكتب «يومي»، بعد زيارة إلى عيادة الأمّهات العازبات مثلاً- لكنّ فشله في ثلاث محاولات مختلفة، حطّم شجاعته وآماله كلّها. اضطرّ بعد ذلك إلى العمل على قارب موز لأنّه لا يملك مدّخرات، لكن لا بأس، فقد حمله الزورق بعيداً عن نيويورك على الأقلّ: خشي آنذاك من أنّ العمّة دوتي قد بلّغت البوليس كي يبحثوا عنه في نيويورك، على الرغم من أنّه لم يقترف ذنباً في بوسطن، بل هرب فقط كي يشقّ طريقه في العالَم، كما فعل ملايين الشباب قبله.

غلطته الكبرى تتلخّص بعدم التزامه بأيّ شيء، فكّر، كوظيفة «محاسب» في مخزن كبير مثلاً، والتي لربّما تمخّضت عن مستقبل مهمّ لو أنّ عزيمته لم تتثبّط كليّاً بسبب بطء عمليّة الترقية الوظيفيّة هناك. حسناً، إنّه يلوم العمّة

دوتي إلى حدّ ما على عدم قدرته على الالتزام، لأنّها لم تمدحه ولو مرّة في صباه على إنجاز أيّة مهمّة، كتوزيع الجرائد مثلاً عندما كان في الثالثة عشرة، علماً أنّ الصحيفة كافأته آنذاك بميداليّة فضيّة، تقديراً لـ «اللباقة، حسن الأداء، والمصداقيّة». هذا أشبه بالعودة للخلف في الزمن، والنظر إلى شخص آخر مختلف تماماً كي يتذكّر نفسه: صبيّ نحيل بائس يسيل مخاطه، لأنّه مصاب بالزكام الأبديّ، لكنّه ربح ميداليّة بسبب حسن أدائه ولباقته ومصداقيّته في العمل! الزكام أجّج كراهية العمّة دوتي له، لطالما تناولت منديلها ومسحت أنفه كأنّها تقتلعه من مكانه.

تلوّى توم في كرسيّه عندما فكّر بكلّ ذلك، لكن بأناقة، وسوّى تجاعيد بنطاله.

تذكّر العهود التي قطعها على نفسه منذ أن كان في الثامنة، بالهرب بعيداً عن العمّة دوتي. تذكّر المشاهد العنيفة التي تخيّل فيها عمّته وهي تحاول أن تحبسه في المنزل، لكنّه يشبعها ضرباً بقبضتيه، ويطرحها أرضاً، ويخنقها، ثمّ ينتزع البروش الضخم من فستانها ويطعن به حنجرتها مليون طعنة. حاول الهرب ذات مرّة عندما كان في السابعة عشرة، لكنّ الشرطة أعادته للمنزل، من ثمّ أعاد الكرّة في العشرين من عمره، ونجح! من المدهش ومن المثير للشفقة في آن واحد، أنّه كان ساذجاً للغاية آنذاك، لا يعرف سوى القليل عن العالم وكأنّه أمضى معظم حياته بكره العمّة دوتيّ والتخطيط للفرار منها، إلى حدّ أنّه لم يملك وقتاً كافياً كي يكبر ويتعلّم. تذكّر شعوره عندما طُرِدَ من وظيفته في متجر للجملة خلال الشهر الأوّل الذي قضاه في نيويورك. بقي فيها أقلّ من أسبوعين، لأنّه لم يكن قويّاً بما يكفي لحمل صناديق البرتقال ثماني ساعات يوميّاً، لكنّه بذل أفضل ما في وسعه واستمات كي يحافظ على عمله. عندما طردوه أخيراً، تذكّر شعوره الرهيب بالظلم. تذكّر أيضاً كيف استنتج أنّ العالَم مليء بأمثال سيمون لِغري[1]، وكيف يتوجّب على المرء أن يكون حيواناً وقويّاً كالبلطجيّة الذين عمل معهم في المخزن، وإلّا سيتضوّر

1- سيمون لغري هو مالك العبيد الذي جلد العبد توم حتّى الموت، في رواية «كوخ العمّ توم» لهارييت بيتشر ستو. المترجمة.

جوعاً. بعد ذلك مباشرة، سرق رغيف خبز من كاونتر الأطعمة الجاهزة، وأخذه إلى منزله والتهمه، وتذكّر كيف شعر بأنّ العالم يدين له برغيف خبز على الأقلّ.

«مستر ريبلي؟» قالت امرأة إنجليزيّة وهي تنحني فوقه. لقد جلست بجانبه على الكنبة في البهو، أثناء احتساء الشاي قبل يومين. «نتساءل إن كنت تودّ الانضمام إلينا في جولة بريدج في غرفة الألعاب؟» تابعت، «سنبدأ خلال ربع ساعة». جلس توم بتهذيب في كرسيّه. «شكراً جزيلاً لك، لكنّني أفضّل البقاء خارجاً. فضلاً عن ذلك، لستُ ماهراً بلعبة البريدج»، قال.

«آه، نحن لسنا بارعين بدورنا! لا بأس، ربّما في المرّة القادمة»، وابتسمت ثمّ مضت بعيداً.

غرق توم في كرسيّه مجدّداً، وأسدل قبّعته على عينيه، ولفّ يديه على خصره. يعرف أنّ عزلته تثير بعض الأقاويل بين المسافرين، لم يرقص مع أيٍّ من الفتيات السخيفات اللواتي يحدّقن إليه بنظرات مفعمة بالأمل، وهنّ يتضاحكن ويتمايلن بعد العشاء في كلّ ليلة. فكّر بتكهّنات المسافرين: هل هو أمريكيّ؟ أعتقد ذلك. لا يتصرّف كأمريكيّ، أليس كذلك؟ الأمريكيّون صاخبون عادة، وهو جدّي للغاية، أليس كذلك؟ لم يتجاوز الثالثة والعشرين من عمره بكلّ تأكيد، لا بدّ أنّ أمراً فائق الأهميّة يشغل باله.

أجل، تماماً: يشغله حاضرُ مستر ريبلي ومستقبله.

-7-

كانت باريس مجرّد مشهدٍ أشبه ببوستر سياحيّ لمحه من نافذة محطّة القطار، تظهر فيه واجهة مقهى مضاءة تكلّلها مظلّات قماشيّة مبلّلة بالمطر، وطاولات على الرصيف، وأحواض للشجيرات. ما عدا ذلك، لم يرَ سوى سلسلة طويلة مَن أرصفة المحطّة، سار عليها خلف حمّالين سِمان يرتدون زيّاً موحّداً أزرق، نقلوا له أمتعته إلى القطار الليليّ الذي سيستقلّه إلى روما. بوسعه أن يعود لزيارة باريس لاحقاً، فكّر، أمّا الآن فهو يستعجل الوصول إلى مونجيبللو.

عندما استيقظ في الصباح التالي، وجد نفسه في إيطاليا، وأمام صدفة سارّة أيضاً: بينما كان مستغرقاً بتأمّل المناظر الطبيعيّة التي يمرّون بها، سمع بعض الإيطاليّين في الممرّ، وهم يتحدّثون عن شيء ما يتضمّن كلمة «بيزا». مرّ القطار في تلك اللحظة من أمام مدينة تقع على الجهة الأخرى من مقصورته، فخرج إلى الممرّ كي يحظى برؤية أفضل، وبحث أوتوماتيكيّاً عن البرج المائل الشهير، على الرغم من أنّه لم يكن واثقاً إطلاقاً بأنّها مدينة بيزا، أو أنّ البرج مرئيٌّ من هنا إن صحّت توقّعاته، ولكن ها هو ذا: عمود أبيض ثخين، يعلو فوق منازل واطئة بيضاء تملأ المدينة، ويميل حقّاً... يميل بزاوية شبه مستحيلة تماماً كما تروي القصص عنه، والتي لطالما ظنّ توم أنّها تبالغ! إنّها بشارة جيّدة بلا شكّ، وعلامة على أنّ إيطاليا ستكون كما توقّعها تماماً، وأنّ الأمور ستسير على ما يرام بينه وبين دِكي.

وصل إلى نابولي في وقت متأخّر من عصر ذلك اليوم، فاكتشف بأنّ الباصات لن تنطلق إلى مونجيبللو، قبل الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. وقف كي يبدّل بعض العملة في محطّة القطار، فالتصق به صبيّ في حوالي السادسة عشرة من عمره، يرتدي قميصاً وبنطالاً قذرين، وحذاءً

عسكرياً، وعرض عليه ما يعلمه إلّا اللّه وحده، ربّما فتيات أو حشيش! على الرغم من احتجاج توم، ركب الصبيّ معه في التاكسي، وأعطى التعليمات للسائق وهو يشهر سبابته في وجهه كأنّه يهدّده، انتظر وسترى!.

استسلم توم، وتقوقع في زاوية التاكسي مصالباً ذراعيه. أخيراً، توقّفوا أمام فندق ضخم يطلّ على الميناء، ولو أنّ مستر غرينليف لم يتكفّل بدفع الفاتورة، لما تجرّأ توم على دخوله! .

«سانتا لوتشيا!»، قال الصبيّ بنبرة انتصار مشيراً نحو البحر.

هزّ توم رأسه. في نهاية المطاف، يبدو بأنّ نيّة الصبيّ طيّبة! دفع الأجرة للسائق، وأعطى الصبيّ ورقة من فئة مئة ليرة -خمّن بأنّها تساوي ستّة عشر سنتاً تقريباً- تعدّ بخشيشاً كافياً في إيطاليا وفقاً لمقال قرأه في السفينة، لكنّ الصبيّ غضب على ما يبدو، فأعطاه توم مئة أخرى ولم يبال به أكثر، بل لوّح بيده ودخل إلى الفندق خلف الساعي الذي سبق له أن التقط أمتعته.

مساءً، تناول توم العشاء في مطعم على شاطئ البحر اسمه «زي تريزا»، عملاً بنصيحة مدير الفندق الذي يتكلّم الإنجليزيّة. واجه صعوبة بطلب ما يريد، ووجد نفسه أوّلاً أمام طبق من الأخطبوطات القزمة بنفسجيّة اللون، كأنّها طُهيَت بالحبر ذاته الذي طُبِعت به قائمة الطعام. تذوّق قطعة من ذروة إحدى اللوامس، فوجد قوامها مقرفاً كالغضاريف. الطبق الثاني كان غلطة أيضاً، صحن ضخم من الأسماك المقليّة متعددة الأنواع. الطبق الثالث -كان واثقاً من أنّه تحلية- كان زوجاً من السمك الصغير المائل للحمرة. آخ، نابولي! لا يهمّه الطعام، وشعر بالجذل وهو يحتسي النبيذ. على يساره في البعيد، ينزلق قمر كبير شبه بدر فوق قمّة جبل ڤيزوڤ المتعرّجة. حدّق توم إليه بسكينة، وكأنّه رآه ألف مرّة من قبل. هناك، عند زاوية الأرض خلف الجبل، توجد القرية التي يقطنها ريتشارد.

استقلّ الباص في الساعة الحادية عشرة، من صباح اليوم التالي. الطريق يحاذي الشاطئ، ويمرّ عبر بلدات صغيرة توقّفوا فيها لفترات وجيزة: تور ديل غريكو، تور أنونسياتا، كاستل لامار، سورنتو... أصغى توم بشغف إلى السائق، وهو يعلن أسماء تلك البلدات. بعد أن عبروا سورنتو، تحوّل

الطريق إلى ثلم متعرّج محفور في خاصرة جرف صخريّ، رآه توم في الصور الفوتوغرافيّة عند آل غرينليف. بين حين وآخر، تلوح قرى صغيرة في الأسفل عند حافّة البحر، بيوتها أشبه بفتات الخبز، وأناسها أشبه بنتوءات صغيرة تبزغ من بين الأمواج بالقرب من الشاطئ. رأى توم أيضاً جلموداً صخريّاً ضخماً في منتصف الطريق، سقط من الجرف على ما يبدو، لكنّ السائق تجاوزه ببراعة ودون اكتراث.

«مونجيبللو!».

قفز توم وجذب حقيبته عن الرفّ. معه حقيبة أخرى موجودة على سطح الباص، أحضرها له المرافق. من ثمّ، تابع الباص طريقه، وها هو ذا توم وحيداً على جانب الطريق، مع حقيبتين عند قدميه. البيوت بسقوفها القرميديّة، تتناثر بدءاً من أعلى الجبل وحتّى الموج الأزرق في الأسفل. أبقى توم عينيه على متاعه، قطع الشارع صوب منزل صغير يحمل لافتة «Posta»، واستعلم من الرجل الجالس خلف النافذة عن منزل ريتشارد غرينليف. لقد تحدّث بالإنجليزيّة تلقائيّاً، لكنّ الرجل فهم ما قاله على ما يبدو، لأنّه خرج من مكتب البريد ودلّه من الباب على الطريق الذي جاء الباص منه، وأعطاه تعليمات صريحة باللغة الإيطاليّة عن الاتّجاه:

«Sempre seeneestra, seeneestra!»

شكره توم، وسأله إن كان بوسعه ترك حقيبتيه في المكتب مؤقّتاً. بدا له أنّ الرجل فهمه الآن أيضاً، لأنّه ساعده على حملهما إلى الداخل.

اضطرّ إلى سؤال شخصين آخرين عن منزل ريتشارد غرينليف، الجميع هنا يعرفونه على ما يبدو. أخيراً، دلّه شخص ثالث على المنزل: بيت كبير من طابقين، له بوّابة حديديّة عند المدخل، وترّاس يمتدّ فوق حافّة الجرف. قرع توم الجرس المعدنيّ الموجود بجانب البوّابة، فأطلّت امرأة إيطاليّة من الداخل وهي تجفّف يديها بمريولها.

«مستر غرينليف؟»، سألها توم بنبرة مفعمة بالأمل.

أجابته المرأة مطوّلاً باللغة الإيطاليّة وهي تبتسم، وأشارت للأسفل صوب البحر. بدا له أنّها تقول «يهوديّ» مراراً وتكراراً، فهزّ رأسه قائلاً: «شكراً».

هل ينزل إلى الشاطئ بثيابه هذه، أم يتصرّف بعفويّة أكبر ويرتدي مايوهاً؟! هل يجدر به الانتظار إلى موعد الشاي أو الكوكتيل؟ هل يتّصل هاتفيّاً بريتشارد أوّلاً؟ لم يجلب معه مايوهاً، وينبغي بكلّ تأكيد أن يشتري واحداً هنا. مضى إلى أحد المتاجر الصغيرة بجوار مكتب البريد، حيث رأى قمصاناً وشورتات للسباحة في واجهته الزجاجيّة الصغيرة. بعد أن جرّب عدّة شورتات لم يلائمه أيٌّ منها، أو بالأحرى لا يصلح أيّ منها للسباحة، اشترى أخيراً مايوهاً أسود وأصفر ضئيلاً، لا يزيد حجمه عن كيلوت سترينغ. لفّ ملابسه على شكل حزمة أنيقة بداخل معطفه المطريّ، وخرج من المتجر حافي القدمين، لكنّه وثب إلى الداخل فوراً، أحجار الرصيف حارّة كالجمر.

«حذاء؟ صندل؟» سأل البائعَ في المتجر، لكنّ الرجل لا يبيع أحذية!.

انتعل توم حذاءه مجدّداً، وقطع الشارع إلى مكتب البريد كي يترك ثيابه هناك مع متاعه، فوجده مقفلاً. لقد سمع من قبل أنّ المحلّات تُقفِل أبوابها في أوروبا، بين منتصف النهار والرابعة عصراً. استدار، ومشى عبر زقاق مرصوف بالحجارة افترض أنّه سيقوده إلى الشاطئ. نزل عشر درجات صخريّة شاهقة، فوصل إلى منحدر مبلّط آخر يحاذي الدكاكين والمنازل، ثمّ نزل المزيد من الدرجات، وأخيراً وصل إلى رصيف عريض مستوٍ، يعلو قليلاً عن الشاطئ حيث يوجد مقهَيان ومطعم وطاولات أمامها. مرّ بمحاذاة مراهقين إيطاليّين سمر، يجلسون على المقاعد الخشبيّة عند حافّة الرصيف، فتفحّصته أعينهم بإمعان. شعر بأنّه محنّط، بحذائه البنيّ الضخم في قدميه، وبشرته الشاحبة كالشبح. لم يزر البحر إطلاقاً هذا الصيف، لأنّه يكره الشواطئ! وجد معبراً خشبيّاً صغيراً يصل إلى منتصف الشاطئ، فأدرك أنّ الدوس عليه سيكون أشبه بالجحيم. لا أحد هنا يستلقي على الرمل مباشرة، وإنّما على مناشف أو ما شابه. خلع حذاءه بأيّ حال، ووقف للحظة على الخشب الحارّ مستطلعاً الناس حوله بهدوء. لا أحد منهم يشبه ريتشارد، ولم يتمكّن من تمييز الموجودين في البعيد بسبب الشمس الحارّة المتوهّجة. وضع قدماً واحدة على الرمل، من ثمّ سحبها فوراً. أخذ نفساً عميقاً، وركض إلى آخر المعبر، ثم قفز قفزاً على الرمل إلى أن غطّس قدميه في الماء الضحل البارد عند حافّة البحر، ومشى.

لمح في البعيد رجلاً لا بدّ أنّه دِكي بكلّ تأكيد، مع أنّ بشرته محروقة لونها بنيّ داكن، وشعره المجعّد الأشقر أفتح ممّا يتذكّره توم. لا بدّ أنّ المرأة التي بصحبته، هي مارج.

«دِكي غرينليف؟»، سأل توم مبتسماً.

رفع دِكي رأسه. «نعم؟»، قال.

«أنا توم ريبلي. التقيتُ بك في الولايات المتّحدة قبل عدّة سنوات... هل تذكّرتني؟».

لم يبدُ على دكي بأنّه تذكّره إطلاقاً.

«أعتقد بأنّ والدك كتبَ إليك، وأخبرك بقدومي».

«آه، أجل!» قال دكي وهو يضرب جبينه بيده، وكأنّ عدم التذكّر ينمّ عن غباء منه. وقف، ثمّ سأل: «توم... توم ماذا؟».

«ريبلي».

«هذه مارج شيرود» قال، «مارج، هذا توم ريبلي».

«كيف حالك؟»، قال توم.

«كيف حالك»، قالت مارج.

«كم ستبقى هنا؟»، سأله دكي.

«لا أعرف» أجاب توم، «لقد وصلتُ لتوّي، سأستكشف المكان».

تفحّصه دكي، غير مسرور البتّة كما أحسّ توم. ذراعاه متصالبتان، وقدماه النحيلتان البنيّتان مزروعتان في الرمل الحارّ الذي لا يزعجه إطلاقاً على ما يبدو، بعكس توم الذي حشر قدميه في حذائه من جديد.

«هل ستستأجر منزلاً؟»، سأل دكي.

«لا أعرف!»، أجاب توم بنبرة عدم اليقين، وكأنّه يفكّر بالأمر.

«الوقت مؤاتٍ لاستئجار منزل، إن كنتَ تريد قضاء الشتاء هنا»، قالت مارج. «عمليّاً، لقد رحل كلّ السيّاح الذين جاؤوا صيفاً. من الجيّد أن نحظى بالمزيد من الأمريكيّين هنا في الشتاء!».

لم يعلّق دكِي، بل تمدّد على المنشفة الكبيرة بجوارها، وشعر توم بأنّه ينتظره كي يقول وداعاً ويتابع طريقه. ظلّ واقفاً، وشعر بأنّه عارٍ وشاحب

كاليوم الذي وُلِد فيه. إنّه يكره المايوهات، وهذا المايوه فاضح للغاية! تمكّن من استخراج علبة السجائر من جيب جاكيته المطويّ بداخل المعطف المطريّ، ومدّها إلى الفتاة من ثمّ إلى دكي، الذي أخذ سيجارة، فأشعلها له توم بولّاعته.

«لا يبدو أنّك تذكّرت لقاءنا في نيويورك!»، قال توم.

«لستُ واثقاً من ذلك» أجاب دكي، «ذكّرني، أين التقينا؟!».

«أعتقدُ أنّنا التقينا في... ألم نلتقِ في منزل بادي لاكنو؟!». لم يلتقيا هناك في الحقيقة، لكنّ توم يعرف أنّ دكي وبادي صديقان، فضلاً عن أنّ بادي هو رجل محترم للغاية.

«آها!» قال دكي بغموض، «آمل أن تعذرني، ذاكرتي عفنة هذه الأيّام بما يخصّ أمريكا».

«إنّها كذلك بكلّ تأكيد!» قالت مارج التي هبّت لنجدة توم، «بل تسوء وتسوء! متى وصلت إلى هنا يا توم؟».

«منذ حوالي الساعة. لقد تركتُ متاعي في مكتب البريد»، أجاب.

«ألا تودّ الجلوس؟ هاك منشفة». فرشت له منشفة صغيرة بيضاء بجوارها على الرمل، فقبلها توم بامتنان.

«سأسبح قليلاً كي أنتعش»، قال دكي وهو ينهض.

«وأنا أيضاً» قالت مارج، «هل تأتي معنا يا توم؟».

تبعهما توم. ابتعد دكي ومارج إلى عمق البحر، كلاهما سبّاحان ممتازان على ما يبدو، أمّا توم فبقي بالقرب من الشاطئ، ثمّ خرج من الماء قبلهما. عندما رجعا إلى حيث توجد المناشف، قال دكي وكأنّ مارج حثّته على ذلك: «سنغادر. هل ترغب بمرافقتنا إلى المنزل لتناول الغداء؟».

«لماذا... أجل، شكراً جزيلاً لكما». ساعدهما على لملمة المناشف، والنظّارات الشمسيّة، والصحف الإيطاليّة.

ظنّ توم بأنّهم لن يصلوا أبداً إلى المنزل، مشى دكي ومارج أمامه، وصعدا الدرجات الحجريّة اللّانهائيّة ببطء وثبات، درجَتين في كلّ خطوة. شعر بالإرهاق بسبب الشمس، تشنّجت عضلات ساقيه وهو يسير على الممرّات

المستوية، واحترقت كتفاه فارتدى قميصه كي يحجب الشمس قليلاً، لكنّه شعر بها تحرق فروة رأسه الآن، وتسبّب له الدوار والغثيان.

«هل تمرّ بوقت عصيب؟!» سألته مارج التي لم تتعب إطلاقاً، «ستعتاد على هذا إن بقيتَ هنا. آه لو أنّك رأيت هذا المكان، خلال موجة الحرّ في شهر تموز!».

لم يستطع توم أن يجيبها، فقد انقطعت أنفاسه كليّاً.

بعد ربع ساعة، شعر بأنّه أفضل حالاً. لقد أخذ دوشاً بارداً، وجلس في كرسيّ هزّاز مريح على التراس في منزل دكي وكأس المارتيني في يده، بعد أن ارتدى المايوه وفوقه القميص بناء على نصيحة مارج. سبق للخادمة الإيطاليّة أن أعدّت مائدة التراس لثلاثة أشخاص بينما كان في الحمّام، ومارج تتحدّث معها في المطبخ الآن. هل تعيش مارج هنا يا ترى؟ تساءل توم، المنزل فسيح بما يكفي. الأثاث قليل كما لاحظ، مزيج من الأنتيكات الإيطاليّة والأسلوب البوهيميّ الأمريكيّ، وهناك لوحتان أصليّتان لبيكاسو في البهو.

جاءت مارج إلى التراس وكأس المارتيني في يدها. «ذاك هو منزلي، هناك!» وأشارت للبعيد، «هل تراه؟ البيت المربّع الأبيض، ذو السقف الأحمر الأقتم لوناً من المنازل تحته؟».

من المتعذّر تمييز ما تشير إليه بين المنازل الأخرى، لكنّ توم تظاهر بأنّه يراه. «هل تقيمين هنا منذ فترة طويلة؟»، سألها.

«منذ سنة. قضيتُ الشتاء الماضي بأكمله هنا، ويا له من شتاء! تساقط المطر باستمرار طيلة ثلاثة أشهر، ما عدا يوم واحد فقط!».

«حقّاً؟!».

«آهـا!»، قالت مـارج، وارتشفت المارتيني وهي تحدّق باستمتاع إلى قريتها الصغيرة. لقد ارتدت المايوه بدورها من جديد -لونه أحمر كالطماطم- وفوقه قميص مخطّط. مظهرها ليس سيّئاً، فكّر توم، بل على العكس، جسدها جميل بالنسبة لمن يفضّلون البنية الممتلئة، التي لا تستهويه هو شخصيّاً.

«فهمتُ أنّ دكي يملك زورقاً»، قال توم.

«أجل، زورق اسمه بيبيسترلو، أو بيبي على سبيل الاختصار. هل تودّ رؤيته؟».

أشارت إلى شيء ما لم يتبيّنه توم في الميناء الصغير، الذي يلوح من زاوية التراس. كلّ القوارب تتشابه بالنسبة له، لكنّ مارج قالت بأنّ زورق دكي أكبر من معظمها، وله صاريتان.

جاء دكي أخيراً، وسكب لنفسه كأس كوكتيل من الإبريق الموجود على الطاولة. لقد ارتدى شورتاً من القطن السميك مكوياً على نحو رديء، وقميصاً من الكتّان بلون جلده. «آسف، ليس لدي مكعّبات ثلج» قال، «لا أملك ثلّاجة».

ابتسم توم. «لقد جلبتُ لك روب حمّام، قالت والدتك بأنّك طلبتَ واحداً، وكذلك بعض الجوارب».

«هل تعرف أمّي؟!».

«لقد قابلتُ والدكَ صدفة قبل أن أغادر نيويورك مباشرة، ودعاني للعشاء في منزله».

«أوه! كيف حال أمّي؟».

«كانت نشيطة في تلك الأمسية، لكنّها... تتعب بسهولة».

هزّ دكي رأسه. «لقد أرسلت لي رسالة هذا الأسبوع، قالت فيها إنّها أفضل حالاً نوعاً ما. على الأقلّ، لا تعاني من أزمة صحيّة الآن، أليس كذلك؟»، قال.

«لا أظنّ ذلك. أعتقد أنّ والدك كان قلقاً للغاية عليها قبل عدّة أسابيع» أجاب توم متردّداً، «كما أنّه قلق لأنّك لا تريد العودة إلى الوطن».

«لا بدّ أن يقلق هربرت دائماً بخصوص شيء ما!»، علّق دكي.

عادت مارج والخادمة من المطبخ، تحملان وعاء سباغيتي يتصاعد منه البخار، وصحناً كبيراً من السلطة، وطبقاً من الخبز. تحدّثت مارج ودكي عن مطعم يتمّ توسيعه عند الشاطئ، فقد قرّر مالكه أن يزيد مساحة التراس كي يتاح لزبائنه أن يرقصوا. ناقشا ذلك بالتفاصيل المملّة، وببطء، كما يفعل أهالي البلدات الصغيرة الذين يهتمّون بأتفه التغيّرات حولهم.

لم يجد توم شيئاً يقوله كي يشارك في الحديث، وأمضى وقته بتأمّل خاتمي دكي اللذين أعجباه كليهما: خاتم ذهبيّ يعلوه فصّ مستطيل أخضر اللون في إصبعه الوسطى اليمنى، وخاتم يحمل شعار العائلة في خنصره الأيسر، مزخرف أكثر من ذاك الذي يضعه والده. يدا دكي طويلتان ونحيلتان، تشبهان يديّ! فكّر توم.

«بالمناسبة، اصطحبني والدك في جولة على باحة السفن الخاصّة بشركة بورك - غرينليف قبل أن أغادر» قال توم، «أخبرني بأنّه أدخل الكثير من التعديلات عليها، منذ أن رأيتَها أنت آخر مرّة. إنّها مدهشة بالفعل!».

«أظنّ بأنّه عرض عليك وظيفة أيضاً، لأنّه يبحث دائماً عن شباب واعدين»، قال دكي، وفتل شوكته مرّة تلو المرّة، ثمّ وضع كرة سباغيتي أنيقة في فمه.

«كلّا، لم يفعل». شعر توم بأنّ الغداء يسير على أسوأ ما يكون. هل قال مستر غرينليف لابنه بأنّه قادم كي يتلو عليه موعظة، ويشرح له لماذا يتوجّب عليه أن يعود إلى الوطن؟! أم أنّ مزاج دكي سيّئ فحسب؟! لقد تغيّر حتماً منذ أن التقى به آخر مرّة في نيويورك.

جلب دكي ماكينة إكسبريسو لمّاعة، ارتفاعها حوالي قدمين، ووصلها بمأخذ كهربائيّ على التراس. بعد بضع دقائق، كانت أمامهم أربعة أكواب صغيرة من القهوة، حملت مارج واحداً منها إلى الخادمة في المطبخ.

«في أيّ فندق تقيم؟»، سألته مارج.

ابتسم توم. «لم أجد واحداً بعد! هل من نصيحة؟»، قال.

ميرامير هو الأفضل. إنّه يقع بجوار فندق جورجيو، وهو الفندق الآخر الوحيد هنا، ولكن...»، قالت مارج.

«يقولون إنّ الأسرّة في جورجيو مليئة بالبقّ»، قاطعها دكي.

«إنّها البراغيث. جورجيو فندق رخيص!» قالت مارج بحماس، «لكنّ الخدمة فيه...».

«غير موجودة»، أضاف دكي.

«مزاجك سيّئ اليوم، أليس كذلك؟»، قالت مارج وهي تقذفه بفتات جبنة الغورغونزولا.

«في هذه الحالة، سأجرّب ميرامير» قال توم وهو ينهض، «لا بدّ لي من المغادرة».

لم يدعه أيٌّ منهما للبقاء أكثر، ورافقه دكي إلى البوّابة الأماميّة، بينما بقيت مارج في المنزل. تساءل توم إن كانت هي ودكي يقيمان علاقة من تلك التي يخوضها المرء لعدم وجود بديل أفضل، ولا يكتشفها الآخرون بالضرورة، نظراً لغياب الشغف بين الطرفين. مارج تحبّ دكي، فكّر توم، لكنّها لا تجذب دكي أكثر ممّا تجذبه خادمته الإيطاليّة ذات الخمسين عاماً.

«أودّ أن أرى بعض لوحاتك لاحقاً»، قال توم لدكي.

«أجل، حسناً، أفترض بأنّنا سنراك هنا مجدّداً إن بقيتَ هنا».

فكّر توم بأنّ دكي أضاف هذه العبارة، فقط لأنّه تذكّر روب الحمّام والجوارب التي جلبها له.

«لقد استمتعتُ بالغداء. إلى اللقاء دكي».

قرقعت البوّابة المعدنيّة خلفه.

-8-

نزل توم في فندق ميرامير. عندما استعاد حقيبته أخيراً من مكتب البريد، كانت الساعة قد دقّت الرابعة عصراً، وبالكاد استطاع أن يعلّق بزّته في الخزانة قبل أن يتهاوى على السرير. أصوات الصبيان الإيطاليّين الذين يثرثرون تحت نافذته انسابت بوضوح إلى أذنيه، وكأنّهم جالسون معه في الغرفة ذاتها. أحدهم يضحك ضحكة ساخرة، تفرقع مرّة تلو المرّة بين المقاطع اللفظيّة المنهمرة، وجعلت توم يتلوّى ويرتعش. تخيّلهم يناقشون زيارته المرتجلة إلى سنيور غرينليف، ويتوصّلون إلى تخمينات مهينة عمّا سيحدث لاحقاً.

ماذا يفعل هنا؟! لا أصدقاء لديه في هذا البلد، ولا يتكلّم الإيطاليّة. ماذا لو مرض؟! من سيعتني به؟!.

نهض من السرير عندما تفاقم إحساسه بالغثيان، لكنّه تحرّك بهدوء ووصل إلى الحمّام في الوقت المناسب. تقيّأ الغداء الذي تناوله اليوم، وكذلك السمك الذي أكله في نابولي كما اعتقد، من ثمّ عاد إلى فراشه وغطّ في النوم على الفور.

استيقظ ضعيفاً ومترنّحاً، الشمس ما تزال ساطعة وساعته الجديدة تشير إلى الخامسة والنصف عصراً. سار صوب النافذة ونظر للخارج، بحث تلقائيّاً عن منزل دكي الكبير بتراسه البارز فوق المنازل الورديّة والبيضاء، التي ترقّط الأرض الشاسعة أمامه. استطاع أخيراً أن يميّز درابزين التّراس المتين المائل للحمرة، أما تزال مارج هناك؟ هل يتحدّثان عنه؟ سمع ضحكة تعلو على ضجّة الشارع الخافتة، ضحكة ثابتة رنّانة، ضحكة أمريكيّة، ميّزها وكأنّها جملة قيلت بالإنجليزيّة المحكيّة في أمريكا. لمح دكي ومارج وهما يعبران مساحة خالية بين المنازل على الشارع العامّ، من ثمّ ينعطفان عند الزاوية، فركض إلى النافذة الجانبيّة كي يحظى برؤية أفضل. هناك زقاق

صغير يحاذي الفندق مباشرة ويمرّ تحت هذه النافذة، وها هما دكي ومارج! دكي ببنطاله الأبيض وقميصه البنيّ، ومارج بتنورة وبلوزة. لا بدّ أنّها ذهبت إلى منزلها، فكّر توم، أو أنّها تحتفظ ببعض الثياب في منزل دكي. تحدّث دكي مع رجل إيطاليّ يقف على رصيف الميناء الخشبيّ الصغير، وأعطاه بعض المال، فلمس الرجل قبّعته وفكّ الحبل الذي يثبّت أحد الزوارق إلى الرصيف. راقب توم كيف ساعد دكي مارج على تسلّق الزورق، وفرَدَ الشراع الأبيض، بينما غطست الشمس البرتقاليّة في الماء خلفهما إلى اليسار. سمع توم مارج تضحك، ودكي يصرخ بالإيطاليّة صوب الرصيف، فأدرك أنّه يشاهدهما وهما يؤدّيان طقوس يومهما الروتينيّة: قيلولة بعد الغداء المتأخّر، الإبحار في زورق دكي عند مغيب الشمس، من ثمّ سيتناولان المقبّلات في مقهى على شاطئ البحر. إنّهما يستمتعان بيوم عاديّ مثاليّ، وكأنّ توم لم يظهر قطّ! لماذا سيرغب دكي بالعودة إلى أنفاق المترو، وسيّارات التاكسي، والياقات المنشّاة، والعمل يوميّاً من التاسعة صباحاً إلى الخامسة عصراً؟! أو حتّى بالعودة إلى سيّارة يقودها سائق، وإلى قضاء العطلات في فلوريدا أو ماين؟! كلّ ما سبق لا يعادل متعة الإبحار في زورق مرتدياً ملابس عتيقة، دون أن يضطرّ إلى تبرير الطريقة التي يقضي بها وقته، كما أنّه يملك منزله الخاصّ، حيث تتولّى خادمة طيّبة تدبير شؤونه كلّها. فضلاً عن ذلك، لديه ما يكفي من المال كي يقوم برحلة متّى شاء. حسده توم، واعتصرت قلبه موجة من الرثاء لنفسه!.

لا بدّ أن مستر غرينليف، فكّر توم، قد ذكر في رسالته شيئاً ما جعل دكي يكرهه. ألم يكن من الأفضل لو جلس في المقهى على الشاطئ، كي يبدو لقاؤه الأوّل بدكي صدفة محضة؟! لربّما تمكّن من إقناعه بالعودة إلى الوطن في نهاية المطاف، لو بدأ تعارفهما بتلك الطريقة، لكنّ المحاولة عقيمة الآن! لعن توم نفسه، لقد تصرّف كأحمق لا يتحلّى بحسّ الفكاهة. يستحيل أن ينجح أيّ أمر يفكّر به بطريقة جدّيّة، وهو استنتاج توصّل إليه قبل سنوات.

سينتظر بضعة أيّام، فكّر، قبل أن يُقدِم على أيّة خطوة. لا بدّ أن يستلطفه دكي أوّلاً، وهو ما يرغب به توم أكثر من أيّ شيء آخر في العالم!.

-9-

انقضت ثلاثة أيّام، من ثمّ ذهب توم إلى الشاطئ في اليوم الرابع، عند منتصف النهار تقريباً. وجد دكي وحيداً، في البقعة ذاتها التي التقاه فيها للمرّة الأولى، أمام صخور رماديّة تمتدّ إلى منتصف الشاطئ.

«صباح الخير!» ناداه توم، «أين مارج؟».

«صباح الخير. إنّها تعمل لوقت متأخّر غالباً، ستأتي بعد قليل».

«تعمل؟!».

«إنّها كاتبة».

«آها!».

أخذ دكي نَفَساً من السيجارة الإيطاليّة المثبّتة في زاوية فمه، وقال: «بماذا كنتَ مشغولاً؟! ظننتُ أنّك رحلتَ».

«كنتُ مريضاً» أجاب توم بعفويّة، وهو يفرش منشفته على الرمل بعيداً نسبيّاً عن منشفة دكي.

«أوه، اضطراب معويّ، أليس كذلك؟».

«لقد تأرجحتُ بين الحياة وبين المرحاض» قال توم مبتسماً، «لكنّني بخير الآن». في الحقيقة، جسده ما يزال ضعيفاً للغاية على مغادرة الفندق. لقد أمضى الأيّام الثلاثة بالزحف في غرفته بين بقع ضوء الشمس التي تدخل من النوافذ، كي لا يبدو شديد الشحوب عندما ينزل إلى الشاطئ، واستغلّ ما يتبقّى من طاقته بعد ذلك كي يدرس كتاب محادثة باللغة الإيطاليّة، اشتراه من بهو الفندق.

مضى توم إلى البحر، وغاص بثقة إلى خصره فقط، ثمّ رشق كتفيه بالماء. غاص بعد ذلك إلى مستوى ذقنه، وطفا قليلاً، من ثمّ مشى إلى الشاطئ ببطء.

«هل تقبل دعوتي لاحتساء كأس في الفندق، قبل أن تعود إلى منزلك؟» سأل توم، «ومارج أيضاً، إن أتت. أريد أن أعطيك روب الحمّام والجوارب، كما تعلم».

«آه أجل، شكراً لك، يسرّني أن نحتسي مشروباً ما معاً» قال دكي، وعاد إلى قراءة الصحيفة الإيطاليّة.

تمدّد توم على منشفته، وسمع صوت ساعة القرية تدقّ.

«لا أظنّ أنّ مارج قادمة» قال دكي، «لنذهب بمفردنا».

نهضا وسارا إلى فندق ميرامير دون أن يتبادلا الحديث عمليّاً، كما رفض دكي دعوة توم لتناول الغداء معاً، لأنّ الخادمة سبق وجهّزت الغداء في منزله كما قال.

صعدا إلى غرفة الفندق، حيث جرّب دكي روب الحمّام، وقارن بين الجوارب وبين قدميه. القياس ملائم، فضلاً عن أنّ الروب حاز على إعجابه وأبهجه كما توقّع توم بالضبط.

«وهذه لك أيضاً» قال توم وهو يتناول من درج المرآة صرّة مربّعة، ملفوفة بكيس صيدليّة. «لقد أرسلت لكَ والدتكَ قطرات للأنف»، أضاف.

ابتسم دكي، «لا تلزمني! كنتُ مصاباً بالتهاب الجيوب فيما مضى، لكنّني سآخذها بأيّ حال».

الآن، أدرك توم، بعد أن عرض على دكي كلّ ما لديه، بعد أن أخذ دكي كلّ أغراضه... لا بدّ أنّه سيرفض دعوته لاحتساء شراب! تبعه إلى الباب، وقال: «كما تعلم، والدك قلق للغاية بسبب إصرارك على البقاء هنا. لقد طلب منّي أن أقنعك بالعودة إلى الوطن، وهو ما لن أفعله بالطبع، لكن يتوجّب عليّ أن أبلغه بردّك، فقد وعدته أن أكتب له».

التفت دكي صوبه، ويده ما تزال على مقبض الباب. «لا أعرف كيف يعتقد والدي بأنّني أقضي أيّامي هنا، أسكر حتّى يغمى عليّ أم ماذا؟! سأذهب إلى أمريكا لقضاء بضعة أيّام في الشتاء، لكنّني لا أنوي البقاء بشكل دائم. أنا أكثر سعادة هنا! إن عدتُ للعيش هناك، سيدفعني والدي إلى العمل في شركة بورك - غرينليف، وعندها لن يتاح لي وقت للرسم. أنا أحبّ الرسم، وأظنّ بأنّ الطريقة التي أحيا بها تخصّني وحدي!».

«أتفهّم هذا، لكنّه قال لي بأنّه لن يضغط عليك للعمل في شركته إن عدتَ... إلّا إن رغبتَ بالعمل في قسم التصميم. أخبرني بأنّك تهوى تصميم الزوارق!».

«حسناً، سبق لنا أن تناقشنا حول هذه النقطة أنا ووالدي. شكراً لك بأيّ حال يا توم، على نقل الرسالة وعلى الأغراض. هذا لطف منك»، قال دكي، ومدّ يده كي يصافحه.

لم يستطع توم أن يحمل نفسه على مصافحة اليد الممدودة، إنّه الفشل بعينه، الفشل على صعيد ما كلّفه به مستر غرينليف، وعلى صعيده الشخصيّ مع دكي. «يجدر بي إخبارك بأمر آخر» قال مبتسماً، «لقد أرسلني والدك خصّيصاً إلى هنا، كي أقنعك بالعودة».

«ماذا تقصد؟!» عبس دكي، «هل دفع تكاليف رحلتك؟».

«أجل». هذه هي فرصته الأخيرة إمّا لإثارة إعجاب دكي، أو إثارة نفوره. لجعله ينفجر بالضحك، أو لجعله يندفع خارجاً بعد أن يصفق الباب خلفه باحتقار...

شقّت ابتسامة طريقها إلى وجه دكي، وارتفعت زاويتا فمه العريض للأعلى، على النحو الذي يتذكّر به توم ابتسامته.

«دفعَ تكاليفَ سفرك! ما الذي تعرفه أنت؟! إنّه يائس، أليس كذلك؟!»، وأغلق دكي الباب.

«لقد التقيتُ به في حانة في نيويورك» قال توم، «أخبرته بأنّني لستُ صديقك الحميم، لكنّه أصرّ على أنّ بمقدوري المساعدة لو جئتُ إلى هنا، فقلتُ له إنّني سأحاول».

«كيف عرف بشأنك أصلاً؟!».

«من خلال الزوجين شرايفر... تجمعني بهما معرفة سطحيّة، ولكن... هذا ما حصل! قالا له إنّني صديقك، وإنّني سأسديك النصح».

ضحك كلاهما.

«لا أريد أن تحسبني وغداً حاول استغلال والدك» قال توم، «أنا أتوقّع أن أجد عملاً بسرعة في مكان ما من أوروبا، وسأسدّد له تكاليف الرحلة في نهاية المطاف. لقد اشترى لي تذكرة ذهاب وإياب».

«آه، لا تقلق بشأن ذلك، ستُقتَطع تكاليف رحلتك من ضمن نفقات الشركة. بوسعي أن أتخيّل بابا وهو يقترب منك في الحانة! ما اسمها؟!».

«حانة راؤول. في الواقع، لقد تبعني من حانة غرين كيج». تفحّص توم وجه دكي بحثاً عن علامة تدلّه على أنّه تذكّر غرين كيج المشهورة، لكن عبثاً.

احتسيا شراباً في بار الفندق، وشربا نخب هربرت ريتشارد غرينليف[1].

«لقد أدركتُ لتوّي أنّ اليوم هو الأحد» قال دكي، «مارج ذهبت إلى الكنيسة. الأفضل لو تأتي إلى بيتي وتتناول الغداء معنا، نحن نتناول الدجاج دائماً يوم الأحد... إنّه تقليد أمريكيّ عريق كما تعلم».

أراد دكي أن يمرّا بمنزل مارج أوّلاً، كي يرى إن كانت هناك. تسلّقا بعض الدرجات صعوداً من الشارع الرئيسيّ بمحاذاة جدار حجريّ، ثمّ عبرا جزءاً من حديقة أحد السكّان، وتسلّقا المزيد من الأدراج. منزل مارج مكوّن من طابق واحد، وبائس نوعاً ما، له حديقة جانبيّة تسودها الفوضى، فيها دلوان وخرطوم مياه يسدّان الطريق إلى الباب، مع لمسة أنثويّة تتجسّد بمايوه أحمر وسوتيان منشورَين على إفريز نافذة. من نافذة أخرى، لمح توم طاولة غير مرتّبة عليها آلة كاتبة.

«هاي!» قالت مارج وهي تفتح الباب، «أهلاً توم! أين كنت مختفياً طيلة الوقت؟!».

عرضت عليهما أن يحتسوا شراباً، لكنّها اكتشفت أنّ الزجاجة من ماركة «جيلبي» الموجودة لديها، لا تحتوي سوى نصف إنش من الجن فقط.

«لا يهمّ، نحن متوجّهان إلى منزلي» قال دكي وهو يتمشّى في جنبات الغرفة -التي تستعملها مارج للنوم، وللجلوس- بثقة من اعتاد على ذلك، وكأنّه عاش نصف أيّامه هنا. انحنى فوق وعاء للزهور تنمو فيه نبتة ضئيلة،

1- في التقاليد الغربيّة، خاصّة بالنسبة للعائلات العريقة أو الثريّة، من المعتاد أن يحمل الابن البكر اسمَ والده ذاته، تكريماً للعائلة. «هربرت ريتشارد غرينليف» هو مستر غرينليف الأب، و«ريتشارد / دكي» هو الابن بالطبع لكنّ اسمه الكامل هو «هربرت ريتشارد غرينليف» أيضاً. أنوّه إلى أنّ الكاتبة تشير لدكي باسمه الكامل أحياناً، خاصّة نحو أواخر الرواية. المترجمة

ولمس أوراقها الهشّة بسبابته. «توم لديه شيء مضحك يرويه لكِ» قال، «أخبرها يا توم!».

أخذ توم شهيقاً، وبدأ بسرد قصّته. رواها بأسلوب طريف للغاية، جعل مارج تضحك وكأنّها لم تسمع دعابة منذ سنوات. «عندما رأيتُه يدخل خلفي إلى حانة راؤول، كنتُ على استعداد لرمي نفسي من النافذة الخلفيّة!»، قال. ثرثر لسانه بمعزل عن دماغه، لأنّه كان مشغولاً بحساب كم ارتفعت أسهمه عند مارج ودكي الآن، بوسعه أن يقرأ ذلك في وجهيهما!

الطريق الذي يتلوّى للأعلى صوب منزل دكي، بدا لتوم أقصر بمرّتين من السابق. انسابت روائح الدجاج المشويّ اللذيذة إلى التراس، وأعدّ دكي كؤوس المارتيني. استحمّ توم، من ثمّ استحمّ دكي بدوره، وسكب لنفسه شراباً ما أن خرج من الحمّام، تماماً كما في زيارة توم السابقة، لكنّ الجوّ انقلب جذريّاً هذه المرّة.

جلس دكي في كرسيّ هزّاز، ومدّ ساقيه فوق مسنده. «أخبرني بالمزيد!» قال مبتسماً، «ما هو نوع العمل الذي تمارسه؟ قلتَ بأنّك ستبحث عن عمل هنا».

«لماذا؟ هل لديك عمل لي؟».

«لا أعدك بشيء».

«أوه، بوسعي القيام بالعديد من الأمـور: تركين السيّارة، مجالسة الأطفال، ضبطُ الحسابات... لديّ موهبة بالتعامل مع الأرقام، ويمكنني أن أكتشف احتيال النادل بالفاتورة مهما ثملتُ! بوسعي أن أزوّر توقيعاً، أن أقود هيلوكوبتر، أن أتحايل بالنرد، أن أقلّد أيّ شخص كان، أن أطبخ، أن أؤدّي استعراضاً منفرداً في نادٍ ليليّ إن مرض مقدّم الفقرة الرئيسيّة... هل أتابع؟!». كان توم منحنياً للأمام، وهو يعدّ مواهبه على أصابعه، وما زال بجعبته المزيد.

«أيُّ نوع من العروض المنفردة؟!»، سأل دكي.

«حسناً...» وثب توم واقفاً، «هذا على سبيل المثال». وضع يده على خصره، ومدّ قدمه للأمام. «هذه هي الليدي آسبوردن تجرّب المترو الأمريكيّ. لم تطأ مترو لندن أبداً من قبل، لكنّها تريد أن تكتسب بعض

الخبرة الأمريكيّة». أدّى مشهداً إيمائيّاً صامتاً، فقلّد كيف ستبحث الليدي آسبوردن عن فكّة، وتكتشف أنّ قطعة العملة المعدنيّة لا تدخل في شقّ آلة قطع التذاكر، فتشتري بطاقة مخصّصة لها، من ثمّ تحتار كي تقرّر أيَّ دَرَج يجب أن تنزله، وكيف تهلع بسبب الضجّة والرحلة الطويلة في قطار الإكسبرس، ثمّ تحتار مجدّداً، كيف تخرج من المترو؟!.

خرجت مارج إلى الشرفة في تلك اللحظة، فقال لها دكي إنّ توم هو سيّدة إنجليزيّة في المترو، لكن لم يبدُ عليها أنّها فهمت، فسألته: «ماذا؟!!». عبرت الليدي آسبوردن باباً وإذ بها تدخل دورة المياه المخصّصة للرجال، كما توحي اختلاجاتها ورعبها الذي تصاعد إلى أن سقطت مغشياً عليها... سقط توم بأناقة على أرض التراس، مقلّداً كيف يغمى على السيّدة.

«رائع!»، هتف دكي وهو يصفّق.

لم تصفّق مارج، بل وقفت دون أن تفهم ما يحدث بتاتاً. لم يكترث أيٌّ من الرجلين بتقديم شرح، لا يبدو عليها أنّها تتمتّع بحسّ الفكاهة بأيّ حال، فكّر توم. احتسى رشفة مارتيني، وقد سُرَّ من نفسه كثيراً. «سأؤدّي أمامكِ مشهداً آخر فيما بعد» قال لمارج، ملمّحاً لدكي بأنّ في جعبته المزيد من الاستعراضات.

«هل الغداء جاهز؟» سأل دكي، «أنا أتضوّر جوعاً».

«أنا أنتظر أن ينضجَ الأرضي شوكي اللعين! فتحة الموقد الأماميّة تلك... بالكاد يغلي أيّ شيء فوقه!»، وابتسمت لتوم. «دكي عتيق الطراز للغاية فيما يتعلّق ببعض الأمور يا توم، الأمور التي لا يجدر به أن يعبث بها. لا يوجد عنده سوى موقد يعمل على الحطب، كما أنّه يرفض شراء ثلّاجة أو حتّى حافظة ثلج!».

«إنّها إحدى الأسباب التي جعلتني أهرب من أمريكا!» قال دكي، «هذه الأشياء هي مضيعة للنقود، في بلد يتوافر فيه العديد من الخدم. بماذا ستشغل إرمِليندا وقتها، إن تمكّنتْ من طهو وجبة خلال نصف ساعة؟!» وقف، ثمّ أضاف: «هيّا لندخل يا توم، سأريك بعض لوحاتي».

ذهبا إلى القاعة الكبيرة التي سبق لتوم أن اختلس النظر إليها عدّة مرّات،

في طريقه من الحمّام وإليه. فيها كنبة طويلة تمتدّ تحت نافذتي الغرفة، ومسند لوحات في المنتصف. «أنا أرسم لوحة لمارج حاليّاً»، قال دكي، وأشار إلى اللوحة الموضوعة على المسند.

«آها»، قال توم باهتمام. اللوحة ليست جيّدة برأيه، ولا يمكن أن تكون كذلك برأي أحد غالباً! ابتسامة مارج في اللوحة متحمّسة جامحة نوعاً ما، بشرتها حمراء كالهنود الحمر، ولو لم تكن المرأة الوحيدة ذات الشعر الأشقر هنا في القرية، لما تمكّن توم من اكتشاف أيّ شبه على الإطلاق بينها وبين اللوحة.

«وهذه اللوحات... الكثير من المناظر الطبيعيّة» قال دكي بنبرة اعتذار، لكن من الواضح أنّه يريد من توم أن يثني عليها، لأنّه فخور بما رسمه. إنّها لوحات جنونيّة، رتيبة متشابهة، مرسومة على عجل، تجمع كلّها تقريباً بين الألوان الترابيّة وبين الأزرق المشعّ: سقوف وجبال بنيّة، وبحار زرقاء وهّاجة. إنّه اللون الأزرق ذاته، الذي صبغ به دكي عيني مارج في اللوحة الأولى أيضاً.

«وهذه هي لوحتي السرياليّة» قال دكي، وهو يسند لوحة قماشيّة أخرى على ركبتيه.

انكمش توم، وكأنّه يشعر شخصيّاً بالخزي. إنّها لوحة لمارج أيضاً بلا شكّ، لكن بشَعر طويل يشبه الأفاعي. الأسوأ أنّ دكي رسم أفقاً في كلِّ من عينيها، تنعكس على أحدهما صورةٌ مصغَّرة لمونجيبللو ببيوتها وجبالها، وعلى الثاني صورة الشاطئ المليء بأناس حمر اللون يسبحون. «أجل، أعجبتني هذه!»، قال. مستر غرينليف على حقّ، دكي ليس موهوباً، لكنّه يشغل وقته بالرسم كي يبقى بعيداً عن المشاكل، تماماً كما يفعل آلاف الرسّامين الهواة الرديئين في أرجاء أمريكا. شعر بالأسف لأنّ دكي ينتمي إليهم، يريد له شيئاً أفضل.

«لن أقلب العالم رأساً على عقب بلوحاتي!» قال دكي، «لكنّني أستمتع بالرسم كثيراً».

«أجل»، قال توم. أراد أن ينسى كلّ ما يتعلّق باللّوحات، وأنّ دكي يرسم. «هل لي أن أتفرّج على بقيّة المنزل؟»، سأل.

«بكلّ تأكيد! لم ترَ الصالون بعد، أليس كذلك؟».

فتح دكي باباً في البهو يفضي إلى غرفة واسعة للغاية، فيها موقد وكنبات ورفوف كتب، تطلّ على التراس، وعلى القرية في الجهة الأخرى من المنزل، وعلى الحديقة الأماميّة. أخبره دكي بأنّه لا يستعمل هذه الغرفة صيفاً، لأنّه يفضّل أن يتركها للشتاء، كنوع من تغيير المناظر. إنّها أشبه بمغارة كتب منها بصالون، فكّر توم، لكنّها فاجأته! لطالما تصوّر دكي على أنّه شابّ لا يتحلّى بذكاء مبهر، يمضي معظم وقته في العبث... لعلّه مخطئ إذن! راوده إحساس، بل يقين، بأنّ دكي يشعر بالملل حاليّاً، ويحتاج إلى شخص يقوده إلى عالم المرح!.

«ماذا يوجد في الطابق العلويّ؟»، سأل توم.

الطابق العلويّ خيّب آماله: غرفة نوم دكي في زاوية المنزل فوق التراس، شبه عارية: سرير ضيّق يتّسع لشخص واحد، خزانة ذات أدراج، كرسيّ هزّاز... قطع تبدو كلّها ضائعة، وناشزة على المشهد. الغرف الثلاث الباقية ليست مفروشة، أو على الأقلّ ليس بشكل تامّ، إحداها فقط تحوي حطباً وكومة من بقايا الكانفاه. لا آثار لمارج في أيّ مكان إطلاقاً، ولا حتّى في غرفة دكي.

«ما رأيك بمرافقتي إلى نابولي في يوم ما؟» سأل توم، «لم تتسنّ لي الفرصة لرؤية الكثير في طريقي إلى هنا».

«حسناً» أجاب دكي، «سنذهب أنا ومارج عصر يوم السبت القادم. نحن نتناول العشاء هناك كلّ أسبوع تقريباً، ثمّ نرجع بالتاكسي أو بالعربة. تعال معنا».

«أقصد أن نذهب نهاراً، أو خلال الأسبوع... بحيث تتاح لي رؤية المزيد» قال توم آملاً أن يتفادى قدوم مارج معهما، «أم أنّك ترسم طيلة النهار؟».

«كلّا. هناك باص ينطلق في الثانية عشرة ظهراً أيّام الإثنين، الأربعاء، والجمعة. بوسعنا الذهاب غداً إن أردتَ».

«حسناً»، قال توم. هل سيطلب دكي من مارج مرافقتهما يا ترى؟ «هل مارج كاثوليكيّة؟»، سأله وهما ينزلان الدرج إلى الأسفل.

«كاثوليكيّة متحمّسة! لقد اعتنقت الكاثوليكيّة منذ ستّة أشهر تقريباً، بتأثير رجل إيطاليّ أحبّته بجنون... وما عساه يفعل؟! لقد بقي إدواردو هنا بضعة أشهر ريثما تعافى من حادث تزلّج، وعزّت مارج نفسها على رحيله باعتناق مذهبه».

«ظننتُ أنّها واقعة في حبّك!».

«أنا؟! لا تكن سخيفاً!».

وجدا الغداء جاهزاً بانتظارهما عندما وصلا إلى التراس، بالإضافة إلى بسكويت ساخن بالزبدة خبزته مارج.

«هل تعرف ڤيك سيمونز في نيويورك؟» وجّه توم سؤاله إلى دكي. يملك ڤيك صالوناً في نيويورك، يستقبل فيه الفنّانين والكتّاب والراقصين، لكنّ دكي لم يسمع به، ولا باثنين أو ثلاثة آخرين سأله توم عنهم أيضاً.

تمنّى توم أن تغادر مارج بعد أن شربوا القهوة، لكنّها لم تفعل. عندما تركتهما وحدهما للحظة في التراس، قال توم: «ما رأيك أن أدعوك للعشاء اليوم في الفندق؟».

«شكراً لك. في أيّة ساعة؟».

«السابعة والنصف؟ هكذا سيتاح لنا وقت لتناول الكوكتيل. بكلّ حال من الأحوال، إنّها نقود والدك»، أضاف توم مبتسماً.

ضحكُ دكي وقال: «حسناً، كوكتيل وزجاجة نبيذ فاخر! يا مارج!». كانت مارج قد عادت لتوّها، «سنتعشّى اليوم في ميرامير، بضيافة غرينليف الأب!».

إذن، سترافقهما مارج أيضاً، ولا يستطيع توم منعها. إنّها نقود والد دكي في نهاية المطاف!.

العشاء في تلك الأمسية كان ممتعاً، لكنّ وجود مارج منع توم من الحديث عمّا يحبّه، ولم يحاول حتّى أن يتظاهر بخفّة الظلّ في حضورها. اعتذرت منهما مارج بعد أن انتهوا من تناول العشاء، وحملت فنجان قهوتها، ثمّ مضت للجلوس إلى طاولة أخرى بصحبة معارف لها.

«كم ستبقى هنا؟»، سأله دكي.

«أوه، أسبوع على الأقلّ كما أعتقد»، ردّ توم.

«لأنّه...» خدّا دكي متوهّجان قليلاً، لا بدّ أنّ نبيذ شيانتي حسّن مزاجه على ما يبدو. «إن كنتَ ستبقى لفترة أطول، لِم لا تقيم معي؟! لا فائدة من البقاء في الفندق، إلّا إن كنتَ تفضّل ذلك».

«شكراً جزيلاً لك»، قال توم.

«لم ترَ السرير في غرفة الخادمة، إرمِليندا لا تنام في المنزل، أنا واثق بأنّه بوسعنا تدبّر أمورنا بقطع الأثاث المبعثرة في المنزل... إن ناسبك هذا!».

«أنا واثق من أنّه سيعجبني. بالمناسبة، أعطاني والدك ستمئة دولار للنفقات، تبقّى معي منها حوالي خمسمئة. أعتقد أنّه يجدر بكلينا أن نتمتّع قليلاً بهذا المال. ما رأيك؟»

«خمسمئة دولار!» هتف دكي، وكأنّه لم يرَ هذا المبلغ في حياته دفعة واحدة. «يمكننا أن نشتري سيّارة صغيرة!».

لم يعقّب توم على موضوع السيّارة، الاستمتاع هكذا لا يعجبه، يريد أن يطير إلى باريس! رأى مارج قادمة باتّجاههما.

في الصباح التالي، انتقل إلى منزل دكي.

سبق لدكي وإرمليندا أن وضعا خزانة وكرسيّين في إحدى غرف الطابق العلويّ الفارغة، كما ثبّت دكي بالدبابيس على الجدران لوحاتٍ تقلّد بعض بورتريهات الموزاييك في كاتدرائيّة سانت مارك. ساعده توم على نقل سرير معدنيّ ضيّق من غرفة الخادمة إلى الأعلى، وانتهيا من ترتيب الأثاث قبل الساعة الثانية عشرة ظهراً، لكنّهما داخا بسبب نبيذ فراسكاتي الذي احتسياه وهما يعملان.

«أما زلنا ذاهبَين إلى نابولي؟»، سأل توم.

«بكلّ تأكيد!» نظر دكي إلى ساعته، «إنّها الثانية عشرة إلّا ربعاً، سنلحق بالباص».

لم يأخذا معهما شيئاً، باستثناء جاكيتيهما ودفتر شيكات المسافرين الخاصّ بتوم. وصلا إلى مكتب البريد بالتزامن مع وصول الباص، فوقفا أمام بابه بانتظار أن يترجّل المسافرون. صعد دكي أوّلاً، فاصطدم برجل شابّ أحمر الشعر يلبس قميصاً صارخ الألوان. إنّه أمريكيّ.

«دكي!!».

«فريدي!» صاح دكي، «ما الذي تفعله هنا؟!».

«جئتُ كي أراك، أنت وآل سيشي. سأمكث عندهم بضعة أيّام».

«رائع! أنا ذاهب إلى نابولي مع صديق. يا توم؟». أشار دكي إلى توم، وتولّى تقديم كلٍّ منهما إلى الآخر.

الأمريكيّ يُدعى فريدي مايلز. إنّه بشع برأي توم، لأنّه يكره الشعر الأحمر، خاصّة ذاك الأحمر الأشبه بالجَزَر فوق بشرة بيضاء يغطّيها النمش. عينا فريدي واسعتان، لونهما بنيّ مائل للحمرة، تدوران في رأسه كأنّه أحول -لعلّه ببساطة أحد أولئك الأشخاص، الذين لا ينظرون أبداً في عينيّ من يحدّثهم- فضلاً عن أنّه بدين. أشاح توم بوجهه عنه بانتظار أن ينتهي دكي من الحديث معه. إنّهما يؤخّران الباص، فكّر، تحدّثا عن التزلّج، واتّفقا على اللقاء في كانون الأوّل في مدينة لم يسمع بها من قبل.

«سيلتقي حوالي خمسة عشر شخصاً من أصدقائنا في كورتينا، في الثاني من كانون الأوّل» قال فريدي، «ستكون حفلة رائعة حقيقيّة، كحفلة السنة الماضية! سنمكث ثلاثة أسابيع، إن تبقّى معنا مال».

«إن استطعنا الصمود ثلاثة أسابيع!» قال دكي، «أراك ليلاً فريدي».

صعد دكي أوّلاً إلى الباص، وتبعه توم. لا توجد مقاعد شاغرة، حشرا جسديهما بين رجل نحيل يتعرّق كريه الرائحة، وبين امرأتين قرويّتين رائحتهما أسوأ. ما أن وصل الباص إلى تخوم القرية، حتّى تذكّر دكي فجأة أنّ مارج ستأتي لتناول الغداء في منزله كالمعتاد، فقد تناقشا أمس وافترضا بأنّ الرحلة إلى نابولي ستؤجَّل تلقائيّاً إلى ما بعد انتقال توم. صرخ دكي على السائق كي يتوقّف، فاهتزّ الباص فجأة بعد أن أصدرت كوابحه صريراً، واختلّ توازن كلّ الركّاب الواقفين. مدّ دكي رأسه من الشبّاك وصرخ: «جينو! يا جينو!».

ركض الصبيّ عبر الشارع كي يأخذ ورقة المئة ليرة التي يمدّها دكي من الشبّاك، وقال له هذا الأخير شيئاً ما بالإيطاليّة، فردّ الصبيّ: «فوراً، سنيور!»، واندفع راكضاً. شكر دكي السائق، واستأنفوا الرحلة.

«قلتُ له أن يخبر مارج بأنّنا عائدان الليلة، لكن في وقت متأخّر على الأرجح»، قال دكي.

«جيّد».

أنزلهما الباص في ساحة كبيرة مزدحمة في نابولي، وها هما فجأة بين عربات العنب والتين والبطّيخ الأحمر، وعربات المعجّنات، وصراخ الصبية المراهقين الذين يبيعون أقلام حبر ودمى ميكانيكيّة. أفسح الناس مجالاً لدكي كي يمرّ.

«أعرف مكاناً نتناول فيه غداء جيّداً» قال دكي، «مطعم بيتزا نابوليتانيّ حقيقيّ. هل تحبّ البيتزا؟».

«أجل».

مطعم البيتزا يقع في شارع ضيّق شديد الانحدار، لا تستطيع السيّارات أن تعبره. هناك حبال من الخرز معلّقة على بابه، وإبريق نبيذ على كلّ طاولة، ولا يوجد سوى ستّ طاولات فقط. إنّه أحد تلك الأمكنة التي تستطيع الجلوس فيها لساعات، وأن تحتسي النبيذ دون أن يزعجك أحد. بقيا هناك حتّى الساعة الخامسة، من ثمّ قال دكي إنّ الوقت قد حان كي يذهبا إلى مقهى الغاليريا، واعتذر من توم لأنّه لن يأخذه اليوم إلى متحف الفنون، حيث تُعرَض لوحات أصليّة لدافنشي وإل غريكوس، لكنّهما قد يزورانه في المرّة القادمة. أمضى دكي معظم العصر وهو يثرثر عن فريدي مايلز، ولم يجذب حديثه اهتمام توم. فريدي هو ابن مالك سلسلة فنادق أمريكيّ، يدّعي أنّه كاتب مسرحيّ كما خمّن توم، لم يكتب سوى مسرحيّتين فقط، ولم تجد أيٌّ منهما طريقها إلى برودواي. يملك فريدي منزلاً في مدينة كانيه –سير– مير الفرنسيّة، ونزل دكي في ضيافته عدّة أسابيع قبل أن يأتي إلى إيطاليا.

«هذا ما أحبّه هنا» قال دكي بجذل وهما يجلسان في الغاليريا، «الجلوس إلى طاولة، ومراقبة العابرين! هذا يغيّر نظرتك إلى الحياة. الأنجلوساكسونيّون يرتكبون خطأً جسيماً، بعدم التحديق إلى الناس من طاولة على الرصيف».

هزّ توم رأسه، لقد سمع هذا من قبل، ويتوقّع أن يسمع شيئاً مختلفاً، عميقاً وأصيلاً، من فم دكي. دكي وسيم، ويبدو استثنائيّاً بوجهه الطويل ذي

القسمات الناعمة، وعينيه السريعتين الذكيّتين، والكبرياء التي يتحلّى بها دائماً بغضّ النظر عمّا يقوم به. إنّه ينتعل الآن صندلاً مهترئاً، وبنطاله الأبيض تلطّخ بالأوساخ، لكنّه جلس هنا وكأنّه مالك الغاليريا، وتجاذب الحديث مع النادل بالإيطاليّة عندما أحضر لهما الإكسبريسو.

«تشاو!»، نادى دكي صبيّاً إيطاليّاً يمرّ بالجوار.

«تشاو دكي!».

«إنّه يصرف شيكات المسافرين لمارج أيّام السبت»، شرح دكي لتوم.

جاء رجل إيطاليّ حسن الهندام، حيّا دكي وصافحه بحرارة، من ثمّ جلس معهما. أصغى توم إليهما وهما يتحدّثان بالإيطاليّة، فهم كلمة هنا وكلمة هناك، وبدأ يشعر بالتعب.

«هل تودّ الذهاب إلى روما؟»، سأله دكي فجأة.

«بكلّ تأكيد!» قال توم، «الآن؟!». نهض، وأخرج نقوداً من جيبه كي يدفع قيمة الفواتير الصغيرة التي دسّها النادل تحت فناجين القهوة.

يملك الإيطاليّ سيّارة كاديلاك طويلة رماديّة، مجهّزة بستائر ذات شفرات، وبوق ذي أربع نغمات. بدا لتوم أنّ كلّاً من دكي والإيطاليّ يستمتعان بالصراخ، بحجّة تبادل الحديث وسط ضجّة الراديو الصاخب. وصلوا إلى ضواحي روما خلال ساعتين، وانتصب توم في مقعده عندما مرّوا بشارع ڤيا آبيا، من أجله خصّيصاً كما قال الإيطاليّ، لأنّه لم يرَه من قبل. الطريق وعر في بعض الأماكن، وهناك أجزاء من الطريق الآجريّ الرومانيّ الأصليّ ما تزال موجودة، لم تُطمَر بالإسفلت بل تُرِكَت كما هي كي يرى الناس كيف شقّ الرومانيّون القدماء الطرقات، وكي يجرّبوها بأنفسهم، قال الإيطاليّ. الحقول المنبسطة يميناً وشمالاً بدت مهجورة في الغسق، وأشبه بمقبرة قديمة، فكّر توم، ليس فيها إلّا بضعة قبور ما تزال على حالها، وأنقاضُ أخرى.

أنزلهما الإيطاليّ في منتصف أحد الشوارع داخل روما، وودّعهما باقتضاب.

«إنّه مستعجل» قال دكي، «يريد أن يزور عشيقته، وأن يغادر قبل عودة

زوجها إلى المنزل في الساعة الحادية عشرة. ها هو المسرح الذي كنتُ أبحث عنه! تعال!».

اشتريا تذكرتين لعرض المساء الذي لن يبدأ قبل ساعة أخرى، لذلك ذهبا إلى شارع ڤيا ڤِنِتو، جلسا إلى طاولة على الرصيف أمام أحد المقاهي، وطلبا قهوة أمريكانو. دكي لا يعرف أحداً في روما، لاحظ توم، أو أنّ أحداً من معارفه لم يمرّ من هنا ببساطة. تأمّلا مئات الإيطاليّين يروحون ويجيئون أمام طاولتهما، من ثمّ عادا لحضور المسرحيّة. بذل توم قصارى جهده، لكنّه لم يفهم سوى القليل جدّاً ممّا يدور فيها، واقترح عليه دكي أن يغادرا قبل نهاية العرض. استقلّا عربة، وتجوّلا في المدينة من نافورة إلى نافورة، عبر ساحة الفورم وحول الكولسيوم. طلع القمر، وتوم ما يزال يشعر بالنعاس عمليّاً، لكنّ النعاس بالذّات فضلاً عن الشعور بالإثارة لوجوده في روما للمرّة الأولى في حياته، أبهجاه. جلس هو ودكي بتكاسل في العربة، وكلٌّ منهما يضع قدماً تلبس الصندل على ركبته. بدا لتوم أنّه ينظر إلى نفسه في المرآة، عندما اختلس النظر إلى ساق دكي وقدمه المرفوعة بجواره. لهما الطول ذاته، والوزن نفسه تقريباً -دكي أسمن قليلاً- ويلبسان القياس ذاته بالنسبة للجوارب وروب الحمّام، وربّما القمصان أيضاً.

فضلاً عن ذلك، عندما دفع توم أجرة سائق العربة، قال له دكي: «شكراً لك، مستر غرينليف»، فشعر ببعض الغرابة!.

أصبح مزاجهما أزهى في الواحدة فجراً، بعد أن تقاسما زجاجة ونصف من النبيذ على العشاء. تمشّيا، كلٌّ منهما يلفّ ذراعه على كتفيّ الآخر، وبدآ بالغناء. عند زاوية مظلمة، اصطدما بفتاة وطرحاها أرضاً، فساعداها على النهوض وهما يعتذران، وعرضا عليها أن يرافقاها إلى منزلها. رفضت الفتاة، لكنّهما أصرّا على ذلك، وحشراها بينهما. قالت إنّه ينبغي عليها اللّحاق بترام محدّد، لكنّ دكي احتجّ وطلب تاكسي. جلس هو وتوم على المقعد الإضافيّ، وأذرعهما المطويّة كأنّهما خادمان. تبادل دكي الحديث مع الفتاة وأضحكها، وفهم توم كلّ ما قاله دكي تقريباً. ساعداها على النزول من التاكسي في شارع صغير يشبه شوارع نابولي، فقالت لهما: «جزيل الشكر!»، وصافحتهما كليهما ثمّ اختفت في مدخل معتم.

«هل سمعت ذلك؟» قال دكي، «قالت إنّنا ألطفُ من التقت بهما يوماً من الأمريكيّين».

«أنت تعلم ماذا سيفعل معظم الأمريكيّين القذرين في حالة كهذه... سيغتصبونها!»، أجاب توم.

«والآن، أين نحن؟!»، قال دكي وهو يتلفّت حوله.

ليس لديهما أدنى فكرة عن مكانهما الآن. قطعا عدّة أحياء دون أن يجدا علامة، ولم يمرّا بأيّ شارع مألوف. تبوّلا على حائط في العتمة، من ثمّ تابعا التجوّل على غير هدى.

«سنعرف أين نحن عندما تشرق الشمس» قال دكي بمرح، ثمّ نظر إلى ساعته. «سينبلج الفجر بعد ساعتين فقط»، أضاف.

«حسناً».

«مرافقة فتاة لطيفة إلى منزلها، هي أمر يستحقّ العناء! أليس كذلك؟!»، سأل دكي متردّداً.

«بكلّ تأكيد! أنا أحبّ الفتيات» أكّد توم، «من الجيّد أنّ مارج لم ترافقنا، وإلّا لما استطعنا توصيل الفتاة».

«أوه، لا أدري!» قال دكي متفكّراً بما سمعه، وهو يحدّق إلى قدميه تتحركّان. «مارج ليست...».

«أقصد بأنّنا كنّا سنضطرّ للبحث عن مكان نقضي ليلتنا فيه، لو جاءت مارج معنا. لكنّا الآن نائمين في فندق ما لعين، وضاعت منّا الفرصة لرؤية روما!».

«صحيح!» قال دكي، وألقى ذراعه حول كتف توم.

هزّه دكي من كتفه بخشونة، فحاول توم أن يفلت ويمسك يده. «دكي ي ي ي!» هتف، وفتح عينه، فوجد نفسه وجهاً لوجه مع شرطيّ.

انتصب توم جالساً. إنّه في حديقة عامّة، الشمس مشرقة، ودكي جالس على العشب بجواره وهو يتحدّث بهدوء مطلق مع الشرطيّ بالإيطاليّة. تحسّس دفتر شيكات المسافرين في جيبه، ما يزال موجوداً!.

«Passporti!»، صرخ بهما الشرطيّ، فاستأنف دكي الشرح بأسلوبه الهادئ.

حزر توم بدقّة ماذا يقول دكي: إنّهما أمريكيّان، ولا يحملان جوازي السفر معهما لأنّهما خرجا في نزهة قصيرة فحسب، كي يتفرّجا على النجوم. انتابت توم رغبة مفاجئة بالضحك، وقف مترنّحاً، ونفض الغبار عن ملابسه. نهض دكي بدوره، وابتعدا رويداً رويداً على الرغم من صراخ الشرطيّ. ردّ عليه دكي بنبرة لبقة، وشرح له شيئاً ما. على الأقلّ، لم يلحق بهما الشرطيّ!.

«نبدو قذرَين حقّاً!»، قال دكي.

هزّ توم رأسه موافقاً. لا بدّ أنّه سقط في مكان ما، لأنّ بنطاله ممزّق عند الركبة. ملابسهما مكرمشة ومغطّاة بالعشب، وملطّخة بالغبار والعرق، وهما يرتجفان برداً الآن. دخلا إلى أوّل مقهى صادفاه، شربا كافيه لاتيه وأكلا لفائف حلوة، من ثمّ احتسيا بضعة كؤوس من البراندي الإيطاليّ، كان طعمها مقرفاً لكنّها أمدّتهما بالدفء. من ثمّ، أخذا يضحكان... ما يزالان ثملين!.

عادا إلى نابولي في الساعة الحادية عشرة، أي في الوقت المناسب تماماً لركوب الباص إلى مونجيبللو. يا لروعة العودة إلى روما مجدّداً بملابس لائقة، كي يزورا كلّ المتاحف هناك! يا لروعة الاستلقاء على شاطئ مونجيبللو بعد ظهر هذا اليوم، كي يتحمّصا تحت أشعة الشمس! فكّر توم.

لم يذهبا إلى الشاطئ بعد أن وصلا، بل أخذا دوشاً في منزل دكي، من ثمّ تهاوى كلٌّ منهما على سريره ونام، إلى أن أيقظتهما مارج حوالي الساعة الرابعة عصراً. كانت منزعجة لأنّ دكي لم يرسل لها برقية، كي يخبرها أنّه سيقضي الليلة في روما. «لا أمانع أن تقضي ليلتك في روما، لكنّني ظننتُ أنّكما في نابولي، حيث يمكن أن يحدث أيّ شيء!»، قالت.

«أوووووه!» صاح دكي وهو يلقي نظرة على توم، من ثمّ أعدّ ثلاثة كؤوس بلودي ماري.

لسبب غامض، أبقى توم فمه مغلقاً. لن يخبر مارج بأيٍّ ممّا فعلاه... فلتتخيّل ما تشاء! لقد أفهمها دكي بحزم، أنّهما أمضيا وقتاً ممتعاً معاً أمس. لاحظ أنّها تحدّق إلى دكي غير راضية عن آثار الكحول التي تلوح عليه، ولا عن وجهه غير الحليق، أو الشراب الذي يحتسيه الآن. عندما تكون جديّة للغاية، يظهر شيء ما في عينيها يجعلها أكثر حكمة وأكبر سنّاً، على الرغم من

ملابسها البسيطة وشعرها المشعّث، وهيئتها التي توحي بفتاة كشّافة عموماً. نظرتها الآن هي نظرة الأمّ أو الأخت الكبرى، نظرة عدم الرضا النسويّ عن التخريب والعبث الذي يسبّبه الرجال والصبيان الصغار. هل تتصنّع الرقي؟ أم لعلّها الغيرة؟! لقد اكتشفت على ما يبدو بأنّ دكي عقد مع توم خلال أربع وعشرين ساعة -لأنّ توم هو رجلٌ- رابطة أمتن من تلك التي قد تجمعهما بدكي يوماً ما، سواء وقع في حبّها أم لا... وهو لا يحبّها الآن! بعد عدّة لحظات، هدأت مارج قليلاً، وتبدّدت تلك النظرة من عينيها. تركهما دكي على التراس ودخل إلى المنزل، فسألها توم عن الكتاب الذي تؤلّفه. إنّه يدور عن مونجيبللو، قالت، ويتضمّن صوراً فوتوغرافيّة التقطتها بنفسها. أخبرته أنّها من أوهايو، وأرته صورة لبيت عائلتها تحملها في حافظة نقودها: إنّه مجرّد منزل خشبيّ عاديّ، لكنّه بيتها! قالت مارج بابتسامة. الطريقة التي لفظت بها «خشبيّ» فتنت توم، لأنّها الكلمة ذاتها التي تستعملها لوصف السكارى، وسبق لها أن قالت لدكي قبل دقائق معدودة: «تبدو متخشّباً للغاية!». كلامها مهين، فكّر توم، سواء اختيارها للكلمات أو طريقة نطقها. حاول أن يكون في غاية اللطف معها، وشعر بأنّه قادر على ذلك. رافقها إلى البوّابة، حيث تبادلا تحيّة وداعٍ ودودة، لكنّ أيّاً منهما لم يقل شيئاً عن اللقاء التالي، سواء اليوم أم غداً. مارج غاضبة قليلاً من دكي، بلا شكّ!.

-10-

لم يلتقيا بمارج كثيراً طيلة ثلاثة أو أربعة أيّام، سوى على الشاطئ. كانت لطيفة جدّاً معهما، ابتسمت وثرثرت تماماً كما في السابق، وربّما أكثر، لكن بتهذيب يشي بالبرود. لاحظ توم بأنّ تصرّفها هذا يقلق دكي، لكن ليس كثيراً على ما يبدو، لأنّه لم يتحدّث معها على انفراد منذ أن انتقل توم للعيش في منزله، ولازمه لحظة فلحظة.

أخيراً، كي يبرهن توم لدكي بأنّه ليس غافلاً عمّا يحصل، قال له بأنّ مارج تتصرّف بغرابة.

«أوه، إنّها مزاجيّة» قال دكي، «لعلّ تأليف الكتاب لا يسير على ما يرام. مارج لا تحبّ أن ترى أحداً عندما تنشغل بالعمل».

إذن، العلاقة التي تجمع دكي ومارج هي ما توقّعه منذ البداية: مارج تحبّ دكي أكثر ممّا يحبّها، استنتج توم.

بأيّ حال، استمرّ توم بتسلية دكي، لديه العديد من القصص الظريفة التي يرويها له عن معارفه في نيويورك، بعضها حقيقيّ والآخر مختَلَق. أبحرا في زورق دكي يوميّاً، ولم يحدّد أيٌّ منهما إطلاقاً تاريخاً لرحيل توم، لأنّ دكي يستمتع بصحبته كما هو واضح. أفسح توم دائماً حيّزاً لدكي كلّما أراد أن يرسم، لكنّه كان مستعدّاً دائماً في الوقت ذاته لترك ما في يده، ومرافقته في نزهة، أو الذهاب للإبحار، أو حتّى مجرّد الجلوس وتبادل الأحاديث. بدا دكي سعيداً أيضاً لأنّ توم يأخذ تعلّم اللغة الإيطاليّة على محمل الجدّ، ويمضي ساعتين يوميّاً بدراسة كتب القواعد والمحادثة.

كتب توم رسالة إلى مستر غرينليف، وأبلغه بأنّه سيبقى مع دكي لبضعة أيّام، وأنّ دكي سيزور الولايات المتّحدة لفترة قصيرة في الشتاء، وأضاف بأنّه

سينجح غالباً بإقناعه بالبقاء لفترة أطول. برأيه، هذه الرسالة تبدو جيّدة جدّاً بما أنّه يقيم مع دكي الآن، أفضل من تلك التي قال فيها إنّه ينزل في فندق في مونجيبيللو. قال أيضاً بأنّه ينوي البحث عن وظيفة عندما تنفد نقوده، وربّما يعمل في فندق القرية. إنّها ملاحظة عابرة ذات هدف مزدوج: تذكير مستر غرينليف بأنّ الستمئة دولار التي أعطاه إيّاها قاربت على الانتهاء، وإقناعه بأنّه رجل شاب لا يتوانى عن العمل كي يكسب معيشته. أراد أيضاً أن يترك انطباعاً حسناً على دكي، فأعطاه الرسالة كي يقرأها أوّلاً قبل أن يرسلها.

مرّ أسبوع آخر من الطقس الجميل المثاليّ، والأيّام المليئة بالكسل، لم يتجاوز نشاط توم البدنيّ فيها مجرّد تسلّق الدرجات الحجريّة من وإلى الشاطئ كلّ يوم، أمّا نشاطه الفكريّ الأقصى فكان التدرّب على التحدّث بالإيطاليّة مع فاوستو، وهو شابّ إيطاليّ ذو ثلاثة وعشرين عاماً، عثر عليه دكي في القرية وكلّفه بمهمّة القدوم ثلاث مرّات أسبوعيّاً، لإعطاء توم دروساً في اللغة الإيطاليّة.

ذات يوم، انطلق توم ودكي بالزورق إلى كابري، وهي قرية بعيدة نوعاً ما لا تُرى من مونجيبيللو. شعر توم بالإثارة، أمّا دكي فكان مشغول البال بأمر ما ولم يتحمّس إطلاقاً، بل تجادل مع حارس ميناء كابري حيث رسا زورقه «بيبيسترلو»، ولم يرغب حتّى بأن يتمشّى في الشوارع الصغيرة الخلّابة التي تتفرّع من ساحة القرية بكلّ الاتّجاهات. جلسا في أحد مقاهي الساحة، واحتسيا كأساً من ليكور فيرنت برانكا، من ثمّ أصرّ دكي على المغادرة كي يعودا للمنزل قبل أن يحلّ الظلام، على الرغم من أنّ توم لن يمانع أن يدفع فاتورة الفندق لو وافق على قضاء الليلة هنا. فكّر بأنّهما سيزوران كابري لاحقاً، لذلك تجاهل ما حصل وحاول أن ينساه.

وصلت رسالة من مستر غرينليف، كتبها على رسالة توم الأخيرة ذاتها، وشرح فيها مجدّداً لماذا يتوجّب على ابنه أن يعود إلى الوطن، وتمنّى التوفيق لتوم، كما طلب منه ردّاً قاطعاً حول النتائج التي أحرزها. مرّة أخرى، أمسك توم القلم بإذعان، وباشر الكتابة. رسالة مستر غرينليف كانت هذه المرّة أشبه برسالة عمل، كأنّه يتفقّد أحوال شحنة من قطع المراكب، ففكّر توم بأنّ الردّ عليه بالنبرة ذاتها سيكون بمنتهى السهولة. إنّه سكرانٌ نوعاً ما الآن، لأنّه تناول

الغداء واحتسى النبيذ كما يفعل هو ودكي دائماً في هذا التوقيت، وهذا الثّمل بالذّات هو إحساس رائع، يمكن تبديده مباشرة بفنجاني إكسبريسو ونزهة قصيرة مشياً على الأقدام، أو تعزيزه بفضل كأس أخرى من النبيذ، يرتشفها هو ودكي مستمتعَين بروتين ملذّات العصر المعتادة. تسلّى توم بإضافة مسحة ضئيلة من الأمل في رسالته، فكتب بأسلوب مستر غرينليف نفسه:

إن لم أكن مخطئاً، ريتشارد متردّد حول قراره بقضاء شتاء آخر هنا. كما وعدتكَ، سأبذل كلّ ما في وسعي لإقناعه بالعدول عن ذلك، وفي الوقت الملائم -ربّما في موعد الكريسماس- قد أنجح أيضاً بإقناعه بالبقاء في الولايات المتّحدة، ما أن يصل إلى هناك.

ابتسم توم وهو يكتب، فقد سبق له هو ودكي أن تناقشا حول القيام بجولة بحريّة حول الجزر اليونانيّة خلال فصل الشتاء، كما أنّ دكي تخلّى كليّاً عن فكرة السفر إلى أمريكا لقضاء بضعة أيّام هناك، إلّا إن تفاقم مرض والدته إلى درجة خطيرة. تحدّثا أيضاً عن قضاء شهري كانون الثاني وشباط -وهما أسوأ شهرين في شتاء مونجيبللو عادة- في مايوركا... مارج لن تذهب معهما، توم متأكّدٌ من ذلك، لأنّهما استبعداها نهائيّاً من خططهما، لكنّ لسان دكي زلّ فلمّح لها بأنّهما قد يقومان برحلة بحريّة شتويّة في مكان ما. دكي صريح للغاية حول كلّ شيء! تبّاً! دكي ما يزال مصمّماً على ذهابهما بمفردهما، توم واثق من ذلك، لكنّ اهتمامه بمارج تضاعف عندما أدرك بأنّها ستبقى هنا وحيدة في الشتاء، فضلاً عن أنّ عدم دعوتها لمرافقتهما لم يكن تصرّفاً لطيفاً في المقام الأوّل. حاول هو وتوم أن يخفيا الحقيقة عنها، من خلال إيهامها بأنّهما سيسافران بأرخص وأسوأ طريقة ممكنة حول اليونان، وأنّهما سينامان في سفن شحن الماشية، أو بين القرويّين على سطح السفينة... إلخ، وهذا لا يليق إطلاقاً بامرأة. مع ذلك، بدت مارج منبوذة، فحاول دكي أن يعوضها بدعوتها لتناول الغداء والعشاء في منزله باستمرار، أو باحتضان يدها أحياناً وهما عائدان من الشاطئ، على الرغم من أنّها لا تسمح له دائماً بإبقاء يدها في يده لفترة طويلة. أحياناً، تسحب يدها بعد بضع ثوان فقط، بطريقة تجعلها تبدو لتوم وكأنّها تستميت كي يمسكها، على العكس ممّا تدّعيه.

عندما طلبا منها أن ترافقهما إلى هيركولانيوم، رفضت.

«أظنّ بأنّني سأبقى في المنزل. استمتعا بوقتكما معاً أيّها الصبيّان!»، قالت بصعوبة وهي تبتسم ابتسامة مشرقة.

«حسناً، القرار قرارها» قال توم، وانسحب بلباقة إلى الداخل، كي يفسح لدكي مجالاً للتحدّث معها على انفراد إن رغبا بذلك.

جلس على إفريز النافذة العريض في مرسم دكي، ذراعاه السمراوان متصالبتان فوق صدره، وحدّق إلى البحر... يحبّ أن يتأمّل زرقة البحر، وأن يتخيّل كيف سيبحر مع دكي إلى حيث يريدان: طنجة، صوفيا، القاهرة، شڤاستوبول... عندما تنفد نقوده، سيكون دكي مولعاً به على الأرجح، ومعتاداً على وجودهما معاً، ولن يتخلّى عنه بل سيعيشان معاً... هذا أمر مفروغ منه! بوسعهما أن يعيشا مرتاحَين اعتماداً على دخل دكي، الذي يبلغ خمسمئة دولار شهريّاً.... تناهت إليه الأصوات من التراس، دكي بنبرة من يتوسّل، ومارج التي لا تردّ إلّا بنعم أو لا. من ثمّ، سمع صوت البوّابة تُصفَق. لقد غادرت مارج إذن، ولم تبقَ لتناول الغداء كما اتّفقوا. نزل توم عن الإفريز، وخرج إلى التراس كي يرى دكي.

«هل هي غاضبة؟»، سأل توم.

«كلّا. تشعر بأنّها منبوذة نوعاً ما كما أظنّ».

«لقد حاولنا إقناعها بالقدوم معنا».

«الأمر لا يتعلّق بهذه المرّة فحسب» قال دكي وهو يسير ببطء جيئة وذهاباً على التراس، «تقول الآن بأنّها لا ترغب حتّى بمرافقتي إلى كورتينا».

«أوه، ستغيّر رأيها حتماً قبل حلول شهر كانون الأوّل!».

«أشكّ بذلك»، قال دكي.

السبب برأي توم، هو أنّه سيرافقهما إلى كورتينا، بعد أن دعاه دكي في الأسبوع الماضي. لقد غادر فريدي مايلز مونجيبللو في ذلك اليوم قبل أن يعودا من روما، لأنّه اضطرّ للسفر فجأة إلى لندن كما أخبرتهما مارج، فقال دكي إنّه سيكتب له رسالة كي يخبره بأنّه سيجلب معه صديقاً إلى كورتينا.

«هل تريد منّي أن أغادر؟» سأل، واثقاً من أنّ دكي لا يرغب بذلك. «أشعر بأنّني أتطفّل عليكما أنت ومارج»، أضاف.

«قطعاً لا! تتطفّل على ماذا؟!»، ردّ دكي.

«حسناً... ربّما من وجهة نظرها!».

«كلّا، الأمر وما فيه هو أنّني أدين لها بشيء ما، كما أنّني لم أعاملها بلطف مؤخّراً... أنا وأنت كلانا لم نكن لطيفين!».

فهم توم ما يقصده دكي بكلامه. لقد آنس كلٌّ منهما الآخر هو ومارج، خلال الشتاء الماضي الطويل الرهيب حين كانا الأمريكيَّين الوحيدَين في القرية، ولا يجوز لدكي أن يهملها الآن لمجرّد قدوم أمريكيّ آخر.

«ما رأيك أن أحاول أنا إقناعها بمرافقتنا إلى كورتينا؟»، سأل توم.

«عندها لن تقبل إطلاقاً» أجاب دكي باقتضاب، ودخل إلى المنزل.

سمعه توم يقول لإرمليندا بألّا تجهّز طاولة الغداء، لأنّه لا يشعر بالجوع الآن. لقد تكلّم معها بالإيطاليّة، لكنّ توم سمع بوضوح كيف خاطبها بنبرة سيّد المنزل. عاد دكي إلى التراس، محاولاً أن يحجب الريح عن ولّاعته كي يشعل سيجارة. إنّها ولّاعة فضيّة جميلة، لكنّها تعمل على نحو رديء بمجرّد أن يهبّ نسيم خفيف. أخيراً، تناول توم ولّاعته القبيحة ذات اللهب الأشبه بالمشعل -قبيحة، لكن كفوءة كقطعة سلاح عسكريّ- وأشعل له سيجارته. أحجم عن اقتراح شراب، على الرغم من أنّه الذي اشترى زجاجات نبيذ جيبلي الثلاث الموجودة في المطبخ... هذا ليس منزله في نهاية المطاف!.

«لقد تجاوزت الساعة الثانية ظهراً» قال توم، «أتودّ أن نتمشّى قليلاً، ونمرّ بمكتب البريد؟».

أحياناً، يفتح لويجي مكتب البريد عند الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، وأحياناً يتأخّر إلى الساعة الرابعة عصراً. لا يمكن لأحد أن يحزر!.

مشيَا إلى أسفل التلّة صامتَين. تساءل توم عمّا قالته مارج عنه، وانتابه شعور ثقيل بالذنب المفاجئ، جعل العرق يتساقط عن جبينه. شعور هلاميّ، مبهم، لكنّه قويّ جدّاً، وكأنّ مارج قالت لدكي إنّه سرق شيئاً ما أو أقدم على فعل شائن. لن يتصرّف دكي على هذا النحو، فقط لأنّ مارج تتعامل معه ببرود، فكّر توم. دكي يمشي متكاسلاً، دون أن يشدّ قامته، وبطريقة تجعل ركبتيه العظميّتين تقفزان أمامه، فقلّده توم لا شعوريّاً. أطرق دكي رأسه،

بحيث لامس ذقنه صدرَه، وحشر يديه في جيبي بنطاله القصير. لم يخرج عن صمته إلّا مرّة واحدة فقط، كي يلقي التحيّة على لويجي، ويشكره على استلام رسائله. لا بريدَ لتوم، الرسالة التي وصلت كانت لدكي، من بنك في نابولي، عبارة عن إيصال صغير لمح توم عليه رقماً مطبوعاً بالآلة الكاتبة في حيّز فارغ: 500$. دسّ دكي الإيصال بلا مبالاة في جيبه، ورمى المغلّف في سلّة القمامة. لا بدّ أنّه الإشعار الشهريّ الذي يرسله البنك إليه، كي يعلمه بوصول نقوده إلى نابولي، كما خمّن توم، فقد قال له دكي ذات مرّة إنّ شركة الائتمان ترسل له أمواله إلى بنك في نابولي. تابعا السير أسفل التلّة، وافترض توم أنّهما سيصعدان إلى الطريق الرئيسيّ الذي يلتفّ حول الجرف في الجهة الأخرى من القرية، كما فعلا في السابق، لكنّ دكي توقّف عند الدرج الذي يقود إلى منزل مارج.

«لن أتأخّر، لكن لا تنتظرني»، قال دكي.

«حسناً» قال توم، وشعر بوحشة مفاجئة. راقب دكي وهو يتسلّق طريقاً صغيراً فوق الدرجات شديدة الانحدار المنحوتة في الجدار، من ثمّ ينعطف فجأة ويتابع المشي إلى منزل مارج.

عند منتصف التلّة، توقّف توم فجأة. انتابته رغبة ملحّة بالنزول إلى فندق جورجيو لاحتساء شراب -لكنّ المارتيني هناك رهيب!- تصارعت مع رغبة أخرى بالانطلاق إلى منزل مارج مدّعياً أنّه يودّ الاعتذار لها، كي ينفّس عن غضبه بمفاجأتها هي ودكي معاً، وإزعاجهما. شعر فجأة بأنّ دكي يحتضنها الآن، أو يلمسها على الأقلّ، في هذه اللحظة بالذّات! أراد أن يرى ذلك بعينيه، لكنّ الفكرة أزعجته في الوقت ذاته. استدار، ومشى إلى بوّابة بيت مارج، ثمّ أغلقها بحرص خلفه، على الرغم من أنّ منزلها ما يزال بعيداً في أعلى التلّة، ولن تسمع صوت البوّابة. اندفع راكضاً على الدرج، قفزه درجتين درجتين، ثمّ تباطأ إيقاعه عندما وصل إلى الأعلى، سيقول: «اسمعيني مارج، أنا آسف إن سبّبتُ توتّراً هنا، لقد دعوناكِ اليوم إلى مرافقتنا، ونحن نريدك معنا... ونعني ما نقول حقّاً».

توقّف عندما لمح نافذة مارج، دكي يطوّق خصرها بذراعه، ويقبّلها

قبلات ناعمة على خدّها، ويبتسم لها. لا يبعدان عنه أكثر من خمس عشرة قدماً، لكنّ الغرفة معتمة مقارنة بوهج الشمس حيث يقف، وتصعب رؤيتهما. الآن، رفعت مارج وجهها كي يلامس وجه دكي مباشرة، وكأنّها تائهة كليّاً في النشوة. شعر توم بالاشمئزاز، دكي لا يعني ما يقوم به، بل يستغلّ هذه الطريقة السهلة الرخيصة الواضحة، كي يتمسّك بصداقته مع مارج فحسب. شعر توم بالقرف من مؤخّرتها الكبيرة المنتفخة في تنورة الفلّاحين التي ترتديها، والتي تبرز تحت ذراع دكي التي تحتضن خصرها... ودكي؟! لم يصدّق توم أنّ دكي قد يفعل أمراً كهذا حقّاً!.

استدار، واندفع راكضاً إلى أسفل الدرج والصرخة تختنق في حنجرته. صفق البوّابة خلفه بعنف، ثمّ ركض طيلة الطريق إلى منزل دكي. وصل لاهثاً، واستند قليلاً إلى الدرابزين قبل أن يدخل من البوّابة. جلس لعدّة ثوان على الأريكة في المرسم، مصعوقاً ومشدوهاً. تلك القبلة! ليست الأولى بكلّ تأكيد! مضى إلى مسند اللوحات، متفادياً بطريقة لا شعوريّة النظرَ إلى اللوحة الرديئة الموضوعة عليه. تناول الممحاة الطريّة من باليت الألوان، ورماها بعزم من النافذة. راقبها ترسم قوساً ينحني نحو البحر، قبل أن تختفي. تناول المزيد من المحّايات عن طاولة دكي، رؤوس الأقلام، أقلام التظليل، بقايا أقلام الفحم والباستل... ورماها كلّها واحدة واحدة إلى زوايا المرسم، أو عبر النوافذ. انتابه إحساس غريب بأنّ دماغه بقي هادئاً ومنطقيّاً، بعكس جسده الذي خرج عن السيطرة. اندفع ركضاً إلى التراس، أراد أن يقفز فوق الدرابزين كي يرقص، أو يقف على رأسه، لكنّ الفراغ السحيق في الجهة الأخرى أرعبه. صعد إلى غرفة دكي، تمشّى فيها للحظات، ويداه في جيبي بنطاله. متى سيعود دكي؟ هل سيبقى هناك في منزل مارج، كي يستغلّ الأمسية ويأخذها إلى السرير؟! فتح باب الخزانة بعنف، وفتّشها. هناك بزّة فلانل رماديّة، تبدو جديدة ومكويّة لتوّها، لم يرَ دكي يلبسها من قبل. أخرجها توم من الخزانة، خلع بنطاله القصير الذي يصل إلى الركبة، وارتدى بنطال البزّة الرماديّ. انتعل زوجاً من أحذية دكي، من ثمّ فتح الدرج السفليّ، وتناول قميصاً نظيفاً مخطّطاً بالأبيض والأزرق. انتقى ربطة عنق من الحرير الكحليّ، وربطها بعناية. البزّة تناسبه تماماً! مشّط شعره، وفرَقَه جانبيّاً كما يفعل دكي.

«مارج! عليك أن تفهمي بأنّني لا أحبّكِ!» قال توم لانعكاسه في المرآة، مقلّداً صوت دكي، بنبرته العالية ذاتها التي يؤكّد بها على الكلمات، وتلك الغرغرة في حنجرته التي يختتم بها عباراته، التي قد تكون لطيفة أو قاسية، سارّة أو متوعِّدة، تبعاً لمزاجه. «مارج! توقّفي عن هذا!»، استدار توم فجأة، ومدّ يده في الهواء كأنّه يقبض على حنجرة مارج. هزّها، خنقها، فتهاوت مارج رويداً رويداً إلى أن استلقت جثّة هامدة على الأرض. توم يلهث الآن، مسح جبينه كما يفعل دكي، ومدّ يده كي يتناول منديله لكنّه لم يجده، فأخذ أحد مناديل دكي من الدرج العلويّ، من ثمّ وقف مجدّداً أمام المرآة. حتّى شفتاه المتباعدتان تشبهان شفتي دكي عندما تتقطّع أنفاسه أثناء السباحة، فتفترّان كاشفتَين جزءاً من أسنانه السفليّة. «أنت تعرفين لماذا اضطررتُ إلى فعل هذا!»، قال توم لاهثاً مخاطباً مارج، على الرغم من أنّه يحدّق إلى نفسه في المرآة. «أنتِ تتدخّلين بيني وبين توم... كلّا، لا أقصد هذا! لكن هناك رابطة تجمعنا معاً!».

استدار، وداس فوق الجثّة الافتراضيّة، ثمّ اقترب خلسة من النافذة. لو نظر إلى المنعطف، سيرى على نحو مبهم الدرجاتِ التي تصعد إلى التلّة حيث يوجد منزل مارج. لم يلمح دكي، سواء على الدرج أو على أجزاء الطريق التي بوسعه رؤيته من هنا. لعلّهما في السرير معاً الآن، فكّر توم وقد اعتصرت حنجرته موجة اشمئزاز أخرى أقوى. تخيّل ما سيدور بينهما الآن: دكي يضاجعها بطريقة خرقاء، مرتبكة، لا ترويه، لكنّها تعجب مارج... ستعجبها حتّى ولو عذّبها! اندفع توم إلى الخزانة مجدّداً، وتناول قبّعة من الرفّ العلويّ. إنّها قبّعة تيروليّة[1] رماديّة صغيرة، أنيقة، تزيّنها ريشة بيضاء وخضراء. اعتمرها، وأدهشه الشبه الكبير بينه وبين دكي عندما يغطّي قمّة رأسه. في الحقيقة، شعره القاتم هو الأمر الوحيد المختلف جذريّاً بينهما، أمّا ما عدا ذلك، أنفه -أو على الأقلّ، شكله العامّ- فكّه الرقيق، حاجباه...

«ماذا تفعل؟!».

1- قبّعة مميّزة تعدّ جزءاً من الزيّ الشعبيّ في منطقة «تيرول» Tyrol في جبال الألب. المترجمة.

التفت توم للخلف، دكي عند العتبة! أدرك توم أنّه كان عند البوّابة بلا شكّ، عندما نظر قبل قليل من النافذة. «آه! كنتُ... أتسلّى فحسب!»، قال توم بصوت عميق يلجأ إليه دائماً عندما يشعر بالحرج. «أنا آسف دكي»، أضاف.

فغر دكي فمه قليلاً، من ثمّ أغلقه، وكأنّ الغضب طحن كلماته بحيث يتعذّر نطقها نهائيّاً. بالنسبة إلى توم، الوضع الآن سيّئ للغاية وكأنّ دكي قال كلَّ ما عنده.

دخل دكي إلى الغرفة.

«دكي، أنا آسف إن كنتُ قد...».

قطع صوت اصطفاق الباب العنيف كلماته. بدأ دكي بفكّ أزرار قميصه غاضباً، وكأنّه وحده، إنّها غرفته الخاصّة... ما الذي يفعله توم هنا؟!.

شلَّ الخوف توم

«اخلع ملابسي!»، قال دكي.

نفّذ توم ما سمعه، وتحرّكت أصابعه بطريقة خرقاء بسبب الخوف. كان مصعوقاً... لطالما قال له دكي البسْ هذا أو ذاك من ثيابي، ولن يعرض عليه ذلك بعد الآن بلا شكّ!.

نظر دكي إلى قدمي توم. «وحذائي أيضاً؟! هل أنت مجنون؟!»، قال.

«كلّا!» أجاب توم، محاولاً أن يتمالك نفسه وهو يعلّق البزّة، من ثمّ سأل: «هل تصالحتَ مع مارج؟».

«مارج وأنا على خير ما يرام»، ردّ دكي بأسلوب غاضب يقصيه بعيداً. «هناك أمر آخر أودّ أن أضيفه، وبوضوح» أضاف وهو ينظر إلى توم، «أنا لستُ شاذّاً. لا أعرف إن كنتَ تظنّني كذلك، أم لا».

«شاذّ؟!» ابتسم توم ابتسامة باهتة، «لم أفكّر بهذا البتّة!».

أراد دكي أن يقول شيئاً آخر، لكنّه سكت. شدّ قامته، فبرزت أضلاعه من صدره الأسمر. «حسناً، مارج تعتقد أنّك شاذّ»، قال.

«لماذا؟!». غار الدم من وجهه، فنفض فردة حذاء دكي من قدمه بضعف، ورتّب الفردتين في الخزانة. «لماذا تعتقد ذلك؟! ما الذي فعلتُه؟!»، قال.

أحسّ بأنّه سيغمى عليه، لم يسبق لأيّ شخص أن قال له هذا في وجهه، وبذلك الأسلوب!.

«بسبب الطريقة التي تتصرّف بها»، غمغم دكي، وخرج.

ارتدى توم شورته على عجل. لقد توارى عن عينيّ دكي خلف باب الخزانة طيلة الوقت، على الرغم من أنّه يلبس سروالاً داخلياً... اتّهمته مارج هذا الاتّهام القذر، فكّر، فقط لأنّ دكي يستلطفه، ودكي لا يملك الشجاعة كي يواجهها وينكر ما سمعه. نزل إلى الأسفل، دكي يسكب لنفسه شراباً من خزانة المشروبات الموجودة على التراس.

«دكي! أوّد أن أوضّح الأمر» بدأ بالقول، «أنا لستُ شاذاً بدوري، ولا أريد أن يحسبني أيّ شخص كذلك».

«حسناً»، غمغم دكي.

نبرة دكي ذكّرت توم بالإجابات التي سمعها منه من قبل، عندما سأله إن كان يعرف هذا الشخص أو ذاك في نيويورك. بعضهم كانوا شواذاً، هذا صحيح، ولطالما ارتاب بأنّ دكي تعمّد إنكارَ معرفته بهم. حسناً، من الذي يجعل من الحبّة قبّة الآن بأيّ حال؟! إنّه دكي! تردّد توم، وغرق في دوّامة التفكير بالأمور التي لربّما قالها، أمور لئيمة وأخرى طافحة بالسلام، بعضها شَكُور وبعضها الآخر عدائيّ. تذكّر بعض الأشخاص الذين التقى بهم في نيويورك، صاحبهم من ثمّ هجرهم أخيراً، جميعهم... لكنّه ندم الآن لأنّه تعرّف إليهم في المقام الأوّل. لقد رافقوه لأنّه يسلّيهم، لكنّه لم يشارك بأيٍّ ممّا يفعلونه بتاتاً! عندما تحرّش به شخص أو اثنان منهم، صدّهما ببساطة، من ثمّ حاول أن يتصالح معهما لاحقاً بإضافة مكعّبات الثلج إلى كؤوس الشراب التي يحتسيانها، أو بتوصيلهما بالتاكسي حتّى ولو كانت وجهتهما مختلفة تماماً عنه، خشية أن يكرهاه... لقد كان حماراً! تذكّر أيضاً تلك اللحظة المُهينة وهو يقول لمجموعة من الأشخاص، ربّما للمرّة الثالثة أو الرابعة بحضور ڤيك سيمونز: «لا يسعني أن أحدّد هل أفضّلُ الرجال، أم النساء؟! لذلك أنا أفكّر بالتخلّي عنهم جميعهم!»، وكيف زجره ڤيك: «أوه! بحقّ المسيح تومي، اخرس!». جميع من يعرفهم كانوا يذهبون إلى جلسات

التحليل النفسيّ آنذاك، لذلك اعتاد على التظاهر بأنّه يرتادها بدوره، واختلق قصصاً طريفة رهيبة عمّا يدور فيها، كي يسلّي الآخرين في الحفلات. لطالما قهقهوا عندما سمعوا تلك العبارة من فمه بأسلوبه ذاك، وكيف سيهجر الرجال والنساء معاً، إلى أن قال له ڤيك اخرس بحقّ المسيح، فامتنع عن ذكرها بعد ذلك نهائيّاً، وعن ذكر جلسات التحليل النفسيّ أيضاً. في الواقع، قصصه فيها الكثير من الحقيقة، فكّر توم. بالمقارنة مع الآخرين، إنّه الأكثر براءة والأنقى تفكيراً بين جميع من يعرفهم، وهذه هي المفارقة الساخرة الآن فيما حدث بينه وبين دكي!.

«أشعر وكأنّني...» بدأ توم بالكلام، لكنّ دكي لم يصغِ إليه، بل أشاح بوجهه الذي تعلوه نظرة كئيبة، ومضى حاملاً كأسه إلى زاوية التراس. تقدّم توم نحوه خائفاً نوعاً ما. هل سيرميه دكي عن درابزين التراس، أم أنّه سيلتفت نحوه ببساطة ويطرده من المنزل؟!.

«هل تحبّ مارج يا دكي؟»، سأل بصوت خافت.

«كلّا، لكنّني أشعر بالأسف تجاهها. يهمّني أمرها، لقد كانت لطيفة جدّاً معي، وقضينا أوقاتاً طيّبة معاً... لا يمكنك أن تفهم هذا!».

«أفهمك! وهذا هو شعوري بالضبط منذ البداية حول العلاقة التي تجمعكما معاً، علاقة أفلاطونيّة من ناحيتك، أمّا مارج فقد وقعت في حبّك على الأرجح».

«هي كذلك. ينبغي على المرء ألّا يجرح مشاعر مَن يحبّونه كما تعرف».

«بالطبع!». تردّد توم مجدّداً، محاولاً انتقاء كلماته. ما زال خائفاً يرتجف، على الرغم من أنّ غضب دكي قد خمد، ولن يرميه عن الشرفة. قال بنبرة من تمالك نفسه: «أعتقد أنّك لن تراها كثيراً لو كنتما في نيويورك، أو لعلّك لن تراها إطلاقاً... لكنّ هذه القرية موحشة للغاية، و...».

«تماماً! لم أضاجعها، ولا أنوي أن أفعل ذلك، لكنّني أعتزم أن أحافظ على صداقتنا».

«حسناً... وهل حاولت أنا أن أمنعك؟! سبق وقلتُ لك دكي، أفضّل أن أرحل على أن أقوم بأيّ شيء قد يخرّب صداقتك مع مارج».

رمقه دكي بنظرة، ثمّ قال: «كلّا، لم تفعل شيئاً على الإطلاق، لا شيء محدّد، لكن من الواضح أنّك لا تحبّ وجودها معنا، ومن الواضح أيضاً أنّك تتصنّع اللطفَ عندما تتعامل معها».

«أنا آسف!»، قال توم بأسى. ندم لأنّه لم يبذل جهداً أكبر، ولأنّ قناع اللطف كان رديئاً. بوسعه القيام بما هو أفضل!.

«لا بأس. انسَ الأمر، أنا ومارج على ما يرام» قال دكي بتحدٍّ، وأشاح بوجهه عن توم كي يحدّق إلى الأمواج.

ذهب توم إلى المطبخ كي يغلي قهوة. لم يشأ أن يستعمل ماكينة الإكسبريسو، لأنّ دكي متعلّق بها جدّاً، وينزعج إن استعملها أحدٌ غيره. سيأخذ توم القهوة إلى غرفته، ويدرس في كتبه قليلاً قبل أن يأتي فاوستو، فكّر. لم يحن الوقت بعد كي يتصالح مع دكي... دكي لديه كبرياؤه، وسيبقى صامتاً معظم فترة ما بعد الظهر، سيقضي وقته في الرسم، من ثمّ سيأتي إليه حوالي الساعة الخامسة وكأنّ حادثة الثياب تلك لم تحصل قطّ.

توم متأكّد من شيء واحد فقط: دكي سعيد بوجوده معه، لأنّه ملّ الحياة وحيداً، فضلاً عن أنّه يشعر بالملل مع مارج أيضاً. ما تزال بحوزة توم ثلاثمئة دولار من النقود التي أعطاه إيّاها مستر غرينليف، وسينفقها هو ودكي على ملذّاتهما في باريس، في غياب مارج. لقد دُهش دكي كثيراً حين أخبره بأنّه لم يرَ سوى لمحات من باريس، وفقط عبر زجاج نافذة محطّة القطّار.

بانتظار أن تغلي القهوة، لملم توم طعام الغداء الذي لم يأكلاه. وضع الطنجرتين المليئتين بالطعام في وعاءين كبيرين من الماء لإبعاد النمل، ثمّ خبّأ قطعة الزبدة الطازجة، البيضتين، واللفائف الأربع التي اشترتها إرمليندا كي يأكلاها على الفطور غداً. إنّهما مضطرّان لشراء كمّيات صغيرة من كلّ شيء يوميّاً، نظراً لأنّ دكي لا يملك ثلّاجة، لكنّه يرغب بأن يشتري واحدة بنقود والده كما لمّح عدّة مرّات. تمنّى توم لو يغيّر رأيه، ثمن الثلّاجة سيُقتَطع من المال المخصّص للسفر إلى باريس، نظراً لأنّ ميزانيّة دكي محدودة للغاية مع دخله الشهريّ الذي لا يتجاوز خمسمئة دولار. دكي حريص بما يتعلّق بالمال نوعاً ما، لكنّه لا يتورّع عن توزيع بخشيش ضخم يميناً وشمالاً

سواء في الميناء أو في حانات القرية، كما أنّه يعطي خمسمئة ليرة لكلّ شحّاذ يقترب منه.

تحسّن مزاج دكي في الساعة الخامسة، بعد أن رافقه الإلهام الفنيّ طيلة ما بعد الظهر كما خمّن توم، فقد سمعه يصفر طيلة الساعة الأخيرة التي قضاها في مرسمه. أخيراً، خرج إلى التراس حيث يجلس توم وهو يراجع قواعد اللغة الإيطاليّة، وصحّح له بعض الألفاظ، كما أعطاه نصائح حول طريقة اللفظ.

«الإيطاليّون لا يلفظون Voglio بوضوح دائماً» قال دكي، «بل يقولون iovo' presentare mia amica Marge, per esempio»، وطوّح يده الطويلة نحو الخلف في الهواء. إنّه يومئ بيديه دائماً عندما يتحدّث الإيطاليّة، إيماءاته رشيقة، وكأنّه يقود أوركسترا في مقطوعة لِغاتو[1].

«الأفضل لك أن تصغي أكثر إلى ما يقوله فاوستو، وأن تركّز أقلّ على القواعد. أنا تعلّمتُ اللغة الإيطاليّة سماعيّاً في الشوارع». ابتسم له دكي قبل أن يمضي مبتعداً عبر ممرّ الحديقة، وها هو فاوستو يدخل من البوّابة.

أصغى توم بانتباه إلى محادثتهما الضاحكة بالإيطاليّة، وبذل أقصى ما في وسعه كي يفهم كلّ كلمة.

جاء فاوستو إلى التراس مبتسماً، وألقى بنفسه على أحد الكراسي، ثمّ رفع قدميه الحافيتين فوق الدرابزين. وجهه ليس ضاحكاً ولا عابساً، وتعابيره تتبدّل من لحظة إلى لحظة. إنّه أحد القلائل هنا ممّن لا يتكلّمون بلهجة أهل الجنوب، كما يقول دكي. فاوستو يقيم في مدينة ميلان، لكنّه ينزل حاليّاً في ضيافة عمّته في مونجيبللو حيث سيمكث عدّة أشهر. يأتي بانتظام في موعده ثلاث مرّات أسبوعيّاً، ما بين الخامسة والخامسة والنصف، فيجلس هو وتوم على التراس حيث يحتسيان النبيذ أو القهوة، ويتحدّثان لمدّة ساعة. بذل توم جهده كي يحفظ كلّ كلمة ينطقها فاوستو عن الصخور، عن البحر، عن السياسة (فاوستو شيوعيّ، ويحمل بطاقة الحزب الشيوعيّ التي يعرضها

1- legato: تُعزَف المقطوعة هنا مترابطة بانسجام واتّساق، من دون أن يترك العازف فواصل من الصمت عند الانتقال من نغمة إلى نغمة. المترجمة.

دون سابق إنذار على الأمريكيّين، لأنّه يتلذّذ بالصدمة التي سترتسم على وجوههم، على حدّ قول دكي)، وعن الحياة الجنسيّة الملتهبة لبعض سكّان القرية. أحياناً، لا يجد فاوستو ما يتحدّث عنه، وعندها يحدّق إلى توم من ثمّ ينفجر ضاحكاً. توم يحقّق تقدّماً عظيماً ثابتاً، لأنّ اللغة الإيطاليّة هي الموضوع الوحيد الذي درسه يوماً واستمتع به، وشعر بأنّه قادر حقّاً على الالتزام بتعلّمها. يرغب أن يتكلّمها بطلاقة مثل دكي، ويعتقد أنّه قادر على بلوغ هذا المستوى خلال شهر آخر، لو واظب على دراستها باجتهاد.

-11-

مشى توم بجذل عبر التراس، من ثمّ دخل إلى مرسم دكي. «هل تريد الذهاب إلى باريس في تابوت؟»، سأله.

«ماذا؟!»، رفع دكي رأسه عن ألوانه المائيّة.

«لقد تكلّمتُ مع رجل إيطاليّ في فندق جورجيو. سننطلق من تريسته، متمدّدين في تابوتين في مؤخّرة سيّارة يرافقها بعض الفرنسيّين، وسيحصل كلٌّ منّا على مئة ألف ليرة. أعتقد أنّ الأمر يتعلّق بالمخدّرات».

«مخدّرات في تابوت؟! أليست خدعة قديمة؟».

«لقد تحدّثنا بالإيطاليّة، لذلك لم أفهم كلّ شيء، لكنّه قال إنّهم سينقلون ثلاثة توابيت، وربّما يضمّ التابوت الثالث جثّة حقيقيّة سيحشونها بالمخدّرات. بأيّ حال، سنربح الرحلة فضلاً عن الخبرة».

أفرغ من جيوبه باكيتات سجائر لاكي سترايك المخصّصة للسفن، والتي اشتراها لتوّه من أحد الباعة المتجوّلين من أجل دكي. «ما رأيك؟»، سأله.

«فكرة رائعة! إلى باريس، في تابوت!».

لاحت ابتسامة طريفة على وجه دكي، وكأنّه يحتال على توم متظاهراً بأنّه صدّق ما سمعه، دون أن يصدّق كلمة واحدة في الواقع.

«أنا جادّ!» قال توم، «الرجل يبحث فعلاً عن شابّين مستعدّين للقيام بذلك. يُفترَض بأنّ التوابيت تضمّ رفاة ثلاثة فرنسيّين قُتِلوا في الهند الصينيّة، وأنّ المرافق الفرنسيّ يمتّ بصلة قربى لأحدهم، أو لهم جميعهم». لم يقل الرجل ما سبق بحذافيره، لكنّ ما اقتبسه توم عنه يكفي، كما أنّ مئة ألف ليرة إيطاليّة تعادل ما ينوف على ثلاثمئة دولار، أي أنّها مبلغ كافٍ لتغطية نفقات المرح في باريس.

دكي -الذي لم يحسم أمره حول السفر إلى باريس أصلاً- نظر إليه بحدّة، وأطفأ عقب سيجارة نازيونالي المنحنية الصغيرة التي كانت في فمه، ثمّ أشعل سيجارة لاكي سترايك. «هل أنت واثق من أنّ هذا الرجل الذي تكلّمتَ معه، لم يكن هو شخصيّاً تحت تأثير المخدّرات؟»، سأله.

«أنت تبالغ بالحذر اللعين هذه الأيّام!» قال توم ضاحكاً، «أين تبخّرت معنوياتك؟! تبدو وكأنّك لم تصدّقني! تعال معي، سأدلّك على الرجل... ما يزال بانتظاري في الفندق، اسمه كارلو».

لم يتحرّك دكي. «أيّاً كان من يطرح عليك عرضاً كهذا، فلن يشرح لك كلّ التفاصيل. هذا أوّلاً، ثانياً، قد يستعينون بشابّين قويّين يذهبان معهم من تريسته إلى باريس، لكنّ هذا ليس منطقيّاً برأيي».

«هل ستأتي معي كي تتحدّث مع الرجل؟! القِ نظرة عليه على الأقلّ، إن لم تصدّقني».

«بكلّ تأكيد» نهض دكي فجأة، «وربّما أقوم بالرحلة لقاء مئة ألف ليرة!». أغلق المجموعة الشعريّة التي كانت مقلوبة على صفحاتها المفتوحة فوق الكنبة في المرسم، من ثمّ تبع توم إلى الخارج. مارج تملك الكثير من كتب الشِّعر، ودكي بدأ باستعارتها مؤخّراً.

ما يزال الرجل جالساً إلى طاولة جانبيّة في فندق جورجيو، ابتسم توم وحيّاه.

«مرحباً كارلو!» قال توم، «هل لي بالجلوس؟».

«أجل، أجل» قال الرجل وهو يشير إلى الكراسي حول طاولته.

«هذا صديقي» قال توم بحذر بالإيطاليّة، «وهو يريد أن يعرف إن كان العمل في رحلة القطار حقيقيّاً أم لا». راقب كارلو وهو يتفحّص دكي بإمعان، وأدهشه أنّ ملامح الرجل القويّة القاتمة، وعينيه القاسيتين، لم تشِ بشيء يتعدّى الاهتمام المهذّب، وأدهشه أيضاً كيف حلّل خلال جزء من الثانية ابتسامةَ دكي الفاترة، وملامحه المتشكّكة، وبشرته البرونزيّة التي لا يمكن اكتسابها إلّا بعد أشهر من الاستلقاء في الشمس، وثيابه المهترئة إيطاليّة الصنع، وخاتمَيه الأمريكيَّين.

افترّت شفتا الرجل الشاحبتان الرقيقتان تدريجيّاً عن ابتسامة، ورمق توم.

«حسناً؟» سأله توم وقد نفد صبره.

رفع الرجل كأس المارتيني الحلو إلى فمه، واحتساه، ثمّ قال: «العمل حقيقيّ، لكن لا أظنّ أنّ صديقك هو الرجل المناسب له».

نظر توم إلى دكي، إنّه يراقب الرجلَ بحذر، محافظاً على ابتسامته الحياديّة ذاتها. فكّر توم فجأة بأنّها ابتسامة مصطنعة.

«حسناً، إنّه عمل حقيقيّ على الأقلّ، كما سمعتَ»، قال لدكي.

«آها» قال دكي وهو يحدّق إلى الرجل، كأنّه نوع من الحيوانات التي تستقطب اهتمامه، والتي قد يقتلها إن شاء. بوسعه أن يتحدّث معه بالإيطاليّة، لكنّه لم ينطق كلمة. قبل ثلاثة أسابيع فقط، فكّر توم، كان سيقبل ما عرضه كارلو عليهما فوراً. هل من الضروريّ أن يجلس هكذا وكأنّه مُخبِر، أو محقّق شرطة ينتظر وصول التعزيزات كي يعتقل الرجل؟!.

«حسناً» قال توم أخيراً، «لقد صدّقتني، أليس كذلك؟».

رمقه دكي. «بخصوص العمل؟! وما أدراني أنا؟!، قال.

نظر توم إلى الإيطاليّ بترقّب.

هزّ كارلو كتفيه. «لا ضرورة لمناقشة الأمر، أليس كذلك؟»، سأله بالإيطاليّة.

«كلّا»، أجاب توم. غلى في عروقه غضبٌ مجنون أعمى جعله يرتجف. إنّه غاضب من دكي الذي يرمق أظافر الإيطاليّ القذرة، وياقة قميصه المتّسخة، ووجهه القبيح القاتم الحليق، وبشرته التي تبدو في منطقة اللحية أفتح ممّا يحيط بها، لأنّه لم يغتسل منذ مدّة. عينا الإيطاليّ لطيفتان ودودتان، وأقوى من عيني دكي. تجمّد توم، يعي أنّه عاجز عن شرح ما يدور في رأسه بالإيطاليّة، وأراد أن يتحدّث إلى كارلو وإلى دكي كليهما في آن واحد.

«لا نريد شيئاً، شكراً يا برتو»، قال دكي بهدوء للنادل الذي جاء كي يسجّل طلباتهم، من ثمّ نظر إلى توم. «مستعدّ للمغادرة؟»، سأله.

قفز توم واقفاً فجأة، فانقلب الكرسيّ خلفه. أعادها إلى مكانها، وأحنى رأسه مودّعاً الإيطاليّ. شعر بأنّه مدين له باعتذار، لكنّه عجز عن فتح فمه كي

يقول «إلى اللقاء». هزّ الإيطاليّ رأسه في تحيّة وداع بدوره، وابتسم. لحق توم بدكي، الذي يرتدي بنطالاً أبيض طويلاً، إلى خارج الفندق.

في الشارع، قال توم: «كلّ ما أردته هو أن تتأكّد بأنّ القصّة حقيقيّة... آمل أنّك صدّقتني على الأقلّ!».

«حسناً، إنّها حقيقيّة» قال دكي مبتسماً، «ما هي مشكلتك؟!».

«ما هي مشكلتك أنت؟!»، سأله توم.

«ذلك الرجل محتال، هل هذا ما تريدني أن أعترف به؟ حسناً».

«هل كان من الضروريّ أن تعامله بفوقيّة؟! هل آذاك؟!».

«هل يُفترَض بي أن أركع على ركبتيّ أمامه؟! لقد رأيتُ محتالين من قبل، هذه القرية تعجّ بهم». عبس دكي، والتقى حاجباه الأشقران، «، سحقاً، ما هي مشكلتك؟! هل ستقبل بعرضه الجنونيّ؟! انطلق إذن».

«لم يعد هذا ممكناً، حتّى ولو أردتُ! لأنّك تصرّفتَ بتلك الطريقة!».

توقّف دكي في منتصف الشارع، ونظر إليه. إنّهما يتجادلان بصوت عالٍ جدّاً، والناس حولهما يحدّقون إليهما ويراقبون ما يحصل.

«لكان ذلك ممتعاً!» قال توم، «أمّا الطريقة التي اخترت أن تتصرّف بها، فلا! كنتَ ستحسب العرضَ طريفاً قبل شهر، عندما كنّا في روما».

«أوووووه لا!» قال دكي وهو يهزّ رأسه، «لا أظنّ ذلك».

الشعور بالإحباط، والعجز عن التعبير عمّا يدور في رأسه، عذّبا توم، وكذلك نظرات الناس حولهما. أجبر نفسه على متابعة المشي بخطوات صغيرة متيبّسة في البداية، إلى أن تأكّد من أنّ دكي يسير خلفه. وجه دكي ما يزال طافحاً بالحيرة والشكّ، فأدرك توم أنّه دُهش بسبب ردّ فعله. أراد أن يشرح له، أن ينفذ إلى أعماقه كي يفهمه، وبالتالي كي يتشاطرا الإحساس نفسه الآن، خاصّة أنّ دكي اختبر شعور توم ذاته قبل شهر.

«إنّها الطريقة التي تصرّفتَ بها» قال توم أخيراً، «لا لزوم لها. ذلك الرجل لم يتسبّب لك بالأذى».

«إنّه محتال قذر!» صرخ دكي، «بحقّ المسيح! عدْ إليه بما أنّكَ أحببته كثيراً، لستَ مجبراً على القيام بما أقوم به أنا».

توقّف توم. انتابته رغبة ملحّة بالذهاب بعيداً، ليس بالضرورة إلى الإيطاليّ، بل كي يترك دكي وحيداً فحسب. من ثمّ، تبدّد توتّره فجأة، استرخت كتفاه وآلمتاه، وأخذ يتنفّس بسرعة من فمه. أراد أن يقول «حسناً دكي!» على الأقلّ، كي يتصالحا وينسى دكي ما حصل، لكنّ لسانه انعقد. حدّق إلى عيني دكي الزرقاوين العابستين، وحاجبيه اللذين سفعتهما الشمس فابيضّا. هاتان العينان تبرقان خاويتَين، وكأنّهما مجرّد قطعتين صغيرتين من حلوى الجيليه الزرقاء مع نقطة سوداء في مركز كلٍّ منهما، خاليتان من المعنى، ولا صلة لهما بدكي. من المفترض أن ترى الروحَ من خلال العينين، أن ترى الحبَّ من خلال العينين، عبرهما وحدهما فقط تنظر إلى إنسان آخر، كي ترى ما يدور في أعماقه حقّاً... لكنّ توم لم يرَ في هاتين العينين، إلّا ما يراه عندما ينظر إلى سطح مرآة قاسية ميتة. اعتصر الألم صدره، فدفن وجهه بين يديه. شعر بأنّ دكي قد انسلخ عنه فجأة، لم يعودا صديقَين الآن، ولا يعرف أحدهما الآخر إطلاقاً. صعقه هذا الإحساس كأنّه حقيقة رهيبة، حقيقة كانت موجودة طيلة الوقت، حقيقة تشمل كلّ من عرفهم في الماضي، وكلّ من سيتعرّف عليهم في المستقبل، كلّ من وقف أمامه سابقاً وكلّ من سيقف لاحقاً. سيدرك المرّة تلو المرّة بأنّه لم يعرفهم قطّ، لكنّ الوهم أسوأ بكثير، الوهم الأزليّ الذي يجعله يعتقد في كلّ مرّة بأنّه يعرفهم حقّ المعرفة، وبأنّهم منسجمون معاً ومتشابهون. الصدمة الخرساء التي ولّدها هذا الإدراك الجديد، كانت لوهلة أكبر من قدرته على التحمّل. شعر بأنّه وقع في قبضة نوبة صرع، وأنّه سيسقط أرضاً.... هذا كثير! الأجانب من حوله، اللغة المختلفة، فشله، كراهية دكي له... إنّه محاط بالغرباء وبالعداء! من ثمّ، شعر بيدي دكي تجذبان يديه بعيداً عن وجهه.

« ما خطبك؟!» سأل دكي، «هل أعطاك ذلك الرجل جرعة مخدّرات؟!».

«كلّا».

«هل أنت متأكّد؟! هل دسّ شيئاً في شرابك؟».

«كلّا».

سقطت أولى قطرات مطر المساء على رأس توم، وقصفَ الرعدُ عدائيّاً من عليين أيضاً. «أريد أن أموت»، تمتم بصوت خافت.

جذبه دكي من ذراعه، فتعثّر عند عتبة أحد الأبواب. إنّهما الآن في حانة صغيرة تقع مقابل مكتب البريد. طلب دكي براندي، نوعاً محدّداً من البراندي الإيطاليّ، لأنّ توم لا يستحقّ البراندي الفرنسيّ على ما يبدو.

احتسى توم شرابه كلّه، ثلاث كؤوس من البراندي ذي المذاق الحلو الأشبه بالدواء، كأنّه عقار سحريّ سيعيده إلى ما يظنّ عقله بأنّه «الواقع» المعتاد: رائحة سيجارة نازيونالي في يد دكي، ملمس خشب البار ذي العقد تحت أصابعه، الضغط الشديد في معدته وكأنّ قبضة ما تعصر سرّته، الصورة النابضة بالحياة في رأسه عن الطريق الطويل الوعر الذي سيسير عليه من هنا إلى المنزل، والألم الخفيف في فخذيه الذي سيتلو ذلك.

«أنا بخير» قال توم بصوت عميق خافت، «لا أعرف ما هي المشكلة... لا بدّ أنّ الحرارة أثّرت عليّ لبضع دقائق»، وضحك قليلاً. إنّه الواقع، الضحك يبدّده، يجعله سخيفاً. إنّه أهمّ ما حدث معه في الأسابيع الخمسة الماضية منذ أن التقى بدكي، وربّما أهمّ ما حصل في حياته كلّها.

لم يعقّب دكي، بل اكتفى بوضع السيجارة في فمه، وسحب أوراقاً نقديّة من فئة المئة ليرة من محفظته السوداء المصنوعة من جلد التمساح، وتركها على البار. صمتُ دكي جرحَ مشاعر توم، وكأنّه طفل مريض منزعج، ينتظر سماع كلمة لطيفة على الأقلّ عندما يتلاشى مرضه... دكي لم يبالِ به، بل اشترى له البراندي ببرود كما يشتريه لغريب التقى به صدفة، غريب مريض لا يملك مالاً. دكي لا يريدني أن أرافقه إلى كورتينا، فكّر توم فجأة للمرّة الأولى. مارج قرّرت أن تذهب أخيراً، واشترت هي ودكي ترمساً جديداً ضخماً في آخر زيارة لهما إلى نابولي، كي يستعملاه في كورتينا. لم يسألاه هل أعجبه الترمس أو سواه من الحاجيّات، إنّهما يقصيانه تدريجيّاً وبهدوء من تحضيراتهما. دكي يتوقّع منه أن يرحل قبل موعد رحلة كورتينا، فكّر توم. قبل أسبوعين فقط، قال دكي بأنّه سيريه خريطة موجودة عنده، كي يشرح له مسارات التزلّج حول كورتينا، لكنّه ألقى نظرة على الخريطة في إحدى الأمسيات بمفرده، ولم يقل شيئاً لتوم.

«جاهز؟»، سأله دكي.

تبعه توم إلى خارج الحانة، وكأنّه كلب.

«يمكنك الوصول إلى المنزل وحدك كما أظنّ، سأركض وأرى مارج قليلاً»، قال دكي على الطريق.

«أنا على ما يرام»، أجاب توم.

«جيّد»، قال دكي دون اكتراث وهو يبتعد. «هل لك أن تستلم البريد؟ قد أنساه أنا»، أضاف.

أومأ توم موافقاً، وتوجّه إلى مكتب البريد. وصلتهما رسالتان، إحداهما موّجهة له أرسلها مستر غرينليف، والأخرى موجّهة إلى دكي أرسلها شخص ما من نيويورك لا يعرفه توم. وقف عند عتبة مكتب البريد، فتح رسالة مستر غرينليف، وفضّ الورقة المطبوعة على الآلة الكاتبة باحترام. تحمل في أعلاها شعار شركة بورك -غرينليف- ووتركرافت المهيب بلونه الأخضر الفاتح، والعلامة التجاريّة للشركة، وهي دفّة سفينة في منتصف الشعار.

10 تشرين الثاني، 19—

عزيزي توم،

بما أنّك تقيم مع دكي منذ ما ينوف على الشهر، دون أن يبدي أيّة بوادر تدلّ على أنّه عائد للوطن تختلف عن تلك التي أعلنها قبل قدومك، استنتجتُ بأنّك لم تنجح بإقناعه. على الرغم من أنّك كتبتَ لي بحسن نيّة أنّه يفكّر بالعودة، لكنّني بصراحة لم ألمس ما يدلّ على ذلك في رسالته المؤرّخة بتاريخ السادس والعشرين من تشرين الأوّل. في حقيقة الأمر، يبدو لي مصمّماً أكثر من السابق على البقاء حيث هو.

أريدك أن تعلم أنّني أنا وزوجتي، نقدّر الجهود التي بذلتَها من أجلنا ومن أجله. أنت حرٌّ من أيّ التزام تجاهي الآن، وأنا متأكّد من أنّك لم تتكبّد عناءً كبيراً في إطار ما قمت به خلال الشهر الماضي، وأتمنّى من كلّ قلبي أنّ الرحلة قدّمت لكَ بعض المتعة، على الرغم من فشل هدفها الأساسيّ.

نرسل لك تحيّاتنا وشكرنا أنا وزوجتي

المخلص هـ. ر. غرينليف

إنّها الضربة الأخيرة! نبرتها باردة، أشدّ برودة حتّى من أسلوبه العمليّ

المعتاد في الكتابة، لأنّ هذه الرسالة تعدّ بمنزلة طرد لتوم من المهمّة التي كُلِّف بها، على الرغم من أنّ مستر غرينليف غلّف ذلك بنوع من الشكر اللبق. لقد قطع مستر غرينليف علاقتَه معه بكلّ بساطة! لقد فشل! أنا متأكّد من أنّك لم تتكبّد عناءً كبيراً... أليست هذه سخرية؟! مستر غرينليف لم يقل حتّى بأنّه يتمنّى رؤية توم مجدّداً، عندما يعود إلى الولايات المتّحدة!.

صعد توم التلّة بطريقة ميكانيكيّة. تخيّل دكي في منزل مارج الآن، وهو يروي لها ما جرى مع كارلو في بار الفندق، وكيف تصرّف توم بطريقة غريبة في الطريق بعد ذلك، ولا بدّ أنّ مارج ستقول: «لِم لا تتخلّص منه يا دكي؟». هل يجدر به الذهاب إليهما، كي يشرح لهما ما حصل وجهاً لوجه، ويجبرهما على الإنصات إليه؟! استدار، ونظر إلى الساحة الموجودة أمام بيت مارج في أعلى التلّة، والتي لا يمكن تمييز ما فيها بوضوح من هنا، وإلى النافذة الفارغة المعتمة. جاكيت الجينز الذي يلبسه بدأ يتبلّل بالمطر، فرفع ياقته للأعلى، وتابع السير بسرعة إلى الأعلى صوب منزل دكي. على الأقلّ، فكّر بفخر، لم يحاول أن يبتزّ مستر غرينليف للحصول على المزيد من المال، علماً أنّه كان قادراً على ذلك، وبالتواطؤ مع دكي أيضاً لو طرح عليه هذه الفكرة عندما كان في مزاج حسن. أيّ شخص آخر في مكانه سيفعل ذلك، فكّر توم، أيّاً كان، لكنّه هو -توم- لم يفعل، وهذا جدير بالثناء.

وقف في زاوية التراس، وحدّق إلى خطّ الأفق الخالي المبهم، دون أن يفكّر أو يشعر بأيّ شيء، ما عدا شعور خفيف بالوحدة والضياع، أشبه بحلم. حتّى دكي ومارج يبدوان بعيدَين الآن جدّاً، ولا يعنيه عمّاذا يتحدّثان. إنّه وحيد، ووحدته هي ما يهمّه فقط حاليّاً. وخزه شعور بالخوف أسفل عموده الفقريّ، امتدّ إلى أليتيه.

التفت عندما سمع صوت البوّابة تُفتَح. إنّه دكي، يسير عبر الممرّ مبتسماً، لكنّ ابتسامته بدت لتوم مصطنعة، ومهذّبة.

«ماذا تفعل هكذا تحت المطر؟!»، سأله دكي الذي وقف عند باب البهو.

«إنّه منعش للغاية» قال توم بلطف، «ها هي رسالة لك». ناول دكي رسالته، ودسّ رسالة مستر غرينليف في جيبه.

علّق توم جاكيته في خزانة البهو، وبعد أن انتهى دكي من قراءة الرسالة التي جعلته يقهقه بصوت عال، سأله: «هل تعتقد بأنّ مارج قد ترغب بمرافقتنا إلى باريس؟».

لاحت الدهشة على وجه دكي، وأجاب: «أعتقد ذلك».

«حسناً، اسألْها»، قال توم بابتهاج.

«لا أعرف هل يجدر بي الذهاب إلى باريس، أم لا» قال دكي، «لا أمانع الابتعاد بضعة أيّام إلى مكان ما، لكن باريس...» وأشعل سيجارة. «أظنّ أنّني قد أذهب فوراً إلى سان ريمو، أو جنوة... لا بأس بجنوة»، أضاف.

«لكن باريس... جنوة لا تُقارن بها، أليس كذلك؟!».

«كلّا، بالطبع لا، لكنّها أقرب بكثير».

«متى سنزور باريس إذن؟!».

«لا أعرف، يوماً ما. باريس ستبقى في مكانها».

أنصت توم إلى صدى الكلمات في أذنيه، محاولاً أن يحدّد نبرة ما سمعه. أوّل أمس، تلقّى دكي رسالة من والده قرأ بضعة أسطر منها بصوت عال، وضحكا كلاهما هو وتوم من نقطة ما، لكنّه لم يتلُ عليه بقيّة الرسالة كما فعل مع سابقتيها. توم متأكّد من أنّ مستر غرينليف قال لابنه بأنّ أمله خاب بتوم ريبلي، وبأنّ توم هذا يستغلّ نقوده وينفقها على ملذّاته الشخصيّة. قبل شهر واحد فقط، كان دكي سيضحك من أمر كهذا أيضاً، لكن ليس الآن! فكّر توم.

«أعتقد أنّه يجدر بنا الذهاب إلى باريس، بما أنّه بقي معي بعض المال»، أصرّ.

«اذهبْ أنت، مزاجي ليس ملائماً لرحلة كهذه الآن، أريد أن أدّخر طاقتي لرحلة كورتينا».

«حسناً... أعتقد أنّنا سنذهب إلى سان ريمو إذن!»، قال توم متظاهراً بأنّه يوافق على رأي دكي، على الرغم من أنّه أوشك على البكاء.

«حسناً».

اندفع توم من البهو إلى المطبخ، ففوجئ بهيكل الثّلاجة الأبيض الضخم يقفز من زاوية المطبخ إلى وجهه. كان يريد شراباً مع مكعّبات ثلج، أمّا الآن فلم يعد يرغب بلمس هذا الشيء! لقد أمضى يوماً كاملاً في نابولي مع مارج

ودكي، وهم يتفرّجون على الثلّاجات، ويعاينون قوالب الثلج، ويحصون عدد أجزاء كلّ ثلّاجة، إلى أن فقد هو القدرة على التميز بين واحدة وأخرى، أمّا دكي ومارج فتابعا البحث بحماس مَن تزوّجوا حديثاً. بعد ذلك، أمضوا بضع ساعات في المقهى، ناقشت مارج ودكي خلالها مزايا كلّ الثلّاجات التي شاهدوها بالتفصيل، إلى أن قرّرا أخيراً ماذا سيشتريان، وها هي مارج الآن تروح وتجيء إلى منزلهما أكثر من المعتاد، لأنّها خزّنت بعضَ الطعام في الثلّاجة الجديدة، كما أنّها تقترض الثلج باستمرار. أدرك توم فجأة لماذا يكره الثّلاجة كثيراً: الثلّاجة تعني أنّ دكي سيبقى مستقرّاً هنا! لم تقضِ على مخطّطات رحلتهما الشتويّة إلى اليونان فحسب، بل كذلك على خطط دكي بالانتقال للعيش في باريس أو روما كما قال لتوم في الأسابيع الأولى التي أمضاها هنا. لن ينتقل، ليس بعد أن اشترى ثلّاجة تتميّز بأنّها واحدة من أربع ثلّاجات في القرية كلّها، ومزوّدة بستّة قوالب للثلج وبالعديد من الرفوف بداخل الباب، وتبدو كواجهة سوبرماركت كلّما فُتِحت.

سكب توم لنفسه شراباً دون ثلج. يداه ترتجفان. بالأمس فحسب، سأله بطريقة عفويّة للغاية في منتصف حديث ما: «هل ستعود إلى الوطن لقضاء الكريسماس؟»، على الرغم من أنّ دكي اللعين يعرف تمام المعرفة بأنّه لن يذهب. لا يملك منزلاً هناك، ودكي يعرف هذا أيضاً. لقد سبق لتوم أن حكى له كلّ شيء عن عمّته دوتي في بوسطن... ما قاله دكي كان مجرّد تلميح واخز، هذا كلّ شيء. مارج لديها الكثير من الخطط للكريسماس، وهي تدّخر علبة من بودنغ الخوخ الإنجليزيّ لتلك المناسبة، كما أنّها ستشتري ديكاً روميّاً من أحد الفلّاحين، وبوسع توم أن يتخيّل كيف ستطهوه برومانسيّة مفرطة. تخيّل الشجرة المُزيَّنة، التي قد تكون مصنوعة من الكرتون، ترنيمة «الليلة الصامتة»، شراب البيض المخفوق، وهدايا مارج المضمّخة بالعواطف لدكي... إنّها تتقن الحياكة، وهي تأخذ جوارب دكي دائماً معها كي ترفوها. سيقصيانه كلاهما بتهذيب، وببطء، من كلّ ما يفعلانه. كلّ كلمة ودودة سيقولانها له، ستكون بمنزلة جهد مؤلم يتكبّدانه. لا يستطيع توم أن يتحمّل هذا، حسناً، سيغادر، سيفعل أيّ شيء عوضاً عن أن يضطر لقضاء الكريسماس معهما.

-12-

قالت مارج إنّها غير مهتمّة بالذهاب معهما إلى سان ريمو، لأنّها الآن في خضمّ «مرحلة وحي» من العمل على كتابها. مارج تعمل في نوبات متقطّعة من النشاط والإنجاز، لكنّها مبتهجة دائماً، على الرغم من أنّها تبدو لتوم «غارقة في الوحل» على حدّ قولها معظم الوقت، وهي حالة تعلن عنها دائماً بضحكة صغيرة مرحة. الكتاب مقرف حتماً، فكّر توم. سبق له أن تعرّف على كتّاب من قبل، لا يمكن للمرء أن يؤلّف كتاباً بطرف إصبعه وهو يقضي نصف يومه بالتقلّب على الشاطئ، متسائلاً عمّا سيتناوله على العشاء. مع ذلك، كان سعيداً بأنّها تمرّ بنوبة النشاط تلك في هذا التوقيت بالذات، الذي يتقاطع مع ذهابه هو ودكي إلى سان ريمو.

«سأكون ممتنّة لك إن جلبتَ لي تلك الكولونيا، دكي» قالت، «تعرفها، ستراديڤاري. لم أعثر عليها في نابولي. لا بدّ أنّها متوافرة في سان ريمو، فالعديد من المتاجر هناك تبيع بضائع فرنسيّة».

تخيّل توم كيف سيمضيان يوماً كاملاً هو ودكي بالبحث عنها في سان ريمو، تماماً كما أمضيا ساعات في نابولي للسبب نفسه في أحد أيّام السبت.

أخذا حقيبة واحدة من حقائب دكي، اشتركا بتوضيب أمتعتهما فيها، لأنّهما خطّطا لقضاء ثلاث ليال وأربعة أيام فقط في سان ريمو. مزاج دكي مشرق وأفضل قليلاً، لكنّ النهاية المحتومة ما تزال واردة، فقد تكون هذه آخر رحلة يقومان بها معاً إلى أيّ مكان. من وجهة نظر توم، بهجة دكي المهذّبة في القطار كانت أشبه بابتهاج مضيف يكره ضيفه، لكنّه يخشى أن يدرك الضيف ذلك، ويحاول أن يصلح الأمور في اللحظة الأخيرة. لم يشعر توم إطلاقاً من قبل بأنّه ضيف مملّ، وغير مُرحَّب به! في القطار، حكى له دكي عن سان ريمو، وعن الأسبوع الذي قضاه هناك بصحبة فريدي مايلز

عندما جاء إلى إيطاليا. سان ريمو مدينة صغيرة، لكنّها مشهورة كمركز تسوّق عالميّ، قال دكي، يزورها الناس من فرنسا كي يتسوّقوا فيها. خطر لتوم أنّ دكي يحاول إقناعه بمزايا المدينة، كي يبقى فيها بمفرده عوضاً عن العودة معه إلى مونجيبللو، فشعر بأنّه يكره سان ريمو قبل أن يصلا إليها.

بمجرّد أن دخل القطار إلى محطّة سان ريمو، قال دكي: «بالمناسبة توم، أكره أن أقول لك هذا، وأخشى أنّ كلامي قد يزعجك للغاية... لكنّني أفضّل حقّاً الذهاب إلى كورتينا دامبِزو وحدنا أنا ومارج. أظنّ أنّها تفضّل هذا أيضاً... بعد كلّ شيء، أنا أدين لها بأمر ما، كقضاء عطلة ممتعة على الأقلّ، وأنت لا تبدو متحمّساً كثيراً للتزلّج».

أصبح توم بارداً ومتخشّباً فجأة، لكنّه حاول ألّا يبدو متأثّراً إطلاقاً، وألقى باللّائمة على مارج. «لا بأس» قال، «بالطبع!». نظر بعصبيّة إلى الخارطة في يده، وبحث بيأس حول سان ريمو عن مكان آخر يذهب إليه، مع أنّ دكي أنزل الحقيبة لتوّه عن الرفّ.

«لسنا بعيدين عن مدينة نيس، أليس كذلك؟»، سأل توم.

«كلّا».

«ولا عن مدينة كان. أودّ أن أزورها بما أنّنا وصلنا إلى هنا. كان موجودة في فرنسا على الأقلّ»، أضاف بنبرة تأنيب.

«حسناً، يمكننا ذلك. هل جلبتَ جواز سفرك؟».

توم يحمل جواز سفره معه. ركبا قطاراً آخر إلى مدينة كان، ووصلا عند الحادية عشرة ليلاً. إنّها مدينة جميلة! تعاريج الميناء التي توسّعها الأضواء الصغيرة إلى أهلّة رفيعة طويلة، البوليڤار الرئيسيّ الأنيق الأشبه بحديقة استوائيّة تحاذي الشاطئ، والمزروع بصفوف من أشجار النخيل، وصفوف من الفنادق الفاخرة. فرنسا! إنّها ساحرة أكثر من إيطاليا، وأكثر أناقة أيضاً، يستطيع توم أن يشعر بذلك على الرغم من العتمة. ذهبا إلى فندق في الشارع الخلفيّ الأوّل، وهو فندق غراي دالبيو الراقي الذي لا يكلّف كثيراً كما قال دكي، مع أنّ توم لن يمانع دفع مبلغ ضخم للنزول في فندق يطلّ مباشرة على الواجهة البحريّة. تركا الحقيبة في الفندق، وذهبا إلى بار فندق الكارلتون،

لأنه البار الأكثر عصريّة في مدينة كان على حدّ قول دكي، ولن يجدا فيه سوى القليل من الزبائن، بسبب عدم وجود الكثير من السيّاح هنا في هذا الوقت من السنة. عرض توم عليه أن يشربا كأساً ثانية، لكنّه رفض.

في الصباح التالي، تناولا الفطور في أحد المقاهي، من ثمّ تمشيا على الشاطئ، وكلٌّ منهما يلبس المايوه تحت بنطاله. النهار بارد، لكنّه ليس إلى درجة تتعذّر معها السباحة، فضلاً عن أنّهما معتادان على السباحة في مونجيبللو في طقس أشدّ برودة. الشاطئ خالٍ عملياً إلّا من بضعة أشخاص، ومجموعة من الرجال يلعبون لعبة ما، فوق حاجز الأمواج التي تتلاطم وتتكسّر بعنف شتويّ. الآن، اكتشف توم أنّ الرجال يؤدّون أكروبات.

«لا بدّ أنّهم محترفون!» هتف توم، «جميعهم يلبسون كيلوتات سترينغ صغيرة صفراء متشابهة!». راقبهم باهتمام وهم يصنعون هرماً بشريّاً، الأقدام مرصوصة على الأفخاذ المنتفخة، والأيدي تتشبّث بـالأذرع. سمعهم يصيحون: «هيّا!» ويعدّون «واحد، اثنان!». «انظر، دكي!» صاح، «إنّه يصعد للقمّة!» ووقف ساكناً كي يتأمّل أصغرهم، صبيّ في السابعة عشرة من عمره تقريباً، يتسلّق كتفيّ الرجل الواقف في المركز، بين ثلاثة آخرين يشكّلون قمّة الهرم البشريّ. وقف الصبيّ بثبات، ذراعاه مفرودتان، وكأنّ الناس يصفّقون له الآن. «براڤو!»، صاح توم.

ابتسم الصبيّ له، قبل أن يقفز للأسفل برشاقة نمر.

نظر توم إلى دكي، المشغول بتأمّل رجلَين يجلسان بالقرب منهما عند الشاطئ.

«عشرة آلاف زهرة رأيتُ بلمحة / تهزّ رؤوسها في رقصة رشيقة[1]»، قال دكي بلؤم.

فزع توم، من ثمّ غمرته موجة خزي حادّة، الخزي ذاته الذي شعر به في مونجيبللو عندما أخبره دكي بأنّ مارج تظنّه شاذّاً. حسناً، فكّر توم، لاعبو الأكروبات شواذّ، لعلّ مدينة كان مليئة بالشواذّ أيضاً، وإذن؟! شدّ على

1- المقطع من قصيدة لوليام ووردسورث تصف أزهار النرجس الصفراء، وهي مجاز كلاسيكيّ كان مستخدماً للإشارة إلى الرجال المثليّين جنسيّاً. المترجمة.

قبضتيه بداخل جيبي بنطاله، وتذكّر العمّة دوتي وهي تقول: «إنّه مخنّث، مخنّث منذ طفولته، تماماً كوالده».

وقف دكي متصالب الذراعين، وهو يحدّق إلى المحيط. تعمّد توم ألّا ينظر إطلاقاً إلى لاعبي الأكروبات، على الرغم من أنّ ما يقومون به مسلٍّ أكثر من تأمّل الأمـواج. «هل ستسبح؟»، سأل وهو يفكّ أزرار قميصه بشجاعة، على الرغم من أنّ الماء بدا فجأة بارداً للغاية.

«لا أظنّ ذلك» قال دكي، «لِم لا تبقى هنا وتتفرّج على لاعبي الأكروبات؟ أنا سأعود». استدار، ومضى في طريقه قبل أن يتمكّن توم من الردّ.

أقفل توم أزرار قميصه على عجل، ناظراً إلى دكي الذي مشى بعيداً عن لاعبي الأكروبات، مع أنّ الدرج التالي الذي يقود إلى الرصيف في الأعلى، كان أبعد بمرّتين من ذاك القريب من اللاّعبين. تبّاً له بأيّ حال! فكّر توم. لماذا يتصرّف بتكبرٍ وغرور دائماً؟! ألم يرَ لوطيّاً من قبل؟! سببُ مشكلة دكي واضح، حسناً، لِم لا يتنازل ولو لمرّة واحدة فقط؟! ماذا سيخسر؟! قفزت ردود لاذعة إلى ذهنه وهو يهرول خلفه، لكنّها ماتت جميعها في فمه قبل أن ينطقها، عندما التفت دكي ورمقه ببرود واشمئزاز.

انطلقا إلى سان ريمو قبل أن تدقّ الساعة الثالثة عصراً، كي لا يضطرّا إلى دفع أجر يوم إضافيّ في الفندق. دكي هو من اقترح ذلك، لكنّ توم هو من دفع فاتورة الفندق التي بلغت 3430 فرنكاً، أي ما يعادل عشرة دولارات وثمانية سنتات أمريكيّة، وتوم هو من ابتاع تذكرتي القطار إلى سان ريمو، على الرغم من أنّ جيوب دكي محشوة بالفرنكات، فقد جلب شيك دخله الشهريّ معه من إيطاليا وصرفه هنا، ظنّاً منه بأنّه سيحصل على مبلغ أكبر لو بدّل الفرنكات الفرنسيّة لاحقاً بما يعادلها من الليرات الإيطاليّة، نظراً لأنّ قوّة الفرنك النقديّة قد ازدادت فجأة.

لم ينطق دكي كلمة واحدة في القطار، بل أغمض عينيه وصالب ذراعيه فوق صدره، متظاهراً بأنّه نائم. جلس توم على المقعد المقابل، وتأمّل وجه دكي النحيل الوسيم المغرور، ويديه، وخاتمه ذا الفصّ الأخضر وذاك الذي يحمل شعار العائلة. خطر له فجأة أن يسرق الخاتم ذا الفصّ الأخضر قبل أن

يرحل! هذا في غاية السهولة، لأنّ دكي يخلع الخاتم من إصبعه عندما يسبح، وأحياناً عندما يستحمّ في المنزل، وهو ما سيفعله حتماً في اليوم الأخير من الرحلة، فكّر توم. حدّق إلى أجفان دكي المطبقة، وغلى في أعماقه شعور مفاجئ مجنون كتم أنفاسه، شعور بالكراهية، بالحبّ، بنفاد الصبر، بالإحباط... أراد أن يقتل دكي! ليست المرّة الأولى التي تخطر له فيها هذه الفكرة، بل فكّر بها من قبل مرّة، ومرّتين، وثلاثاً! كانت دائماً نزوة سببها الغضب أو خيبة الأمل، نزوة تتبخّر فوراً وتجعله يشعر بالخزي. أمّا الآن، فقد فكّر بها طيلة دقيقة كاملة، بل طيلة دقيقتين... لماذا سيشعر بالخزي الآن، إن كان سيفترق عن دكي بأيّ حال؟! لقد فشلت علاقتهما على كلّ الأصعدة، وهو يكره دكي! كيفما نظر إلى ما حصل، من أيّة زاوية، سيكتشف أنّ الفشل لم يكن ذنبه، ولم ينجم عن أيٍّ ممّا فعله هو بل عن عناد دكي غير الإنسانيّ وعن وقاحته الفجّة. لقد عرض عليه الصداقة والشراكة والاحترام، وكلَّ ما يستطيع تقديمه له، لكنّ دكي قابله بالجحود، والآن يكافئه بالعداء، ويطرده إلى البرد. لو قتله الآن في هذه الرحلة، فكّر توم، سيدّعي ببساطة أنّ حادثاً ما قد وقع، وبوسعه أن... لقد تفتّق ذهنه للتوّ عن خطّة عبقريّة! سيتحوّل هو إلى دكي غرينليف شخصيّاً! يستطيع أن يقوم بكلّ ما يفعله دكي، سيعود إلى مونجيبللو أوّلاً كي يجمع حاجيّات دكي، ويخبر مارج بقصّة لعينة ما، ثمّ سيشتري شقّة في روما أو باريس، ويستلم شيك دكي الشهريّ هناك ويزوّر توقيعه. سينتحل شخصيّة دكي مباشرة، وستنطلي حيلته على مستر غرينليف! الخطّة لا تخلو من خطورة، كما أنّها لن تدوم للأبد حتماً كما أدرك على نحو مبهم، لكنّ هذا لم يزده إلّا حماساً، فبدأ يفكّر بطريقة تنفيذها.

البحر! لكنّ دكي سبّاح ماهر. الجرف! سيدفعه عن حافّة الصخور بكلّ بساطة عندما يذهبان في نزهة، لكنّه تخيّل دكي وهو يتشبّث به ويوقعه معه، فتوتّرت عضلاته وهو جالس في مقعده إلى أن آلمته فخذاه، وحفرت أظافره شقوقاً حمراء في إبهاميه. لا بدّ أن ينتزع الخاتم ذا الفصّ الأخضر أوّلاً من إصبع دكي، وأن يصبغ شعره بلون أفتح، على الرغم من أنّه لن يقيم في مكان يقطنه أيٌّ من معارف دكي. يكفي أن يتشابه مظهرهما الخارجيّ عموماً، كي يتمكّن من استخدام جواز سفره. حسناً، إنّهما متشابهان، وإذا...

فتح دكي عينه وحدّق إليه مباشرة، فارتمى توم في زاوية المقعد، أسند رأسه للخلف وأغمض عينيه بسرعة متظاهراً بالإغماء.

«توم! هل أنت بخير؟!»، سأله دكي وهو يهزّه من ركبته.

«بخير»، أجاب توم وابتسم ابتسامة صغيرة. عاد دكي للجلوس وقد بدا عليه الانزعاج، وتوم يعرف السبب: دكي يكره أن يهتمّ به، ولو بالحدّ الأدنى! ابتسم، ودُهش من ردّ فعله السريع بالتظاهر بالإغماء، لأنه الطريقة الوحيدة التي حالت بين دكي وبين رؤية التعبير الغريب الذي لا بدّ أنّه ارتسم على وجهه.

سان ريمو! أزهار، طريق رئيسيّ يحاذي الشاطئ أيضاً، دكاكين، متاجر، سيّاح إنجليز وفرنسيّون وإيطاليّون، فندق آخر شرفاته مزيّنة بالورود. أين يقتله؟! في أحد هذه الشوارع الصغيرة الليلة؟! ستصبح المدينة مظلمة خرساء في الواحدة فجراً، إن تمكّن من إبقاء دكي ساهراً حتّى تلك الساعة. في الماء؟! السماء غائمة قليلاً لكنّ الطقس ليس بارداً. عصر توم دماغه، الأسهل أن يقتله في غرفة الفندق، لكن كيف سيتخلّص من الجثّة؟! لا بدّ أن تختفي نهائيّاً عن الوجود. هذا لا يترك أمامه خياراً سوى البحر، والبحر هو ملعب دكي. هناك مراكب يمكن للسيّاح استئجارها عند الشاطئ، بعضها مزوّد بمجاذيف والبعض الآخر بمحرّك، وكلّ مركب من هذه الأخيرة مزوّد بِثِقَلٍ كرويّ من الإسمنت مربوط بحبل، يُستَخدم كمرساة كما لاحظ توم.

«ما رأيك أن نستأجر قارباً، دكي؟!»، سأل محاولاً إخفاء حماسه.

نظر إليه دكي ولم يردّ، لأنّه لم يكن متحمّساً للقيام بأيّ شيء منذ أن وصلا إلى هنا.

هناك عشرة قوارب صغيرة ذات محرّكات، إمّا زرقاء وبيضاء أو خضراء وبيضاء، ترسو أمام رصيف الميناء الخشبيّ، ويبدو حارسها الإيطاليّ متلهّفاً للحصول على زبون في هذا الصباح البارد الغائم. تأمّل دكي البحر المتوسّط، إنّه هائج نوعاً ما، والنهار الرماديّ يوحي بأنّ الشمس لن تشرق إطلاقاً، لكن لا علامات تؤذن بسقوط المطر. إنّها العاشرة ونصف تقريباً، أي ساعة الكسل ما بعد تناول الفطور، وما يزال اليوم الإيطاليّ الطويل أمامه هو وتوم.

«حسناً، لا بأس. سنبحر لساعة حول المرفأ» قال دكي، وقفز مباشرة إلى أحد المراكب. استنتج توم من ابتسامته الصغيرة أنّه خاض هذه التجربة من قبل، وأنّه يتطلّع إلى استعادة ذكرى عاطفيّة لصباح ما، أو لصباحات عديدة هنا، ربّما مع فريدي مايلز أو مع مارج... زجاجة الكولونيا التي طلبتها مارج، موجودة في جيب جاكيته المخمليّ. لقد اشترياها قبل دقائق من متجر في الشارع الرئيسيّ، يشبه صيدليّة أمريكيّة.

شغّل الحارس المركبَ بشدّ حبل قصير موصول بالمحرّك، وسأل دكي إن كان يعرف كيف يقود المركب، فأجابه بالإيجاب. هناك أيضاً مجذاف وحيد في قعر المركب، لاحظ توم.

تولّى دكي توجيه الدفّة، وانطلقا مباشرة في خطّ مستقيم بعيداً عن المدينة.

«رائع!»، هتف دكي مبتسماً والهواء يبعثر شعره.

نظر توم حوله يميناً ويساراً، هناك جرف صخريّ عموديّ يشبه مونجيبللو كثيراً في جهة، وفي الجهة الأخرى يبرز جزء صغير مبهم من اليابسة فوق الماء مكلَّلاً بالضباب. لم يستطع أن يحدّد أيّاً من الاتّجاهين هو الأفضل.

«هل تعرف المنطقة هنا؟»، صرخ توم وسط هدير المحرّك.

«لا!»، ردّ دكي بابتهاج. إنّه يستمتع بالجولة.

«هل قيادة هذا الشيء صعبة؟!».

«كلّا، إطلاقاً. هل تودّ أن تجرّب؟».

تردّد توم، لأنّ دكي يوجّه المركب مباشرة إلى عرض البحر. «لا، شكراً» أجاب، ونظر إلى اليمين وإلى اليسار مجدّداً، حيث رأى مركباً شراعيّاً يبحر.

«إلى أين أنت ذاهب؟!»، صرخ توم.

«هل يهمّك هذا؟»، قال دكي مبتسماً.

كلّا، لا يهمّه في الحقيقة.

انعطف دكي فجأة إلى اليمين انعطافاً حادّاً، بحيث اضطرّا كلاهما للقرفصة والانحناء كي يبقى المركب متّزناً. اندفع حائط من رذاذ الأمواج على يسار توم، من ثمّ تهاوى تدريجيّاً كاشفاً عن الأفق الخالي. إنّهما يبحران

عبر الفراغ مجدّداً، نحو اللّا شيء. حاول دكي أن يزيد سرعة المركب مبتسماً، وعيناه الزرقاوان تبتسمان بدورهما للخواء.

«الزوارق الصغيرة تبدو أسرع ممّا هي عليه في الحقيقة»، صرخ دكي.

هزّ توم رأسه، مكتفياً بالابتسام ابتسامة تشرح أنّه فهمه. في الحقيقة، كان مرتعباً، اللّه وحده يعلم عمقَ البحر هنا، وإن تعطّل المركب فجأة فلا توجد أمامها فرصة إطلاقاً بالعودة إلى الشاطئ، أو... بالنسبة له على الأقلّ! من ناحية أخرى، من المستحيل أن يرى أيّ شخص ما الذي يفعلانه هنا.

انعطف دكي نحو اليمين مرّة أخرى، متّجهاً صوب رقعة اليابسة الطويلة المبهمة تلك. بوسع توم أن يضربه، أن يقفز فوقه، أن يقبّله، أو أن يرميه عن المركب، ولن يراه أحد عبر تلك المسافة. تعرّق، غمره عرق ساخن تحت ملابسه وعرق بارد على جبينه، وشعر بالخوف، ليس من الماء، بل من دكي. خاف لأنه أدرك بأنّه سينفّذ خطّته، وبأنّه لن يوقف نفسه الآن -وربّما لا يستطيع أصلاً أن يوقف نفسه- وبأنّه قد لا ينجح.

«أتحدّاك بالقفز إلى الماء!»، صرخ وهو يفكّ أزرار جاكيته.

ضحك دكي من اقتراحه وفغر فمه، بينما ظلّت عيناه مركّزتين على المسافة الخالية أمام المركب. تابع توم خلعَ ملابسه، من ثمّ جوربيه وحذاءه. إنّه يلبس المايوه تحت بنطاله، ودكي كذلك. «سأقفز إن قفزتَ!» صرخ توم، «هل ستفعلها؟!». في الحقيقة، أراد أن يقوم دكي بتخفيف سرعة المركب.

«هل سأقفز؟! بالطبع!». خفّف دكي السرعة فجأة، وترك ذراع الدفّة من يده، ثمّ خلع جاكيته. اهتزّ المركب وفقد تسارعه. «هيّا! اخلعه!»، قال دكي وهو يشير إلى بنطال توم.

رمق توم اليابسة. سان ريمو تبدو كبقعة من الغبش الورديّ والأبيض الطبشوريّ. التقط المجذاف بعفويّة وكأنّه يريد أن يلعب به، ووضعه بين ركبتيه. عندما انحنى دكي كي يسحب بنطاله من ساقيه، رفع توم المجذاف وهوى به على رأسه.

«هاااي!» صرخ دكي بغضب وهو ينزلق عن المقعد الخشبيّ، وارتفع حاجباه الباهتان تعبيراً عن دهشة مترنّحة.

انتصب توم واقفاً، وهوى بالمجذاف مرّة أخرى بعزم، بقوّة انبثقت من جسده فجأة وكأنّه مطّاط مشدود يتمزّق.

«بحقّ الربّ!» غمغم دكي بحدّة، ودارت عيناه الزرقاوان في محجريهما وهو يفقد الوعي.

بيده اليسرى، وجّه توم ضربة ثالثة بالمجذاف على صدغ دكي، وتأمّل الدم ينفر من الشقّ الكليل الذي حفرته حافّة المجذاف. ارتمى دكي في قعر المركب متلويّاً، وأصدر أنيناً عالياً محتجّاً على ما يحصل، فخاف توم وضربه على عنقه ثلاث ضربات قاطعة بحافّة المجذاف وكأنّه فأس، ورقبة دكي هي الشجرة. تأرجح الزورق، وتدفّق الماء فوق قدمي توم المزروعتين في مقدّمته. وجّه ضربة إلى جبين دكي، فسال خيط من الدم ببطء. لوهلة، شعر بالتعب وهو يرفع المجذاف ويلوّح به، لكنّ يدي دكي زحفتا صوبه فوق قعر المركب، وتأهّبت ساقاه الطويلتان لركله، فأمسك المجذاف كالحربة وغرز قبضته في خاصرة دكي. عندها، استرخى الجسد المُحاصَر، مشلولاً وساكناً. شدّ توم قامته، واستجمع أنفاسه بصعوبة. نظر حوله، لا شيء، ما عدا بقعة بيضاء بعيدة، بعيدة جدّاً، تتحرّك بسرعة من اليمين إلى اليسار. لا بدّ أنّها زورق ذو محرّك، يندفع نحو الشاطئ.

توقّف، وانتزع الخاتم ذا الفصّ الأخضر من إصبع دكي، ووضعه في جيبه. الخاتم الثاني كان أضيق، لكنّه تمكّن من انتزاعه أيضاً من الإصبع المتورّمة النازفة. فتّش جيوب بنطال دكي، فوجد عملات فرنسيّة وإيطاليّة، وثلاثة مفاتيح معلّقة بسلسلة، من ثمّ أخذ جاكيت دكي وانتزع زجاجة الكولونيا الخاصّة بمارج من جيبه، وسجائر دكي وولّاعته الفضيّة، عقب قلم رصاص، محفظة النقود المصنوعة من جلد التمساح، وعدّة بطاقات صغيرة من الجيب الداخليّ. دسّ توم كلّ ما سبق في جيوب جاكيته المخمليّ، ثمّ تناول الحبل المربوط بالثِّقَل الإسمنتيّ الكرويّ عن أرض المركب. نهاية الحبل مربوطة بحلقة معدنيّة إلى الحافّة، التي تطوّق المركب كالإطار. حاول توم أن يفكّها، لكنّها شديدة الإحكام ومشبعة بالماء لا تتزحزح، كأنّها معقودة هكذا منذ سنوات. ضربها بقبضتيه، يحتاج سكّيناً بلا شكّ.

ألقى نظرة على دكي. هل مات؟! قرفص عند مقدّمة المركب الضيّقة، وتأمّل دكي بحثاً عن أيّة علامة تدلّ على الحياة. خاف من لمس صدره أو رسغه بحثاً عن نبض. استدار، وجذب الحبل بجنون، إلى أن أدرك أنّ محاولته هذه تسبّبت بشدّ العقدة أكثر. ولّاعته! فتّش عنها في جيوب بنطاله المرميّ في قعر المركب، وأشعلها، ثمّ قرّب اللهب من أحد أجزاء الحبل الجافّة. ثخانة الحبل تعادل إنشاً ونصف الإنش تقريباً، لكنّه احترق ببطء، ببطء شديد. استغلّ توم تلك الدقائق كي ينظر حوله مجدّداً. هل يستطيع حارس الزوارق الإيطاليّ رؤيته عبر تلك المسافة؟! لم يحترق الحبل الرماديّ القاسيّ، بل توهّج قليلاً وتعالى منه بعض الدخان، من ثمّ انفرط ببطء جديلة جديلة. جذبه توم أكثر، وانطفأت ولّاعته. أشعلها مجدّداً، واستمرّ بجذب الحبل. عندما انقطع أخيراً، لفّه أربع مرّات حول كاحلي دكي العاريين قبل أن يداهمه الخوف، ثمّ عقده عقدةً ضخمة خرقاء شدّها كي لا تنفكّ من تلقاء نفسها، لأنّه ليس ماهراً بربط العقد. قدّر أنّ طول الحبل يبلغ خمساً وثلاثين، أو أربعين قدماً. شعر بأنّه يعمل باسترخاء، ومنهجيّة، وسلاسة أكبر الآن. لا بدّ أنّ الثِّقَل الإسمنتيّ كافٍ لإبقاء الجثّة في قعر البحر. قد تنجرف قليلاً، لكنّها لن تطفو إلى السطح. مكتبة سُر مَن قرأ

رمى الثقل عن حافّة المركب، فأحدث دويّاً مكتوماً عند ارتطامه بسطح البحر، وغاص عبر الأمواج الشفّافة مسبّباً وابلاً من الفقاعات، من ثمّ اختفى. غاص أعمق، وأعمق، إلى أن توتّر الحبل حول كاحلي دكي، فرفعهما توم فوق الحافّة، وجرّ ذراع دكي كي يرفع كتفيه -الجزء الأثقل من جسمه- فوق مقدّمة الزورق. يد دكي كانت دافئة وخرقاء، لكنّ كتفيه بقيتا في القعر وتمطّطت ذراعه أكثر فأكثر كلّما جذبها توم، وكأنّها مصنوعة فعلاً من المطّاط، دون أن يرتفع الجسد للأعلى إطلاقاً. ركع توم على إحدى ركبتيه، وحاول أن يدفع دكي جانباً، فتأرجح الزورق. نسي الماء، مع أنّ الماء هو الشيء الوحيد الذي يخيفه. الأفضل أن يرمي الجسدَ من مؤخّرة المركب، فكّر، لأنّها تغطس أعمق في الماء، أكثر من المقدّمة. جرّ الجسد المشلول وهو يجذب الحبل على طول الحافّة، مخمّناً أنّ الثقل الإسمنتيّ المتقافز لم يلمس القاع بعد. والآن... بدأ برأس دكي وكتفيه، قلبَه على بطنه، ثمّ دفعه

للخارج رويداً رويداً. غطس رأس دكي في الماء، وتدلّى خصره فوق حافّة الزورق، أمّا ساقاه فقد أصبحتا فجأة -كالكتفين من قبل- ثقيلتين للغاية، ولم تتزحزحا على الرغم من جهود توم، كأنّهما ملتصقتان بواسطة مغناطيس إلى قعر الزورق. أخذ شهيقاً عميقاً، ودفع الجسد... انقلب دكي في الماء، لكنّ توم فقد توازنه وسقط فوق ذراع المحرّك، الذي زأر فجأة ودبّت فيه الحياة. قفز صوب عتلة التحكّم، لكنّ الزورق فتل في اللحظة ذاتها ورسم قوساً جنونيّاً. رأى توم البحر تحته ويده الممدودة صوب الماء، وهو يحاول التشبّث بحافة الزورق التي اختفت!.

لقد سقط في الماء!.

شهق، شدّ جسده وقفز للأعلى كي يتمسّك بالزورق، لكنّه فشل عندما دار الزورق على نفسه. قفز مجدّداً، فغرق أكثر، أكثر بكثير، بحيث غمر الموج رأسه ببطء، ببطء قاتل، لكنّه مع ذلك أسرع من قدرته على التنفّس. حاول أن يأخذ شهيقاً فاندفع الماء عبر أنفه، وغرقت عيناه تحت السطح. ابتعد الزورق أكثر، سبق لتوم أن رأى من قبل زوارق تدور على نفسها بالأسلوب ذاته، دون أن تتوقّف إلّا إن صعد شخص ما إلى متنها وأطفأ المحرّك. الآن، في البحر الخاوي القاتل، شعر بدنو نهايته. غرق متخبّطاً تحت السطح مجدّداً، فتلاشى صوت المحرّك المجنون عندما غمر الماء أذنيه وحجب كلّ الأصوات، ما عدا تلك المذعورة التي يسمعها في أعماق جسده وهو يتنفّس ويقاوم، وهدير دمه اليائس. تحرّك إلى الأعلى، واستمات أوتوماتيكيّاً للوصول إلى المركب لأنّه الشيء الوحيد الذي يطفو، على الرغم من أنّه يدور على نفسه ومن المستحيل لمسه. مرّت مقدّمة الزورق بجانبه مرّة واثنتين وثلاثاً قبل أن يتمكّن من أخذ شهيق واحد.

صرخ طالباً النجدة، ولم يسمع ردّاً بل امتلأ فمه بالماء. لمست يداه المركبَ تحت الموج، لكنّ مقدّمته دفعته بعيداً بقوّة حيوانيّة. حاول أن يتمسّك بالمؤخّرة بجنون، غير مكترث بشفرات المحرّك التي تدور. شعر بأنّ أصابعه لامست شفرة دفّة التوجيه، فغاص بعيداً عنها... لكنّه تأخّر لحظة، وها هي عارضة الزورق تمرّ فوقه وتضرب رأسه. الآن، اقتربت مؤخّرة المركب منه مرّة أخرى، فحاول التشبّث بها لكنّ أصابعه انزلقت مجدّداً. نجح أخيراً

بإمساك الحافّة فوقها بيده الأخرى، فمدّ ذراعه باستقامة كي يُبعَد جسده عن شفرات المحرّك، ورفع نفسَه بقوّة خارقة إلى زاوية المؤخّرة، وطوّح ذراعه فوق الحافة... من ثمّ، تمكّن من الوصول إلى ذراع التحكّم.

تباطأ المحرّك!.

تمسّك بحافة المركب بكلتا يديه، دون أن يفكّر بشيء. غمره إحساس بالراحة، وبعدم التصديق، إلى أن انتبه إلى الألم الحارق الذي يكوي حنجرته، والطعنة التي يشعر بها في صدره كلّما تنفّس. ارتاح قليلاً، ربّما دقيقة أو عشر دقائق، دون أن يفكّر سوى باستجماع قواه كي يرفع نفسه إلى سطح المركب. أخيراً، قفز قفزات صغيرة لأعلى وأسفل بداخل الماء، ثمّ طوّح جسده بكلّ قوّته إلى الأعلى، وها هو ذا منبطحٌ على وجهه فوق قعر الزورق، وقدماه تتدليّان فوق الحافّة. أخذ استراحة، وبالكاد انتبه لدم دكي اللزج تحت أصابعه، وكيف يمتزج بالماء الذي يسيل من أنفه وفمه هو. أخذ يفكّر قبل أن يقوى على الحراك، بالمركب الذي تلطّخ بالدم ولم يعد من الممكن إعادته إلى الميناء، بالمحرّك الذي ينبغي عليه أن ينهض كي يشغّله خلال لحظات، بالاتّجاه الذي يجب أن يسلكه، بخاتَمي دكي... بحث عنهما في جيب جاكيته، ما يزالان حيث تركهما... كيف سيختفيان مثلاً؟! انتابته نوبة سعال، وحجبت الدموعُ التي ترقرقت في عينيه الرؤيةَ، عندما نظر حوله بحثاً عن زورق قريب منه أو قادم باتّجاهه. فرك عينيه، لا مراكب، ما عدا ذلك الزورق الصغير الرماديّ المترنّح في البعيد، والذي يندفع هنا وهناك راسماً أقواساً واسعة، غافلاً كليّاً عن توم. نظر إلى قعر الزورق، هل يستطيع تنظيفه؟! يُقال إنّ من العسير إزالة آثار الدم نهائيّاً. كان يخطّط لإعادة المركب إلى الميناء، وإن سأله حارس الزوارق عن رفيقه، سيقول له إنّه أنزله على الشاطئ في مكان ما... هذا مستحيل الآن!.

جذب توم عتلة تشغيل المحرّك بحذر، وخاف عندما دبّت الحياة فيه وهدر متسارعاً، لكنّ المحرّك بدا له أكثر إنسانيّة من البحر، من الممكن التحكّم به، وبالتالي لن يخيفه كالماء. اتّبع مساراً مائلاً نحو الشاطئ، إلى الشمال من سان ريمو. لربّما يجد مكاناً ما مناسباً، خليجاً صغيراً يرسو فيه ثمّ يهجر المركب. ماذا إن عثروا على الزورق؟! هالته هذه المشكلة، فحاول أن

يتمالك نفسه ويهدّئ من روعه، لكنّ تفكيره تغيّم كليّاً وعجز عن إيجاد حلّ للتخلّص من المركب.

أخيراً، رأى أشجار صنوبر وجزءاً من الشاطئ الذهبيّ الجافّ يبدو خالياً، وبستاناً مزروعاً بأشجار الزيتون الكثيفة الخضراء. أبحر في ذلك الاتّجاه ببطء، منحرفاً لليمين ولليسار، مستطلعاً ما حوله. لم يرَ أحداً، فانطلق مباشرة نحو الشاطئ الضحل الصغير وهو يحرّك عتلة التشغيل بحذر، لأنّه خشي أن يتسارع المحرّك فجأة. عندما شعر باليابسة تحتكّ بقعر الزورق وتصطدم به، حرّك عتلة التشغيل إلى وضعيّة Perma، ثمّ جذب عتلة أخرى فانطفأ المحرّك نهائيّاً. قفز بحرص، لا يزيد عمق الماء هنا عن عشرة إنشات. جرّ الزورق إلى أقرب نقطة من الشاطئ استطاع الوصول إليها، من ثمّ نقل الجاكيتين، وصندله، وعلبة كولونيا مارج إلى الرمل. الخليج الصغير الذي رسا فيه –لا يتجاوز عرضه خمس عشرة قدماً– وهبه شعوراً بالأمان والخصوصيّة، إذ لم يرَ علامة تدلّ على أنّ أيّ إنسان وطأ هذه الشاطئ يوماً. لذلك، قرّر أن يُغرِق المركب.

بدأ بجمع الحجارة، حجارة بحجم رأس الإنسان تقريباً لأنّه لم يقوَ على حمل الأكبر، ثمّ رماها واحداً واحداً بداخل المركب. أخيراً، اضطرّ لاستعمال حجارة أصغر بعد أن نفدت تلك الكبيرة من حوله. عمل دون توقّف، وخشي أن يغمى عليه من الإعياء لو سمح لنفسه أن يستريح بعض لحظات، وبالتالي قد يبقى مرمياً هنا إلى أن يعثر عليه أحدهم. عندما امتلأ المركب بالحجارة إلى حافّته تقريباً، دفعه إلى البحر، ثمّ هزّه عدّة مرّات إلى أن تدفّق الماء إلى جوفه من كلّ الجهات، ثمّ دفعه نحو منطقة أعمق ما أن بدأ يغرق. جرّه، ومشى بجانبه إلى أن بلغ الماء خصره، وعندها غاص المركب إلى قاع البحر بعيداً عنه. شقّ توم طريقه عائداً إلى الشاطئ، وارتمى على بطنه دافناً وجهه بالرمل. خطّط كيف سيعود إلى الفندق، وماذا سيقول، وما هي الخطوة التالية: سيغادر سان ريمو قبل حلول الليل، ويعود إلى مونجيبللو، وإلى القصّة هناك.

-13-

عند الغروب، يجتمع الإيطاليّون وكلّ من في البلدة على طاولات مقاهي الرصيف، بعد أن يستحمّوا ويتأنقّوا، كي يحدّقوا إلى كلّ شخص وكلّ شيء يمرّ من أمامهم، متلهّفين للاستمتاع بكلّ ما تقدّمه البلدة لهم. في ذلك التوقيت، مشى توم إلى سان ريمو مرتدياً شورت السباحة وصندله وجاكيت دكي المخمليّ، متأبطّاً جاكيته وبنطاله الملطّخين بالدماء. سار متكاسلاً بعفويّة دون أن يطأطئ رأسه -على الرغم من أنّه مرهق- أمام مئات الناس الذين حدّقوا إليه وهو يمرّ أمام المقاهي، عبر الطريق الوحيد المؤدّي إلى فندقه الذي يطلّ على البحر. سبق له أن أنعش جسده بخمسة أكواب من الإكسبريسو المُشبَع بالسكّر وثلاث كؤوس من البراندي، في حانة على الطريق خارج سان ريمو، أمّا الآن فهو يلعب دور شابّ رياضيّ، سبّاح ماهر لا يهمّه البرد، أمضى طيلة ما بعد الظهر بالسباحة، وبقي في الماء على هواه إلى أن غربت الشمس، على الرغم من برودة الطقس.

عندما وصل إلى الفندق، أخذ المفتاح من مكتب الاستقبال، ثمّ صعد إلى غرفته وتهاوى على السرير. سيسمح لنفسه بساعة واحدة فقط من الراحة، فكّر، لكن ينبغي ألّا يغفو خشية أن يغلبه النوم إلى وقت متأخّر. استرخى، لكنّه سرعان ما نهض وذهب إلى الحمّام كي يغسل وجهه عندما شعر بأنّه على وشك أن يغفو فعلاً. أخذ منشفة مبلّلة بالماء معه إلى السرير، كي يعصرها بين يديه لئلّا ينام.

أخيراً، قام من السرير، وحاول أن يزيل بقع الدم عن ساق بنطاله المخمليّ. دعكها مراراً وتكراراً بالصابون والفرشاة القاسية، ثمّ أخذ استراحة عندما شعر بالتعب، وبدأ بتوضيب حقيبته. وضّب حاجيّات دكي كما يفعل هذا الأخير بالضبط، دسّ معجون وفرشاة الأسنان في جيب الحقيبة الخلفيّ

الأيسر، ثمّ تابع تنظيف البنطال. جاكيته تلطّخ بالدم إلى درجة يتعذّر معها ارتداؤه مجدّداً، ولا بدّ من التخلّص منه. بوسعه ارتداء جاكيت دكي، لأنّ لهما القياس ذاته تقريباً ولونه بيج كجاكيته تماماً. فضلاً عن ذلك، توم نسخ طراز بزّته عن بزّات دكي، وفصّلها عند الخياط نفسه في مونجيبللو.

وضع جاكيته في الحقيبة، من ثمّ نزل للأسفل وطلب الفاتورة. سأله موظّف مكتب الاستقبال عن صديقه، فأجابه بأنّه سيلاقيه في محطّة القطار. كان الموظّف لطيفاً ومبتسماً، وتمنّى له رحلة سعيدة قائلاً: «Buon' viaggio».

توقّف توم في مطعم يقع على بعد شارعين، وأجبر نفسه على تناول صحن من حساء المينسترون[1]، كي يستمدّ بعض القوّة. ظلّ متيقظّاً طيلة الوقت، تحسّباً لمرور حارس الزوارق الإيطاليّ صدفة. الأمر الأهمّ، فكّر، هو أن يغادر سان ريمو الليلة، وإن لم يجد قطاراً أو باصاً، سيستقلّ تاكسي إلى البلدة المجاورة.

استعلم في محطّة القطارات، هناك قطار متّجه للجنوب سينطلق في الساعة العاشرة وأربع وعشرين دقيقة. إنّه قطار ليليّ مجهّز بمقصورات للنوم، وسيجد توم نفسه غداً صباحاً في روما، حيث يستقلّ قطاراً آخر إلى نابولي. بدت له الرحلة فجأة بسيطة وسهلة إلى درجة سخيفة، ففكّر في نوبة من الثقة بالنفس بأن يذهب إلى باريس لعدّة أيّام.

«لحظة من فضلك»، قال للموظّف قبل أن يناوله التذكرة، ودار حول حقيبته وهو يفكّر بباريس. سيزورها زيارة خاطفة، فقط كي يراها، سيبقى يومين مثلاً، ولا يهمّ إن أخبر مارج أم لا. أخيراً، اتّخذ قراراً قاطعاً بعدم الذهاب، لن يتمكّن من الاسترخاء، لأنّه متلهّف للعودة إلى مونجيبللو كي يفتّش متاع دكي.

الأغطية البيضاء المشدودة فوق سريره على متن القطار، بدت له الرفاهية الأروع التي حظي بها يوماً، فمسّدها بيديه قبل أن يطفئ النور... وتلك البطّانيّات النظيفة بلونها الرماديّ المزرقّ، وهذه الناموسيّة السوداء الصغيرة المرنة فوق

1- حساء كثيف من الخضروات والفاصولياء والمعكرونة. المترجمة.

رأسه! انتشى لوهلة، وهو يفكّر بكلّ الملذّات التي تنتظره الآن بفضل أموال دكي: الأسرّة، الطاولات، السفن، البحار، الحقائب، القمصان، سنوات من الحريّة، سنوات من المتعة... من ثمّ أطفأ الضوء، ووضع رأسه على الوسادة وغفا مباشرة، سعيداً، راضياً، وواثقاً من نفسه كلّ الثقة، كما لم يكن قطّ!.

في نابولي، دخل توم إلى مرحاض الرجال في محطّة القطار، وأخرج فرشاة أسنان دكي ومشطه من الحقيبة، ثمّ لفّهما مع جاكيته الخاصّ وبنطال دكي الملطّخين بالدم بداخل معطف دكي المطريّ. خرج من المحطّة، وحمل الصرّة عبر الشارع، ثمّ رماها في كومة قمامة ضخمة تتكدّس أمام جدار في أحد الأزقّة. بعد ذلك، تناول فطوراً من اللفائف الحلوة والكافيه لاتيه في مقهى موجود في ساحة انطلاق الباصات، واستقلّ باص الساعة الحادية عشرة القديم إلى مونجيبللو.

عندما نزل من الباص، وجد نفسه وجهاً إلى وجه مع مارج، التي ترتدي المايوه وفوقه الجاكيت الأبيض الفضفاض الذي تلبسه دوماً إلى الشاطئ.

«أين دكي؟!»، سألته.

«في روما». ابتسم توم بسهولة، لأنّه مستعدّ لكلّ الأسئلة. «سيبقى هناك بضعة أيام» تابع، «جئتُ كي آخذ بعض حاجيّاته».

«هل يقيم مع شخص ما؟!».

«كلّا، بل في فندق». بابتسامة أخرى، أشبه بـ «إلى اللقاء»، صعد توم التلّة حاملاً الحقيبة. بعد لحظة، سمع صوت صندل مارج المهترئ وهي تهرول خلفه، فوقف وانتظرها. «كيف تسير الأمور في منزلنا، منزلنا الحلو اللطيف؟»، سألها.

«أوه، مملّة، كالعادة». ابتسمت مارج، لا تشعر بالراحة معه، لكنّها تبعته إلى المنزل. البوّابة مفتوحة. تناول توم مفتاح التراس الحديديّ الكبير من مخبئه المعتاد، خلف حوض خشبيّ متعفّن يحوي تراباً وشجيرة نصف ميتة، ثمّ دخلا إلى التراس معاً. لقد أُزيحَت الطاولة من مكانها قليلاً، وهناك كتاب على الدرابزين. يبدو أنّ مارج جاءت إلى هنا بعد أن غادرا، فكّر توم. لقد غاب ثلاثة أيّام وليلتين فقط، لكنّها بدت له شهراً كاملاً.

«كيف حال سكيبي؟» سأل توم مبتهجاً، وهو يفتح باب الثلّاجة كي يأخذ قالب ثلج. سكيبي هو كلب شارد تبنّته مارج قبل بضعة أيّام، كلب هجين قبيح لونه أسود وأبيض، لكنّها تعتني به وتطعمه كأنّها خادمته المخلصة.

«لقد هرب! لم أتوقّع أن يبقى أصلاً».

«أوه!».

«يبدو أنّكما استمتعتما بوقتكما»، قالت بأسى نوعاً ما.

«أجل!» ابتسم توم، «هل أعدّ لكِ شراباً؟».

«كلّا، شكراً. كم سيبقى دكي في روما باعتقادك؟».

«حسناً» عبس توم وهو يفكّر، «لا أعرف بالضبط، يقول إنّه سيرتاد العديد من الاستعراضات الفنيّة هناك. أعتقد أنّه يستمتع بتغيير الأجواء».

ملأ توم كأسه بالجن، وأضاف صودا وشريحة ليمون، ثمّ قال: «أعتقد أنّه سيعود خلال أسبوع.... بالمناسبة!». مدّ يده إلى الحقيبة، وتناول علبة الكولونيا. سبق وأن تخلّص من ورقة التغليف التي لفّها بها صاحب المتجر، لأنّها كانت ملطّخة بالدماء. «إنّها كولونيا ستراديڤاري التي طلبتِها. لقد اشتريناها من سان ريمو»، قال.

«أوه! شكراً جزيلاً». أخذت مارج العلبة وفتحتها بحرص، وهي تبتسم ابتسامة حالمة.

تمشّى توم متخشّباً حول التراس، وكأسه بيده. لم يقل المزيد لمارج، بل انتظر أن تغادر.

«حسناً» قالت مارج أخيراً وهي تخرج إلى التراس، «إلى متى ستبقى؟».

«أين؟».

«هنا».

«سأبقى هذه الليلة فقط، وسأعود إلى روما غداً» قال توم، «ربّما أنطلق عصراً» أضاف، لأنّ البريد لن يصل قبل الساعة الثانية بعد الظهر على الأرجح.

«إذن، لن أراك قبل أن تغادر... إلّا إن نزلتَ إلى الشاطئ» قالت مارج، وهي تبذل جهداً كي تكون ودودة. «أتمنّى لكَ وقتاً طيّباً بأيّ حال. قل لدكي أن يرسل بطاقة بريديّة... في أيّ فندق ينزل؟!»، أضافت.

«أوه... آه... ماذا كان اسمه؟! ذاك الفندق الكبير بالقرب من بياتزا دي سبانيا؟!».

«فندق إنجلترا؟!».

«هذا هو! لكنّه قال إنّه سيتلقّى بريده في مكتب الأمريكان إكسبريس». لن تحاول مارج الاتّصال هاتفياً بدكي، فكّر توم، وسيتسنّى له الوصول إلى الفندق غداً كي يستلم رسالتها، إن كتبتْ واحدة. «سأنزل إلى الشاطئ في الصباح على الأرجح»، قال.

«حسناً. شكراً على الكولونيا».

«على الرحب والسعة».

نزلت مارج عبر الحديقة، من ثم إلى البوّابة الحديديّة، وخرجت.

التقط توم الحقيبة، وركض إلى غرفة دكي في الطابق العلويّ. سحب درج الخزانة العلويّ للخارج: رسائل، دفترا عناوين، دفترا ملاحظات، سلسلةُ ساعةِ جيب، مفاتيح مبعثرة لا تجمعها علّاقة، وبوليصة تأمين. سحب الأدراج الأخرى واحداً تلو الآخر، وتركها مفتوحة. وجد قمصان، شورتات، كنزات مطويّة، وجوارب مبعثرة. عثر في زاوية الغرفة على كدسة من الملفّات، ومساند دفاتر الرسم القديمة. هناك الكثير ممّا ينبغي عمله! خلع توم كلّ ثيابه، وركض عارياً للأسفل، أخذ دوشاً بارداً، من ثمّ ارتدى بنطال دكي الأبيض القديم، الذي كان معلّقاً على مسمار في الخزانة.

بدأ بدرج الخزانة العلويّ لسببين. أوّلاً، الرسائل التي استلمها دكي مؤخّراً تهمّه للغاية، لأنّها قد تتناول مسائل راهنة يجب تسويتها مباشرة. ثانياً، إن جاءت مارج فجأة بعد الظهر، لن يبدو الوضع وكأنّه يفكّك المنزل بأكمله على الفور.، لكن بوسعه البدء بتوضيب أكبر حقيبة من حقائب دكي على الأقلّ، وأن يحشوها بأفضل ملابسه.

تابع تفتيش المنزل حتّى منتصف الليل، حزم الحقائب، خمّن كم يساوي الأثاث، فكّر بما سيتركه لمارج وكيف سيتخلّص من الباقي. فلتأخذ مارج تلك الثّلاجة اللعينة، ستفرح بذلك! أمّا ذلك الصندوق الثقيل المزخرف الموجود في البهو، الذي يستخدمه دكي لحفظ قماشات الرسم، فلا بدّ بأنّه

يساوي بضع مئات من الدولارات على الأقلّ، فكّر توم، فقد قال له دكي إنّ عمره أربعمئة عام على الأقلّ عندما سأله عنه. عقد العزم على التحدّث إلى سنيور بوتشي، مساعدُ المدير في فندق الميرامير، كي يطلب منه أن يكون وكيلَ بيع المنزل والأثاث والزورق أيضاً. لقد أخبره دكي أيضاً فيما مضى، أنّ السنيور بوتشي يتولّى مهمّات مشابهة نيابة عن أهل القرية. فكّر بأخذ كلّ ممتلكات دكي معه مباشرة إلى روما، لكن ما الذي ستقوله مارج إن أخذ الكثير من المتاع، لقضاء فترة قصيرة كما أخبرها؟! قرّر ألّا يفعل ذلك، الأفضل أن يتظاهر بأنّ دكي قرّر الانتقال للإقامة في روما فيما بعد.

وفق خطّته، توجّه توم إلى مكتب البريد في الساعة الثالثة عصراً في اليوم التالي، واستلم رسالة تبدو مثيرة للاهتمام، وصلت إلى دكي من أحد أصدقائه في الولايات المتّحدة، ولم يجد رسائل له شخصيّاً، لكنّه تخيّل نفسه يقرأ رسالة وصلته من دكي، وهو يسير ببطء عائداً إلى المنزل. تخيّل الكلمات بدقّة، بحيث يمكنه اقتباسها لمارج عن ظهر قلب إن اضطرّ لذلك، بل وتظاهر أيضاً بالقليل من الدهشة، تماماً كما كان سيفعل لو عرف بأنّ دكي غيّر رأيه.

ما أن دخل، حتّى قام بتوضيب أفضل لوحات دكي وأفضل قماشات الرسم في صندوق كبير من الكرتون، جلبه معه من دكّان آلدو الموجود في الطريق الذي يقود لأعلى التلّة. عمل بهدوء، ومنهجيّة، متوقّعاً أن تظهر مارج في أيّة لحظة، لكنّها لم تأتِ إلّا بعد أن تجاوزت الساعةُ الرابعةَ عصراً.

«ما زلتَ هنا؟!»، سألتْ وهي تدخل إلى غرفة دكي.

«أجل. وصلتني رسالة من دكي اليوم، لقد قرّر أن ينتقل للإقامة في روما». شدّ توم قامته، وابتسم قليلاً وكأنّه فوجئ بدوره. «طلب منّي أن أوضّب كلّ حاجيّاته، كلّ ما أستطيع حمله».

«سينتقل إلى روما؟! كم سيبقى هناك؟!».

«لا أعرف... ربّما إلى نهاية الشتاء» واستأنف طيّ لوحات الكانفاه.

«ألن يعود إلى هنا مطلقاً في الشتاء؟!»، بدت مارج تائهة.

«كلّا. قال إنّه قد يبيع المنزل أيضاً. قال إنّه لم يتّخذ قراراً نهائيّاً بعد».

«يا إلهي! ما الذي جرى؟!».

هزّ توم كتفيه، وأجاب: «على ما يبدو، دكي يرغب بقضاء الشتاء في روما. قال لي إنّه كتب لكِ رسالة... ظننتُ أنّك استلمتها عصرَ اليوم بدورك».

«كلّا».

ساد الصمت، وتابع توم العمل، ثمّ خطر له بأنّه لم يحزم متاعه بعد، بل لم يدخل إلى غرفته أصلاً.

لكنّه سيذهب إلى كورتينا، أليس كذلك؟»، سألت مارج.

«كلّا، لن يذهب. قال إنّه سيكتب إلى فريدي، ويخبره بأنّه ألغى الرحلة... لكنّ هذا يجب ألّا يثنيك على الذهاب بمفردك». تفحّصها توم، ثمّ أضاف: «بالمناسبة، قال دكي بأنّه يريدك أن تأخذي الثلّاجة. بوسعك إحضار شخص ما كي يساعدك على نقلها... أليس كذلك؟».

لم تترك هذه الهدية تأثيراً على وجه مارج المشدوه. أدرك توم بأنّها تتساءل بينها وبين نفسها إن كان سيقيم مع دكي أم لا، وبأنّها استنتجت من أسلوبه المرح بأنّه سيفعل. شعر بأنّ هذا السؤال يزحف إلى شفتيها –مارج شفّافة كالطفل بالنسبة له– وها هي تنطق: «هل ستقيم معه في روما؟».

«ربّما لفترة قصيرة، كي أساعده على الاستقرار. أريد أن أذهب إلى باريس هذا الشهر، من ثمّ سأعود إلى أمريكا على الأرجح، في منتصف كانون الأوّل تقريباً».

بدت مارج مُحبَطة. أدرك توم بأنّها تتخيّل الأسابيع الموحشة التي تنتظرها –حتّى ولو قام دكي بزيارات منتظمة إلى مونجيبللو– وصباحات الآحاد الخاوية، وتناول العشاء وحيدة.

«ماذا عن الكريسماس؟! أتعتقد أنّه سيمضيه هنا، أم في روما؟».

«حسناً، لا أعتقد أنّه سيمضيه هنا» أجاب توم وقد انزعج قليلاً، «أشعر بأنّه يريد البقاء وحيداً».

صُعِقَت مارج، وسكتت. إنّها مصدومة ومجروحة! انتظري إلى أن تستلمي الرسالة التي سأكتبها لكِ من روما، فكّر توم. سيكون لطيفاً معها بالطبع، لطيفاً مثل دكي، لكنّه لن يدع لها مجالاً للشكّ بأنّ دكي لا يرغب برؤيتها مجدّداً.

بعد عدّة دقائق، وقفت مارج مشدوهة، وودّعته شاردة الذهن. خطر لتوم فجأة أنّها قد تتّصل بدكي هاتفياً، أو تذهب بنفسها إلى روما... وإن يكن؟! ربّما انتقل دكي إلى فندق آخر، هناك الكثير من الفنادق في روما، وسيشغلها البحث فيها كلّها طيلة أيّام عديدة، إن ذهبت إلى هناك كي تراه. عندما تيأس من محاولة التواصل مع دكي، سواء هاتفياً أو بالحضور شخصياً إلى روما، ستفترض بأنّه غادر روما إلى باريس أو إلى مدينة أخرى بصحبة توم ريبلي.

تفحّص توم صحف نابولي، بحثاً عن أيّ خبر يتعلّق بمركب تمّ إغراقه بالقرب من سان ريمو. سيكون العنوان هكذا غالباً: « زورق غارق بالقرب من سان ريمو»، وستثير الجرائد ضجّة كبرى حول بقع الدم إن كانت ما تزال ظاهرة. إنّه حادث من ذاك النوع الذي تحبّ الصحافة الإيطاليّة أن تكتب عنه، بنبرة ميلودراميّة: «جورجيو دي ستيفاني، صيّاد شابّ من سان ريمو، اكتشف اكتشافاً رهيباً في ماء عمقه متران اثنان، في الساعة الثالثة من بعد ظهر أمس: مركب صغير ذو محرّك، جوفه ملطّخ بالدماء المرعبة». لم يجد خبراً من هذا القبيل، لا في صحف اليوم ولا الأمس. قد يستغرق العثور على المركب شهراً، فكّر، وقد لا يعثرون عليه إطلاقاً... وحتّى لو وجدوه، كيف سيعرفون أنّ دكي غرينليف وتوم ريبلي أبحرا فيه معاً؟! لم يسألهما حارس الزوارق الإيطاليّ في سان ريمو عن اسميهما، واكتفى بإعطائهما تذكرة برتقاليّة صغيرة، دسّها توم في جيبه ثمّ مزّقها عندما عثر عليها.

غادر توم مونجيبللو بالتاكسي حوالي الساعة السادسة مساء، بعد أن شرب فنجان إكسبريسو في فندق جورجيو، حيث ودّع جورجيو وفاوستو وعدداً آخر ممّن يعرفونه هو ودكي في القرية. أخبرهم جميعهم بالقصّة ذاتها: سنيور غرينليف سيقضي الشتاء في روما، وهو يرسل إليهم تحيّاته ريثما يراهم من جديد، وأضاف بأنّ دكي سيزور القرية قريباً بلا شكّ.

شحن توم صناديق اللوحات وقماشات الرسم بواسطة الأمريكان إكسبريس عصراً، بالإضافة إلى الصندوق الخشبيّ العتيق وحقيبتين ثقيلتين، إلى «دكي غرينليف» في روما. أخذ معه في التاكسي حقيبتيه الخاصّتين، وحقيبة أخرى من حقائب دكي. لقد تحدّث مع سنيور بوتشي في فندق ميرامير، وأبلغه بأنّ سنيور غرينليف قد يرغب ببيع منزله وأثاثه، وسأله إن

كان بوسعه تولّي هذه المسألة، فأجابه سنيور بوتشي بأنّ هذا من دواعي سروره. تحدّث توم أيضاً مع بييترو حارس الميناء، وطلب منه أن يبحث عمّن يشتري الزورق بيبيسترللو، لأنّ سنيور دكي قد يبيعه في هذا الشتاء لقاء خمسمئة ألف ليرة إيطاليّة -أي ما يعادل ثمنمئة دولار أمريكيّ بالكاد- وهو ما يعدّ صفقة رابحة لقاء مركب يتّسع لشخصين، فقال بييترو بأنّ هذا قد يستغرق بضعة أسابيع.

في القطار المتّجه إلى روما، ألّف توم في ذهنه رسالة إلى مارج بعناية فائقة، وحفظها بدقّة. ما أن وصل إلى أوتيل هاسلر، حتّى أخرج الآلة الكاتبة ماركة «هيرمز بيبي» الخاصّة بدكي من إحدى الحقائب، وطبع الرسالة مباشرة:

روما

28 تشرين الثاني 19—

عزيزتي مارج،

لقد قرّرتُ أن آخذ شقّة في روما لقضاء الشتاء، سعياً للتجديد وابتعاداً عن مونجيبللو العتيقة لبعض الوقت. تنتابني رغبة رهيبة بالبقاء وحدي، وأنا شديد الأسف لأنّ قراري هذا كان مفاجئاً ولم تتسنّ لي الفرصة كي أودّعكِ، لكنّني لن أكون بعيداً جدّاً عنكِ في الواقع، وأتمنّى أن أراك بين حين وآخر. لم أرغب بالعودة لحزم متاعي، لذلك كلّفتُ توم بهذه المهمّة.

بالنسبة لنا أنا وأنتِ، فراقنا لفترة مؤقتة لن يخرّب علاقتنا، بل على العكس، قد يحسّنها. يخامرني إحساس رهيب بأنّك مللتِ منّي في الآونة الأخيرة، علماً أنّني لم أملّ منكِ إطلاقاً. من فضلكِ، لا تظنّي أنّني أهرب بعيداً من أيّ شيء، روما ستقرّبني أكثر من الواقع، على النقيض من مونجيبللو. أنتِ أحد أسباب حزني، ابتعادي لن يحلّ شيئاً بلا شكّ، لكنّه سيساعدني على اكتشاف حقيقة مشاعري تجاهك. لهذا السبب، أفضّل ألّا أراك مؤقّتاً يا عزيزتي، وأتمنّى أن تتفهّمي هذا. إن لم تفعلي... حسناً، هذا يعود لكِ، وهي مخاطرة أنا على استعداد لتقبّلها.

قد أرافق توم إلى باريس لقضاء أسبوعين هناك، لأنّه متلهّف جدّاً

للذهاب، إلّا إن باشرتُ الرسم على الفور. لقد التقيتُ برسّام أحبّ أعماله كثيراً، اسمه دي ماسيمو، وهو رجل عجوز لا يملك الكثير من المال، بدا في غاية السعادة لقبولي تلميذاً لديه إن دفعتُ له القليل، وسأعمل معه في مرسمه الخاصّ.

روما رائعة بنوافيرها التي تتدفّق طيلة الليل، وناسها الذين يسهرون إلى الفجر، على عكس مونجيبللو العجوز. أنتِ مخطئة بشأن توم، سيعود إلى الولايات المتّحدة قريباً، لكن لا يهمنّي متى، على الرغم من أنّه ليس شخصاً سيّئاً على الإطلاق، وأنا لا أكرهه. لا علاقة له بنا بأيّ حال، أتمنّى أن تفهمي ذلك.

اكتبي إليّ، وابعثي الرسائل إلى مكتب الأمريكان إكسبريس في روما مؤقّتاً، إلى أن أعرف أين سأقيم، وعندها سأرسل لكِ عنواني. في هذه الأثناء، اهتمّي بالمنزل وبالثلّاجة، وتابعي الكتابة. أعتذر لكِ بخصوص الكريسماس عزيزتي، لا تجدر بي رؤيتكِ في موعد قريب للغاية... اكرهيني إن شئتِ.

كلّ حبّي

دكي

لم يخلع توم قبّعته منذ أن دخل إلى الفندق، كما أنّه أبرز جواز سفر دكي في مكتب الاستقبال عوضاً عن جوازه، على الرغم من أنّ موظّفي الفنادق كما سبق له أن لاحظ، لا ينظرون إطلاقاً إلى الصورة الشخصيّة في جواز السفر، بل يكتفون بنسخ رقمه المطبوع على الغلاف الأماميّ. بالإضافة إلى ذلك، قلّد توقيع دكي على سجلّ الفندق، بأسلوبه الصارخ المستعجل، وحرفي R و G الكبيرَين الشبيهَين بحلَقة. عندما خرج كي يُودِع الرسالة التي كتبها إلى مارج في البريد، مرّ بصيدليّة تقع على بعد عدّة أحياء، واشترى بعض مستحضرات التجميل التي قد تلزمه. تسلّى مع البائعة الإيطاليّة هناك، وأوحى لها بأنّه يشتريها لزوجته التي أضاعت حقيبة مستحضراتها، وبقيت في الفندق لأنّها تعاني من اضطراب معويّ مفاجئ.

أمضى ذلك المساء وهو يتدرّب على تقليد توقيع دكي على إيصالات البنك. شيك الخمسمئة دولار الشهريّ، سيصل من أمريكا خلال أقلّ من عشرة أيّام.

-14-

في اليوم التالي، انتقل توم إلى فندق يوروبا، وهو فندق ذو أسعار معتدلة يقع بالقرب من ڤيا ڤنِتو، لأنّ أوتيل هاسلر فاخر زيادة عن اللزوم، فكّر، زبائنه هم نجوم السينما، فضلاً عن أنّه الفندق الذي سيختاره فريدي مايلز وأمثاله ممّن يعرفون دكي، إن جاؤوا في زيارة إلى روما.

في غرفته الجديدة، دارت في رأسه حوارات متخيّلة مع مارج وفاوستو وفريدي. مارج هي التي ستأتي إلى روما على الأغلب، فكّر، لذلك تدرّب على الحديث معها بوصفه دكي لو اتّصلت هاتفيّاً، وبوصفه توم إن جاءت ووقفت وجهاً لوجه أمامه. قد تأتي فجأة، وتعثر على الفندق الذي ينزل فيه، وتصرّ على الصعود إلى غرفته، وفي هذه الحالة ينبغي أن يخلع خاتمي دكي وملابسه.

«لا أعرف» سيقول لها بصوت توم، «تعرفينه، تعرفين كيف يحبّ ذلك الشعور بالنأي عن كلّ شيء. قال لي إنّ بوسعي البقاء في غرفته في الفندق لبضعة أيّام، لأنّ التدفئة في غرفتي سيّئة للغاية. أوه، سيعود خلال يومين، ولربّما يرسل بطاقة بريديّة كي يخبرنا بأنّه بخير. لقد ذهب إلى بلدة صغيرة برفقة دي ماسيمو، كي يتفرّجا على اللوحات في إحدى الكنائس».

«ولكن... ألا تعرف هل ذهب للشمال أو للجنوب؟!»، ستسأل مارج.

«كلّا، لا أعرف بالضبط. أعتقد إلى الجنوب... لكن بمَ يفيدنا ذلك؟!».

«إنّه حظّي التعس الذي عرقل لقائي به، أليس كذلك؟! لِماذا لَم يقل لك إلى أين سيذهب على الأقلّ؟».

«أفهمكِ. لقد سألته بدوري، وفتّشتُ الغرفة بحثاً عن خريطة أو عن أيّ دليل يقودنا إلى وجهته، لكن عبثاً! لقد اتّصل بي قبل ثلاثة أيّام، وقال إنّ بوسعي البقاء في غرفته لو أردتُ».

التمرّنُ على القفز إلى شخصيّته الحقيقيّة مجدّداً هو فكرة جيّدة، فقد يضطرّ للقيام بذلك خلال ثوان ذات مرّة، ومن السهل جدّاً أن ينسى نبرة صوت توم ريبلي الأصليّة. لذلك، ظلّ يتحادث مع مارج المتخيّلة إلى أن استعاد وقع صوته في أذنيه، تماماً كما يتذكّره... لكنّه كان دكي في معظم الأحيان، يتناقش بصوت خافت مع مارج وفريدي، أو مع والدة دكي خلف البحار، ومع فاوستو، ومع غريب ما في حفلة عشاء، يحادثهم بالإنجليزيّة وبالإيطاليّة، بعد أن شغّل راديو دكي المحمول تحسّباً لمرور موظّفي الفندق في الردهة، كي لا يظنّوا بأنّ سنيور غرينليف الذي ينزل وحده في الغرفة، غريب الأطوار. سيرقص بمفرده إن صدح الراديو بأغنية تعجبه، لكن كأنّه دكي الذي يراقص فتاة. لقد رآه يرقص مع مارج ذات مرّة في تراس فندق جورجيو، وكذلك في «الحديقة البرتقاليّة» في نابولي: خطواته واسعة، لكنّها متيبّسة نوعاً ما، لأنّه ليس بارعاً بالرقص.

استمتع توم بكلّ لحظة، سواء عندما كان وحيداً في الغرفة، أو عندما تنزّه في شوارع روما، مستغلّاً فرصة رؤية معالمها للبحث عن شقّة. من المستحيل أن يشعر بالوحدة أو الملل هنا، فكّر، بما أنّه الآن دكي غرينليف.

عندما ذهب لاستلام البريد من مكتب الأمريكان إكسبريس، حيّاه الموظّفون بـ «أهلاً، سنيور غرينليف». قرأ في الرسالة الأولى من مارج:

دكي،

حسناً، لقد فاجأتني نوعاً ما! أتساءل ما الذي دهاك في روما أو سان ريمو، أو حيثما كنتَ! توم كان متكتّماً للغاية، ولم يقل سوى أنّه سيقيم معك، ولا أعتقد بأنّني سأكتشف السبب قبل أن يغادر إلى أمريكا. قد يزعجك كلامي يا صديقي القديم، لكن هل لي أن أقول بأنّني لا أحبّ هذا الرجل؟! توم يستغلّك ويستغلّ مكانتك، وهي نقطة لن يختلف عليها أحد. إن أردتَ تغييرات تصبّ لمصلحتك، أبعدْه عنكَ بحقّ الربّ! حسناً، قد لا يكون شاذّاً، لكنّه لا شيء، وهذا أسوأ. إنّه ليس طبيعيّاً بما يكفي أصلاً كي يخوض تجربة جنسيّة أيّاً كانت، تفهم ما أقصده. بأيّ حال، لا يهمّني توم، تهمّني أنت. أجل، أستطيع أن احتمل بضعة أسابيع من دونك يا عزيزي،

والكريسماس أيضاً، مع أنّني أفضّل ألّا أفكّر بالكريسماس، وألّا أفكّر بك، وأن أترك المشاعر تقرّر مسارها وحدها كما قلتَ أنت... لكن من المستحيل ألّا أفكّر بك هنا، لأنّ كلّ إنش من هذه القرية مُشبَع بذكراك، وأنا أرى آثارك سواء في هذا المنزل، أو حيثما نظرتُ... شجيرات السياج التي زرعناها، السور الذي بدأنا بإصلاحه ولم ننته منه قطّ، الكتب التي استعرتُها منك ولم أرجعها إليك، والأسوأ منها كلّها: كرسيّك إلى جانب الطاولة.

سأزعجك بكلامي مرّة أخرى، أنا لا أقول بأنّ توم سوف يؤذيك حقّاً، لكنّه يمارس عليك تأثيراً خفيّاً سيّئاً. بشكل ما أو بآخر، أنت تشعر بالخزي من صحبته عندما تكون معه، هل تعي ذلك؟! هل حاولتَ يوماً أن تحلّل السبب؟ اعتقدتُ أنّك بدأت تدرك كلّ ذلك في الأسابيع الأخيرة، لكنّك معه الآن، وبصراحة يا عزيزي، لا أعرف ما الذي يُفترَض بي استنتاجه! بما أنّك لا تكترث متى يرحل، لِم لا تطرده بحقّ الربّ؟! لن يساعدك لا هو ولا غيره، على اتّخاذ أيّ قرار. من مصلحته أن تبقى متخبّطاً، وأن يتلاعب بك وبوالدك أيضاً.

أشكرك جزيل الشكر يا عزيزي على الكولونيا، سأوفّرها -أو سأوفّر ما أستطيع منها- كي أستعملها عندما أراك لاحقاً. لم أنقل الثلّاجة بعد إلى منزلي، بوسعك استعادتها متى شئت بلا شكّ.

لعلّ توم أخبرك بأنّ سكيبي هرب. هل أصطاد سحليّة وأربط خيطاً حول عنقها؟! يجب أن أرمّم حائط المنزل على الفور، قبل أن يتداعى تماماً وينهار فوقي. أتمنّى لو أنّك هنا يا عزيزي!

الكثير من الحبّ،

اكتب لي

قبلاتي، مارج

أمريكان إكسبريس

روما

12 كانون الأوّل، 19—

ماما وبابا العزيزان،

أنا أبحث عن شقّة في روما الآن، ولم أجد واحدة ترضيني بعد. الشقق هنا إمّا كبيرة جدّاً أو صغيرة للغاية. في الشقق الكبيرة، يضطرّ المرء إلى إغلاق الغرف كلّها والاكتفاء باستعمال واحدة منها فقط، كي يشعر بالدفء. أحاول العثور على شقّة متوسّطة الحجم ذات إيجار معقول، كي لا أضطرّ لإنفاق ثروة على التدفئة.

أعتذر لأنّني لم أكتب لكما كثيراً في الفترة الماضية، آمل أنّ الوضع سيتحسّن بفضل الحياة الهادئة التي أحياها هنا. شعرتُ بأنّني بحاجة إلى التغيير والابتعاد عن مونجيبللو -كما كنتما تقولان لي منذ فترة طويلة- لذلك نقلتُ متاعي وحقائبي إلى روما، وقد أبيع المنزل والزورق أيضاً. التقيتُ برسّام رائع يدعى دي ماسيمو، مستعدّ لإعطائي دروساً في مرسمه. سأعمل كالعاصفة لبضعة أشهر، وأرى ما سيحصل... إنّها فترة تجريبيّة. أدرك أنّ هذا الموضوع لا يثير اهتمامك بابا، لكن بما أنّك تتساءل دائماً كيف أقضي وقتي، فهذا هو ما سأفعله، سأحيا حياة هادئة وأعمل بجدّ حتّى الصيف القادم.

في سياق آخر، هل تستطيع أن ترسل لي أحدث تصاميم بورك - غرينليف؟ لقد مرّ وقت طويل منذ أن رأيتُ أيّاً منها، وأنا أودّ البقاء على اطلاع على ما تفعلونه.

ماما، آمل بأنّك لم تتكبّدي العناء من أجل هدية الكريسماس، أنا لا أحتاج شيئاً إطلاقاً. كيف حالك؟ هل تقدرين على الخروج من المنزل كثيراً؟ إلى المسرح مثلاً أو ما شابه؟ كيف حال خالي إدوارد الآن؟ بلّغيه تحياتي وأخبريني بالمستجدّات.

مع حبّي،

دكي.

قرأ توم الرسالة مرّة أخرى، وقرّر أنّها تحوي الكثير من علامات الترقيم، فأعاد طباعتها مجدّداً بصبر، ثمّ وقّعها. لقد رأى ذات مرّة رسالة من دكي إلى والديه، تركها شبه منتهية على الآلة الكاتبة، واستنتج أسلوبه العامّ في

الكتابة. دكي لا يُنفق أكثر من عشر دقائق من وقته في كتابة أيّة رسالة، وإن كانت هذه مختلفة، فكّر، فهذا عائدٌ فقط إلى أنّها حميمة ومتحمّسة نوعاً ما أكثر من المعتاد. سُرّ توم ممّا كتبه، عندما قرأ الرسالة للمرّة الثانية. إدوارد هو خال دكي المباشر، وهو مريض بالسرطان يتعالج في إحدى المستشفيات كما عرف توم من آخر رسالة أرسلتها مسز غرينليف إلى ابنها.

بعد عدّة أيّام، سافر إلى باريس بالطائرة. اتّصل بفندق إنجلترا قبل أن يغادر روما، لكن لم يجد رسائل أو اتّصالات هاتفيّة لريتشارد غرينليف. حطّ في مطار أورلي في الخامسة عصراً، وختم مفتّش المطار جواز سفره على الفور، بعد أن ألقى عليه نظرة سريعة. سبق لتوم أن فتّح لون شعره باستعمال غسول البيروكسيد، وجعّده قليلاً مستعيناً بزيت للشعر، كما أنّه رسم على وجهه أمام المفتّش تعبيراً صارماً أميل للعبوس، كما يظهر دكي في صورة جواز السفر. نزل في أوتيل دو كاي ڤولتير، الذي نصحه به سيّاح من الولايات المتّحدة التقاهم في أحد مقاهي روما، لأنّ موقعه مناسب، ولا ينزل فيه الكثير من الأمريكيّين. بعد ذلك، خرج كي يتمشّى في المساء الكانونيّ البارد الذي يلفّه الضباب. سار رافعاً رأسه، والابتسامة تعلو شفتيه. إنّه جوّ المدينة الذي يحبّه، الجوّ الذي لطالما سمع عنه، الأزقّة المتعرّجة، المنازل ذات الواجهات الرماديّة، السقوف ذات الكوّات الزجاجيّة، أبواق السيّارات الصاخبة، المراحيض العموميّة في كلّ مكان، إعلانات المسارح الملصقة على الأعمدة، بألوانها البرّاقة... أراد أن يتشرّب هذا الجوّ ببطء، على مدار عدّة أيّام، قبل أن يزور متحف اللوڤر أو يصعد إلى برج إيفل أو أن يقوم بأيّ نشاط مماثل. ابتاع صحيفة الفيغارو، وجلس إلى طاولة في كافيه فلور ثمّ طلب كونياك مع الماء، لأنّ دكي ذكر أمامه ذات مرّة بأنّه المشروب الذي يحتسيه عندما يزور فرنسا. توم لا يتكلّم سوى القليل جدّاً من اللغة الفرنسيّة، كما كان دكي حسب معلوماته. حدّق إليه بعض الأشخاص عبر واجهة المقهى الزجاجيّة وأثاروا فضوله، لكن لم يخرج أيٌّ منهم كي يتحدّث معه. قد ينهض شخص ما عن إحدى الطاولات في أيّة لحظة، ويأتي إليه قائلاً: «دكي غرينليف! هل هذا أنت؟!»، وتوم مستعدّ لذلك.

لم يُدخِل سوى تعديلات بسيطة على مظهره، فكّر، أمّا تعابيره فهي تشبه تعابير دكي الآن. إنّه يبتسم للغرباء ابتسامة مفرطة الودّ، تليق أكثر للترحيب بصديق قديم أو حبيبة. إنّها ابتسامة دكي الأجمل، التي تفترّ عنها شفتاه دائماً عندما يكون مزاجه جيّداً، وتوم الآن في مزاج جيّد. إنّها باريس! يا لروعة الجلوس في مقهى مشهور، حيث تفكّر بالغد، وبالغد، والغد هو دكي غرينليف. أزرار أكمام دكي، قمصانه البيضاء الحريريّة، حتّى ملابسه البالية: الحزام البنيّ المهترئ ذو البكلة النحاسيّة، الحذاء البنيّ القديم المصنوع من الجلد المحبحب، من النوع الذي تقول إعلانات مجلّة بانش أنّه يدوم مدى الحياة، المعطف المطريّ الأصفر ذو الجيوب المتهدّلة... كلّها له الآن، وهو يحبّها كلّها، ويحبّ كذلك قلم الحبر الأسود الذي يحمل الأحرف الأولى المذهّبة من اسم دكي، ومحفظة جلد التمساح المهترئة ماركة غوتشي، والكثير من النقود كي يضعها بداخلها!.

بعد ظهر اليوم التالي، ارتاد حفلة أقامتها فتاة فرنسيّة وشابّ أمريكيّ، تجاذب معهما أطراف الحديث سابقاً، في مطعم كبير في بوليڤار سان جيرمان. وجد نفسه بين ثلاثين أو أربعين شخصاً، معظمهم في أواسط العمر، يقفون جامدين في شقّة كبيرة باردة متكلّفة. في أوروبا، استنتج توم، التدفئة الرديئة علامة على البرستيج في الشتاء، تماماً كشرب المارتيني دون ثلج في الصيف. لقد اضطرّ للانتقال إلى فندق فخم في روما كي ينعم بالدفء، لكنّ الفندق الأفخم كان أبرد! الشقّة التي تقام فيها الحفلة فخمة، لكنّها كلاسيكيّة كئيبة، فكّر، هناك رئيس للخدم، وخادمة، وطاولة ضخمة مليئة بفطائر اللحم، شرائح الديك الروميّ، البتفور، والكثير من الشمبانيا. حواشي الكنبة والستائر الطويلة مهترئة ومتعفّنة لأنّها عتيقة جدّاً، فضلاً عن أنّه لمح جحر فئران في البهو عند المصاعد. ستّة من المدعوين على الأقلّ، قدّموا أنفسهم إليه على أنّهم كونت أو كونتيسة، كما قال له ضيفٌ أمريكيّ بأنّ الشاب والفتاة اللذين دعياه سوف يتزوّجان قريباً، وأنّ والدي الفتاة ليسا متحمّسين لهذا الزواج.

ساد في الغرفة الكبيرة جوّ من التوتّر العامّ، وحاول توم أن يكون لطيفاً قدر الإمكان مع الجميع، بمن فيهم الفرنسيّون المتجهّمون الذين لم يستطع

أن يتبادل معهم حديثاً يتجاوز عبارة: «لطيف جدّاً، أليس كذلك؟» لكنّه بذل ما في وسعه، وظفر بابتسامة على الأقلّ من مضيفته الفرنسيّة الشابّة. حسب نفسه محظوظاً لأنّه هنا، فكم من الأمريكيّين الوحيدين في باريس، توجَّه لهم دعوة إلى منزل فرنسيّ بعد أسبوع واحد فقط يمضونه هنا؟! الفرنسيّون يتردّدون كثيراً بدعوة الغرباء إلى منازلهم، كما يسمع دائماً. فضلاً عن ذلك، لا أحد من الأمريكيّين هنا يعرف اسمه، لذلك شعر بالراحة المطلقة كما لم يشعر من قبل في أيّة حفلة حضرها في حياته، وتصرّف بالطريقة التي لطالما تمنّى أن يتصرّف وفقها في الحفلات: إنّها الصفحة الناصعة التي فكّر بها وهو على متن السفينة عندما جاء من أمريكا، المحو الحقيقيّ لماضيه ولنفسه، لتوم ريبلي الذي كان مصنوعاً من ذلك الماضي، إنّها ولادة كشخص جديد تماماً!.

دعاه أحد الحضور الفرنسيّين وأمريكيّان اثنان إلى حفلات أخرى، لكنّه اعتذر منهم جميعهم متذرّعاً بالحجة نفسها: «شكراً جزيلاً، لكنّني سأغادر باريس غداً». لا يجب أن يتعمّق بصداقة أيٍّ من هؤلاء الناس، فكّر توم، لعلّ أحدهم يعرف شخصاً من أصدقاء دكي معرفة جيّدة، وهذا الشخص قد يكون حاضراً في الحفلة التالية.

في الساعة الحادية عشرة والربع، ودّع توم مضيفته الفرنسيّة الشابّة ووالديها، فبدا عليهم الحزن لأنّه سيغادر. أراد أن يصل إلى كاتدرائيّة نوتردام عند منتصف الليل، لأنّها عشيّة الكريسماس.

سألته والدة الفتاة عن اسمه مجدّداً.

«مسيو غرينليف» كرّرت الفتاة لوالدتها، «دكي غرينليف، أليس صحيحاً؟».

«بلى!»، ردّ توم مبتسماً.

عندما وصل إلى أسفل السلّم، تذكّر حفلة فريدي مايلز في كورتينا، التي أقيمت في الثاني من كانون الأوّل، أي قبل شهر تقريباً! لقد عزم آنذاك على كتابة رسالة إلى فريدي، كي يعتذر عن الحضور، لكنّه نسي. هل ذهبت مارج يا ترى؟! لعلّها اعتذرت نيابة عنه كما يأمل، لا بدّ أن يكتب لفريدي على

الفور! سبق أن رأى عنوانه في فلورنسا، مدوّناً في دفتر عناوين دكي. إنّها زلّة بسيطة، فكّر توم، لكن يجب ألّا تتكرّر.

مشى في الظلام، وانعطف باتّجاه قوس النصر الأبيض المضاء. كم هو غريب هذا الشعور بأنّه وحيد للغاية، لكنّه جزء حميم من الأشياء كلّها في الوقت نفسه، كما شعر أثناء الحفلة. راوده الشعور ذاته مجدّداً، وهو يقف على أطراف الحشد الضخم الذي يملأ ساحة كاتدرائيّة نوتردام. لم يستطع أن يشقّ طريقه إلى الداخل، لكنّ مكبّرات الصوت حملت الموسيقا بوضوح إلى كلّ زوايا الساحة، ترنيمات كريسماس فرنسيّة لا يعرف توم أسماءها: ترنيمة «الليلة الصامتة»، ترنيمة حزينة، ثمّ أخرى متقافزة مرحة، وغناء أصوات ذكوريّة. خلع الرجال الفرنسيّون بالقرب منه قبّعاتهم، فخلع قبّعته بدوره، ووقف مشدود القامة، وجهه رصين، لكنّه سيبتسم فوراً إن خاطبه أيّ شخص. إنّه الشعور ذاته الذي انتابه عندما كان على متن السفينة، لكنّه أقوى الآن: إنّه جنتلمان، مفعم بالنوايا الطيّبة، ولا شيء في ماضيه يلطّخ شخصيّته. إنّه دكي الطيّب، دكي الساذج، الذي يحمل ابتسامة للناس جميعهم، وألف فرنك لمن يطلب منه. استجداه رجل عجوز وهو يغادر ساحة الكاتدرائيّة، فأعطاه توم ورقة من فئة ألف فرنك زرقاء جديدة. قفزت الابتسامة إلى شفتي المتسوّل، ولمس قبّعته شاكراً.

شعر بالجوع، مع أنّه يحبّذ فكرة النوم دون عشاء في هذه الليلة. سيقضي ساعة تقريباً بدراسة كتاب المحادثة باللغة الإيطاليّة، فكّر، من ثمّ سيؤوي للسرير، لكنّه تذكّر أنّه يحاول اكتساب خمسة باوندات على الأقلّ، لأنّ ثياب دكي واسعة نوعاً ما عليه، كما أنّ وجه دكي أكثر امتلاءً من وجهه. توقّف في حانة، وطلب سندويشة من الخبز الطويل المقرمش، وكأساً من الحليب الساخن بعد أن رأى الرجل الجالس بجواره إلى البار يشربه. الحليب كان عديم الطعم، نقيّاً ومتواضعاً، تماماً كما يتخيّل طعم خبز القربان في كنيسة.

استمتع توم بطريق العودة من باريس، فتوقّف ليلة في ليون، وفي آري، كي يتفرّج على الأماكن التي رسمها ڤان كوخ. حافظ على رزانته وابتهاجه على الرغم من الطقس الرديء العاصف في آري، وبلّله المطر المحمول مع رياح المسترال[1] الهوجاء، عندما حاول اكتشاف المواقع التي وقف فيها ڤان

1- رياح قويّة باردة تهبّ من شمالي فرنسا إلى جنوبها، على مسير نهر الرون. المترجمة.

كوخ بالضبط كي يرسم. لقد اشترى كتاباً جميلاً عن لوحاته في باريس، لكنّ المطر منعه من تقليب صفحاته، فاضطرّ إلى أن يعود عشر مرّات إلى فندقه، كي يطابق المناظر التي يراها مع تلك المرسومة في الكتاب. ألقى نظرة على مرسيليا، فوجدها كئيبة باستثناء شارع كانبيير. تابع رحلته بالقطار شرقاً، وتوقّف يوماً واحداً في كلٍّ من سان تروبه، كان، نيس، مونت كارلو، وغيرها من الأماكن التي سمع عنها وشعر بالألفة معها ما أن رآها، على الرغم من الغيوم الرماديّة الشتويّة التي تخيّم عليها في كانون الأوّل، وعلى الرغم من أنّ حشود الشواذّ كانت غائبة، حتّى عن مدينة منتون في رأس السنة. في خياله، ملأ توم تلك الأماكن بالناس، برجال ونساء يرتدون ملابس السهرة، وينزلون على الأدراج العريضة في كازينوهات القمار في مونت كارلو، بأشخاص في مايوهات السباحة الخفيفة والبرّاقة كلوحات راؤول دافي المائيّة، يمشون تحت أشجار النخيل في بوليڤار ديزأنغليه في نيس، بأمريكيّين وإنجليز وإيطاليّين وفرنسيّين وألمانيّين وسويديّين، بالرومانسيّة، بالخيبات، بالشجارات، بالمصالحات، بالجريمة... كوت دازور أثار حماسه أكثر من أيّ مكان آخر في العالَم، إنّه صغير للغاية حقّاً، مجرّد انحناء في ساحل البحر المتوسّط، يضمّ أمكنة ذات أسماء رائعة تتناثر كالخرز: تولون، فريجوس، سان رافاييل، كان، نيس، منتون، من ثمّ سان ريمو.

عندما عاد إلى روما في الرابع من كانون الثاني، وجد بانتظاره رسالتَين من مارج. قالت إنّها ستترك منزلها في الأوّل من آذار، وأنّها لم تنته من كتابها بعد، لكنّها أرسلت ثلاثة أرباع المسوّدة تقريباً مع كلّ الصور الفوتوغرافيّة، إلى الناشر الأمريكيّ الذي أبدى اهتماماً بفكرة الكتاب عندما طرحتها عليه في الصيف الماضي. «متى سأراك؟» كتبت لدكي، «أكره أن يفوتني الصيف في أوروبا، بعد أن احتملتُ شتاء بشعاً آخر. على الرغم من ذلك، أظنّ أنّني سأعود إلى الوطن في أوائل آذار. أجل، أنا أشعر بالحنين للوطن، أخيراً، حقّاً! عزيزي، كم سيكون رائعاً لو نعود معاً إلى الولايات المتّحدة على متن السفينة ذاتها. هل هذا ممكن؟! لا أظنّ ذلك! ألن تعود إلى الولايات إطلاقاً؟ ولا حتّى في زيارة قصيرة هذا الشتاء؟!.

كنتُ أفكّر بشحن كلّ متاعي (ثمان حقائب، صندوقان كبيران، ثلاثة

صناديق من الكتب ومتفرّقات أخرى) عبر البحر من نابولي، من ثمّ سآتي إلى روما. بوسعنا على الأقلّ أن نسافر حول الساحل مرّة أخرى إن كنت ترغب بذلك، وأن نزور فورت دي مارمي، ڤياريجيو، وكلّ الأماكن التي أحببناها يوماً، كي سنلقي عليها نظرة الوداع! لا أبالي بالطقس، أعرف أنّه سيكون رديئاً، ولن أطلب منكْ مرافقتي إلى مرسيليا حيث سأركب السفينة إلى الولايات المتّحدة، لكن هل ترافقني لو انطلقتُ من جنوة؟ ماذا تقول؟!».

الرسالة الثانية كانت أكثر تحفّظاً، وتوم يعرف السبب: لم يرسل لها بطاقة بريديّة واحدة منذ أكثر من شهر! كتبت مارج في هذه الرسالة:

لقد غيّرتُ رأيي حول الريڤييرا، أظنّ أنّ الطقس الرطب -أو لربّما كتابي- خنق حماسي. بأيّ حال، سأغادر إلى نابولي بسفينة الكونستِتيوشن، التي تنطلق في موعد أبكر، هو الثامن والعشرون من شباط. تخيّل! سأصبح في أمريكا بمجرّد أن أضع قدمي على ظهر السفينة: طعام أمريكيّ، أمريكيّون، دولارات لابتياع الشراب، سباق الخيول... آه يا عزيزي! يؤسفني ألّا أراك، لقد استنتجتُ من صمتك أنّك لا ترغب برؤيتي، لذلك انسَ الأمر، لقد تخلّصتَ منّي.

بالطبع، أتمنّى أن أراك مجدّداً في الولايات المتّحدة، أو حيثما كان. إن تحمّستَ للقدوم إلى مونجيبللو قبل الثامن والعشرين من الشهر الحاليّ، تعرف تماماً أنّك على الرحب والسعة.

المخلصة دائماً،

مارج

ملاحظة: لا أعرف حتّى إن كنتَ ما تزال في روما.

استطاع توم رؤية الدموع تترقرق في عينيها، وهي تكتب هذه الرسالة. شعر برغبة ملّحة تدفعه كي يردّ عليها برسالة متفهّمة للغاية، قائلاً إنّه عاد لتوّه من اليونان، ويسألها إن وصلتها البطاقتان البريديّتان اللتان أرسلهما إليها؟! من الآمن أكثر، فكّر، أن تغادر مارج من دون أن تعرف مكانه بالضبط، لذلك لم يكتب لها شيئاً.

الأمر الوحيد الذي أقلقه -لكن ليس إلى حدّ كبير- هو أن تباغته مارج في

روما قبل أن يستقرّ في شقّة. ستعثر عليه بكلّ تأكيد إن فتّشت الفنادق واحداً واحداً، لكنّها لن تنجح بالعثور عليه في شقّة. الأمريكيّون الميسورون ليسوا مضطّرين لإبلاغ الشرطة بالعناوين التي ينزلون فيها مؤقّتاً، لكنّهم مُلزَمون وفق شروط إذن الإقامة بإبلاغها بتغيير عنوانهم الثابت. سبق لتوم أن تحدّث مع أمريكيّ لديه شقّة في روما، فقال له إنّه لا يزعج نفسه إطلاقاً بهذا الشرط، ولم تزعجه الشرطة أبداً. ملابسه الخاصّة ما تزال جاهزة في الخزانة، أمّا شعره فهو الأمر الوحيد الذي تغيّر في مظهره الخارجيّ، وسيدّعي بأنّه تأثير الشمس، هذا لا يقلقه إطلاقاً! في البداية، تسلّى باستعمال قلم الحواجب -لأنّ حاجبي دكي أطول من حاجبيه، وطرفاهما مرتفعان أكثر- مع لمسة من المعجون على طرف أنفه، كي يجعله أطول ومستدقّاً أكثر، لكن يسهل على الآخرين ملاحظة هاتين الحيلتَين، لذلك تخلّى عنهما. النقطة الأهمّ في انتحال الشخصيّة، فكّر توم، هي الحفاظ على مزاج وطبع الشخص المقصود، وإتقان تعابير وجهه التي تترافق مع كلّ حالة، أمّا الباقي فيأتي من تلقاء ذاته.

في العاشر من كانون الثاني، كتب رسالة إلى مارج قائلاً إنّه عاد إلى روما بعد أن قضى ثلاثة أسابيع في باريس بمفرده، وأنّ توم غادر روما قبل شهر قائلاً إنّه متّجه إلى باريس، ومنها إلى أمريكا، لكنّه لم يلتق به هناك. قال لها أيضاً إنّه لم يعثر بعد على شقّة مناسبة في روما، لكنّه مستمرّ في البحث، وسيرسل لها عنوانه ما أن يستقرّ. شكرها مطوّلاً على هديّة الكريسماس التي أرسلتها إليه: كنزة بيضاء مقلّمة بشرائط حمراء على شكل حرف V (بدأت بحياكتها في شهر تشرين الأوّل، وجعلت دكي يجرّبها عدّة مرّات)، كتاب عن الفنّ يتناول لوحات القرن الخامس عشر، وعدّة حلاقة تحمل الأحرف الأولى من اسم دكي وكنيته على غطائها. وصل الطرد في السادس من كانون الأوّل، وكان هذا التأخير هو الدافع الرئيسيّ خلف رسالته. لم يشأ أن تظنّ مارج بأنّه لم يستلم هديّتها، فتتخيّل أنّه اختفى فجأة وتباشر البحث عنه. سألها إن استلمت الطرد الذي أرسله لها من باريس، أم أنّه تأخّر بدوره؟ اعتذر لها، وكتب:

عدتُ للرسم مجدّداً مع دي ماسيمو، وأنا في غاية السرور. أشتاق لكِ

أيضاً، لكن إن كنتِ قادرة على تحمّل تجربة فراقنا لفترة أطول، أفضّل ألّا أراكِ لبضعة أسابيع أخرى (إلّا إن عدتِ فجأة في شباط إلى الوطن، وهو ما أشكّ فيه!) وعندها ستتلاشى رغبتكِ برؤيتي مجدّداً. تحياتي لجورجيو وزوجته، ولفاوستو إن كان ما يزال في مونجيبللو، ولبييترو في الميناء.

إنّها رسالة مصبوغة بنبرة دكي الشاردة الحزينة، التي تحملها رسائله كلّها. رسالة لا يمكن وصفها كباردة أو دافئة، ولا تقول شيئاً مفيداً في جوهرها.

في الواقع، لقد عثر على شقّة ضمن مبنى سكنيّ كبير في ڤيا إمبريال، بالقرب من بنشان غايت، ووقّع عقد إيجارها لمدّة سنة، على الرغم من أنّه لا ينوي قضاء كلّ وقته في روما، خاصّة في الشتاء. كلّ ما أراده هو «بيت»، قاعدة ثابتة في مكان ما بعد سنوات من التشرّد، وروما هي مدينة أنيقة، وجزء من حياته الجديدة. أراد أن يكون قادراً على الإجابة: «أجل، أنا أقيم في روما، عندي شقّة هناك» عندما يزور مايوركا أو أثينا أو القاهرة... إلخ. «عندي» هي الكلمة التي يستعملها المسافرون الدوليّون، للإشارة إلى الشقق، «عندكَ» شقّة في أوروبا مثلما «عندك» كراج في أمريكا. يرغب أيضاً بأن يسكن في شقّة أنيقة، لكنّه لن يدعو إلّا قلّة من الناس لزيارته. على الرغم من أنّه يكره امتلاك هاتف -حتّى ولو لم يُدرَج رقمه في الدليل- لكنّه قرّر أخيراً أنّ الهاتف هو إجراء احترازيّ سينفعه ولن يزعجه، لذلك وضع واحداً في الشقّة التي تضمّ صالوناً واسعاً، غرفة نوم، غرفة جلوس، مطبخاً، وحمّاماً. أثاثها مبهرج نوعاً ما، لكنّه يتماشى مع الحيّ المحترم والحياة المحترمة التي ينوي أن يعيشها. الإيجار الشهريّ يعادل مئة وخمسة وسبعين دولاراً في الشتاء متضمّناً نفقات التدفئة، ومئة وخمسة وعشرين دولاراً في الصيف.

ردّت مارج برسالة طافحة بالسعادة، وقالت إنّها استلمت لتوّها تلك البلوزة الحريريّة الرائعة التي أرسلها لها من باريس، وبأنّها هديّة لم تتوقّعها إطلاقاً، وتلائمها تماماً! أخبرته بأنّها دعت فاوستو وآل سيشي إلى عشاء الكريسماس في منزلها، وأنّ الديك الروميّ كان رائع المذاق، وكذلك الكستناء، وصلصة كبد الدجاج، وبودنغ الخوخ... وإلخ إلخ إلخ. كلّ ما تمنّته حصلت عليه، ما عداه هو! ما الذي يفعله الآن؟ بماذا يفكّر؟ هل هو أسعد؟! أضافت أنّ فاوستو سيمرّ به في روما عندما يسافر إلى ميلان، إن

أرسل له عنوانه في الأيّام القليلة القادمة، أو إن ترك له رسالة في الأمريكان إكسبريس، يشرح له فيها كيف يجده.

خمّن توم بأنّ مزاجها الجيّد راجع إلى اعتقادها بأنّه غادر إلى أمريكا، عن طريق باريس. وصلته أيضاً في الوقت ذاته رسالة من السنيور بوتشي، قال فيها إنّه باع ثلاث قطع من الأثاث لقاء مئة وخمسين ألف ليرة في نابولي، وإنّ رجلاً يدعى أناستازيو مارتينو من مونجيبللو سيشتري الزورق، ووعده بأن يدفع دفعة أولى من الثمن خلال أسبوع. قال أيضاً إنّه لن يتمكّن على الأرجح من بيع المنزل في الوقت الحاليّ، ولا بدّ من الانتظار إلى أن يتوافد السيّاح الأمريكيّون مجدّداً في فصل الصيف. بعد حسم عمولة السنيور بوتشي البالغة 15%، سيقبض توم مئتين وعشرة دولارات أمريكيّة، لذلك احتفل في تلك الليلة بالذهاب لتناول عشاء فاخر في نادٍ ليليّ في روما، واستمتع به وحده على طاولة أنيقة معدّة لشخصين، تضيئها الشموع. لم يزعجه إطلاقاً أن يتعشّى بمفرده، ولا أن يذهب إلى المسرح بمفرده أيضاً، لأنّ هذا أعطاه فرصة للتركيز على تقمّص شخصيّة دكي: قَسَم قطعة الخبز بطريقة دكي، رفع شوكته إلى فمه بيده اليسرى كما يفعل دكي، وحدّق إلى الطاولات الأخرى وإلى الراقصين بسكينة عميقة سموح، بحيث اضطرّ النادل إلى مخاطبته مرّتين قبل أن يحظى باهتمامه. لوّح له بعض الجالسين إلى إحدى الطاولات، ميّز توم من بينهم الزوجين الأمريكيَّين اللذين التقى بهما في حفلة الكريسماس في باريس، فلوّح لهما بدوره: آل سودر، إنّه يتذكّر الاسم أيضاً! لم ينظر صوبهما مجدّداً خلال الأمسية، لكنّهما انتهيا من تناول العشاء قبله، وتوقّفا عند طاولته في طريقهما للمغادرة كي يلقيا عليه التحيّة.

«هل أنت وحدك؟»، سأله الزوج الذي يبدو ثملاً.

«أجل، أنا أواعد نفسي سنويّاً هنا» أجاب توم، «أحتفل بذكرى خاصّة».

هزّ الأمريكيّ رأسه دون أن يفهم ما سمع، وأدرك توم أنّه يبحث عن عبارة ذكيّة يقولها، وأنّه لا يشعر بالراحة إطلاقاً، تماماً كأيّ أمريكيّ يتحدّر من بلدة صغيرة ويجد نفسه أمام الوقار والرزانة الكوزموبوليتيّة، والنقود، والملابس الجديدة، حتّى لو كَسَت تلك الملابس أمريكيّاً آخر.

«قلتَ إنّك مقيم في روما، أليس كذلك؟» سألت الزوجة، «تعرف كيف، أظنّ بأنّنا نسينا اسمك، لكنّنا نتذكّرك جيّداً من عشيّة الكريسماس تلك».

«غرينليف» ردّ توم، «ريتشارد غرينليف».

«أجل، أجل» قالت الزوجة وهي تشعر بالراحة، «هل عندك شقّة هنا؟»، وتأهّبت لحفظ عنوانه ذهنيّاً.

«أنا أنزل في فندق حاليّاً، لكنّني أخطّط للانتقال إلى الشقّة في أيّة لحظة، بمجرّد أن تنتهي أعمال الديكور. فندقي هو إليسيو، اتّصلا بي».

«يسعدنا ذلك. نحن في طريقنا إلى مايوركا خلال ثلاثة أيّام، إنّه وقت كافٍ للقائك».

«تسعدني رؤيتكما» قال توم، «طاب مساؤكما».

وحيداً مجدّداً، عاد توم إلى أحلام اليقظة. يجب أن يفتح حساباً مصرفيّاً باسم توم ريبلي، فكّر، وأن يودع فيه مئة دولار تقريباً بين حين وآخر. دكي غرينليف يملك حسابين مصرفيّين، أحدهما في نابولي والآخر في نيويورك، كلٌّ منهما يحوي خمسة آلاف دولار تقريباً. ربّما يفتح حساباً باسم ريبلي، يودع فيه ألفي دولار أمريكيّ مبدئيّاً، من ثمّ يضيف عليه ثمن أثاث مونجيبللو الذي يبلغ مئة وخمسين ألف ليرة. في نهاية المطاف، ينبغي عليه أن يدير شؤون شخصين اثنين!.

-15-

زار توم الكابيتولين، وڤيلا بورغيزي، واستكشف الفورُم بتفاصيله الدقيقة، كما أخذ ستّة دروس في اللغة الإيطاليّة من رجل عجوز في الحيّ الذي يقطنه، يعلّق على نافذته لافتة «مدرّس». بعد الدرس السادس، فكّر توم بأنّه يتكلّم الإيطاليّة الآن بطلاقة تضاهي دكي. إنّه يتذكّر حرفيّاً عدّة عبارات قالها دكي في مناسبة ما أو في أخرى، واكتشف بأنّها كلّها خاطئة الآن. على سبيل المثال، قال دكي: «Ho paura che non c’e arivata, Giorgio» ذات مساء في فندق جورجيو وهما ينتظران مارج التي تأخّرت، والصحيح هو أن يقول: «sia arrivata» بصيغة الشرط، بعد تعبيره عن خشيته من ألّا تأتي مارج. دكي لم يستخدم الصيغ الشرطيّة كثيراً، على الرغم من أنّها شائعة الاستعمال في اللغة الإيطاليّة، لذلك بذل توم جهده كي لا يتعلّم استخدامها بالشكل الصحيح بدوره.

اشترى ستائر مخمليّة حمراء داكنة للصالون، لأنّ الستائر الموجودة في الشقّة أزعجته. سأل السنيورا بوفي -زوجة المشرف على المبنى- عن خيّاطة تتقن تفصيل الستائر، فعرضت عليه أن تخيطها بنفسها لقاء ألفي ليرة إيطاليّة، أي ما يعادل أقلّ من ثلاثة دولارات، لكنّ توم دفع لها خمسة آلاف ليرة. اشترى أيضاً عدّة أغراض صغيرة لتزيين شقّته، على الرغم من أنّه لم يدعُ أحداً لزيارته، باستثناء رجلٍ شابّ جذّاب غبيّ قليلاً، أمريكيّ التقاه في كافيه غريكو. طلب منه الشابّ أن يرشده إلى فندق إكسِلزيور، فدعاه للصعود إلى شقّته واحتساء كأس من الشراب معاً، بما أنّ شقّته تقع في الطريق المؤدّي إلى الفندق. كلّ ما أراده توم هو أن يبهر الشابّ لساعة واحدة فقط، من ثمّ يودّعه للأبد، وهو ما فعله بعد أن قدّم به أفضل براندي موجود لديه، وأراه الشقّة، وناقش معه مباهج الحياة في روما. بأيّ حال، سافر الشابّ إلى ميونخ في اليوم التالي.

حرص توم على تجنّب الأمريكيّين المقيمين في روما، الذين سيتوقّعون منه أن يرتاد حفلاتهم وأن يدعوَهم إلى الحفلات التي سيقيمها في المقابل. في الوقت ذاته، راق له تبادل الأحاديث مع الأمريكيّين والإيطاليّين في كافيه غريكو، وفي المطاعم التي يرتادها الطلّاب في ڤيا مارغوتا. لم يخبر أحداً منهم باسمه، ما عدا رسّاماً إيطاليّاً يدعى كارلينو التقى به في إحدى حانات ڤيا مارغوتا. قال لكارلينو أيضاً بأنّه رسّام هاوٍ، يدرس الرسم على يد فنّان إيطاليّ يدعى دي ماسيمو. إن فتحت الشرطة ذات يوم تحقيقاً حول نشاطات دكي في روما -ربّما بعد انقضاء مدّة طويلة على اختفائه، وعندها سيعود هو إلى شخصيّة توم ريبلي مجدّداً- بوسعه أن يعوّل على كارلينو كي يقول بأنّ دكي غرينليف كان يدرس الرسم في روما، خلال شهر كانون الأوّل. كارلينو لم يسمع بدي ماسيمو قطّ، لكنّه لن ينساه إطلاقاً بعد أن وصفه توم بحماس.

شعر توم بأنّه وحيد، وليس وحيداً في آن واحد، تماماً كما في حفلة الكريسماس تلك في باريس: شعور بأنّ جميع مَن حوله يراقبونه، وكأنّ الموجودين أمامه هم جمهور من أنحاء العالم بأكمله. إنّه شعور يجعله يبذل أقصى جهده دوماً، لأنّ أصغر غلطة قد تنقلب إلى كارثة. مع ذلك، شعر بأنّه واثق من نفسه للغاية، وبأنّه لن يرتكب أخطاء أبداً، وهو ما أعطى وجودَه جوّاً غريباً لذيذاً من النقاء، يشبه النقاء الذي يشعر به ممثّل بارع عندما يلعب دوراً مهمّاً على خشبة المسرح، واثقاً من أنّه الوحيد القادر على أدائه كأفضل ما يمكن. توم كان نفسه، وفي الوقت ذاته لم يكن نفسه، وشعر بأنّه حرٌّ لا يُلام. إنّه يتحكّم بكلّ حركة يؤدّيها، لا ينتابه التعب بسببها كما في السابق -حتّى ولو طال ذلك لساعات- ولا تلزمه استراحة منها بمجرّد أن يختلي بنفسه. ما أن ينهض من سريره كي يفرشي أسنانه، حتّى يتحوّل على الفور إلى دكي الذي يفرشي أسنانه بطريقة ينتأ فيها مرفقه للأمام، دكي الذي يفتل ملعقته على قشرة البيضة كي يستخرج منها آخر قطعة، إنّه حتماً دكي الذي يعيد أوّل ربطة عنق انتقاها إلى العلّاقة، من ثمّ يتناول واحدة غيرها... كما أنّه رسم لوحة بأسلوب دكي!.

مع نهاية شهر كانون الثاني، فكّر توم بأنّ فاوستو قد غادر إلى ميلان عبر روما، على الرغم من أنّ مارج لم تأتِ على ذكره في رسالتها الأخيرة. مارج

تكتب له أسبوعياً، إلى عنوان مكتب الأمريكان إكسبريس. سألته إن كان بحاجة إلى جوارب أو واقيات صوفيّة للأذنين، لأنّ وقتها يسمح لها بالحياكة إلى جانب العمل على كتابها. دائماً ما تسرد له طرفة مضحكة عن شخص ما في القرية، كي لا يظنّ بأنّها تموت كمداً بسببه، مع أنّ هذا هو الواقع كما يبدو بوضوح، فضلاً عن أنّها لن تغادر إلى الولايات المتّحدة في شباط، قبل أن تقوم بمحاولة أخيرة يائسة للقائه وجهاً إلى وجه، فكّر توم. لذلك، تكتب له رسائل طويلة، وتقترح أن تحوك جوارب وواقيات للأذنين سترسلها له بكلّ تأكيد، على الرغم من أنّه لا يردّ على رسائلها. توم يشمئزّ من رسائلها، بل يكره أن يلمسها، وسرعان ما يمزّقها ويلقيها في القمامة بعد أن يلقي عليها نظرة خاطفة.

أخيراً، ردّ عليها:

لقد تخلّيتُ عن فكرة العثور على شقّة في روما حاليّاً. دي ماسيمو سيذهب إلى صقليّة لعدّة أشهر، وقد أرافقه، من ثمّ أنطلق إلى مكان آخر من هناك. خططي لم تتوضّح بعد، لكنّها تترك لي الحريّة وتلائم مزاجي. لا ترسلي لي جوارب، مارج، أنا لا أحتاج شيئاً إطلاقاً. أتمنّى لكِ التوفيق في كتابك.

اشترى تذكرة إلى مايوركا. سيسافر بالقطار أوّلاً إلى نابولي، من ثمّ سيبحر بالزورق من نابولي إلى بالما خلال ليلة الحادي والثلاثين من كانون الثاني، وصباح الأوّل من شباط. ابتاع حقيبَتين كبيرَتَين من غوتشي، وهو أفضل متجر للجلديّات في روما: حقيبة كبيرة طريّة من جلد الظبي، والأخرى قماشيّة أنيقة سمراء ذات سيور من الجلد البنيّ، كلٌّ منهما تحمل الأحرف الأولى من اسم دكي وكنيته. رمى حقيبته المهترئة في القمامة، واحتفظ بالثانية الأفضل حالاً في الخزانة، كي يخبّئ بداخلها ملابسه الخاصّة تحسّباً للطوارئ، على الرغم من أنّه لا يتوقّع حدوث شيء في الواقع. لم يعثروا بعد على القارب الذي أغرقه في سان ريمو، وهو يتفحّص الصحف يوميّاً بحثاً عن أيّ خبر ذي صلة.

رنّ جرس الباب وهو يوضّب حقائبه في صباح أحد الأيّام. ظنّ أنّه متسوّل ما، أو شخص يطرق بابه بالخطأ. توم لم يكتب اسمه على الجرس، وقال

للمشرف على المبنى إنّه لا يرغب بذلك لأنّه يكره أن يمرّ الناس به فجأة. رنّ الجرس للمرّة الثانية، فتجاهله أيضاً، وتابع حزم حقائبه على مهل. إنّه يتلذّذ بتوضيبها، ويقوم بذلك ببطء، فيستغرق يوماً أو يومين كاملين أحياناً، يطوي ملابس دكي بحبّ، ويجرّب بين الحين والآخر قميصاً أو جاكيتاً جميلاً أمام المرآة، كما يفعل الآن وهو يقفل أزرار قميص أزرق وأبيض مرسوم عليه فرس بحر، لم يلبسه دكي من قبل. عندها، تكرّر الطرق على الباب.

خطر له أنّه فاوستو! لن يتورّع فاوستو عن تعقّبه في روما إلى أن يعثر على عنوانه، كي يفاجئه بهذه الطريقة. هذا سخيف، قال لنفسه، لكنّ العرق البارد بلّل يديه، وانتابه بالدوار. سخافة هذا الشعور، فضلاً عن احتمال أن يغمى عليه وأن يجدوه مطروحاً على الأرض، جعلاه يفتح درفة الباب بكلتا يديه، بضعة إنشات فقط.

«مرحباً!» صاح صوت أمريكيّ من الردهة شبه المعتمة، «دكي؟! أنا فريدي».

تراجع توم خطوة للوراء، وفتح الباب على اتّساعه. «إنه... لِم لا تدخل؟ دكي ليس هنا، سيعود لاحقاً».

دخل فريدي مايلز وهو يتطلّع حوله، متلفّتاً بوجهه القبيح المغطّى بالنمش في كلّ الاتّجاهات. تبّاً، كيف عثر على العنوان؟! تساءل توم. خلع خاتمي دكي من يده بسرعة ودسّهما خلسة في جيبه. ماذا أيضاً؟! ألقى نظرة على الغرفة من حوله.

«هل تقيم معه؟» سأل فريدي مايلز، بنظرته الحولاء تلك التي تجعله أشبه بالمخبول، ومخيفاً نوعاً ما.

«أوه لا، سأبقى بضع ساعات فقط!» أجاب توم وهو يخلع قميص فرس البحر بعفويّة، لأنّه يلبس قميصاً آخر تحته. «لقد خرج دكي لتناول الغداء، في مطعم أوتيللو على ما أعتقد. سيعود في الثالثة على أبعد تقدير». لا بدّ أنّ أحداً من آل بوفي سمح له بدخول المبنى، فكّر توم، ودلّه أيَّ جرس يقرع، وأخبره حتماً بأن سنيور غرينليف موجود في شقّته، فلعلّ فريدي قال إنّه صديق قديم لدكي. الآن، لا بدّ أن يغادر فريدي من دون أن تراه سنيورا بوفي في الأسفل، لأنّها تصيح دائماً عندما تراه: «بونجورنو سنيور غرينليف!».

«لقد التقيتُ بك في مونجيبللو، أليس كذلك؟» سأل فريدي، «ألستَ توم؟ اعتقدتُ بأنّك ستأتي إلى كورتينا».

«لم أتمكّن من الذهاب، شكراً لك. كيف كانت الحفلة؟».

«أوه، جيّدة. ماذا حصل مع دكي؟».

«ألم يكتب لك؟! لقد قرّر أن يمضي الشتاء في روما... أخبرني بأنّه أرسل لك رسالة».

«لم يرسل ولو كلمة... إلّا إن أرسل رسالة إلى فلورنسا! لقد كنتُ في سالزبورغ، يعرف عنواني هناك». استند فريدي إلى طاولة توم الكبيرة، وهو يعبث بغطائها الحريريّ الأخضر، من ثمّ ابتسم. «أخبرتني مارج أنّه انتقل إلى روما، لكنّها لا تعرف سوى عنوان الأمريكان إكسبريس. عثرتُ على هذه الشقّة بضربة حظّ، فقد التقيتُ البارحة صدفة بشخص في كافيه غريكو يعرفها. ما هذه الفكرة التي...». «مَن هو؟!» سأل توم، «أمريكيّ؟!».

«كلّا، شابٌّ إيطاليّ، مجرّد يافع»، وحدّق إلى حذاء توم. «أنت تنتعل النوع ذاته مثلي أنا ودكي! إنّه متين للغاية، ألا تظنّ ذلك؟ لقد اشتريتُ حذائي هذا من لندن قبل سبع سنوات!»، أضاف.

توم ينتعل في الحقيقة حذاء دكي، المصنوع من الجلد المحبحب. «اشتريته من أمريكا» قال، «هل أقدّم لك شراباً؟ أم تفضّل اللحاق بدكي إلى أوتيللو؟ هل تعرف مكانه؟ لا فائدة من انتظار دكي هنا، لأنّه لن ينتهي من تناول الغداء قبل الثالثة، وأنا سأخرج بعد قليل».

مشى فريدي إلى غرفة النوم، وتوقّف عندما رأى الحقيبتين على السرير. «هل سيسافر دكي إلى مكان ما؟ أم أنّه وصل إلى هنا توّاً؟»، سأله وهو يلتفت.

«سيسافر. ألم تخبرك مارج؟! سيزور صقليّة لبعض الوقت».

«متى؟».

«غداً، أو في وقت متأخّر الليلة، لستُ متأكّداً».

«قل لي، ما هي مشكلة دكي مؤخّراً؟» سأل فريدي عابساً، «لِم ينعزل هكذا؟».

«قال إنّه عمل كثيراً في الشتاء» ارتجل توم الإجابة، «يبدو أنّه يرغب

ببعض الخصوصيّة، لكنّ علاقته ما زالت طيّبة مع الجميع كما أعرف، بمن فيهم مارج».

ابتسم فريدي مجدّداً وهو يفكّ أزرار معطفه القماشيّ الضخم. «لن تبقى علاقته طيّبة معي، إن تخلّف عن موعدنا مرّة أخرى! هل أنت متأكّد من أنّ علاقته جيّدة بمارج؟ تولّد لديّ انطباع بأنّهما تشاجرا، ولذلك لم يأتيا إلى كورتينا»، ونظر إلى توم مترقّباً.

«لا علم لي بذلك»، أجاب توم، واتّجه إلى الخزانة كي يأخذ جاكيته، آملاً بأن يدرك فريدي بأنّه يريد المغادرة. انتبه في اللحظة الملائمة بأنّ فريدي قد يميّز جاكيت دكي الفلانل الرماديّ، إن سبقت له رؤيته بالبزّة. لذلك، تناول توم جاكيته ومعطفه الخاصّين، المعلَّقَين في أقصى اليسار من الخزانة. كتفا المعطف مغبرّان، تدلّان على أنّه معلّق هناك منذ أسابيع. استدار توم، فاكتشف أنّ فريدي يحدّق إلى السوار الفضيّ الذي يلبسه في معصمه الأيسر. إنّه سوار يحمل اسم دكي الذي لم يضعه في معصمه يوماً، لكنّ توم تزيّن به فوراً ما أن عثر عليه في صندوق المجوهرات. فريدي رأى هذا السوار من قبل على ما يبدو!.

لبس توم معطفه بطريقة حاول أن تبدو عفويّة.

فريدي يحدّق إليه بطريقة مختلفة الآن، بنوع من الدهشة. قرأ توم أفكاره، فتخشّب، واستشعر بالخطر. لم تنته المشاكل بعد، قال لنفسه.

«مستعدّ للذهاب؟»، سأل.

«أنت تقيم هنا، أليس كذلك؟» سأله فريدي.

«كلّا!»، اعترض توم مبتسماً. حدّق إلى الوجه القبيح المغطّى بالنمش والبقع، تحت الشعر الأحمر الصارخ. لو تتسنّى لهما مغادرة المبنى، دون أن يلتقيا بسنيورا بوفي في الأسفل، فكّر، ثمّ قال لفريدي: «هيّا، لنذهب».

«لقد أعطاك دكي كلّ مجوهراته أيضاً، كما لاحظتُ».

عجز توم عن قول أيّ شيء، ولا حتّى مجرّد طرفة. «آه، لقد أعارني سواره» قال بصوت عميق، «لقد ملّ منه، فسمح لي بوضعه بضعة أيّام». كان يقصد السوار، لكنّه أدرك أنّه يثبّت ربطة عنقه بالمشبك الفضيّ الذي يحمل

حرف G أيضاً، والذي اشتراه بنفسه. أحسّ بأنّ عداء فريدي مايلز تجاهه يتنامى، وكأنّ جسده الضخم يولّد حرارة تصل إليه عبر الغرفة. فريدي مايلز أشبه الآن بثور، قد ينطح جميع مَن يظنّهم شواذاً، خاصّة إن كانت الظروف مؤاتية كما هي الآن. خاف توم من هاتين العينين اللتين تحدّقان إليه.

«أجل، سأذهب»، أجاب فريدي بأسى وهو ينهض. مشى صوب الباب، ثمّ استدار مؤرجحاً كتفيه العريضتين. «مطعم أوتيللو ذاك، أليس قريباً من فندق إنجلترا؟»، سأل.

«أجل» أجاب توم، «سيكون دكي هناك قرابة الساعة الواحدة».

هزّ فريدي رأسه. «سررتُ بمقابلتك مجدّداً» قال بجفاء، ثمّ أغلق الباب خلفه.

شتمه توم بصوت خافت، وشقّ الباب قليلاً. أصغى إلى وقع خطا فريدي ينزل الدرج، تاب تاب تاب تاب. تمنّى أن يغادر فريدي المبنى دون أن يتحدّث إلى أيٍّ من الزوجين بوفي، لكنّه سمع صوته يقول: «بونجورنو سنيورا». انحنى توم على الدرابزين، ولمح في الأسفل على بعد ثلاثة طوابق جزءاً من كمّ معطف فريدي، الذي يتحدّث بالإيطاليّة مع سنيورا بوفي. سمعها تقول بوضوح: «سنيور غرينليف فقط، كلّا، بمفرده.. سنيور من؟! كلّا سنيور... لا أظنّ أنّه غادر الشقّة إطلاقاً اليوم، لكن قد أكون مخطئة...»، ثمّ ضحكت.

عصر توم درابزين الدرج بيديه وكأنّه عنق فريدي، لكنّه قفز عائداً إلى شقّته عندما سمع خطواتٍ تركض للأعلى، وأغلق الباب خلفه. سينكر أنّه يقيم هنا، وسيصرّ على أنّ دكي ذهب إلى أوتيللو، أو أنّه لا يعرف مكانه، لكنّ فريدي لن يهدأ الآن قبل أن يعثر على صديقه، وربّما يجرّه إلى الأسفل كي يسأل سنيورا بوفي عن هويّته.

قرع فريدي على الباب، وفتل أكرة المقبض، لكنّ الباب مغلق. التقط توم منفضة سجائر زجاجيّة ثقيلة، اضطرّ لإمساكها من حافّتها لأنّها أضخم من يده. حاول أن يفكّر لثانيتين إضافيّتين. هل توجد طريقة أخرى؟! ماذا سيفعل بالجثّة؟! لكنّه عجز عن التفكير... لا خيار أمامه! فتح الباب بيده اليسرى، وخبّأ يمناه التي تحمل المنفضة وراء ظهره.

دخل فريدي إلى الشقّة قائلاً: «اسمع، هل تمانع إخباري عن...؟».

أصابته حافّة المنفضة المنحنية في منتصف جبينه! بدا كما لو أنّه أصيب بالدوار فجأة، انثنت ركبتاه، وانطرح أرضاً كثور تلقّى ضربة بالمطرقة بين عينيه. رفس توم الباب بقدمه كي يغلقه، من ثمّ انهال على عنق فريدي من الخلف بحافّة المنفضة. ضربه مرّة، ومرّة، ومرّة... خشي من أنّه يتظاهر بالموت، وأنّه سيطوّق قدميه بذراعيه الضخمتين ويطرحه أرضاً. وجّه ضربة قاضية إلى الرأس، فتدفّق الدم منه. لعن توم نفسه، وركض إلى الحمّام كي يجلب منشفة دسّها تحته. تحسّس رسغه، فجسّ نبضاً واهناً يتلاشى شيئاً فشيئاً، وكأنّ ضغط أصابعه على الرسغ هو ما ولّد ذلك النبض، الذي اختفى كليّاً خلال لحظات. أصغى توم إلى أيّ صوت في الخارج، تخيّل سنيورا بوفي وهي تقف خلف الباب مبتسمة، كعادتها عندما تشعر بأنّها تقاطعه، لكنّه لم يسمع صوتاً. ضربات منفضة السجائر لم تتسبّب بضجّة مدويّة، فكّر، ولا سقوط فريدي كذلك. نظر إلى الجثّة الأشبه بجبل، فشعر بالقرف وقلّة الحيلة فجأة.

إنّها الواحدة إلّا ثلثاً، وما تزال أمامه ساعات طويلة حتّى يخيّم الظلام. هل هناك أشخاص ينتظرون فريدي في مكان ما يا ترى؟! تساءل، ربّما في سيّارة أمام المبنى؟! فتّش جيوب فريدي، فعثر على محفظة نقوده وجواز سفره الأمريكيّ في جيب معطفه الداخليّ، وكذلك على عملات إيطاليّة وأجنبيّة مختلفة، وحافظة مفاتيح فيها مفتاحان لسيّارة فيات كما كُتِبَ على العلّاقة. فتّش المحفظة بحثاً عن رخصة سياقة، وها هي بين أصابعه مع كلّ التفاصيل: فيات 1400 نيرو، مكشوفة، 19ــــ. سيميّزها إن كانت مركونة في الجوار. فتّش بقيّة الجيوب، بما فيها جيوب صدريته العسليّة بحثاً عن قسيمة مرآب، لكنّه لم يجد شيئاً. ذهب إلى النافذة المطلّة على واجهة البناء، وابتسم. كان هذا سهلاً للغاية: ها هي السيّارة المكشوفة السوداء مركونة على الجهة الأخرى من الشارع، مقابل المبنى مباشرة. بدت خالية، لكنّه لم يستطع أن يتأكّد. أدرك فجأة ما الذي ينبغي عليه فعله، فبدأ بترتيب الغرفة. أخرج زجاجات الجن والفيرموث من خزانة المشروبات، ثمّ تناول زجاجة بِرنو بعد إعادة التفكير، لأنّ رائحته أقوى بكثير. وضع الزجاجات

على الطاولة الكبيرة، مزج المارتيني في كأس زجاجيّة طويلة مع مكعّبين من الثلج، وارتشف القليل منها كي تبدو ملطّخة، من ثمّ سكب بعض محتوياتها في كأس أخرى حملها إلى فريدي. لفّ أصابع هذا الأخير الرخوة حولها، ثمّ أعادها إلى الطاولة. ألقى نظرة على الجرح، لقد توقّف النزيف أو أوشك على ذلك، ولم يتسرّب الدم عبر المنشفة إلى الأرض. سند فريدي على الحائط، وسكب بعض الجن الصافي إلى داخل بلعومه، فاندلق معظمه على قميصه. بأيّ حال، لا يظنّ بأنّ الشرطة الإيطاليّة ستتكبّد عناء تحليل دم فريدي، كي تقيس نسبة الكحول فيه. شردت عينا توم لوهلة فوق وجه فريدي المشلول القبيح، فانقبضت معدته وشعر بالغثيان، وأشاح بصره على الفور... لا يجب أن يلقي عليه نظرة أخرى! طنّت أذناه، وكأنّه سيصاب بالإغماء.

يا له من حدث، أن يغمى عليه الآن! فكّر توم وهو يسير مترنّحاً صوب النافذة. عبس عندما رأى السيّارة السوداء في الأسفل، واستنشق الهواء النقيّ بعمق. لا، لن يغمى عليه، قرّر، يعرف ما الذي ينبغي عليه القيام به بالضبط! في اللحظة الأخيرة، كأس برنو لكلٍّ منهما، كؤوس برنو أخرى تحمل بصماتهما، منفضة السجائر مليئة بالأعقاب والرماد... فريدي دخّن تشسترفيلد. بعد ذلك، سيذهب إلى ڤيا آبيا، إلى أحد تلك الأمكنة المظلمة خلف القبور... أعمدة الإنارة في ذلك الشارع متباعدة للغاية، محفظة فريدي مفقودة. الهدف: السرقة.

ما تزال أمامه ساعات طويلة، لكنّه لم يتوقّف عن العمل إلى أن أصبحت الغرفة جاهزة تماماً. دزّينة من أعقاب سجائر تشسترفيلد وأخرى من سجائر لاكي سترايك تملأ المنفضة، وهناك شظايا كأس برنو مكسورة لم ينظّفها كليّاً عن بلاط الحمّام. الأمر المثير للفضول هنا، هو أنّه حضّر هذا المشهد بحرص، متوقّعاً أن يتاح له وقت طويل للتنظيف فيما بعد، بين التاسعة مساء مثلاً حين يعثرون على الجثّة، وبين منتصف الليل عندما تقرّر الشرطة الإيطاليّة استجوابه أخيراً، بعد أن يبلغها شخص ما بأنّ فريدي مايلز خطّط لزيارة دكي غرينليف اليوم. أدرك بأنّه سينظّف هذه الفوضى بحلول الساعة الثامنة مساء، سيقول للشرطة إنّ فريدي غادر الشقّة في السابعة تقريباً (في حقيقة الأمر، كان سيغادر في هذا التوقيت غالباً)، كما أنّ دكي غرينليف

هو رجل شابّ يحبّ الترتيب والنظافة حتّى ولو كان سكران. هذه الفوضى تصبّ لصالح القصّة التي سيرويها، وينبغي أن يصدّقها هو أوّلاً.

سيغادر إلى نابولي من ثمّ إلى بالما، غداً في العاشرة والنصف صباحاً كما خطّط من قبل، إلّا إن احتجزته الشرطة لسبب ما أو لآخر. إن قرأ في صحف الغد أنّهم عثروا على الجثّة، ولم تتصل به الشرطة، سيبادر إلى إبلاغها بنفسه بأنّ فريدي مايلز زاره إلى وقت متأخّر عصراً، فكّر توم، من ثمّ خطر له بأنّ الطبيب الشرعيّ قد يكتشف بأنّ فريدي مايلز مات ظهراً، وهو لا يستطيع التخلّص من الجثّة الآن في وضح النهار. كلّا، فرصته الوحيدة تتلخّص بألّا يعثروا على الجثّة قبل انقضاء عدّة ساعات، بحيث لا يتمكّن الأطباء من تحديد توقيت الوفاة بدقّة، ولا بدّ أن يخرج من المبنى دون أن يراه أحد، سواء تمكّن من حمل فريدي للأسفل بسهولة وكأنّه مخمور أغمي عليه، أم لا. بالتالي، إن اضطرّ للإدلاء بأقواله، سيقول إنّ ضيفه غادر في الرابعة أو الخامسة عصراً.

خاف كثيراً من الساعات الخمس أو الستّ الباقية على حلول الظلام، وشعر لوهلة بأنّه عاجز عن الانتظار. ذلك الجبل المرميّ على الأرض! لم يرغب بقتله، قتله ليس ضروريّاً إطلاقاً... لكن فريدي هذا، وشكوكه القذرة النتنة! ارتجف توم وهو يجلس على حافة الكرسيّ، وطقطق براجمه. أراد أن يخرج ويتمشّى، لكنّه خاف من ترك الجثّة ملقاة هنا. يجب أن يصدر ضجّة حتماً، كأنّه يثرثر هو وفريدي، ويشربان الكحول طيلة العصر. شغّل الراديو، وضبطه على محطّة تبثّ موسيقا راقصة. لِم لا يشرب كأساً على الأقلّ؟! هذا جزء من المشهد. أعدّ كأسين من المارتيني مع الثلج، واحتساهما على الرغم من أنّه لا يرغب بذلك.

عزّز الكحول الأفكارَ التي تدور في رأسه، وقف وحدّق إلى جسد فريدي الطويل الثقيل، ومعطف البولو المكرمش تحته. لم يجد في نفسه رغبة أو طاقة لتسوية تجاعيده، على الرغم من أنّ منظره يزعجه. فكّر كم كان هذا الموت حزيناً، وغبيّاً، وأخرق، وخطراً، وغير ضروريّ أبداً، ومجحفاً للغاية بحقّ فريدي... لكن بالطبع، يمكن للمرء أن يبغض فريدي أيضاً! إنّه وغد أنانيّ غبيّ، اشمأزّ من أحد أعزّ أصدقائه -دكي كان أحد أعزّ أصدقائه بكلّ

تأكيد- فقط لأنّه يشكّ بميوله الجنسيّة المنحرفة. ضحك توم من عبارة «ميول جنسيّة منحرفة»... أين الجنس؟! أين الانحراف؟! رمق فريدي، وقال بصوت خافت مرير: «فريدي مايلز، أنت ضحيّة عقلك القذر».

-16-

يدخل العديد من الأشخاص إلى المبنى ويخرجون منه في الساعة السابعة عادة، أكثر من بقيّة الأوقات. لذلك، انتظر توم إلى الثامنة مساءً تقريباً، قبل أن يتحرّك. في الثامنة إلّا عشر دقائق، تسلّل إلى أسفل الدرج كي يتأكّد من أنّ سنيورا بوفي لا تتمشّى في البهو، وأنّ بابها مغلق، وكي يتأكّد مرّة أخرى من أنّ سيّارة فريدي خالية، على الرغم من أنّها كانت كذلك ظهراً عندما نزل كي يتحقّق منها. رمى معطف البولو على المقعد الخلفيّ، من ثمّ عاد إلى المبنى وصعد على الدرج. ركع على ركبتيه، لفّ ذراع فريدي حول عنقه، ثمّ كزّ على أسنانه ورفعه. ترنّح وهو يجذب الجسد الثقيل الرخو للأعلى، ويسنده على كتفيه. لقد جرّب أن يرفعه ظهراً، كي يتأكّد من أنّه قادر على حمله، لكنّه لم يمشِ إلّا خطوتين بهذا الجسد الثقيل الذي أرهقه. لم يتغيّر وزنه الآن، الفرق الوحيد هو أنّه مدرك تماماً لضرورة إخراج فريدي من هنا. ترك القدمين تتدليّان على الأرض، وجرّ فريدي جرّاً كي يخفّف ثقله. تمكّن من إغلاق باب الشقّة بمرفقه، ثمّ بدأ بالنزول. توقّف عند منتصف الجزء الأوّل من الدرج، بعد أن سمع صوت رجل يخرج من إحدى شقق الطابق الثاني. انتظر توم إلى أن خرج الرجل من باب المبنى، قبل أن يستأنف نزوله البطيء المتعثّر. لقد غطّى رأس فريدي جيّداً بقبّعة دكي، كي يخفي شعره الملطّخ بالدم.

بفضل مزيج الجن والبرنو الذي شربه طيلة الساعة الماضية، بلغ توم درجة محسوبة من السّكَر، يستطيع بفضلها أن يتحرّك بسلاسة ورباطة جأش، وأن يكون شجاعاً ومتهوّراً في آن واحد، بحيث يقتحم المخاطر دون أن يرفّ له جفن. الخطر الأوّل -والأسوأ برأيه- هو أن ينهار ببساطة تحت ثقل فريدي، قبل أن يتمكّن من وضعه في السيّارة. لقد أقسم لنفسه

بأنّه لن يتوقّف أبداً لأخذ استراحة عندما ينزل الدرج، ونجح بذلك. الخطر الثاني، يتمثّل بأن يخرج شخص ما من أيّة شقّة، أو أن يدخل من باب المبنى. خلال الساعات التي قضاها منتظراً في شقّته، عذّب توم نفسه بتخيّل كلّ الاحتمالات: ستخرج سنيورا بوفي أو زوجها من شقّتهما، ما أن يصل إلى أسفل الدرج هو وفريدي. سيغمى عليه، وسيعثرون عليهما هو وفريدي مطروحَين أسفل الدرج. لن يكون قادراً على رفع فريدي مجدّداً، إن وضعه أرضاً... قلّب كلّ تلك السيناريوهات في رأسه وهو يتلوّى في شقّه، إلى درجة أنّه عندما وصل إلى أسفل الدرج من دون عوائق إطلاقاً، شعر بأنّه محاط بحماية سحريّة من نوع ما، وبأنّه يسير بسهولة على الرغم من هذا الجبل الذي يحمله على كتفيه.

ألقى نظرة إلى الخارج، عبر زجاج بابَي المبنى. الشارع يبدو طبيعيّاً، هناك رجل يمشي على الرصيف المقابل...لكنّ المشاة سيسيرون على هذا الرصيف أو ذاك، في أيّ وقت بلا شكّ. جذب مقبض الباب الأوّل بإحدى يديه، وركله كي ينفتح تماماً، من ثمّ جرّ جسد فريدي عبره. نقل الجسد إلى كتفه الآخر عندما سار بين البابين، وهو يدير رأسه تحته. لوهلة، غمره الفخر بقوّته، إلى أن طعنه ألمٌ في ذراعه التي ارتاحت من حِمْلها، وها هي الآن أضعف حتّى من أن تطوّق جسد فريدي. كزّ توم على أسنانه بقوّة أشدّ، وترنّح وهو ينزل الدرجات الأربع أمام المبنى، ثمّ اصطدم وركه بعمود الدرابزين.

ظهر رجل يمشي على الرصيف، أبطأ خطواته كأنّه سيتوقّف، لكنّه تابع طريقه.

إن اقترب منه أيّ شخص، فكّر توم، سينفث في وجهه أنفاسه العابقة برائحة البرنو، بحيث لا يجد ضرورة لسؤاله عن المشكلة. تبّاً لهم، تبّاً لهم، تبّاً لهم! قال لنفسه وهو يقفز عن حافّة الرصيف، عابرون، عابرون أبرياء، لقد مرّ أربعة أشخاص حتّى الآن، اثنان منهم فقط رمقاه بنظرة خاطفة. فكّر. توقّف لحظة ريثما تجاوزته سيّارة، من ثمّ، بعد بضع خطوات سريعة، ألقى بالجثّة على السيّارة، فتمكّن من حشر رأس فريدي وإحدى كتفيه عبر النافذة، وسنده بجسده ريثما التقط أنفاسه. تفحّص ما حوله، بدءاً من حيث يلقي مصباح الشارع بضوئه، وانتهاءً بالظلال حول المبنى الذي يقطنه. في تلك

اللحظة، اندفع أصغر أبناء آل بوفي من باب المبنى خارجاً إلى الرصيف، من دون أن ينظر باتّجاه توم. قطع رجل الشارع، ومرّ على بعد ياردة واحدة من السيّارة، لكنّه لم يلقِ إلّا نظرة واحدة خاطفة مندهشة على جسد فريدي المنحني، الذي يبدو طبيعيّاً نوعاً ما، فكّر توم، وكأنّه ينحني كي يتكلّم مع شخص ما بداخل السيّارة، أمّا هو توم... إنّه الوحيد الذي لا يبدو طبيعيّاً تماماً! لكنّها ميزة أوروبا مع ذلك، لا أحد يساعد غيره هنا، ولا يتدخّل فيما لا يعنيه. لو كان في أمريكا الآن...

«هل تحتاج إلى مساعدة؟»، سأله صوتٌ بالإيطاليّة.

«آه، لا لا، شكراً» قال توم بالإيطاليّة بنبرة مرحة مخمورة، ثمّ غمغم بالإنجليزيّة: «أنا أعرف أين يسكن».

هزّ الرجل رأسه، وابتسم قليلاً أيضاً، من ثمّ مضى مبتعداً في طريقه. إنّه طويل، نحيل، ذو شارب، ويرتدي معطفاً مطريّاً لكنّه حاسر الرأس. ليته ينسى بأنّه مرّ بجواره هو وفريدي، تمنّى توم، وليته لا يتذكّر السيّارة!

أرجَحَ توم بابَ السيّارة للخارج تحت جسد فريدي، ثمّ جرّه وألقى به على المقعد الأماميّ. دار حول السيّارة، وجذب فريدي إلى المقعد المجاور للسائق. ارتدى زوجاً من القفّازات الجلديّة بنيّة اللون، سبق له أن دسّه في جيب معطفه، ووضع المفتاح في لوحة القيادة فاشتغل المحرّك على الفور، وها هما ينطلقان. اتّجه توم إلى أسفل التلّة صوب ڤيا ڤِنِتو، مرّ من أمام المكتبة الأمريكيّة، من ثمّ بساحة ڤينيسيا، مروراً بالشرفة التي اعتاد موسوليني إلقاء خطاباته منها، وتمثال ڤكتور إيمانويل العملاق، والفورم والكوليسيوم... إنّها جولة كبرى حول روما، لن يقدّرها فريدي حقّ تقدير على الإطلاق، وكأنّه نائم إلى جوار توم، على عادة الذين يغفون عندما ينطلقون لرؤية معالم المدينة!

امتدّ شارع ڤيا آبيا أنتيكا رماديّاً عتيقاً، تحت ضوء المصابيح العديدة الخافتة. أنقاض القبور السوداء تتناثر هنا وهناك حوله، مرسومة كظلال مبهمة على خلفيّة السماء التي لم تُعتِم تماماً بعد. الظلام يسود على الضوء مع ذلك، ولا توجد إلّا سيّارة واحدة أمام توم، قادمة باتّجاهه. لا يحبّذ معظم

الناس التنزّه في هذا الشارع الكئيب المليء بالمطبّات، في شهر كانون الأوّل بعد حلول الظلام، ما عدا العشّاق بالطبع. تجاوزته السيّارة القادمة، فتطلّع توم حوله بحثاً عن بقعة ملائمة. لا بدّ أن يستلقي فريدي خلف قبر جميل، فكّر، وها هي البقعة المثاليّة هناك بين ثلاث أو أربع أشجار بالقرب من حافّة الطريق، لا بدّ أنّها تخفي قبراً أو بقاياه. ركن السيّارة عند الأشجار، وأطفأ مصابيحها. انتظر لحظة، وتفحّص طرفي الطريق الخالي.

جسد فريدي ما زال رخواً، وكأنّه دمية من المطّاط. لماذا يقولون إنّ الجثّة تتيبّس بعد الموت إذن؟! جرّ توم الجسد الرخو بفظاظة، ممرّغاً الوجه بالتراب، إلى آخر شجرة خلف بقايا القبر الصغير الأشبه بقوس حجريّ متداع لا يزيد ارتفاعه عن أربع أقدام حالياً. لا بدّ أنّه قبر أحد النبلاء القدامى، فكّر توم، وهو كافٍ لهذا الخنزير. لعن الجسدَ القبيح الثقيل، ورفسه فجأة على ذقنه. إنّه متعب، متعب إلى حدّ البكاء، وأصابه منظر فريدي مايلز بالغثيان. اللحظة اللعينة التي سيدير له فيها ظهره، لن تأتي أبداً على ما يبدو! والمعطف اللعين أيضاً! عاد توم إلى السيارة كي يجلب معطف فريدي، فانتبه أنّ الأرض جافّة وقاسية عندما عاد. لا ينبغي أن يترك آثار أقدامه هنا! فرش المعطف على الأرض بجانب الجثّة، واستدار بسرعة. مشى صوب السيّارة بخطى مترنّحة حذرة، ثمّ شغّل المحرّك وانطلق عائداً إلى روما.

بيده التي تلبس القفّازات، مسح أجزاء باب السيّارة الخارجيّة وهو يقود، وهي الأجزاء الوحيدة التي لامسها بأصابعه العارية كما يعتقد. أخيراً، توقّف عند المنعطف الذي يُفضي إلى الأمريكان إكسبريس، مقابل نادي فلوريدا الليليّ. نزل من السيّارة، وترك المفاتيح بداخلها فوق لوحة القيادة. محفظة فريدي ما تزال في جيبه، سبق وأن أخذ منها العملات الإيطاليّة ودسّها في محفظته الخاصّة، وأحرق ورقة نقديّة من فئة عشرين فرنكاً سويسريّاً وبعض الشلنات الأستراليّة عندما كان في شقّته. انحنى، ورماها في مجرور للصرف الصحيّ.

لقد ارتكب خطأين فقط لا غير، فكّر وهو يمشي صوب منزله: منطقيّاً، سيسرق اللصوص معطف فريديّ لأنّه فخم، وكذلك جواز سفره الذي ما يزال بداخل جيب المعطف، ولكن... لا يتبع المجرمون جميعهم ما يمليه

المنطق، خاصّة المجرمون الإيطاليّون. سرح بأفكاره إلى ما قاله فريدي: «شابّ إيطاليّ، مجرّد يافع». لا بدّ أنّ هذا الشابّ تبعه إلى المنزل ذات مرّة، فكّر توم، لأنّه لم يخبر أحداً أين يسكن، وهو ما جعله يشعر بالخزي. ربّما يعرف عامل توصيل أو اثنان عنوان شقّته، لكنّ صبيّ التوصيل لن يرتاد مكاناً فخماً مثل كافيه غريكو. شعر بالخزي أكثر، فانكمش على نفسه بداخل معطفه. تخيّل وجهاً شابّاً قاتماً يلهث، يتبعه إلى المنزل، ويتفحّص المبنى كي يعرف أيّة نافذة ستضاء بعد أن يدخل توم. انحنى، ومشى أسرع فأسرع، كأنّه يهرب من مترصّد عاشق مختلّ نفسيّاً.

-17-

خرج توم قبل الثامنة صباحاً كي يشتري الصحف. لا خبر إطلاقاً! قد تنقضي عدّة أيّام قبل أن يعثروا عليه، فكّر، لن يتمشّى أحد حول قبر غير مشهور، كذلك الذي مدّد فريدي خلفه. كان موقناً بأنّه لن يتعرّض إلى خطر، لكنّه شعر بإرهاق فظيع. آثار الكحول تعذّبه، صداع فظيع نابض يجبره على التوقّف في منتصف أيّ أمرٍ يقوم به، حتّى وهو يفرشي أسنانه، كي يذهب ويتحقّق من موعد القطار. هل سينطلق في العاشرة والنصف؟ أم في الحادية عشرة إلّا ربعاً؟

في الحقيقة، سينطلق قطاره في العاشرة والنصف. انتهى من استعداداته بحلول التاسعة، ارتدى ملابسه ووضع معطفه ومعطفاً ثانياً مطريّاً فوق السرير، كما تحدّث إلى سنيورا بوفي وأخبرها بأنّه سيغيب ثلاثة أسابيع على الأقلّ، وربّما أكثر. تصرّفت سنيورا بوفي بأسلوبها المعتاد، فكّر توم، ولم تأتِ على ذكر الأمريكيّ الذي زاره البارحة.

حاول أن يفكّر بأمر ما يسألها عنه، أمرٍ يبدو طبيعيّاً تماماً على ضوء أسئلة فريدي التي وجّهها لها البارحة، كي يكتشف بماذا تفكّر حقّاً. عجز عن التفكير نهائيّاً، فقرّر أن يدع المسألة وشأنها. كلّ شيء على ما يرام! قرّر أيضاً، أن يستيقظ بإرادته من آثار الكحول. لم يشرب سوى ثلاث كؤوس من المارتيني وثلاث أخرى من البرنو على أبعد تقدير، والصحو هو مسألة إيحاء عقليّ. إنّه يعاني من عواقب الكحول، فقط لأنّه أراد التظاهر بأنّه سكر حتّى الثمالة بصحبة فريدي، ولا ضرورة لذلك الآن. ما يزال يتظاهر إذن، رغماً عنه.

رنّ الهاتف، فالتقط توم السمّاعة. «برونتو؟»، قال بصوت كئيب.

«سنيور غرينليف؟»، سأله الصوت بالإيطاليّة.

«أجل»

«مركز الشرطة الثالث والثمانون يتحدّث معك. هل أنت صديق للأمريكيّ المدعو فريدريك ميلايز؟»

«فريدريك مايلز؟ أجل؟»، قال توم.

شرح له الصوت السريع الحادّ، بأنّهم عثروا على «فريدريك ميلايز» مقتولاً صباح اليوم في ڤيا آبيا، وسأله إن كان سنيور «ميلايز» قد زاره مساء البارحة في وقت ما.

«أجل، هذا صحيح»

«في أيّة ساعة بالضبط؟»

«منذ الظهيرة تقريباً، إلى الساعة الخامسة أو السادسة مساء، لستُ متأكّداً بالضبط»

«هل لك أن تجيب على بعض أسئلتنا من فضلك؟ كلّا، لا داعي أن تأتي إلى المركز، سيزورك المحقّق. هل تناسبك الساعة الحادية عشرة؟»

«تسرّني المساعدة إن استطعتُ» قال توم بالحماس بالمطلوب، «لكن هل يستطيع المحقّق أن يأتي الآن؟ ينبغي أن أغادر في العاشرة».

تأوّه الصوت قليلاً، وقال بأنّه لا يعتقد ذلك، لكنّه سيحاول، وإن لم يتمكّن المحقّق من القدوم قبل العاشرة، فمن الضروريّ للغاية ألّا يغادر سنيور توم المنزل.

«حسناً» قال توم مذعناً، وأقفل الخطّ.

تبّاً لهم! سيفوته القطار، والمركب أيضاً. كلّ ما أراده كان الهرب، مغادرة روما ومغادرة هذه الشقّة. راجع ما سيقوله للشرطة، المسألة بسيطة إلى حدّ الملل، إنّها الحقيقة المطلقة: احتسيا عدّة كؤوس معاً، حدّثه فريدي عن كورتينا، تحدّثا مطوّلاً، وغادر فريدي أخيراً. ربّما كان سكران قليلاً، لكنّ مزاجه ممتاز. كلّا، لا يعرف إلى أين ذهب، وخمّن بأنّ لديه موعداً ما في ذلك المساء.

دخل توم إلى غرفة النوم، وأخرج لوحة بدأ برسمها قبل بضعة أيّام، ووضعها على مسند اللوحات. الألوان على الباليت ما تزال رطبة، لأنّه

يحفظها منقوعة بالماء في طنجرة بالمطبخ. مزج المزيد من اللونين الأزرق والأبيض، واستكمل رسم السماء الزرقاء المائلة للرماديّ. اللوحة مرسومة بأسلوب دكي –البنيّ المحمّر الفاقع، والأبيض الصارخ– وتصوِّر كلّ ما يراه عبر نافذته من سقوف وجدران روما. السماء هي الأمر الوحيد المختلف، لأنّ سماء روما ملبّدة بالغيوم الكثيفة، ولا بدّ أنّ دكي كان سيرسمها بالرماديّ المزرّق لا بالأزرق الصافي، فكّر توم وعبس، كما يعبس دكي بالضبط وهو يرسم.

رنّ الهاتف مجدّداً. «تبّاً لهم!» غمغم توم، من ثمّ ركض كي يجيب. «برونتو؟»، قال.

«برونتو! أنا فاوستو! كيف حالك؟»، وصدحت الضحكة المألوفة اليافعة الرنّانة.

«أوه فاوستو! جيّد، شكراً لك. اعذرني!» قال توم، وتابع بالإيطاليّة بصوت دكي الضاحك الشارد. «كنتُ أحاول أن أرسم». حاول أن يبدو صوته قدر الإمكان، أشبه بصوت دكي الذي خسر صديقاً كفريدي، وفي الوقت ذاته كصوته في صبيحة يوم عاديّ، انغمس فيه بالعمل.

«ما رأيك أن نتناول الغداء معاً؟» سأل فاوستو، «قطاري يغادر في الرابعة والربع إلى ميلان».

تأوّه توم كما يفعل دكي، وقال: «سأنطلق بعد قليل إلى نابولي... أجل، على الفور، خلال عشرين دقيقة». آهٍ لو يستطيع التخلّص من فاوستو الآن! لا يجب أن يعرف فاوستو إطلاقاً بأنّ الشرطة اتّصلت به، ولن تكتب الصحف عن مقتل فريدي قبل منتصف النهار، وربّما تتأخّر أكثر بكثير.

«لكنّني هنا في روما! أين منزلك؟ أنا في محطّة القطار»، احتجّ فاوستو وهو يضحك بابتهاج.

«من أين حصلتَ على رقم هاتفي؟»

«آه، حسناً، لقد اتّصلتُ بالاستعلامات. قالوا لي إنّك لا تعطي رقم هاتفك لأحد، لكنّني أخبرتُ الفتاة التي ردّت عليّ بقصّة طويلة عن اليانصيب الذي ربحتَه في مونجيبللو. لا أعرف إن صدَّقتني أم لا، لكنّني هوّلتُ القصّة وقلتُ

لها إنّك ربحتَ منزلاً وبقرة وبئراً... بل وحتّى ثلّاجة! اضطررتُ لإعادة الاتّصال بها ثلاث مرّات، إلى أن أعطتني الرقم أخيراً... وهكذا. دكي، أين أنت؟»

«هذا ليس موضوعنا... كنتُ سأتناول معك الغداء لولا القطار، ولكن...»

«حسناً، سأساعدك على حمل حقائبك. قل لي أين تقيم، وسآتي بالتاكسي إليك»

«الوقت ضيّق للغاية! لِم لا ألاقيك أنا في محطّة القطار بعد نصف ساعة؟ سأغادر بقطار العاشرة والنصف إلى نابولي»

«حسناً»

«كيف حال مارج؟»

«آه، غارقة في حبّك!» أجاب فاوستو ضاحكاً، «هل ستراها في نابولي؟».

«لا أظنّ ذلك. أراك خلال بضع دقائق فاوستو، يجب أن أستعجل. أراك لاحقاً»

«أراك لاحقاً دكي، إلى اللقاء»، وأغلق الخطّ.

عندما سيقرأ فاوستو صحف ما بعد الظهر، فكّر توم، سيعرف لماذا لم يأتِ لملاقاته في محطّة القطار، أو لعلّه سيظنّ ببساطة بأنّ أحدهما تاه عن الآخر لسبب ما... سيدري بالخبر ظهراً على الأغلب، فكّر توم، لأنّ الجرائد الإيطاليّة ستضخّم قصّة مقتل أمريكيّ على طريق ڤيا آبيا. بعد أن تنتهي الشرطة من استجوابه، قال لنفسه، سينطلق بقطار آخر إلى نابولي بعد الرابعة عصراً، أي بعد أن يغادر فاوستو المحطّة، وسينتظر في نابولي المركبَ التالي الذي سينطلق إلى مايوركا. كلّ ما يتمنّاه الآن، هو ألّا ينتزع فاوستو عنوانه من موظّفة الاستعلامات أيضاً، ويقرّر أن يزوره قبل الرابعة، فيطرق بابه والشرطة هنا!

دفع توم حقيبتين تحت السرير، وحمل الثالثة إلى الخزانة وأقفل بابها. لم يشأ أن تعرف الشرطة بأنّه على وشك مغادرة المدينة. لكن... لماذا هو متوتّر هكذا؟! الشرطة لا تملك أيّ دليل على الأرجح، ولعلّ أحد أصدقاء فريدي يعرف بأنّه كان يبحث عن دكي البارحة، هذا كلّ شيء! التقط

فرشاة، وغمسها في كأس التربنتين. أراد أن يوحي لرجال الشرطة بأنّه ليس منزعجاً كثيراً بسبب مقتل فريدي، إلى حدّ يمنعه من تزجية الوقت بالرسم في انتظارهم، على الرغم من أنّه ارتدى ملابسه متأهّباً لمغادرة المنزل كما أخبرهم. يريد أن يبدو صديقاً لفريدي، لكن ليس صديقه الحميم.

فتحت سنيورا بوفي باب المبنى للشرطة في العاشرة والنصف. ألقى توم نظرة إلى أسفل الدرج، فرأى شرطيّين لم يتوقّفا كي يسألاها أيّ سؤال، لذلك عاد إلى الشقّة حيث تفوح رائحة التربنتين الواخزة. إنّهما ضابط، ورجل أصغر سنّاً يرتدي بزّة شرطيّ عاديّ. حيّاه الضابط بتهذيب، وطلب رؤية جواز سفره، فأعطاه إيّاه توم. نقل الضابط عينيه بين صورة دكي على الجواز وبين وجه توم، متمعّناً فيها كما لم يفعل أحد من قبل. استعدّ توم للتحدّي... لكن لم يحصل شيء، بل أعاد الضابط له الجواز وهو يحني رأسه انحناءة صغيرة مبتسماً. إنه رجل في أواسط العمر، قصير، يشبه آلاف الرجال الإيطاليّين ممّن لهم العمر ذاته، يختلط اللونان الأسود والرماديّ في حاجبَيه السميكَين، وفي شاربه الكثّ القصير أيضاً. لا يبدو ذكيّاً، ولا غبيّاً.

«كيف قُتِل؟»، سأل توم.

«لقد ضربوه على رأسه وعنقه بأداة ثقيلة» ردّ الضابط، «وسرقوه. نعتقد أنّه كان مخموراً. هل كان ثملاً عندما غادر شقّتك بعد ظهر أمس؟».

«حسناً، نوعاً ما. لقد احتسينا الشراب معاً، مارتيني وبرنو»

دوّن الضابط ما سمعه في دفتره، وسجّل أنّ توقيت زيارة فريدي كان ما بين الساعة الثانية عشرة ظهراً إلى السادسة مساء تقريباً، كما قال توم.

تمشّى الشرطيّ الأصغر سنّاً -وجهه بليد لكنّه أكثر وسامة- في أرجاء الشقّة ويداه خلف ظهره، وانحنى فوق مسند اللوحات بعفويّة، كأنّه بمفرده في أحد المتاحف.

«هل تعرف إلى أين كان ذاهباً بعد أن غادر شقّتك؟»، سأل الضابط.

«كلّا، لا أعرف»

«لكنّك حسبته قادراً على قيادة السيّارة؟»

«أوه أجل، لم يكن ثملاً جدّاً، وإلّا لذهبتُ معه»

سأل الضابط سؤالاً آخر، لكنّ توم تظاهر بأنّه لم يفهمه، فكرّر الضابط ما قاله بمفردات مختلفة، وتبادل ابتسامة مع الشرطيّ الشابّ. نقل توم بصره بينهما خلسة بامتعاض نوعاً ما، يريد الضابط أن يعرف طبيعة علاقته بفريدي.

«إنّه صديق» قال توم، «لكنّه ليس صديقي الحميم. لم أره منذ شهرين تقريباً. انزعجتُ للغاية عندما سمعتُ بهذه الكارثة صباحاً!». عوّض توم عن المفردات البدائيّة التي استعملها، برسم تعبيرٍ قلق على وجهه. فكّر أنّ أسئلتهما سطحيّة، وبأنّهما سيغادران خلال دقائق. «متى قُتِل؟»، سأل الضابطَ.

رفع الضابط حاجبيه الكثيفين وهو يكتب، ثمّ قال: «بعد أن غادر شقّتك على ما يبدو، يعتقد الأطباء أنّه مات منذ اثنتي عشرة ساعة على الأقلّ، وربّما أكثر».

«متى عثرتم عليه؟».

«فجر اليوم، عثر عليه عمّال يسيرون على الطريق».

«يا إلهي!»، غمغم توم بالإيطاليّة.

«هل ذكر لك شيئاً عن القيام بنزهة إلى ڤيا آبيا عندما غادر؟».

«كلّا»، أجاب توم.

«ماذا فعلت البارحة بعد أن غادر سنيور ميلايز منزلك؟».

«بقيتُ هنا» قال توم وهو يومئ بكلتا يديه كما يفعل دكي، «من ثمّ نمتُ قليلاً، وبعدها خرجتُ للتنزّه في الساعة الثامنة، أو الثامنة والنصف». هناك رجل مقيم في المبنى لا يعرف توم اسمه، رآه يعود البارحة في التاسعة إلّا ربع تقريباً، وبادله التحيّة.

«هل تنزّهتَ وحدك؟».

«أجل».

«وهل غادر سنيور ميلايز وحيداً؟ ألم يذهب للقاء أيّ شخص قد تعرفه؟».

«كلّا، لم يقل شيئاً عن ذلك». تساءل توم ما إذا كان أصدقاء فريدي

موجودين في الفندق معه، أو حيثما كان يقيم. تمنّى ألّا يضعه الضابط بمواجهة أيٍّ منهم، فقد يعرف أحدهم دكي جيّداً. سيظهر اسمه الآن -ريتشارد غرينليف- في الصحف الإيطاليّة، فكّر توم، وكذلك عنوانه. لا بدّ له من مغادرة الشقّة... إنّه الجحيم بعينه! لعن نفسه، فسمعه الضابط، لكنّه ظنّ أنّ الشتيمة موجّهة بلا شكّ إلى القَدَر الحزين الذي اختطف فريدي، فكّر توم.

«إذن...»، قال الضابط مبتسماً، وأغلق دفتره.

«هل تظنّ أنّــه...» حاول توم أن يتذكّر المفردة الإيطاليّة التي تعني «مجرم»، «هل تظنّ أنّ من قتله صبيان عنيفون؟ هل هناك أدلّة؟».

«نحن نفحص السيّارة بحثاً عن بصمات الآن. لعلّ المجرم هو شخص أقلّه من الشارع. عثرنا على السيّارة صباحاً في محيط بياتزا دي سبانيا، وسنحصل على النتيجة بحلول المساء. شكراً جزيلاً لك سنيور غرينليف».

«لا عليك. إن كان بوسعي تقديم مساعدة أخرى...».

استدار الضابط صوبه بعد أن وصل إلى الباب. «هل بوسعنا التواصل معك هنا في الأيّام القليلة القادمة، إن احتجنا لسؤالك المزيد من الأسئلة؟»، قال.

تردّد توم. «كنتُ أخطّط للذهاب إلى مايوركا غداً!»، أجاب.

«لكنّ الأسئلة قد تتعلّق بهويّة المشتبه بهم» شرح له الضابط وهو يومئ بيديه، «وربّما تستطيع إخبارنا عمّن كان على علاقة مع المتوفّى».

«حسناً، لكنّ صداقتي بسنيور مايلز ليست وثيقة إلى هذا الحدّ! لديه أصدقاء مقرّبون في هذه المدينة، يعرفونه أفضل منّي».

«مَن مثلاً؟». أغلق الضابط الباب، وفتح دفتره.

«لا أعرف» أجاب توم، «كلّ ما أعرفه هو أنّ لديه أصدقاء عديدين هنا، أشخاصاً مقرَّبين منه أكثر منّي».

«أنا آسف، لكنّنا نتوقّع أن نبقى قادرين على التواصل معك خلال اليومين القادمين»، كرّر الضابط بهدوء وكأنّه لن يقبل نقاشاً من توم حول هذه النقطة، حتّى ولو كان أمريكيّاً. «سنبلغك فوراً بمجرّد أن نسمح لك بالمغادرة. آسف بخصوص خطط سفرك، ربّما ما يزال أمامك وقت لإلغائها. طاب يومك سنيور غرينليف».

«طاب يومكما».

وقف توم هناك بعد أن أغلق الشرطيّان الباب. بوسعه أن ينتقل إلى فندق، بشرط أن يبلغ الشرطة بذلك. لم يشأ أن يتّصل به أيٌّ من أصدقاء دكي أو فريدي، عندما يقرؤون عنوانه في الصحف. حاول أن يقيّم تصرّفاته من وجهة نظر الشرطة: لم يهلع لسماع خبر مقتل فريدي، ممّا يتماشى مع ادّعائه بأنّهما ليسا صديقَين مقرَّبَين، ولم يعترض الشرطيّان على أيٍّ ممّا قاله. كلّا، الوضع ليس سيّئاً، ما عدا أنّه مضطرّ للبقاء تحت تصرّف الشرطة.

رنّ الهاتف، لكنّ توم لم يردّ هذه المرّة، فقد راوده شعور بأنّه فاوستو الذي يتّصل من محطّة القطار. إنّها الحادية عشرة وخمس دقائق، وسبق للقطار المتّجه إلى نابولي أنّ انطلق. عندما سكت الهاتف أخيراً، التقط السمّاعة، وطلب فندق إنجلترا، حيث حجز غرفة وأبلغهم بأنّه سيصل خلال نصف ساعة. بعد ذلك، اتّصل بمركز الشرطة -تذكّر أنّه المركز رقم ثلاثة وثمانين- وبعد عشر دقائق من الصعوبات لم يجد خلالها شخصاً يعرف من هو أو يكترث لأمره، نجح أخيراً بترك رسالة مفادها بأنّ سنيور غرينليف سيتواجد في فندق أليرغو إنجلترا، إن أرادت الشرطة أن تتحدّث معه.

وصل إلى فندق إنجلترا قبل انقضاء ساعة، مع ثلاث حقائب، اثنتان منها لدكي أصلاً، والثالثة ملكه هو. أصابته تلك الحقائب بالإحباط، لقد حزمها لغاية مختلفة كليّاً... والآن هذا!

خرج عندما انتصف النهار كي يشتري الصحف، التي ضجّت كلّها بالخبر: «مقتل أمريكيّ في ڤيا آبيا أنتيكا»، «جريمة بشعة راح ضحيّتها أمريكيّ ثريّ اسمه فريدريك مايلز، البارحة في ڤيا آبيا»، «مقتل أمريكيّ في ڤيا آبيا من دون أدلّة»... إلخ. قرأ توم كلّ ما جاء فيها كلمة كلمة، لم يعثروا على أدلّة في الحقيقة، ليس بعدُ على الأقلّ. لا آثار، لا بصمات، لا مشتبه بهم، لكنّ الصحف كلها ذكرت اسم هـ. ريتشارد غرينليف، وذكرت بأنّ عنوانه هو المكان الأخير الذي شوهد فيه فريدي من قِبَل أيّ شخص، لكنّ الشبهات لا تحوم حوله بأيّ حال. بالإضافة إلى ذلك، جاء في الجرائد كلّها أنّ فريدي مايلز احتسى عدّة كؤوس من الكحول، بل -وفقاً لأسلوب الصحافة الإيطاليّة

النموذجيّ- كؤوس كثيرة جدّاً، تنوّعت بين الأمريكانو، سكوتش ويسكي، براندي، شمبانيا، وحتّى غرابا... أمّا الجن والبرنو فقد غابا نهائيّاً عن الصورة.

بقي توم في غرفة الفندق خلال ساعة الغداء، وتمشّى فيها جيئة وذهاباً بكآبة، شاعراً بأنّه محاصَر. اتّصل بمكتب السفريّات في روما من حيث اشترى التذكرة سابقاً إلى بالما، وحاول أن يلغيها. أجابوه هناك بأنّه سيستعيد عشرين بالمئة ممّا دفعه، لكن لن ينطلق مركب آخر إلى بالما قبل خمسة أيّام.

حوالي الساعة الثانية ظهراً، رنّ الهاتف بإلحاح.

«هللو!»، أجاب توم بنبرة دكي العصبيّة المنزعجة.

«هللووو دكي! أنا ڤان هيوستن»

«أوه!» قال توم وكأنّه يعرفه، لكنّ هذه الكلمة الوحيدة لم تشِ لا بالودّ ولا بالدهشة.

«كيف حالك؟ لقد مرّ زمن طويل، أليس كذلك؟»، سأله الصوت الخشن المبحوح.

«أجل، بالتأكيد. أين أنت؟»

«في فندق هاسلر، كنتُ أفتّش حقيبة فريدي مع البوليس. أريد أن أراك.. ماذا حصل مع فريدي البارحة؟! بحثتُ عنك طيلة المساء، تعرف، كان من المفروض أن يعود فريدي إلى الفندق بحلول السادسة... لم أستطع إيجاد عنوانك. ماذا حصل أمس؟!»

«أتمنّى لو أعرف! غادر فريدي في حوالي السادسة. لقد شربنا كلانا الكثير من المارتيني، لكنّه بدا لي قادراً على قيادة السيّارة، وإلّا لما تركته يغادر بطبيعة الحال... قال إنّ سيّارته مركونة أسفل المبنى. لا أستطيع أن أتخيّل ما حصل، سوى أنّه أقلّ شخصاً ما عن الطريق، وهذا الشخص أشهر سلاحه في وجهه أو ما شابه»

«لكنّه لم يُقتَل برصاصة! أتّفق معك بأنّ شخصاً ما أجبره على سياقة السيّارة إلى هناك، أو... لعلّه ضلّ وجهته! يتوجّب عليك أن تقطع المدينة كلّها كي تصل إلى ڤيا آبيا، بينما لا يبعد فندق هاسلر سوى بضعة أحياء عن شقّتك».

«هل فقد وعيه بتأثير الكحول سابقاً؟! وهو يسوق السيّارة؟».

«اسمع دكي، هل لي أن أراك؟ لستُ مشغولاً الآن، لكن لا يجوز أن أغادر الفندق اليوم».

«وأنا كذلك!».

«أوه، هيّا! اترك رسالة بأنّك قادم إلى هنا، وتعال».

«لا أستطيع ڤان، ستصل الشرطة خلال ساعة، ومن المفروض أن أبقى هنا. لِم لا تتّصل بي لاحقاً؟ قد أتمكّن من رؤيتك ليلاً».

«حسناً، متى؟».

«اتّصل بي حوالي الساعة السادسة».

«حسناً. تشجّعْ دكي!».

«وأنت أيضاً».

«اراك لاحقاً»، قال ڤان بصوت واهن.

شعر توم بأنّ ڤان سيبكي وهو يغلق الخطّ. «برونتو؟»، قال وهو يرفع سمّاعة الهاتف كي يتكلّم مع مقسم الفندق. طلب بألّا يحوّلوا إليه أيّ اتّصال كان، سوى اتّصالات الشرطة، وألّا يسمحوا لأيّ شخص إطلاقاً بالصعود إلى غرفته، إطلاقاً!.

بالفعل، لم يرن الهاتف طيلة العصر. بعد أنّ حلّ الظلام، نزل توم في الساعة الثامنة تقريباً كي يشتري صحف المساء. ألقى نظرة على البهو الصغير، وعلى باب بار الفندق الذي يُفتَح على الصالة الرئيسيّة، بحثاً عمّن قد يكون ڤان. كان مستعدّاً لكلّ الاحتمالات، حتّى لرؤية مارج جالسة هناك بانتظاره، لكنّه لم يجد أحداً، ولا حتّى الشرطة. اشترى الصحف، وجلس في مطعم صغير يبعد عدّة أحياء عن الفندق، وقرأها. لم تعثر الشرطة على أدلّة بعد، ڤان هيوستن هو صديق مقرّب لفريدي، عمره ثمانية وعشرون عاماً، سافر معه من النمسا إلى روما في إجازة كان من المفروض أن تنتهي في فلورنسا، حيث يملك كلٌّ منهما منزلاً هناك. جاء في الصحف أيضاً أنّ الشرطة استجوبت ثلاثة شبّان إيطاليّين، اثنان منهما في الثامنة عشرة وثالثهما في السادسة عشرة، يُشتَبه بارتكابهم «ذلك الفعل الشنيع»، قبل أن تطلق سراحهم لاحقاً. شعر توم

بالراحة، عندما قرأ بأنّ الشرطة لم تعثر على بصمات حديثة أو قابلة للفحص، على سيّارة مايلز «فيات 1400 الرائعة المكشوفة».

تناول توم طعامه على مهل، ارتشف النبيذ، وألقى نظرة على الصفحات كلّها بحثاً عن الأخبار التي توردها الصحافة الإيطاليّة في آخر لحظة قبل الطباعة. لم يجد المزيد حول مقتل مايلز، لكن في الصفحة الأخيرة من آخر صحيفة بين يديه، قرأ الخبر التالي:

«العثور على مركب غارق ملطّخ بالدماء، في المياه الضحلة بالقرب من سان ريمو»

قرأ الخبر بسرعة، ودبّ الرعب في قلبه، رعبٌ أكبر من ذاك الذي شعر به وهو يحمل جثّة فريدي إلى أسفل الدرج، أو عندما جاء الشرطيّان إلى شقّته. إنّه انتقام، إنّه كابوس يتحقّق، حتّى بمجرّد كتابة الخبر! وصفت الصحيفة الزورق بتفاصيله الدقيقة، وأعادت إحياء المشهد في ذهنه. ها هو ذا دكي يجلس في مؤخّرة المركب ممسكاً بذراع الدفّة، دكي يبتسم له، جسد دكي يغرق في الماء بين دوّامة من الفقاعات.... قالت الصحيفة إنّ البقع التي تلطّخ الزورق، هي آثار دماء غالباً، لكنّها لم تجزم بذلك، ولم تذكر ماذا تنوي الشرطة أو أيّة جهة غيرها أن تفعل... لا بدّ أن تتّخذ الشرطة إجراءً ما، فكّر توم، سيتذكّر حارس الزوارق بكلّ تأكيد تاريخَ اختفاءِ المركب بدقّة، وعندها ستتحقّق الشرطة من نزلاء الفنادق في اليوم الموافق له. لعلّ الحارس سيتذكّر أيضاً، أنّ أمريكيّيَن اثنين استأجراه ولم يعيداه... إن تكبّدت الشرطة العناء لفحص سجلّات الفنادق في ذلك التاريخ، سيقفز اسم ريتشارد غرينليف فوراً أمامها. في تلك الحالة، توم ريبلي هو من سيُعدّ مفقوداً بالطبع، وربّما ستعتقد الشرطة أنّه قُتِل. حلّق خيال توم في عدّة اتجاهات، لنفترض أنّهم بحثوا عن جثّة دكي ووجدوها؟! سيفترضون أنّها جثّة توم ريبلي، وسيشتبهون بأنّ دكي قتله. بالتالي، سيشتبهون بأنّ دكي قتل فريدي أيضاً، أي إنّه سينقلب خلال عشيّة وضحاها إلى شخص من «النمط الإجراميّ». من ناحية أخرى، قد لا يتذكّر الحارس تاريخ اختفاء زورقه بدقّة، وقد لا تفحص الشرطة سجلّات الفنادق حتّى لو تذكّر. لعلّ الشرطة الإيطاليّة لن تهتمّ بالمسألة، ربّما نعم، ربّما لا.

طوى توم الصحيفة، دفع الفاتورة، وغادر المطعم.

سأل موظّف الاستقبال في الفندق إن وصلته أيّة رسائل.

«أجل سنيور، هذه، وهذه، وهذه...». رتّب الموظّف الرسائل أمامه على الكونتوار، وكأنّه لاعب كوتشينة يفرد سلسلة أوراق رابحة.

رسالتان من ڤان، واحدة من روبرت جيلبرستون (هل قرأ اسماً كهذا في دفتر عناوين دكي؟ لا بدّ أن يتأكّد)، ورسالة من مارج أيضاً. تناولها توم وقرأ بعناية ما كُتِب عليها بالإيطاليّة: «سنيورا شيرْوُد اتّصلت في الساعة الثالثة وخمس وثلاثين دقيقة بعد الظهر، وستتّصل به مجدّداً. إنّه اتّصال هاتفيّ من منطقة بعيدة، من مونجيبللو».

هزّ توم رأسه، ولملم الرسائل. «شكراً جزيلاً لك»، قال. لم تعجبه نظراتُ هذا الموظّف الذي يجلس خلف الكونتوار، الإيطاليّون اللعينون فضوليّون جدّاً!.

ارتمى على كنبة في غرفته، يدخّن ويفكّر. حاول أن يتصوّر ماذا سيحصل إن لم يفعل شيئاً، وما الذي يستطيع فعله على أرض الواقع. ستأتي مارج غالباً إلى روما، ومن الواضح أنّها اتّصلت بالشرطة هنا كي تحصل على عنوانه. إن جاءت، سيضطرّ لمقابلتها على أنّه توم، وسيحاول إقناعها بأنّ دكي خرج لوقت قصير، كما سبق له أن حاول مع فريدي، لكن إن فشل... فرك راحتيه بعصبيّة. يجب أن يتفادى رؤية مارج، هذا كلّ شيء، على الأقلّ ليس الآن ريثما تتوضّح تداعيات مسألة الزورق الغارق. ستسوء كلّ الأمور لو قابلها، وستنكشف اللعبة حتماً. إنّها مجرّد لحظة، فكّر، إنّها مجرّد أزمة صغيرة بسبب قصّة الزورق وجريمة قتل مايلز التي لم تُحَلّ، تجعل الوضع يبدو أسوأ ممّا هو عليه في الحقيقة. لن يصيبه مكروه إطلاقاً إن استمرّ بفعل ما ينبغي، وقول ما يجب عليه قوله للجميع. بعد ذلك، ستعود الأمور إلى مجاريها بسلاسة، وسيسافر إلى اليونان أو الهند أو سيلان، أو إلى مكان بعيد، بعيد جدّاً، حيث لن يطرق بابه أبداً صديق قديم. يا له من مغفّل عندما ظنّ أنّ بوسعه البقاء في روما! لِم لَم يسكن في محطّة غراند سنترال مثلاً، أو يعرِضَ نفسه على الملأ في متحف اللوڤر عوضاً عن ذلك؟!.

اتّصل بمحطة القطار، كي يستعلم عن مواعيد رحلات ما بعد غد إلى نابولي، ودوّن مواعيد القطارات الأربعة أو الخمسة التي وجدها. لن ينطلق أيّ مركب من نابولي إلى مايوركا قبل خمسة أيّام، وبوسعه أن يثبّت موعد رحلته النهائيّ بعد أن يصل إلى نابولي، فكّر. كلّ ما يحتاجه الآن، هو إذن بالمغادرة من الشرطة. سيسمحون له بالمغادرة غداً، إن لم يحدث شيء. لا يمكنهم احتجازه للأبد من دون أدلّة ملموسة، بغية استجوابه بين حين وآخر. كان واثقاً من أنّهم سيسمحون له بالمغادرة غداً، هذا منطقيّ.

التقط سمّاعة الهاتف، وقال لموظّف الفندق إنّه سيجيب على اتّصال مس مارغوري شيرود إن اتّصلت مجدّداً. سيتمكّن من إقناعها خلال دقيقتين بأنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنّ جريمة قتل فريدي لا تعنيه إطلاقاً. سيقول لها إنّه انتقل إلى الفندق كي يتفادى الاتّصالات الهاتفيّة المزعجة من الغرباء، وكي يبقى في متناول رجال الشرطة إن احتاجوا إلى مساعدته بالتعرّف على المشتبه بهم. سيقول لها أيضاً إنّه سيسافر بالطائرة إلى اليونان غداً أو بعد غد، لذلك لا ضرورة لمجيئها إلى روما. في الحقيقة، بوسعه أن يسافر جوّاً من روما إلى بالما. لِم لَم يفكّر بهذا من قبل؟!.

تمدّد متعباً على السرير، لكنّه لم يخلع ثيابه، فقد شعر بأنّ أمراً ما سيحدث الليلة. حاول أن يركّز على التفكير بمارج، تخيّلها جالسة في هذه اللحظة في بار فندق جورجيو، أو في بار الميرامير وهي تحتسي كأس كوكتيل «توم كولينز» كبيرة على مهل، وتتساءل هل تعاود الاتّصال به أم لا. تخيّلها بحاجبيها المشعَّثين، وشعرها المنكوش، جالسة بمفردها إلى طاولة ما وهي تفكّر بما سيحصل في روما، دون أن تتبادل الحديث مع أحد. رآها تنهض وتعود إلى منزلها، تحزم حقيبة، ثمّ تركب الباص الذي سينطلق غداً ظهراً. كان هو واقفاً هناك، على الطريق أمام مكتب البريد، يناديها كي لا تذهب ويحاول إيقاف الباص، لكن عبثاً...

تلاشى هذا المشهد في دوّامة رماديّة مصفرَّة، بلون رمال مونجيبللو. رأى دكي وهو يبتسم له، مرتدياً بزّته المخملية التي لبسها في سان ريمو. البزّة مبلّلة تماماً، وربطة عنقه أشبه بحبل رفيع يقطر منه الماء. انحنى دكي فوقه، وهزّه. «لقد سبحتُ» قال، «توم استيقظ، أنا بخير. لقد سبحتُ، أنا حيّ».

تلوّى توم وحاول أن يفلت من قبضته، وسمع دكي يضحك ضحكته السعيدة العميقة ساخراً منه. «توم!»، قال. طبيعة الصوت كانت أعمق، وأغنى، وأفضل ممّا استطاع توم تقليده يوماً. دفع توم نفسه للأعلى، جسده بطيء وثقيل، كأنّه يحاول أن يسحب نفسه من الماء العميق.

«لقد سبحتُ» صرخ صوت دكي، ورنّ مرّة ومرّات في أذني توم وكأنّه يسمعه عبر نفق طويل. تلفّت حوله في الغرفة باحثاً عن دكي في ضوء المصباح الأصفر، في الزاوية المعتمة بجانب الخزانة الطويلة. شعر بأنّ عينيه مفتوحتان على اتّساعهما، مرتعبتان. يعرف أنّ خوفه غير منطقيّ، لكنّه تابع البحث عن دكي في كلّ زاوية، خلف الستائر التي تغطّي نصف النافذة، وعلى الأرض في الجهة الأخرى من سريره. جذب نفسه، ونهض. ترنّح وهو يسير حول الغرفة وفتح نافذة، من ثمّ النافذة الأخرى. شعر بأنّه مُخَدَّر، لا بدّ أن أحدهم دسّ له مخدّراً في نبيذه، فكّر فجأة. ركع تحت النافذة مستنشقاً الهواء البارد، وحارب ضعفَه كأنّه شيء ما سوف يجتاحه إن لم يبذل أقصى ما في وسعه لدحره. أخيراً، دخل إلى الحمّام، وبلّل وجهه بالماء، فتلاشى تعبه. أدرك أنّه لم يتجرّع مخدِّراً، بل سمح لنفسه أن ينساق مع خياله، لذلك خرجت الأمور عن سيطرته. استجمع قواه، وخلع ربطة عنقه بهدوء. تحرّك كما كان دكي سيفعل، خلع ملابسه، استحمّ، ارتدى بيجامته ثمّ استلقى في السرير. حاول أن يفكّر بما كان دكي سيفكّر به الآن، والدته! لقد أرفقت رسالتها الأخيرة بصورتين لها ولمستر غرينليف، وهما جالسان في الصالون يتناولان قهوة، تماماً كالمشهد الذي يتذكّره توم عندما تناول معهما القهوة بعد ذلك العشاء. قالت مسز غرينليف إنّ هربرت التقط الصورتين بنفسه، بالضغط على حبل الكاميرا. بدأ توم بتأليف رسالة إليهما، إنّهما سعيدان لأنّه يكتب لهما أكثر الآن. لا بدّ أن يهدّئ من روعهما حول قضيّة فريدي، إنّهما يعرفانه، فقد سألت مسز غرينليف ذات مرّة في إحدى رسائلها عنه. لم يستطع توم أن يركّز، لأنّه ينتظر الهاتف بترقّب، وعجز عن صياغة ما سيكتبه في ذهنه.

-18-

أوّل ما خطر ببال توم صباحاً عندما استيقظ، كان مارج. أمسك الهاتف، وسأل موظّف الفندق إن كانت قد اتّصلت به خلال الليل. لم تتصلّ! انتابه إحساس رهيب بأنّها قادمة إلى روما، فقفز من السرير فوراً، لكنّ شعوره تبدّل بمجرّد أن باشر روتينه اليوميّ المعتاد بالحلاقة والاستحمام. لِماذا يقلق كثيراً بسبب مارج؟! لطالما كان قادراً على التعامل معها، وهي لن تصل إلى هنا قبل الخامسة أو السادسة مساء بأيّ حال، لأنّ الباصات لا تنطلق من مونجيبللو قبل منتصف النهار، ومن غير المرجَّح أن تستقلّ تاكسي إلى نابولي.

لعلّه سيتمكّن من مغادرة روما اليوم! سيتّصل بالشرطة في الساعة العاشرة، ويستعلم عن ذلك. طلب أن يرسلوا له كافيه لاتيه ولفائف ساخنة إلى غرفته، وكذلك صحف الصباح. يا للغرابة! لم تذكر الصحف إطلاقاً قضيّة مايلز، ولا زورق سان ريمو! شعر بشعور غريب، بالخوف، بالخوف ذاته الذي اجتاحه البارحة عندما تراءى له دكي واقفاً في غرفته، فرمى الجرائد بعيداً عنه إلى أحد الكراسي.

رنّ الهاتف، فقفز إليه مذعناً. إمّا أنّها مارج، أو أنّها الشرطة. برونتو؟»، قال.

«برونتو. هناك سيّدان بانتظارك في الأسفل، سنيور».

«حسناً، هل لك أن تطلب منهما الصعود إلى هنا؟»».

بعد دقائق، سمع توم وقع الخطى في الردهة المفروشة بالسجّاد. إنّهما الضابط الكهل ذاته الذي زاره بالأمس، وشرطيّ آخر جديد أصغر سنّاً.

«بونجورنو» قال الضابط بتهذيب، مع انحناءة صغيرة من رأسه.

«بونجورنو» قال توم، «هل عثرتم على أيّ شيء جديد؟»».

«كلّا» أجاب الضابط بنبرة متشكّكة. جلس على الكرسيّ الذي قدّمه له

توم، ثمّ فتح حقيبته الجلديّة بنيّة اللون. «هناك مسألة أخرى. هل أنت صديق للأمريكيّ المدعو توماس ريبلي؟»، سأل.

«أجل»، أجاب توم.

«هل تعرف أين هو؟».

«أعتقد أنّه عاد إلى أمريكا منذ شهر».

تفحّص الضابط أوراقه. «فهمتُ. يجب أن نتأكّد من دائرة الهجرة في الولايات المتّحدة. كما ترى، نحن نحاول العثور على توماس ريبلي. نظنّ أنّه قد يكون ميتاً»، قال.

«ميت؟! لماذا؟».

شفة الضابط العلويّة المختبئة خلف شاربه الكثّ الرماديّ، تتقلّص بنعومة مع كلّ جملة، كأنّه يبتسم، وابتسامته هذه زعزعت توم قليلاً بالأمس أيضاً.

«لقد ذهبتما معاً في رحلة إلى سان ريمو، في شهر تشرين الثاني، أليس كذلك؟».

لقد تحقّقت الشرطة من سجلّات الفنادق إذن!.

«أجل»، أجاب توم.

«أين رأيته آخر مرّة؟ في سان ريمو؟».

«كلّا، رأيته مجدّداً في روما». مارج تعرف أنّه عاد إلى روما بعد أن زار مونجيبللو، تذكّر توم، لأنّه قال لها بأنّه سيساعد دكي على الاستقرار في شقّته.

«متى رأيته آخر مرّة؟».

«يصعب أن أحدّد تاريخاً دقيقاً! ربّما قبل شهرين على ما أعتقد، أظنّ أنّه أرسل لي بطاقة بريديّة من جنوة، قائلاً إنّه سيعود إلى أمريكا».

«تظنّ ذلك؟!».

«بل متأكّد!» قال توم، «لماذا تظنّونه ميتاً؟!».

«هل ذهبتما أنت وتوماس ريبلي في جولة بحريّة، عندما كنتما في سان ريمو؟».

«جولة بحريّة؟! أين؟!».

«في زورق صغير، حول المرفأ» قال الضابط بهدوء، وهو ينظر إليه.

«أعتقد ذلك... أجل، تذكّرت. لماذا؟».

«لقد عثرنا على مركب غارق، ملطّخ بما قد تكون بقعاً من الدم. الزورق مفقود منذ الخامس والعشرين من شهر تشرين الثاني، لم يرجعْه مَن استأجره إلى رصيف الميناء. في الخامس والعشرين من تشرين الثاني، كنت أنت وسنيور ريبلي موجودَين في سان ريمو». استقرّت عينا الضابط على توم، دون أن ترفّا.

تسامُحُ تلك النظرة بحدّ ذاته أزعج توم، لأنّه تسامحٌ مخادع، لكنّه بذل جهداً جبّاراً كي يتصرّف بالطريقة الملائمة. شعر بأنّه يقف خارج جسده، ويراقب المشهد من بعيد. عدّل وقفته كي يبدو أكثر استرخاء، وذلك بأن أسند يده إلى عمود السرير. «لكن لم يحصل لنا مكروه هناك في تلك الجولة، لم يحصل أيّ حادث».

«هل أعدتما المركب إلى الرصيف؟».

«بالطبع!».

لم تتزحزح نظرة الضابط. «لم نعثر على اسم سنيور ريبلي مسجّلاً في أيّ فندق، بعد الخامس والعشرين من تشرين الثاني»، قال.

«حقّاً؟! منذ متى وأنتم تبحثون عنه؟».

«لم يتسنَّ لنا وقتٌ بعدُ كي نتحقّق من كلّ القرى الصغيرة في إيطاليا، لكنّنا تحقّقنا من فنادق المدن الكبرى. عثرنا على اسمك مسجّلاً في فندق هاسلر، ما بين الثامن والعشرين إلى الثلاثين من تشرين الثاني، ومن ثمّ...».

«لم يبقَ توم معي في سان ريمو. سنيور ريبلي ذهب إلى مونجيبللو في تلك الفترة، وبقي يومين هناك».

«أين أقام عندما عاد إلى روما؟».

«في فندق صغير لا أذكر اسمه. لم أزره هناك».

«وأين كنت أنت؟».

«متى؟».

«يومَي السادس والعشرين، والسابع والعشرين من شهر تشرين الثاني، أي بعد أن عدتَ من سان ريمو مباشرة».

«في فورت دي مارمي» أجاب توم، توقّفتُ هناك وأنا عائد إلى روما، ومكثتُ في نُزل».

«ما اسمه؟».

هزّ توم رأسه. «لا أذكر، إنه نزل صغير للغاية». في نهاية المطاف، فكّر، ستتأكّد الشرطة من خلال مارج أنّ توم ذهب إلى مونجيبللو بعد رحلة سان ريمو. لكن، لماذا يريدون أن يتحقّقوا من مكان تواجد دكي غرينليف يومَي السادس والعشرين، والسابع والعشرين من شهر تشرين الثاني؟! جلس على حافّة السرير، ثمّ قال: «لم أفهم بعد، لِم تظنّون أنّ توم ريبلي ميت؟!».

«نعتقد أنّ شخصاً ما قد قُتِل» أجاب الضابط، «قُتِل شخص ما في سان ريمو على متن ذلك الزورق، من ثمّ أغرقه الجناة لإخفاء آثار الدماء».

«هل أنتم متأكّدون من أنّها آثار دم؟!»، سأل توم عابساً.

هزّ الضابط كتفيه.

هزّ توم كتفيه بدوره، وقال: «لا بدّ أنّ مئتي شخص على الأقلّ، استأجروا زوارق يومها في سان ريمو!».

«كلّا، ليسوا كثيرين هكذا، ثلاثون شخصاً فقط... لكنّ كلامك صحيح، قد تكون هناك ضحيّة واحدة من بين أولئك الثلاثين، أو ضحيّتان من بين خمسة عشر زوجاً» أضاف مبتسماً، «ونحن لا نعرف أسماءهم جميعهم، لكنّنا نميل للاعتقاد بأنّ توماس ريبلي مفقود». نظر الضابط إلى زاوية الغرفة وكأنّه يفكّر بأمر آخر كما استنتج توم من ملامحه، أم لعلّه يستمتع بدفء الشوفاج إلى جانب الكرسي؟!.

لفّ توم ساقاً على ساق مرّة أخرى بنفاد صبر. ما يدور في رأس الضابط الإيطاليّ واضح: دكي غرينليف تواجد مرّتين في مسرح الجريمة، أو بالقرب منها. توماس ريبلي المفقود، ذهب في جولة بالزورق يوم الثامن والعشرين من شهر تشرين الثاني برفقة دكي غرينليف. إذن... نهض توم عابساً، وقال:

«هل تعني بأنّك لا تصدّقني عندما قلت لك بأنّني رأيتُ توم ريبلي في روما، في بدايات كانون الأوّل تقريباً؟».

«أوه لا! لم أقل ذلك أبداً» أجاب الضابط وهو يومئ بيديه، «أريد أن أعرف ما الذي ستقوله عن... عن سفرك برفقة سنيور ريبلي بعد أن غادرتما سان ريمو، لأنّنا لا نستطيع العثور عليه». ابتسم مرّة أخرى، ابتسامة عريضة بغية ترطيب الأجواء، كاشفاً عن أسنانه المصفرّة.

استرخى توم وهزّ كتفيه بانزعاج. من الواضح أنّ الشرطة الإيطاليّة لا ترغب بتوجيه اتّهام مباشر إلى مواطن أمريكيّ، بارتكاب جريمة قتل. «يؤسفني أنّني لا أعرف أين هو الآن بالتحديد»! قال، «لماذا لا تبحثون عنه في باريس؟ أو جنوة؟ إنّه ينزل في فنادق صغيرة دائماً، لأنّه يفضّلها».

«أما زالت البطاقة البريديّة التي أرسلها لك من جنوة بحوزتك؟».

«كلّا، ليست معي» قال توم، ومرّر أصابعه عبر شعره كما يفعل دكي أحياناً عندما ينزعج. شعر بأنّه أفضل حالاً، وركّز على كونه دكي غرينليف لبضع ثوان، ثمّ تمشّى حول الغرفة مرّة أو مرّتين.

«هل تعرف أحداً من أصدقاء توماس ريبلي؟»، سأل الضابط.

هزّ توم رأسه نافياً. «كلّا، أنا لا أعرفه حقّ المعرفة أصلاً، ليس منذ زمن بعيد على الأقلّ. لا أعرف إن كان لديه الكثير من الأصدقاء هنا في أوروبا، قال إنّه يعرف شخصاً في فينزا، وآخر في فلورنسا، لكنّني لا أتذكّر اسميهما». إن اعتقد الضابط بأنّه يحاول حماية أولئك الأصدقاء بالتكتّم على أسمائهم كي لا تستجوبهم الشرطة، فليكن، ليظنَّ ما يشاء، فكّر توم.

«قبل أن تغادر» قال توم بالنبرة المتوتّرة الصريحة ذاتها، «أودّ أن أسأل، هل يمكنني أن أغادر المدينة اليوم؟ خطّطتُ للسفر إلى صقليّة، وأودّ حقّاً أن أغادر اليوم لو أمكن. سأنزل في فندق بالما في باليرمو، يمكنك أن تتواصل معي بسهولة إن احتجتَ إليّ».

«باليرمو!» كرّر الضابط، «حسناً، قد يكون هذا ممكناً، هل لي باستعمال الهاتف؟».

أشعل توم سيجارة للضابط، وأصغى إليه وهو يطلب الكابتن أوليسينو،

من ثمّ يبلغه بنبرة حياديّة أن سنيور غرينليف لا يعرف أين هو سنيور ريبلي، ويظنّ أنّه عاد إلى أمريكا، أو بقي في فلورنسا أو فينزا. «فينزا» كرّر الضابط بحرص، «بالقرب من بولونيا». عندما فهم الشخص على الطرف الآخر ذلك، قال الضابط إنّ سنيور غرينليف يرغب بالذهاب إلى باليرمو اليوم، «حسناً، جيّد جدّاً»، ثمّ التفت صوب توم مبتسماً وقال له: «بالتأكيد، بوسعك السفر إلى باليرمو اليوم».

«حسناً، شكراً لك». واكب توم الشرطيّين إلى الباب، ثمّ أضاف بحذق: «أتمنّى أن تبلغوني عندما تعثرون على توم ريبلي».

«بالطبع، سنبقيك على اطلاع سنيور، بونجورنو».

وحيداً، صفر توم لحناً وهو يستأنف توضيب الأغراض القليلة التي سبق له إخراجها من حقائبه. كان فخوراً بنفسه لأنّه ذكر صقليّة وليس مايوركا، صقليّة هي أرض إيطاليّة على العكس من مايوركا، ورجال الشرطة لن يمانعوا أن يغادر روما بشرط أن يبقى ضمن نطاق صلاحيّاتهم. لقد فكّر بذلك، عندما انتبه إلى أنّ جواز سفره الخاصّ لن يكشف نهائيّاً عن الرحلة الثانية التي قام بها إلى إلى فرنسا، بعد رحلة سان ريمو تلك، كما تذكّر بأنّه أخبر مارج بأنّ توم ريبلي سيزور باريس، وسيسافر من هناك إلى أمريكا. إن استجوبت الشرطة مارج للتحقّق من أنّه زار مونجيبللو فعلاً بعد عودته من سان ريمو، قد تخبرهم مارج بأنّه سافر إلى باريس، لكن إن اضطرّ للعودة إلى شخصيّة توم ريبلي مرّة أخرى، وفحصت الشرطة جواز سفره، ستكتشف بأنّه زار فرنسا مرّة واحدة فقط، عندما ذهب مع دكي إلى مدينة كان. كلّ ما عليه قوله آنذاك، هو أنّه غيّر رأيه وبقي في إيطاليا، ولم يسافر إلى باريس كما قال لدكي. إنّها مسألة تافهة.

رفع توم رأسه فجأة عن الحقيبة. هل هذه خدعة ما؟! هل يتلاعبون به عمداً، فيسمحون له بالذهاب إلى صقليّة، وكأنّهم لا يشتبهون به؟! ذلك الضابط هو وغدٌ تافه صغير! لقد عرّفه بنفسه، ماذا كان اسمه؟ رافيني؟ روفيني؟ حسناً، ماذا سيستفيد الضابط من هذه الحيلة؟! لقد أخبرهم بوجهته الحقيقيّة ولم يخطّط للهرب، كلّ ما يريده هو مغادرة روما... سيجنّ إن لم

يغادر! ألقى بآخر أشيائه في الحقيبة، ثمّ أطبق غطاءها وأقفلها. عندها، رنّ الهاتف. اختطف توم السمّاعة وقال: «برونتو؟».

«أوه، دكي؟!»، هتف صوت متقطّع الأنفاس.

إنّها مارج، وهي في الأسفل كما استنتج من الصوت. مُحبَطاً، قال بصوت توم: «من تتكلّم؟».

«هل هذا أنت، توم؟!».

«مارج! حسناً، أهلاً بك، أين أنت؟».

«في الأسفل، هل دكي هنا؟ هل أستطيع الصعود؟».

«بلا شكّ، لكن بعد خمس دقائق» ردّ توم ضاحكاً، «لم أرتدِ ملابسي بعد». دائماً ما يرسل موظّفو الفندق الزوّارَ إلى كابينة الهاتف الموجودة عند أسفل الدرج، ولن يسمعوا ما سيقوله هو ومارج.

«هل دكي هنا؟».

«ليس حاليّاً. لقد خرج منذ نصف ساعة، لكنّه سيعود في أيّة لحظة. أعرف وجهته إن أردتِ اللحاق به».

«أين هو؟».

«في مركز الشرطة الثالث والثمانين، عفواً... اعذريني، بل السابع والثمانون».

«هل هو في ورطة؟».

«كلّا، يجيب فقط على بعض الأسئلة. تُفترَض به العودة إلى هنا في العاشرة. هل تريدين العنوان؟!». تمنّى لو لم يتكلّم معها بصوت توم، لماذا لَم يتظاهر بأنّه خادم، أو صديق لدكي، أو أيّ شخص كان؟! لقال لها إنّ دكي لن يعود قبل ساعات.

«كلّا، سأنتظره»، قالت مارج متأوّهة.

«ها هو!» هتف توم وكأنّه وجد العنوان حقّاً، بعد أن بحث عنه. «21 ڤيا بيروجيا... هل تعرفين أين يقع بالضبط؟!». توم نفسه لا يعرف أين، لكنّه أرادها أن تذهب في الاتّجاه المعاكس للأمريكان إكسبريس، لأنّه سيذهب لاستلام البريد قبل أن يغادر روما.

«لا أريد أن أذهب» قالت مارج، «سأصعد وأنتظره معك، إن لم تمانع ذلك».

«حسناً، إنّه...» ضحك توم، ضحكته التي لا تخطئها أذن، والتي تعرفها مارج جيّداً. «الأمر وما فيه هو أنّني أتوقّع وصول أحد الأشخاص في أيّة لحظة. إنّها مقابلة عمل، بخصوص وظيفة. صدّقي أو لا تصدّقي، ريبلي العجوز يحاول أن يحصل على عمل!».

«أوه!» قالت مارج دون أن تكترث إطلاقاً، «حسناً، كيف حال دكي؟ لماذا ذهب إلى مركز الشرطة؟».

«أوه، لأنّه تناول بضع كؤوس مع فريدي في ذلك اليوم! لقد رأيتِ الصحف، أليس كذلك؟! الصحف تضخّم الأمور أكثر بعشر مرّات ممّا هي عليه في الواقع، أولئك الأغبياء لا يملكون أيّ دليل إطلاقاً».

«منذ متى ينزل دكي في الفندق؟».

«هنا؟ منذ البارحة. لقد كنتُ في شمال إيطاليا، وعدتُ إلى روما لرؤيته ما أن سمعتُ بخبر مقتل فريدي. لم أكن سأعثر عليه، لولا مساعدة الشرطة!».

«الحال ذاته بالنسبة لي! قد سألتُ الشرطة عنه لشدّة يأسي، أنا قلقة للغاية يا توم! كان بوسعه أن يهاتفني على الأقلّ، أن يتّصل بي إلى فندق جورجيو أو إلى أيّ مكان».

«أنا سعيد للغاية لأنّكِ جئتِ، مارج. سيسرّ دكي كثيراً لرؤيتك، لقد اغتمّ بسبب ما قد يخطر ببالك عندما تقرئين الصحف».

«أوه، حقّاً؟!» قالت مارج دون أن تصدّقه، لكنّها بدت مسرورة.

«ما رأيك أن تنتظريني في حانة آنجيلو؟ إنّها تلك الحانة في آخر الشارع الذي يمرّ من أمام الفندق، باتّجاه درج بياتزا دي سبانيا. سأرى إن كان بوسعي التسلّل، وتناول كأس نبيذ أو قهوة معك خلال خمس دقائق. ما رأيك؟».

«حسناً، لكنّ هناك باراً في الفندق!».

«لا أريد لربّ عملي المستقبليّ أن يراني في بار!».

«لا بأس، حسناً. في حانة آنجيلو إذن؟».

«لن تضيعي، إنّها في آخر الشارع أمام الفندق. باي».

اندفع توم في أرجاء الغرفة، كي ينهي حزم حقائبه. سبق له أن وضّب كلّ شيء، ما عدا معطفيه المعلَّقَين في الخزانة. رفع سمّاعة الهاتف، وطلب أن يجهّزوا له فاتورته، وأن يرسلوا شخصاً ما كي يأخذ متاعه. رتّب حقائبه بأناقة بعضها فوق بعض وتركها للحمّالين، ثمّ نزل على الدرج. أراد أن يتأكّد إن كانت مارج ما تزال موجودة في بهو الفندق، تنتظره أو تجري اتّصالاً هاتفيّاً آخر مثلاً. لا يعقل أنّها التقت بالشرطيّين، فكّر، فقد انقضت خمس دقائق تقريباً ما بين مغادرتهما وما بين اتّصالها. لقد اعتمر قبّعته كي يخفي شعره الأشقر المُفَتَّح، وارتدى معطفاً مطريّاً جديداً، ورسم على وجهه ملامح توم ريبلي الخجولة الخائفة.

لم يلمح مارج في البهو، دفع الفاتورة، من ثمّ ناوله الموظّف رسالة أخرى: ڤان هيوستن كان هنا، وكتب هذه الرسالة بخطّ يده قبل عشر دقائق: «لقد انتظرتك نصف ساعة! ألا تخرج أبداً كي تتمشّى؟! لم يسمحوا لي بالصعود إلى غرفتك، اتّصل بي في فندق هاسلر. ڤان».

لعلّ مارج وڤان صديقان قديمان، وتقابلا هنا بالصدفة، وها هما جالسان معاً الآن في حانة آنجيلو بانتظاره.

«من فضلك، أخبرْ مَن يسأل عنّي أنّني غادرت المدينة»، قال توم للموظّف.

«كما تشاء، سنيور».

استقلّ توم سيّارة التاكسي التي كانت بانتظاره. «هل يمكنك أن تتوقّف عند الأمريكان إكسبريس من فضلك؟»، طلب من السائق.

لم يمرّ السائق عبر الشارع الذي تقع فيه حانة آنجيلو، فاسترخى توم وهنّأ نفسه، أوّلاً لأنّه كان متوتّراً للغاية البارحة، إلى درجة لم يستطع معها البقاء في شقّته، واضطرّ للذهاب إلى الفندق. ثانياً، لأنّه لم يكن ليستطيع تجنّب مارج لو بقي في الشقّة، بعد أن أخذت عنوانه من الصحف، ولو جرّب تلك الحيلة هناك، لأصرّت مارج على انتظار دكي في الشقّة. الحظّ ابتسم له!.

وجد بريداً في انتظاره في مكتب الأمريكان إكسبريس: ثلاث رسائل، إحداها من مستر غرينليف.

«كيف حالك اليوم؟»، سأل الفتاةَ الإيطاليّة الشابّة التي سلّمته بريده.

لقد قرأتِ الصحف بدورها، فكّر توم. ابتسم لها، وجهها فضوليّ ساذج، واسمها ماريّا.

«بأفضل حال، شكراً لك. وأنت؟»، أجابت.

عندما استدار ليخرج، فطن إلى أنّه لن يستطيع استعمال عنوان الأمريكان إكسبريس في روما، كي يستلم البريد باسم توم ريبلي، فهناك موظّفان أو ثلاثة يعرفون وجهه هنا. منذ جاء إلى إيطاليا، قرّر أن يتلقّى بريده الخاصّ على عنوان الأمريكان إكسبريس في نابولي، لكنّه لم يستلم شيئاً بعد. بطبيعة الحال، لم يتوقّع أن تصله رسائل مهمّة، ولا حتّى ضربة موجعة أخرى من مستر غرينليف! عندما تهدأ الأمور قليلاً، سيذهب ببساطة إلى الأمريكان إكسبريس في نابولي ذات يوم، ويطلب ما وصله من بريد مبرزاً جواز سفره الشخصيّ، فكّر.

لا يمكنه أن يستلم بريده من الأمريكان إكسبريس في روما على أنّه توم ريبلي، هذا صحيح، لكن بوسعه أن يُبقي توم ريبلي معه، وأن يحتفظ أيضاً بجواز سفره وملابسه في متناول يده تحسّباً للطوارئ، كاتّصال مارج صباح اليوم مثلاً... لقد أوشكت على دخول غرفته! تبّاً! مغادرة إيطاليا باسم دكي غرينليف ستعدّ انتحاراً ما دام البوليس يشكّون ببراءته، إذ لن يظهر على جواز سفر توم ريبلي ما يثبت أنّه غادر البلاد، إن اضطرّ للعودة فجأة إلى شخصيّته الحقيقيّة. إن أراد أن يغادر إيطاليا، أن يُبعِد دكي غرينليف نهائيّاً عن البوليس، فلا بدّ أن يغادرها كتوم ريبلي، وأن يدخل إليها مجدّداً كتوم ريبلي، ومن ثمّ يعود إلى شخصيّة دكي غرينليف بعد أن تنتهي تحقيقات الشرطة. إنّها طريقة واردة، بدت له بسيطة وآمنة، وكلّ ما عليه فعله هو تحمّل الأيّام القليلة القادمة.

-19-

اقتربت السفينة من مرفأ باليرمو ببطء وحذر، مقدّمتها البيضاء تشقّ طريقها بلطف بين قشور البرتقال الطافية، والقشّ، وبقايا صناديق الفواكه المكسورة. شعر توم بالشعور ذاته، وهو يدنو من باليرمو. لقد أمضى يومين في نابولي، دون أن تذكر الصحف شيئاً لا عن قضيّة مايلز ولا عن زورق سان ريمو، كما لم يحاول البوليس التواصل معه على حدّ علمه. لعلّهم لم يكترثوا بالبحث عنه في ميناء نابولي، فكّر، وسيجدهم بانتظاره في فندق باليرمو.

بأيّ حال، لم يجد أحداً منهم بانتظاره في المرفأ، على الرغم من أنّه نظر هنا وهناك بحثاً عنهم. اشترى جريدتين، من ثمّ استقلّ التاكسي مع أمتعته إلى أوتيل بالما، ولم تكن الشرطة بانتظاره هناك أيضاً. بهو الفندق قديم، مزخرف، تسنده أعمدة رخاميّة ضخمة، وفيه أحواض كبيرة من النخيل هنا وهناك. أعطاه الموظّف رقم الغرفة التي حجزها، وسلّم المفتاح للحمّال. شعر توم بالراحة، وذهب إلى كاونتر البريد كي يستعلم بجرأة عن أيّة رسائل وصلت لسنيور ريتشارد غرينليف، فأجابه الموظّف بأنّه لم يستلم شيئاً.

عندها، بدأ توم يسترخي. هذا يعني أنّه لا توجد رسائل من مارج أيضاً، إذ لا بدّ أنّها ذهبت أخيراً كي تسأل الشرطة عن مكان دكي. تخيّل سيناريوهات رهيبة وهو على متن المركب، كأن يجد مثلاً رسالة بانتظاره في بالما، تقول فيها مارج إنّها ستصل على متن الرحلة التالية، كما بحث عنها أيضاً بين المسافرين ما أن انطلقت السفينة من نابولي! برأيه، لا بدّ أنّها هجرت دكي الآن بعد ما حصل في الفندق، لعلّها أدركت أخيراً بأنّ دكي يتهرّب منها، ويريد أن يبقى بمفرده مع توم. لربّما اخترقت هذه الفكرة جمجمتها السميكة أخيراً! فكّر بأن يكتب لها رسالة تؤكّد ذلك، عندما استرخى في حوض الاستحمام العميق الساخن مساء في الفندق، وهو يعبث برغوة الصابون

الباذخة بكلتا ذراعيه. لا بدّ أن يكتب توم ريبلي لها هذه الرسالة، فكّر، آن الأوان لذلك. سيقول إنّه كان يريد إخبارها بلباقة طيلة الوقت، لكنّه لم يشأ أن يفعل ذلك مباشرة عبر الهاتف في روما، ولا بدّ بأنّها فهمت ما يجري من تلقاء نفسها الآن. سيقول إنّه ودكي سعيدان للغاية معاً، وهذا كلّ شيء. قهقه بمرح، دون أن يتمكّن من السيطرة على ضحكاته، فأسكت نفسه بالانزلاق تحت الماء وهو يضغط على أنفه.

عزيزتي مارج، سيقول لها، لا أعتقد أنّ دكي سيكتب إطلاقاً مع أنّني طلبتُ ذلك منه عدّة مرّات، لذلك أكتب لكِ بنفسي. أنتِ إنسان رائع، ولا يجوز أن يجرّك خلفه طويلاً على هذا النحو.

قهقه مجدّداً، لكنّه تمكّن من السيطرة على نفسه أخيراً، من خلال التركيز على المشكلة الصغيرة التي لم يجد لها حلّاً بعد: لا بدّ أنّ مارج أبلغت الشرطة الإيطاليّة بأنّها تحدّثت إلى توم ريبلي في فندق إنجلترا، وسيتساءل البوليس بلا شكّ أين اختفى، ولعلّهم يبحثون عنه الآن في روما، كما سيبحثون بكلّ تأكيد عن دكي غرينليف. إنّه خَطَرٌ إضافيّ! قد يرتاب البوليس مثلاً بأنّه توم ريبلي فعلاً وليس دكي غرينليف، بناءً على الأوصاف التي زوّدتهم بها مارج. قد يقبضون عليه ويفتّشونه، ويعثرون بحوزته على جوازي السفر كليهما... لكن ماذا قال سابقاً عن الأخطار؟! الأخطار هي ما تجعل كلّ هذه المسألة مسليّة. رفع صوته بالغناء:

Papa non vuole, Mama ne meno,

Come faremo far» I'amor'?

صدح بصوت أعلى وهو يجفّف نفسه في الحمّام، غنّى بطبقة صوت دكي الباريتون العميقة التي لم يسمعها قطّ، لكنّه واثق من أنّ دكي سيسعد لو صدح هكذا.

ارتدى ثيابه، لبس إحدى بزّات السفر الجديدة المخاطة من قماش مضادّ للتجاعيد، وخرج كي يتمشّى في غسق باليرمو. عبر الساحة، تنتصب أمامه كاتدرائيّة ضخمة على الطراز النورمانديّ قرأ عنها سابقاً، بناها الأسقف الإنجليزيّ والتر أوفاميل كما يذكر كتيّب الدليل السياحيّ. سيراكيوز

تقع إلى الجنوب، وهي أرض المعركة البحريّة العظيمة بين الإغريقيّين واليونانيّين، بالإضافة إلى «أذُنُ ديونيسوس»[1]، ومدينة تورمينا، وجبل إتنا! إنّها جزيرة كبيرة، يجهلها كلياً. إنّها صقليّة، معقلُ جوليانو[2]! اجتاحها اليونانيّون القدماء، ثمّ غزاها النورمانديّون والعرب. سينطلق غداً في رحلة لاستكشاف الجزيرة كما ينبغي، لكنّ هذه اللحظة مجيدة، فكّر وهو يتوقّف كي يتأمّل الكاتدرائيّة الشاهقة الضخمة أمامه. كم هو رائع أن ينظر إلى أقواس واجهتها المغبرّة، وأن يفكر كيف سيدخلها غداً ويستنشق رائحتها الحلوة الشبيهة بالمسك، المتضوّعة من عدد لا يُحصى من الشموع وأعواد البخور التي احترقت عبر مئات ومئات السنين. إنّه الترقّب! فكّر بأنّ الترقب يسعده أكثر من التجربة بحدّ ذاتها. هل سيدوم الحال هكذا؟! عندما يمضي الأمسيات بمفرده، يستعمل حاجيّات دكي وينظر ببساطة إلى خاتَميه في يده هو، أو عندما ينظر إلى ربطات عنقه الصوفيّة، أو إلى محفظة النقود الجلديّة السوداء... هل هذه تجربة، أم ترقّب؟!.

بعد صقليّة، هناك اليونان، وهو يرغب بزيارتها بكلّ تأكيد. يريد أن يرى اليونان بعينيّ دكي غرينليف، وبنقود دكي غرينليف، وملابس دكي غرينليف، وأسلوب دكي غرينليف بالتعامل مع الغرباء، ولكن... هل ستتاح له زيارة اليونان حقّاً وكأنّه دكي غرينليف؟! هل سيطرأ أمرٌ تلو الآخر يمنعه من ذلك؟! الجريمة؟ الشكّ؟ الناس؟ لم يشأ أن يرتكب جريمة، لكنّها كانت ضروريّة. فكرة السفر إلى اليونان، والتجوّل في الأكروبوليس كتوم ريبلي، السائحِ الأمريكيّ، لا تفتنه إطلاقاً ولن يُقدِم عليها. اغرورقت عيناه بالدموع وهو يحدّق إلى جرس الكاتدرائيّة، من ثمّ استدار ومشى في طريق آخر.

وصلته رسالة في صباح اليوم التالي، رسالة سميكة من مارج. عصرها

1- كهف ضخم في صقليّة، مشهور بهندسته الطبيعيّة التي تضخّم أبسط الأصوات إلى حدّ كبير، بحيث يمكن سماعها من فوهة ثانية في أعلاه ترتفع حوالي 72 قدماً عن سطح الأرض. المترجمة.

2- سلڤاتوري جوليانو (1922–1950) رجل عصابات من صقليّة برز دوره بعد احتلالها من قبل الحلفاء عام 1943، ولعب دوراً هامّاً في السياسة آنذاك، خاصّة كعميد فخريّ لـ «حركة استقلال صقليّة»، ويعدّ بمنزلة «روبن هود» قوميّ هناك. المترجمة.

بين أصابعه، وابتسم. إنّها ما توقّعه بالضبط، وهو متأكّد من ذلك، وإلّا لما كانت سميكة هكذا! قرأها وهو يتناول فطوره، والتهمها سطراً سطراً مع اللفائف الطازجة الساخنة، والقهوة المُنكَّهة بالقرفة. إنّها ما حلم به، وأكثر!.

... إن لم تعرف حقّاً بأنّني أتيتُ إلى الفندق، هذا يعني أنّ توم لم يخبرك بقدومي، ممّا يقودني إلى الاستنتاج ذاته. من الواضح تماماً أنّك تتجنّبني، وأنّك عاجز عن مواجهتي. لِم لا تعترف بأنّك لا تستطيع أن تحيا من دون صديقك الصغير الحميم؟! لا يسعني إلّا أن أشعر بالأسف، يا صديقي العتيق، لأنّك لم تملك الشجاعة لإخباري من قبل وجهاً إلى وجه. ماذا تحسبني؟! قرويّة من بلدة صغيرة، تجهل كلّ شيء عن تلك الأمور؟! أنت من يتصرّف كقرويّ من بلدة صغيرة!! بأيّ حال، من خلال إخبارك بما لا تتجرّأ على قوله، آمل بأنّ ضميرك سيرتاح قليلاً، وبأنّك سترفع رأسك عالياً: لا شيء يضاهي فخرك بمن تحبّه! هذا هو! ألم نتحدّث ذات مرّة عن هذه النقطة؟!.

الإنجاز الثاني لي في روما، كان إبلاغ البوليس بأنّ توم ريبلي معك. بَدَوا لي متلهّفين لإيجاده (أتساءل لماذا؟ ما الذي ارتكبه الآن؟!)، كما شرحتُ لهم بأفضل ما تسمح به لغتي الإيطاليّة، بأنّك وتوم صديقان حميمان لا تفترقان، فكيف يعثرون عليك ويخفقون بإيجاده؟! لم أفهم ذلك!.

لقد غيّرتُ موعد رحلتي، وسأسافر إلى الولايات المتّحدة في نهاية شهر آذار، بعد زيارة قصيرة إلى كايت في ميونخ. بعد ذلك، أفترض بأنّ دروبنا لن تتقاطع أبداً. لا ضغينة تجاهك دكي، حسبتك أكثر شجاعة، هذا كلّ شيء.

شكراً على كلّ الذكريات الرائعة! إنّها أشبه بأشياء معروضة في متحف، أو محفوظة في الكهرمان، وغير حقيقيّة نوعاً ما. لا بدّ بأنّك تشعر بالمثل تجاهي. أتمنّى لك أطيب الأمنيات مستقبلاً.

مارج

آخ! يا لتلك السخرية التي اختتمت بها رسالتها! آخ، فتاة لئيمة! طوى توم الرسالة، ودسّها في جيب جاكيته. اختلس نظرة إلى بابَي مطعم الفندق، باحثاً بشكل لا إراديّ عن الشرطة. إن اعتقد البوليس بأنّ دكي غرينليف وتوم ريبلي يسافران معاً، فلا بدّ أنّهم تحقّقوا من فنادق باليرمو بحثاً عن ريبلي،

فكّر، لكنّه لم يلاحظ أيّ شرطيّ يراقبه أو يتبعه. لعلّهم تخلّوا عن قضية الزورق الغارق بأكملها، بما أنّهم متأكّدون الآن من أنّ توم ريبلي حيّ. لماذا سيتابعون التحقيق فيها بحقّ السماء؟! لعلّ الشكوك التي ثارت حول دكي في قضيّة مقتل مايلز، قد خمدت بدورها. ربّما!.

صعد إلى غرفته، وبدأ بطباعة رسالة إلى مستر غرينليف على الآلة الكاتبة المحمولة الخاصّة بدكي، بدأها بشرح ما حدث لمايلز بأسلوب واضح منطقيّ، لأنّ مستر غرينليف قلق للغاية الآن بلا شكّ. قال له إنّ البوليس انتهوا من استجوابه، وكلّ ما يريدونه منه حاليّاً هو التعرّف على أيّ مشتبه به قد يعثرون عليه، لأنّه قد يكون شخصاً من المعارف المشتركين بينه وبين فريدي.

رنّ الهاتف وهو يطبع الرسالة، وقال الصوت إنّه الملازم فلان من شرطة باليرمو.

«نحن نبحث عن توماس فيلبس ريبلي. هل هو موجود معك في الفندق؟»، سأل الملازم بلباقة.

«كلّا، ليس هنا»، أجاب توم.

«هل تعرف أين هو؟».

«أعتقد أنّه في روما. لقد رأيته هناك قبل ثلاثة أو أربعة أيّام».

«لم يعثروا عليه في روما. هل تعرف إلى أين غادرها؟».

«آسف، لا أملك أدنى فكرة»، أجاب توم.

« مؤسف!» قال الملازم بخيبة أمل، «شكراً جزيلاً سنيور».

«على الرحب والسعة» أجاب توم، وأغلق السمّاعة، ثمّ استأنف الطباعة.

لم يسبق لتوم أن كتب رسالة بهذه السلاسة من قبل، انسابت من بين أصابعه بسهولة، حافلة بتعابير دكي المسهبة المملّة. وجّه معظم أجزائها إلى والدة دكي، أخبرها عن مستوى أناقته (جيّد)، وعن صحّته (أيضاً جيّدة)، وسألها إن استلمت اللوحة الثلاثيّة الأجزاء المطليّة بالميناء، التي ابتاعها لها من متجر للأنتيكات في روما قبل أسبوعين. فكّر بماذا يجب عليه أن يفعله بخصوص توم ريبلي، وهو يكتب. عمليّة البحث عنه تتمّ على ما يبدو بشكل لبق وفاتر، لكنّه لن يخاطر. لا يجب أن يحتفظ بجواز سفره الشخصيّ في جيب حقيبته

-على الرغم من أنّه لفّه بالكثير من استمارات الضرائب القديمة الخاصّة بدكي- كي لا يراه موظّفو الجمارك اليقظون. يجب أن يخبّئه في بطانة حقيبة جلد الظبي الجديدة على سبيل المثال، فيبقى في مأمن من العيون حتّى ولو أفرغ الحقيبة. في الوقت ذاته، سيبقى بمتناول يده إن اضطرّ لاستعماله، فقد يأتي زمن تكون فيه شخصيّة دكي غرينليف مهدَّدة بالخطر أكثر من توم ريبلي.

أمضى معظم الصباح بكتابة تلك الرسالة إلى والدي دكي. تولّد لديه شعور بأنّ مستر غرينليف بدأ يشعر بالانزعاج ونفاد الصبر من ابنه، نفاد صبر لا يشبه ذاك الذي لمسه توم في نيويورك، بل أكثر جديّة. مستر غرينليف يظنّ أنّ انتقال ابنه من مونجيبللو إلى روما كان مجرّد نزوة طائشة كما أدرك توم، فضلاً عن أنّ محاولته لجعل الرسم والدراسة في روما تبدو بنّاءة في عيني الأب، باءت بالفشل. أطاح بها مستر غرينليف بكتابة ملاحظة مريرة، شيء ما عن أسفه من أنّ دكي ما يزال يعذّب نفسه بالرسم، لا المناظر الجميلة ولا تغيير الأماكن يصنع رسّاماً، ألم يدرك هذا بعد؟! ولم يتأثّر بالاهتمام الذي أبداه ابنه بتصاميم شركة بورك - غرينليف، والتي أرسلها له بناءً على طلبه. كلّ ذلك كان بعيداً كلّ البعد عمّا انتظره توم: لقد توقّع بأنّه سيتلاعب بمستر غرينليف بسهولة، لأنّه سيعوّض عن إهمال دكي لوالديه وعدم اهتمامه بهما في الماضي، وقد يطلب منه مالاً ويحصل عليه... هذا مستحيل الآن على الأرجح!.

اهتّمي بنفسك ماما، كتب، انتبهي من الزكام (قالت له مسز غرينليف إنّها أصيبت أربع مرّات بالزكام خلال الشتاء، وإنّها أمضت الكريسماس في سريرها، متدثّرة بالشال الصوفيّ الورديّ الذي أرسله لها هدية)، لو ارتديتِ جورباً من تلك الجوارب الصوفيّة الرائعة التي أرسلتِها لي، لما مرضتِ أبداً! أنا لم أصب إطلاقاً بالزكام في هذا العام، وهو أمر أزهو به في شتاء أوروبا... ماما، هل ترغبين بأن أرسل إليكِ أيّ شيء من هنا؟! أنا أستمتع بشراء الهدايا لكِ.

-20-

مرّت خمسة أيّام، هادئة، منعزلة، لطيفة للغاية، تجوّل خلالها توم في باليرمو، وتوقّف هنا وهناك كي يقضي ساعة في مقهى أو مطعم، ويقرأ كتيّب الدليل السياحيّ أو الصحف. في أحد الأيّام الغائمة، ركب عربة وانطلق لاستكشاف جبل بِليغرينو، كي يزور قبر سانتا روزاليا الرائع شفيعة باليرمو، التي يخلدها تمثال شهير رأى صوره في روما. التمثال يجسّد القديسة في إحدى حالات النشوة المتجمّدة، من تلك التي يطلق عليها الأطبّاء النفسيّون مسمّيات أخرى. وجد توم القبر طريفاً، وبالكاد تمكّن من حبس قهقهاته ما أن وقعت عيناه على التمثال: جسد أنثويّ باذخ مضطجع، يدان تتلمّسان، عينان مجذوبتان، شفتان تتباعدان قليلاً... لا ينقصه إلّا صوت لهاث حقيقيّ! وعندها فكّر بمارج.

بعد ذلك، زار قصراً بيزنطيّاً، ومكتبة باليرمو بلوحاتها ومخطوطاتها العتيقة المهترئة المحفوظة في خزائن زجاجيّة، ثمّ ألقى نظرة على الميناء ومخطّطاته المرسومة بالتفصيل في كتيّب الدليل السياحيّ. رسم اسكتشاً لإحدى لوحات جيدو ريني من دون سبب معيّن، وحفظ اقتباساً طويلاً لتاسو منقوشاً على واجهة أحد المباني العامّة. كتب رسالة إلى بوب ديلانسي، ورسالة طويلة إلى كليو في نيويورك وصف فيها رحلاته ومعارفه العديدين وما استمتع به، متبجّحاً وكأنّه ماركو بولو الذي يصف الصين.

لكنّه كان وحيداً! شعوره هذه المرّة لا يشبه إحساسه ذاك في باريس، بأنّه وحيد وغير وحيد في آن واحد. تخيّل فيما مضى كيف سيكتسب مجموعة جديدة رائعة من الأصدقاء، يبدأ معهم حياة مختلفة، فيها وجهات نظر ومعايير وآراء جديدة، أوضح وأفضل بكثير من السابق. اكتشف الآن بأنّ هذا مستحيل، لأنّه سيضطرّ دائماً لترك مسافة بينه وبين الآخرين. لربّما يكتسب

عادات ووجهات نظر جديدة، لكن لن يتعرّف إلى أصدقاء جدد، إلّا إن ذهب إلى اسطنبول أو سيلان... ما الفائدة من تكوين صداقات مع أشخاص من النمط الذي يعيش هناك؟! إنّه وحيد، واللعبة التي يلعبها موحشة! فضلاً عن ذلك، الأصدقاء الذين قد يتعرّف عليهم سيشكّلون خطراً إضافياً بلا شكّ. قد يضطرّ للارتحال في العالم وحيداً، هذا صحيح، لكنّ فرص افتضاح أمره ستتضاءل. هذا هو الجانب الوحيد الذي يبعث على السعادة في المسألة برمّتها بأيّ حال، وهو الآن أفضل حالاً لأنّه فكّر به.

عدّل سلوكه قليلاً، كي يتلاءم أكثر مع دور مراقب الحياة المنعزل عنها الذي اختاره. ما يزال لبقاً، يبتسم للجميع، سواء للأشخاص الذين يطلبون استعارة صحيفته في المطاعم، أو الموظّفين الذين يتكلّم معهم في الفندق، لكنّه يشمخ برأسه للأعلى الآن، ويتكلّم أقلّ، ويلفّ نفسه بحزن خفيف. استمتع بهذه التغيّرات، متخيّلاً أنّه يبدو كشابّ خاض لتوّه علاقة حبّ تعيسة، أو مرّ بكارثة عاطفيّة يحاول أن يشفى منها بطريقة متحضّرة، من خلال زيارة بعض أجمل الأماكن على الأرض.

ذكّره هذا بكابري! الطقس سيّئ، لكنّ كابري تقع في إيطاليا، واللمحات الخاطفة التي شاهدها هناك عندما كان مع دكي، شوّقته لزيارتها الآن. يا للمسيح! كم كان دكي مملّاً يومها! ربّما يجدر به الانتظار إلى الصيف، فكّر، كي يراوغ البوليس لفترة أطول، لكنّ رغبته بقضاء عطلة واحدة سعيدة في كابري، فاقت رغبته بزيارة اليونان والأكروبوليس... فلتذهب الثقافة إلى الجحيم مؤقّتاً! سبق له أن قرأ عن كابري في الشتاء، ريح مطر عزلة... لكنّها كابري، كابري التي يوجد فيها جرف «قفزة تيبريوس»، و «الكهف الأزرق»، والساحة القديمة التي تخلو من الناس الآن لكنّها ما تزال «الساحة»، ولم يتغيّر حجر واحد من بلاطها القديم. لِم لا ينطلق إليها اليوم؟! حثّ خطاه عائداً إلى الفندق، غياب السيّاح لا يقلّل جاذبيّة شاطئ كوت دازور! ربّما يسافر بالطائرة إلى كابري، سمع من قبل عن خدمة الطائرات المائيّة التي تعمل بين نابولي وكابري، وإن كانت متوقّفة خلال شهر شباط، سيستأجر طائرة لحسابه الخاصّ... ما نفع المال إذن؟!.

«بونجورنو، كيف حالك؟»، حيّا توم موظّفَ الفندق مبتسماً.

« وصلتكَ رسالة سنيور، عاجلة»، قال الموظّف مبتسماً بدوره.

إنها رسالة من بنك دكي في نابولي، ووجد بداخل المغلّف مغلّفاً آخر من الشركة الائتمانيّة في نيويورك. فتح توم رسالة بنك نابولي أوّلاً:

15 شباط، 19—

السيّد الموقّر،

لقد لفتت شركة ويندل الائتمانيّة في نيويورك انتباهنا، إلى شكّها بأنّ التوقيع على إيصال استلامك لمبلغ خمسمئة دولار في شهر كانون الأوّل الماضي، قد لا يكون توقيعك. نودّ إبلاغك بأنّنا سنتّخذ الإجراءات اللّازمة على الفور.

نعتقد بأنّه من الضروريّ إخطار الشرطة، لكنّنا سننتظر أوّلاً رأي خبير التواقيع الخاصّ بنا، ورأي خبير التواقيع من شركة ويندل في نيويورك. نقدّر أيّة معلومة قد تكون قادراً على تزويدنا بها، ونرجو منك التواصل مع شركة ويندل الائتمانيّة بأقرب وقت.

خالص الاحترام،

إيميلو دي براغانزي،

مدير بنك نابولي

ملاحظة: إن كان ذلك توقيعك الأصليّ فعلاً، نرجو منك أن تزور مكاتبنا في نابولي بأقرب وقت، كي توقّع باسمك هناك مرّة أخرى، وسنضيف التوقيع إلى سجلّاتنا الدائمة. نرفق لك الرسالة التي أرسلتها شركة ويندل تراست كومباني باسمك إلى عهدتنا.

فتح توم رسالة شركة ويندل الائتمانيّة:

5 شباط 19—

عزيزي السيّد غرينليف،

أبلغنا خبراء التواقيع في شركتنا، بأنّ التوقيع على إيصال استلامك لشيك شهر كانون الأوّل الماضي رقم # 8747، قد يكون مزوّراً. لعلّك لم تنتبه، لذلك سارعنا بإخبارك، كي تؤكّد لنا إمّا أنّه توقيعك الحقيقيّ أو أنّه مزوّر برأيك. لقد لفتنا نظر بنك نابولي إلى هذه المسألة أيضاً.

تجد مرفقاً بطاقة مخصّصة لقسم التواقيع الدائمة في شركتنا، نطلب منك التوقيع عليها وإعادتها لنا. من فضلك، أرسل لنا ردّك على الفور.

المخلص،

السكرتير إدوارد تي. كافاناش

بلّل توم شفتيه. سيكتب ردّاً للبنك وللشركة، ويقول إنّه استلم كلّ مستحقّاته الماليّة. هل سيؤخّرهما هذا الردّ لفترة كافية؟! لقد وقّع على ثلاثة إيصالات بدءاً من شهر كانون الأوّل، هل سيفحصونها كلّها؟! هل سيكتشف خبير التواقيع بأنّها مزوّرة كلّها؟!.

صعد إلى غرفته، وجلس فوراً إلى الآلة الكاتبة. وضع ورقة من قرطاسيّة الفندق على أسطوانتها، وجلس لبرهة محدّقاً إليها. لن يكتفوا بزدّه، فكّر، إن فحصت لجنة من الخبراء التواقيع بعدسة مكبّرة وما إلى هنالك، سيكتشفون فوراً أنّ التواقيع الثلاثة كلّها مزوّرة. تبّاً! إنّه تزوير مُتقَن، فكّر توم. لقد وقّع إيصال شهر كانون الثاني على عجل كما يتذكّر، لكنّه لم يكن توقيعاً رديئاً، وإلّا لما أرسله أصلاً بل لقال للبنك إنّه ضاع وطلب بديلاً عنه. يستغرق اكتشاف حالات التزوير عدّة أشهر عادة، فكّر، لماذا اكتشفوا أمره بعد أربعة أسابيع فقط؟! ألا يرجع السبب إلى أنّهم يمحّصون كلّ جانب من جوانب حياته الآن، منذ مقتل فريدي مايلز وقضيّة زورق سان ريمو؟! لقد طلب بنك نابولي مقابلته شخصيّاً، لعلّ بعض الموظّفين هناك يعرفون دكي! اجتاحه خوف رهيب واخز بدأ من كتفيه، وتسلّل إلى ساقيه. لوهلة، شعر بأنّه ضعيف وعاجز، واهن لا يقوى على الحراك. رأى مجموعة من رجال الشرطة، إيطاليّين وأمريكيّين، يحاصرونه ويسألونه عن مكان دكي، لكنّه عاجز عن إحضاره أو إخبارهم بمكانه أو إثبات أنّه حيّ. تخيّل نفسه وهو يحاول أن يقلّد توقيع هربرت ريتشارد غرينليف الابن، تحت أنظار عشرة من خبراء تحليل الخطّ، وإذ به يتشظّى فجأة ويعجز نهائيّاً عن الكتابة. وضع يديه على مفاتيح الآلة الكاتبة، وأجبر نفسه على البدء برسالة وجّهها إلى شركة ويندل الائتمانيّة في نيويورك:

12 شباط 19—

السادة الأعزّاء،

بما يخصّ رسالتكم حول إيصال شهر كانون الثاني،

لقد وقّعتُ الإيصال المذكور بنفسي، وقبضتُ المبلغ كاملاً. لكنتُ أبلغتكم على الفور، لو سُرِق الشيك منّي. أرفق طيّاً البطاقة مع توقيعي عليها، كي تُحفَظ في سجلّكم الدائم كما طلبتم.

المخلص،

هربرت ريتشارد غرينليف الابن

تمرّن على توقيع دكي عدّة مرّات على خلفيّة مغلّف رسالة شركة الائتمان، قبل أن يوقّع الرسالة والبطاقة، ثمّ كتب رسالة مماثلة إلى بنك نابولي، وعد فيها بأن يتواصل مع الموظّفين خلال الأيّام القليلة القادمة، وأن يزوّدهم بتوقيعه مجدّداً كي يضيفوه إلى سجلّاتهم الدائمة. كتب على المغلّفين «مستعجل»، ونزل للأسفل، حيث ابتاع الطوابع من حاجب الفندق ثمّ وضع الرسالتين في البريد.

بعد ذلك، خرج في نزهة. لقد تلاشت رغبته بزيارة كابري تماماً. الساعة الآن هي الرابعة والربع بعد الظهر. تابع المشي على غير هدى. أخيراً، توقّف أمام متجر للأنتيكات، وحدّق طيلة دقائق إلى لوحة زيتيّة كئيبة لقدّيسَين ملتحيَين، ينزلان من جحيم مظلم على ضوء القمر. دخل إلى المتجر، واشترى اللوحة بالسعر الذي طلبه البائع دون مساومة، على الرغم من أنّها ليست مؤطّرة.

لفّها تحت ذراعه، ثمّ عاد إلى الفندق.

-21-

مركز الشرطة 83، روما

14 شباط 19—

سنيور غرينليف الموقّر،

نطلب حضورك بشكل عاجل إلى روما، كي تجيب على أسئلة تتعلّق بتوم ريبلي. نقدّر مجيئك فعلاً، لأنّه سيسدي فائدة كبرى إلى التحقيق. عدم حضورك خلال أسبوع، سيدفعنا إلى اتّخاذ إجراءات معيّنة ستكون مزعجة لنا ولك.

احترامي،

كابتن إنريكو فارارا

إذن، ما زالوا يبحثون عنه! لعلّ أموراً ما استجدّت في قضيّة مايلز أيضاً، فكّر توم، فالشرطة الإيطاليّة لا تستدعي مواطناً أمريكيّاً بعبارات من هذا القبيل. الفقرة الأخيرة هي تهديد محض مبطّن، ولا بدّ أنّ الشرطة أخذت علماً بمسألة الشيك المزوّر أيضاً.

وقف والرسالة بين يديه، وتطلّع شارداً حول الغرفة. لمح صورته، زاويتا فمه مقلوبتان للأسفل، عيناه قلقتان خائفتان، ملامحه ووقفته تنقل أحاسيس الذعر والصدمة. تعاظم خوفه فجأة، لأنّ مظهره هذا حقيقيّ وعفويّ. طوى الرسالة ودسّها في جيبه، ثمّ أخرجها ومزّقها إلى نتف.

بدأ بحزم أغراضه على عجل. انتزع الروب والبيجاما المعلّقين على باب الحمّام، ورمى عدّة الحلاقة في الحافظة الجلديّة المنقوشة بالأحرف الأولى من اسم دكي، والتي أرسلتها له مارج كهديّة كريسماس. توقّف فجأة! لا بدّ من أن يتخلّص من حاجيّات دكي، كلّها! هنا؟! الآن؟! أم ينتظر، من ثمّ

يرميها عن متن السفينة في طريق عودته إلى نابولي؟! سؤال من دون إجابة! لكنّه أدرك فجأة ما الذي ينبغي عمله، وما الذي سيفعله بعد أن يرجع إلى إيطاليا. لن يقترب من روما إطلاقاً، بوسعه الذهاب مباشرة إلى ميلان أو تورين، وربّما إلى ڤينيسيا. سيشتري سيّارة مستعملة، سبق لها أن قطعت أميالاً كثيرة. سيقول إنّه كان يتجوّل في أرجاء إيطاليا خلال الشهرين أو الأشهر الثلاثة الماضية، ولم يسمع إطلاقاً بأنّ البحث جارٍ عن توماس ريبلي... توماس ريبلي!.

تابع حزم متاعه. إنّها نهاية دكي غرينليف، أدرك، لكنّه يكره أن يكون توم ريبلي مجدّداً، يكره أن يكون لا - أحد، يكره أن يعود إلى عالمه القديم مجدّداً، وأن يشعر بازدراء الناس له، ومللهم منهم إن لم يتصرّف كالمهرّج، مهرّج يشعر بأنّه إمّعة عاجز عن القيام بأيّ شيء من أجل نفسه، ما عدا تسلية الآخرين بضع دقائق في كلّ مرّة. يكره أن يكون نفسه مجدّداً، لأنّه يكره ارتداء ملابس رثّة، غير مكويّة، ملطّخة ببقع الشحم، لم توحِ بالأناقة يوماً حتّى عندما كانت جديدة. تساقطت دموعه على قميص دكي المخطّط بالأزرق والأبيض المطويّ في أعلى الحقيبة. إنّه نظيف ومنشّى، ويبدو جديداً كأنّه أخرجه للتوّ من الخزانة في مونجيبللو، وما تزال الأحرف الأولى من اسم دكي مطرّزة بقطب صغيرة حمراء على جيبه. فكّر بالأغراض التي يمكنه الاحتفاظ بها، إمّا لأنّها لا تحمل اسم دكي، أو لأنّ أحداً لن يتذكّرها... ما عدا مارج بالطبع، التي لا بدّ أن تميّز بعضاً منها، كدفتر العناوين الجديد ذي الغلاف الجلديّ الأزرق، الذي لم يدوّن فيه دكي سوى عنوانين فقط، وهو هدية منها غالباً... لكنّ توم لا ينوي رؤية مارج مجدّداً.

دفع فاتورة الفندق في بالما، لكنّه اضطرّ للانتظار إلى اليوم التالي، كي يعود بالزورق إلى البرّ الرئيسيّ. حجز التذكرة باسم غرينليف... قد تكون هذه هي المرّة الأخيرة التي يحجز فيها تذكرة باسم دكي، وقد لا تكون! ما زال متشبّثاً باعتقاده أنّ المشكلة قد تنتهي، ومن غير المنطقيّ أن ييأس بأيّ حال، حتّى ولو اضطرّ للعودة إلى شخصيّة توم ريبلي... توم ريبلي ليس يائساً على الإطلاق في الحقيقة، على الرغم من أنّه يبدو كذلك. ألم يتعلّم شيئاً في الأشهر الماضية؟! إن كنتَ تريد أن تبدو مرحاً، أو مكتئباً، أو نادماً،

أو شجاعاً، أو لبقاً، أو عميق التفكير، كلّ ما ينبغي عليك فعله ببساطة هو أن تؤدّي الدورَ بجوارحك كلّها.

عندما استيقظ في صبيحة اليوم الأخير في باليرمو، خطرت له فكرة أبهجته كثيراً: سيحفظ كلّ ملابس دكي غرينليف في مكتب الأمريكان إكسبريس في ڤينيسيا تحت اسم مختلف، من ثمّ يستعيدها لاحقاً في المستقبل إن شاء أو إن اضطرّ إلى ذلك، وربّما يتخلّى عنها نهائيّاً. سيصبح أفضل حالاً الآن، لأنّ قمصان دكي الجيّدة، وصندوق مجوهراته وساعته وسوار الفضيّ وأزرار أكمامه، ستبقى كلّها محفوظة بأمان في مكان ما، عوضاً عن أن تلاقي مصيرها في قاع البحر التيرانيّ[1]، أو في حاوية قمامة في صقليّة. محا الأحرف الأولى من اسم دكي غرينليف عن الحقيبتين، وأقفلهما، ثمّ أرسلهما من نابولي إلى شركة الأمريكان إكسبريس في ڤينيسيا، مع لوحتين بدأ برسمهما في باليرمو، وسجّل كلّ ذلك تحت اسم روبرت إس. فانْشو، كي تبقى مودعة هناك إلى أن يسترجعها في وقت ما. الشيئان الوحيدان، الشيئان الوحيدان اللذان احتفظ بهما وقد يفضحان أمره، كانا خاتَمي دكي. خبّأهما في قعر صندوق قبيح من الجلد البنيّ تعود ملكيّته إلى توماس ريبلي، احتفظ به خلال كلّ تلك السنوات حيثما تنقّل وحيثما سافر، وملأه بمجموعته الخاصّة التي تثير اهتمامه من أزرار الأكمام، دبابيس ربطات العنق، الأزرار غريبة الشكل، رأسا قلم حبر، كبّة خيطان بيضاء وإبرة مغروزة بها.

سافر توم بالقطار عبر روما، فلورنسا، بولونيا، وأخيراً ڤيرونا، ثمّ استقلّ الباص من هناك إلى مدينة ترنتو التي لا تبعد عنها أكثر من أربعين ميلاً. لم يرغب بأن يشتري سيّارة مستعملة من مدينة كبيرة كڤيرونا، لأنّ اسمه قد يلفت انتباه الشرطة عندما يستلم لوحة أرقام السيّارة. في ترنتو، اشترى سيّارة لانسيا مستعملة حليبيّة اللون، لقاء ثمنمئة دولار أمريكيّ تقريباً، وسجّلها باسم توماس ريبلي كما يرد في جواز سفره، ثمّ حجز غرفة في الفندق باسمه أيضاً، لأنّ لوحات الأرقام لن تصدر قبل أربع وعشرين ساعة. بعد ستّ

1- جزء من البحر المتوسّط، محصور بين الساحل الغربيّ لإيطاليا، وبين جزر صقليّة، سردينيا، وكورسيكا. المترجمة.

ساعات، لم يحدث شيء! كان خائفاً من أن يتعرّفوا إلى اسمه، سواء في هذا الفندق الصغير، أو من قبل المكتب الذي يتولّى عمليّة تسجيل السيّارة، لكن بحلول الظهيرة كانت لوحات الأرقام الجديدة جاهزة ومثبّتة على اللانسيا، ولم يحدث شيء البتّة. لم تذكر الصحف إطلاقاً أيّ خبر عن البحث عن توم ريبلي، ولا عن مقتل مايلز، ولا عن قضيّة سان ريمو، فانتابه إحساس غريب، كأنّه آمن وسعيد، كأنّ كلّ ما مرّ به لم يكن حقيقيّاً! شعر بالسعادة أيضاً في الدور الذي يخشاه، دورِ توم ريبلي. استمتع به، وبالغ بممارسة تحفّظ توم ريبلي مع الغرباء، والدونيّة التي يشعر بها كلّما أطرق برأسه، والنظرات الحزينة الجانبيّة التي يسترقها. بعد كلّ شيء، هل سيصدّق أيٌّ كان، أنّ هذه الشخصيّة ارتكبت جريمة؟! الجريمة الوحيدة التي قد يتّهمه البوليس بارتكابها، هي قتل دكي في سان ريمو، لكنّهم لا يحرزون تقدّماً إطلاقاً على هذا الصعيد. عودته إلى شخصيّة توم ريبلي تقدّم له عزاءً واحداً على الأقلّ: ارتاح عقله من ذنب قتل فريدي مايلز، ذلك الفعل الغبيّ غير الضروريّ.

أراد أن ينطلق فوراً إلى ڤينيسيا، من ثمّ فكّر بقضاء الليلة بالطريقة التي سيدّعي أمام الشرطة بأنّه عاش وفقها طيلة الأشهر الماضية، أي النوم في سيّارته على الطرقات الريفيّة. لذلك، قضى ليلة على المقعد الخلفيّ لسيّارة اللانسيا، في مكان ما من ضواحي مدينة بريشا، بائساً ومتكوّراً على نفسه. عند الفجر، زحف إلى المقعد الأماميّ، عنقه متيبّس وبالكاد استطاع أن يدير رأسه كي يسوق، لكنّ هذا يضيف لمسة واقعيّة إلى قصّته، فكّر، وسيتمكّن من روايتها بطريقة أفضل. اشترى دليلاً سياحيّاً لشمالي إيطاليا، دوّن عليه تواريخ لتنقّلاته تتماشى مع قصّته. ثنى صفحاته، وداس على غلافه، من ثمّ كسر عموده بحيث انفلق من منتصفه وانفتح على القسم المخصّص لمدينة بيزا.

أمضى الليلة التالية في ڤينيسيا. لطالما تجنّب هذه المدينة بأسلوب طفوليّ، لأنّه توقّع أن تخيّب آماله بكلّ بساطة. اعتقد دائماً بأنّ الأشخاص العاطفيّين والسيّاح الأمريكيّين هم وحدهم من يُفتَنون بها، وأنّها في أفضل الأحوال وجهة لمن يقضون شهر العسل، ويستمتعون بالمشقّة التي تتجلّى بعدم إمكانيّة التنقّل إلّا بواسطة جندول، ينساب بسرعة ميلَين في الساعة.

اكتشف أنّ ڤينيسيا أكبر بكثير ممّا تخيّل، وأنّها مليئة بالإيطاليّين الذين يشبهون سواهم من أبناء بلدهم في كلّ مكان. اكتشف أيضاً بأنّ الأزقّة الضيّقة والجسور تتيح له عبور المدينة بأكملها، من دون أن يضطرّ لوضع قدمه في الجندول، وأنّ القنوات الرئيسيّة مجهّزة بنظام للنقل بواسطة زوارق ذات محرّكات، يضاهي بكفاءته وسرعته مترو الأنفاق، ولا تفوح رائحة كريهة من الماء بتاتاً. وجد خيارات متنوّعة من الفنادق، بدءاً من فندقي غريتي ودانييلي الشهيرَين، وانتهاءً بالأوتيلات الصغيرة المكتظّة والنُّزُل المبعثرة في الأزقّة الخلفيّة بعيداً عن الدروب المطروقة، وبعيداً جدّاً عن عالم الشرطة والسيّاح الأمريكيّين، فتخيّل كيف سيمكث في أحدها طيلة أشهر، دون أن يلاحظه أحد. اختار فندقاً قريباً جدّاً من جسر ريالتو اسمه كونستانزا، يمثّل حدّاً وسطاً بين الفنادق الفخمة الشهيرة، والنزل الصغيرة المغمورة في الحارات. كونستانزا نظيف، رخيص، وقريب من المعالم المشهورة. إنّه الفندق الذي يلائم توم ريبلي.

أمضى ساعتين في غرفته، أخرج ملابسه القديمة المألوفة من الحقائب، وحدّق حالماً عبر النافذة إلى غروب الشمس فوق غراند كانال. تخيّل المحادثة التي سيضطرّ لخوضها قريباً مع الشرطة... لماذا؟ لا أملك فكرة، لقد رأيته في روما. إن كان لديكم شكّ بذلك، بوسع مس مارغوري شيرود أن تؤكّد كلامي. بالطبع، أنا توم ريبلي! (سيضحك هنا في هذه اللحظة) لا أفهم سبب هذه الجلبة، سان ريمو؟ أجل أتذكّرها، لقد أعدنا الزورق إلى رصيف الميناء بعد ساعة تقريباً. أجل، رجعتُ إلى روما من مونجيبللو، لكنّني لم أمضِ فيها سوى ليلتين. كنتُ أتجوّل في شمالي إيطاليا... أخشى بأنّني لا أعرف مكانه، لكنّني رأيته قبل ثلاثة أسابيع... ابتعد عن حافّة النافذة مبتسماً، بدّل قميصه وربطة عنقه استعداداً للمساء، وخرج بحثاً عن مطعم جميل يتعشّى فيه. مطعم جيّد، فكّر، إذ يحقّ لتوم ريبلي أن يدلّل نفسه في مكان غالٍ لمرّة واحدة مثلاً! محفظة نقوده منتفخة إلى حدٍّ يتعذّر معه طيّها، تملؤها أوراق نقديّة طويلة من فئة عشرة آلاف وعشرين ألف ليرة إيطاليّة، لأنّه صرف ما تعادل قيمته ألف دولار أمريكيّ من شيكات المسافرين باسم دكي، قبل أن يغادر باليرمو.

اشترى صحيفتين مسائيّتين، وضعهما تحت ذراعه ثمّ قطع جسراً صغيراً أشبه بقنطرة، ومشى في شارع طويل لا يزيد عرضه عن ستّة أقدام، مليء بدكاكين الجلديّات والقمصان الرجاليّة. مرّ من أمام واجهات تبرق فيها صناديق مجوهرات تندلق منها الأطواق والخواتم، تماماً كالصناديق التي لطالما تخيّلها مليئة بالكنوز في القصص الخرافيّة. أعجبه غياب السيّارات عن فينيسيا، لأنّ هذا حوّلها إلى إنسان، عروقه هي الشوارع، فكّر، ودمه هو الناس الذين يتجوّلون في أرجائها. انعطف إلى شارع آخر عائداً أدراجه، ومرّ من ساحة سان ماركو الفسيحة المربّعة للمرّة الثانية. الحمامات تطير في كلّ مكان، في الهواء وفي أضواء الدكاكين، ليلاً ونهاراً. تتمشّى تحت أقدام المارّة، وكأنّها سائحة تتفرّج على المعالم في قلب مدينتها نفسها! طاولات وكراسي المقاهي تمتدّ من الأروقة المقنطرة إلى الساحة نفسها، بحيث يضطرّ الناس والحمامات على السواء إلى البحث عن ممرّات صغيرة بينها كي يعبروا، بينما تصدح الغرامافونات من كلّ الزوايا دون انسجام. حاول توم أن يتخيّل المكان صيفاً تحت أشعّة الشمس، مكتظّاً بالناس الذين يرمون حفنات الحبوب في الهواء، والحمامات التي تندفع لالتقاطها. دخل شارعاً مضاءً صغيراً آخر تغطيه القبب، وتصطفّ المطاعم على جانبيه. اختار مطعماً بدا له ممتازاً ومحترماً للغاية، طاولاته مغطّاة بشراشف بيضاء وجدرانه مكسوّة بالخشب البنيّ. يعرف بخبرته أنّ هذا النمط من المطاعم يركّز على جودة الطعام، لا على السيّاح العابرين. جلس إلى طاولة، وفتح إحدى الصحيفتين.

ها هو العنوان أمام عينيه، بخطّ صغير على الصفحة الثانية:

الشرطة تبحث عن أمريكيّ مفقود

دكي غرينليف، صديق المغدور فريدي مايلز، اختفى بعد أن ذهب في إجازة إلى صقليّة

انحنى توم فوق الصحيفة، وكرّس لها انتباهه التامّ، لكنّه كان واعياً لإحساس معيّن بالانزعاج وهو يقرأ. بطريقة ما أو بأخرى، هذا سخيف، سخيف جدّاً، من السخيف أن تكون الشرطة غبيّة وغير كفوءة، ومن

السخف أن تضيّع الصحيفة مساحة على صفحاتها لطباعة خبر كهذا! قرأ أنّ هـ. ريتشارد (دكي) غرينليف –وهو صديق مقرّب من الأمريكيّ فريدي مايلز، الذي قُتِل قبل ثلاثة أسابيع في روما– اختفى بعد أن استقلّ السفينة من باليرمو إلى نابولي. البوليس في كلّ من صقليّة وروما علموا باختفائه، وهم يبحثون عنه. جاء في الفقرة الأخيرة من الخبر أنّ دكي غرينليف كان مطلوباً قبل اختفائه من قبل شرطة روما، كي يجيب عن أسئلة تتعلّق باختفاء توماس ريبلي، وهو صديق حميم له، مفقود بدوره منذ ثلاثة أشهر تقريباً.

وضع توم الصحيفة من يده، وقلّد لا شعوريّاً الدهشةَ التي سترتسم على وجه أيّ شخص، إن قرأ في الصحيفة أنّه «مفقود»، إلى حدّ أنّه لم ينتبه للنادل الذي حاول أن يعطيه قائمة الطعام إلّا بعد أن لامست القائمة يده. لقد آن الأوان، فكّر. ينبغي أن يذهب إلى البوليس، ويقدّم نفسه إليهم. إن لم يكن لديهم شيءٌ ما ضدّه –ما الذي قد يتّهمون توم ريبلي به أصلاً؟!– لن يقوموا بالتحرّي عن تاريخ شرائه للسيّارة. في الحقيقة، لقد شعر بالراحة بعد أن قرأ الخبر في الصحيفة، هذا يعني أنّ الشرطة لم تنتبه إلى اسمه في مكتب تسجيل السيّارات في ترنتو.

تناول طعامه على مهل متلذّذاً، ثمّ طلب إكسبريسو، ودخّن سيجارتين وهو يتصفّح الدليل السياحيّ لشمالي إيطاليا، وسرعان ما تقافزت أفكار أخرى إلى ذهنه. على سبيل المثال، ما السبب الذي سيدفعه إلى قراءة هذا الخبر الصغير للغاية في جريدة؟! فضلاً عن أنّه لم يَرِدْ سوى في صحيفة واحدة. كلّا، لا يجب أن يزور الشرطة، إلّا بعد أن يرى خبرَين أو ثلاثة على شاكلة ما سبق، أو ربّما مقالاً ضخماً من المنطقيّ أن يلفت انتباهه. هذا النوع من الأخبار الضخمة، سرعان ما سيملأ الصحف الإيطاليّة قبل انقضاء وقت طويل: بعد أن تمرّ بضعة أيّام دون أن يظهر دكي غرينليف، سيشتبهون بأنّه يتوارى عن الأنظار لأنه قتل فريدي مايلز، وربّما توم ريبلي أيضاً. لعلّ مارج أبلغت البوليس بأنّها تكلّمت مع توم ريبلي قبل أسبوعين في روما، لكنّهم لم يجدوه بعد. تابع توم تقليب الدليل السياحيّ، وشردت عيناه فوق الشرح والإحصائيّات الباهتة وهو مستغرق بالتفكير.

فكّر بمارج، إنّها تحزم متاعها الآن على الأغلب في مونجيبللو، استعداداً

للعودة إلى أمريكا. لا بدّ أنّها ستقرأ في الصحف عن اختفاء دكي، وستلوم توم على ذلك. ستكتب رسالة إلى مستر غرينليف، أقلّ ما تقوله فيها هو أنّ توم مارس تأثيراً خبيثاً على ابنه، وربّما يقرّر مستر غرينليف القدوم شخصيّاً إلى إيطاليا. يا للأسف! لا يستطيع أن يقدّم نفسه الآن على أنّه توم ريبلي كي يُسكِت الجلبة حوله، من ثمّ على أنّه دكي غرينليف حيّاً يرزق، كي ينتهي من ذلك اللغز أيضاً!.

بوسعه أن يبالغ قليلاً بأداء شخصيّة توم، فكّر. سيحني قامته أكثر، سيتصرّف بحياء أشدّ من قبل، وقد يرتدي نظّارة ذات إطار سميك، ويقلب زاويتي فمه للأسفل بطريقة توحي بحزن أكبر أيضاً، كي يرسم صورة تتناقض تناقضاً صارخاً مع ملامح دكي المشدودة. قد يضطرّ لمقابلة الشرطيَّين اللذين التقاهما من قبل على أنّه دكي غرينليف، ماذا كان اسم ذلك الضابط في روما؟ روڤاسيني؟ قرّر أن يغسل شعره مجدّداً بمحلول الحنّاء المركّز، كي يكتسب لوناً أغمق من شعره الطبيعيّ.

فتّش الجريدتين بأكملهما للمرّة الثالثة، بحثاً عن أيّ خبر آخر يتعلّق بقضيّة مايلز... لا شيء!.

-22-

في اليوم التالي، نشرت الصحيفة الكبرى خبراً أطول عن القصّة، وأوردت فقرة صغيرة قالت فيها إنّ توم ريبلي مفقود، لكنّها أفادت بجرأة بأنّ دكي غرينليف «يعرّض نفسه للشبهات» الآن، فقد يُتّهم بالضلوع في مقتل مايلز، وسيُعَدّ «فارّاً» ما لم يقدّم نفسه للشرطة، كي يبرّئ نفسه من الشكوك التي تحوم حوله. ذكرت الصحيفة أيضاً قضيّة الشيكات المزوّرة، وأفادت بأنّ آخر مرّة تواصل فيها دكي غرينليف مع أحد، كانت عبر رسالته الأخيرة إلى بنك نابولي التي أقرّ فيها بأنّ توقيعه صحيح، لكنّ خبيرَين من أصل ثلاثة فيه، يعتقدان بأنّ كلّاً من إيصال شهر كانون الثاني وإيصال شباط مزوّر، ممّا يتماشى مع رأي البنك الأمريكيّ الذي أرسل نسخاً من تواقيع سنيور غرينليف إلى بنك نابولي. اختتمت الصحيفة مقالها بملاحظة ساخرة: «هل يمكن لأحد أن يرتكب جريمة التزوير ضدّ نفسه؟! أم أنّ هذا الأمريكيّ يتستّر على أحد أصدقائه؟!».

تبّاً لهم! فكّر توم، خطّ يد دكي تغيّر كثيراً، لقد رآه على بوليصة التأمين بين أوراقه، كما رآه يتغيّر أمام عينيه في مونجيبللو. فليَجْمعوا كلَّ ما وقّع عليه خلال الأشهر الثلاثة الماضية، وليكتشفوا أين سيقودهم ذلك! من الواضح أنّهم لم يلاحظوا أنّ التواقيع على الرسائل من باليرمو، مزوّرة بدورها!.

كلّ ما يهمّه الآن، هو: هل عثرت الشرطة حقّاً على أيّ دليل يدين دكي في قضيّة مقتل فريدي مايلز؟! لكنّ هذا لا يهمّه شخصيّاً في الحقيقة، إلّا بالكاد! اشترى مجلّتي «أوجي» و«إيبوكا» من كشك جرائد في إحدى زوايا سان ماركو، وهما مجلّتان أسبوعيّتان فضائحيّتان مصوَّرتان، تنشران كلّ شيءٍ بدءاً من الجرائم وانتهاءً بالاحتجاجات، وكلّ ما يستقطب الأنظار في أيّ مكان من إيطاليا، لكن لم يرد فيهما أيّ خبر عن دكي. ربّما في الأسبوع

القادم، فكّر، ولن تنشرا صور توم ريبلي بأيّ حال. مارج اعتادت على التقاط الصور لدكي في مونجيبللو، لكنّها لم تلتقط له ولو صورة واحدة!.

عندما تجوّل حول المدينة صباح ذلك اليوم، اشترى نظّارة ذات إطار سميك من متجر يبيع الدمى ومستلزمات ألعاب الخفّة، عدستاها من الزجاج العاديّ. بعد ذلك، زار كاتدرائيّة سان ماركو، وتفحّص كلّ ما في بداخلها دون أن يرى شيئاً في الواقع. المشكلة ليست بالنظّارة، كان منشغلاً بالتفكير بأنّ عليه أن يثبت وجوده للشرطة على الفور، الوضع سيسوء بالنسبة له كلّما ماطل. عندما خرج من الكاتدرائيّة، استعلم من شرطيّ ما عن أقرب مركز للشرطة. سأله بحزن، وشعر بأنّه حزين حقّاً -وليس خائفاً- تأكيدُ وجوده هنا كتوم ريبلي، سيسبّب له حزناً لم يشعر به أبداً من قبل!.

«أنت توماس ريبلي؟!» سأل قائد الشرطة دون اكتراث، وكأنّ توم كلب مفقود تمّ العثور عليه للتوّ. «هل لي أن أرى جواز سفرك؟»، أضاف.

سلّمه توم جواز السفر. «لا أعرف ما هي المشكلة، لكنّ عندما قرأتُ في الصحف أنّكم تحسبونني مفقوداً....»، قال. هذا مخيف، مخيف كما تخيّل تماماً! رجال الشرطة يقفون حوله، بوجوه خالية من التعابير، ويحدّقون إليه.

«ماذا يحصل؟!» وجّه توم السؤالَ للضابط.

«سأتّصل بروما» أجابه الضابط بهدوء، ورفع سمّاعة الهاتف الموجود أمامه. مرّت بضع دقائق إلى أن تمكّن من إجراء الاتّصال، وأخبر شخصاً ما بصوت حياديّ أنّ توماس ريبلي موجود هنا في ڤينيسيا. تبادل عبارات أخرى مع ذلك الشخص، من ثمّ وجّه كلامه إلى توم: «يريدون أن يقابلوك في روما. هل بوسعك الذهاب اليوم؟».

«لا أخطّط للذهاب إلى روما!»، ردّ توم عابساً.

«سأخبرهم بذلك»، قال الضابط بلطف، ثمّ تحدّث في الهاتف مجدّداً. إنّه يرتّب الأمور كي يأتي ضابط من روما للقائه هنا، فكّر توم، الجنسيّة الأمريكيّة توفّر له بعض الامتيازات.

«في أيّ فندق تنزل؟»، استعلم الضابط.

«في كونستانزا».

أبلغ الضابط روما بهذه المعلومة، من ثمّ أغلق الخطّ وقال لتوم بتهذيب

إنّ مندوباً من شرطة روما سيصل إلى ڤينيسيا بعد الساعة الثامنة مساء، كي يتحدّث إليه.

«شكراً لك» قال توم، واستدار تاركاً الضابط ضئيل الحجم يكتب في الإضبارة أمامه. لقد كان مشهداً مملاً للغاية!.

أمضى بقيّة النهار في غرفته وهو يفكّر بصمت، ويقرأ، ويضيف تعديلات صغيرة أخرى على مظهره. سيرسلون على الأرجح الشرطيَّ ذاته الذي قابله في روما، الملازم روڤاسيني أو أيّاً كان اسمه. استعمل قلم الرصاص كي يجعل لون حاجبيه أغمق قليلاً، واستلقى هنا وهناك دون أن يخلع جاكيت التويد البنيّ، من ثمّ انتزع زرّاً من أزراره. دكي كان أنيقاً بشكل عامّ، أمّا توم ريبلي فيجب أن يبدو على النقيض منه، رثّاً للغاية. لم يتناول غداءه، لم يشعر بالجوع أصلاً، وأراد أن يخسر الباوندات الإضافيّة التي اكتسبها منذ أن أخذ دور دكي غرينليف. قرّر أن يصبح أشدّ نحولاً ممّا كان عليه في السابق كتوم ريبلي، الوزن المدوّن على جواز سفره هو 155 باونداً، أمّا وزن دكي فكان 168 باونداً، لكن لهما القامة ذاتها: ستّ أقدام ونصف القدم.

رنّ الهاتف في الساعة الثامنة والنصف، وأبلغه عامل المقسم بأنّ الملازم روڤيريني موجود في الأسفل.

«هلّا طلبت منه الصعود لطفاً؟»، قال توم.

مشى صوب الكرسيّ الذي خطّط للجلوس عليه، وأزاحه بعيداً عن ضوء المصباح العمودي. لقد رتّب الغرفة بحيث توحي بأنّه كان يقرأ طيلة الساعات الماضية، لتزجية الوقت: المصباح العموديّ والمصباح المكتبيّ الصغير مضاءان، مفرش الطاولة غير مرتّب وفوقه كتابان مفتوحان مقلوبان، وعلى طاولة الكتابة توجد رسالة بدأها للتوّ، موجّهة إلى العمّة دوتي.

دقّ الملازم على الباب، ففتح توم بتكاسل قائلاً: «بوناسيرا».

«بوناسيرا، أنا الملازم روڤيريني من شرطة روما». وجه الملازم الودود المبتسم، لم يشِ إطلاقاً بالدهشة أو بالشكّ. وراءه، دخل شرطيّ آخر طويل صامت... ليس شرطيّاً آخر، أدرك توم، بل ذاك الذي جاء معه في المرّة الأولى إلى شقّته في روما.

جلس الضابط على الكرسيّ الذي قدّمه له توم، تحت الضوء. «هل أنت صديق لسنيور غرينليف؟»، سأل.

«أجل»، قال توم وهو يحتلّ الكرسيّ الآخر، كرسيّ ذو مسندين يتيح له أن يجلس بطريقة متراخية.

«أين رأيته آخر مرّة؟ ومتى؟».

«رأيته لفترة وجيزة في روما، قبل أن يغادر إلى صقليّة».

«هل وردك خبر منه عندما كان في صقليّة؟». الملازم يسجّل كلّ ما يسمعه، في دفتر أخرجه من محفظته الجلديّة.

«كلّا، لم نتواصل أبداً».

«آها» قال الملازم وهو ينظر إلى أوراقه، أكثر ممّا ينظر إلى توم. أخيراً، رفع رأسه، وبدا على وجهه تعبير ودودٌ مهتّم. «ألم تعرف بأنّنا أردنا رؤيتكَ عندما كنتَ في روما؟»، سأل.

«كلا، لا علم لي بذلك، ولا أعرف لماذا تقولون إنّني مفقود!». عدّل نظّارته فوق أنفه، وحدّق إلى الضابط.

«سأشرح لك لاحقاً. ألم يخبرك سنيور غرينليف في روما، بأنّنا نودّ أن نتكلّم معك؟».

«كلّا».

«هذا غريب!» علّق الملازم بصوت خافت، وهو يدوّن ملاحظة أخرى في دفتره. «سنيور غرينليف يعرف بأنّنا كنّا نريد مقابلتك. إنّه لا يتعاون كثيراً معنا»، وابتسم لتوم.

حافظ توم على ملامحه الجادّة المتيقّظة.

«سنيور ريبلي، أين كنتَ منذ نهاية شهر تشرين الثاني؟».

«أتجوّل هنا وهناك، تركّزت رحلاتي في شمالي إيطاليا». أجاب توم بإيطاليّة متلعثمة خرقاء، مرتكباً خطأً لغويّاً بين حين وآخر، وبإيقاع مختلف تماماً عن أسلوب دكي في الكلام.

«أين؟» سأل الضابط واستلّ قلمه مجدّداً.

«ميلانو، تورينو، فينزا، بيزا...».

«لقد استعلمنا من الفنادق، في ميلانو وفينزا على سبيل المثال... هل تنزل طيلة الوقت في بيوت أصدقائك؟».

«كلّا، أنا أنام غالباً في سيّارتي». من الواضح أنّه لا يملك الكثير من المال، فكّر توم، ومن الواضح أيضاً أنّه شابّ يفضّل أن يحيا حياة خشنة مع كتيّب سياحيّ ومجلّد لدانتي أو إغناسيو سيلوني، على أن ينزل في فندق فاخر!.

«أعتذر لأنّني لم أجدّد (أُذُنَ) الإقامة» قال توم متظاهراً بالندم، «لم أعرف بأنّ هذا ضروريّ». إنّه يعرف حقّ المعرفة بأنّ السيّاح في إيطاليا لا يكترثون إطلاقاً بتجديد أذونات الإقامة، بل يبقون لأشهر وأشهر في إيطاليا على الرغم من أنّهم يصرّحون عن نيّتهم بالإقامة فيها لبضعة أسابيع فقط عندما يدخلونها.

«إذن الإقامة!»، صحّح له الضابط بنبرة أبويّة لطيفة.

«شكراً».

«هل لي أن أرى جواز سفرك؟».

أخرجه توم من جيب جاكيته الداخليّ وناوله للضابط، الذي فحص الصورة بعناية. رسم توم على وجهه تعبيراً قلقاً نوعاً ما، وتباعدت شفتاه قليلاً كما في الصورة بالضبط. هذه الصورة تنقصها النظّارة، لكنّه فرق شعره بالطريقة ذاتها، وعقد ربطة عنقه بعقدة مثلّثة مائلة مماثلة. ألقى الضابط نظرة على تأشيرات الدخول القليلة، التي لا تملأ سوى صفحتين فقط من جواز السفر.

«أنت هنا في إيطاليا منذ الثاني من تشرين الأوّل، ما عدا رحلة قصيرة إلى فرنسا مع سنيور غرينليف».

«أجل».

ابتسم الملازم ابتسامة إيطاليّة جميلة الآن، وانحنى للأمام على ركبتيه. «حسناً، هذا يحلّ قضيّة مهمّة واحدة، وهي زورق سان ريمو».

عبس توم، وسأله: «ماذا تقصد؟».

«لقد عثروا هناك على زورق غارق، ملطّخ بما افترضوا أنّه آثار دماء.

بطبيعة الحال، فقدنا أثرك بعد أن عدتَ من سان ريمو مباشرة»، رفع الكابتن يديه للأعلى وضحك. «اعتقدنا بأنّه من الأفضل أن نسأل سنيور غرينليف عمّا جرى لك، وهو ما فعلناه. لقد اختفى الزورق في اليوم ذاته الذي زرتما فيه أنتما الاثنان سان ريمو»، وضحك مرّة أخرى.

تظاهر توم بأنّه لم يفهم النكتة. «لكن... ألم يخبركم سنيور غرينليف بأنّني ذهبتُ إلى مونجيبللو بعد أن عدنا من سان ريمو؟! لقد قمتُ بـ....» تظاهر بأنّه يبحث عن المفردة المناسبة، «لقد قمتُ ببعض المهمّات من أجله».

«حسناً» قال الكابتن مبتسماً. فكّ أزرار معطفه النحاسيّة واسترخى، ومرّر أصابعه جيئة وذهاباً على شاربه القاسي الكثّ. «هل كنت تعرف فريدريك ميلايز أيضاً؟»، سأل.

ترك توم تنهيدة تفلت منه، لأنّ قضيّة الزورق قد أقفِلَت أخيراً على ما يبدو. «كلّا، التقيتُ به مرّة واحدة فقط، وهو ينزل من الباص في مونجيبللو. لم أره بعد ذلك قطّ»، قال.

«آها!» قال الكابتن، ودوّن ما سمعه. صمت لعدّة دقائق، وكأنّ أسئلته انتهت، من ثمّ ابتسم. «آه، مونجيبللو! قرية جميلة، أليس كذلك؟ زوجتي تتحدّر منها».

«أجل، بالفعل»، قال توم بلطف.

«أجل. ذهبنا إليها أنا وزوجتي لقضاء شهر العسل».

«إنّها جميلة جدّاً»، قال توم. «شكراً لك»، أضاف وهو يقبل سيجارة نازيونالي من يد الضابط. شعر بأنّ ما يجري الآن هو فاصل مهذّب على الطريقة الإيطاليّة، استراحة بين شوطين. لا بدّ أن الضابط سيسأله عن حياة دكي الشخصيّة، وعن الإيصالات المزوّرة وما إلى هناك.

«لقد قرأتُ في الصحف أنّ سنيور غرينليف سيعدّ متورّطاً بمقتل فريدي مايلز، إن لم يظهر ويسلّم نفسه. هل هذا ما تعتقدونه حقّاً؟»، سأل توم بلغة إيطاليّة متعثّرة.

«آه، لا لا لا!» اعترض الملازم، «لكن من الضروريّ أن يظهر! لِمَ يختبئ منّا؟!».

«لا أعرف! كما تقول أنت، إنّه ليس متعاوناً كثيراً» علّق توم بأسى، «لم يكن متعاوناً أصلاً كي يخبرني في روما بأنكم تريدون مقابلتي، لكن في الوقت ذاته... لا أصدّق أنّه قتل فريدي مايلز!».

«ولكن... حسناً، أفاد رجل في روما بأنّه رأى رجلين يقفان بجانب سيّارة سنيور ميلايز، التي كانت مركونة مقابل منزل سنيور غرينليف، كلاهما ثملان... أو». سكت للحظة كي تترك كلماته وقعاً أكبر، ثمّ تابع وهو ينظر إلى توم: «أو لعلّ أحدهما ميت، لأنّ الآخر كان يسنده على السيّارة! بالطبع، لا نستطيع أن نجزم أنّ المسنود على السيّارة هو سنيور غرينليف أم سنيور ميلايز! لكن لو عثرنا على سنيور غرينليف، بوسعنا أن نسأله إن كان ثملاً إلى حدّ أنّ سنيور ميلايز اضطرّ إلى سنده!». ضحك، ثمّ أضاف: «إنّها مسألة جديّة للغاية!».

«أجل، فهمتُ ذلك».

«ألا تعرف أين يمكن أن يكون سنيور غرينليف في هذه اللحظة؟».

«كلّا، إطلاقاً».

«هل تعرف إن تشاجر سنيور غرينليف وسنيور ميلايز يومها؟»، تساءل الضابط.

«كلّا، ولكن...».

«ولكن ماذا؟!».

قال توم ببطء مقصود: «أعرف أن دكي لم يذهب إلى حفلة للتزلّج، دعاه إليها فريدي مايلز. أتذكّر أنّه فاجأني بعدم ذهابه، لكنّه لم يخبرني عن السبب».

«أعرف، حفلة التزلّج تلك، في كورتينا دامبيزو. هل أنت متأكّد من أنّ المسألة لا تتعلّق بامرأة؟!».

كاد إحساس توم بالفكاهة أن يغلبه، لكنّه تظاهر بأنّه يفكّر مليّاً بما سمعه، وقال أخيراً: «لا أظنّ ذلك».

«ماذا عن تلك الفتاة، مارغوري شيرود؟».

«هذا محتمل» قال توم، «لكن لا أعتقد ذلك. أنا لست مؤهّلاً للإجابة عن أسئلتكم حول حياة سنيور غرينليف الشخصيّة».

«ألم يخبرك سنيور غرينليف بهموم قلبه؟!»، سأل الملازم بدهشة.

بوسعه أن يتلاعب بالشرطة إلى ما لانهاية حول هذه النقطة، فكّر توم. مارج ستؤكّد القصّة، بسبب الانفعال العاطفيّ الذي سيشوب ردودها على أسئلة الشرطة عن دكي، ولا يمكن للبوليس الإيطاليّ بأيّ حال أن يسبروا أغوار علاقات سنيور غرينليف العاطفيّة... توم نفسه لم يستطع ذلك!.

«كلّا» قال، «لم يحدّثني دكي فعلياً عن معظم جوانب حياته العاطفيّة... لكنّني أعرف أنّه شديد الولع بمارغوري». صمت، ثمّ أضاف: «كما أنّها تعرف فريدي مايلز».

«ما طبيعة العلاقة بينهما؟».

«حسناً!» أجاب توم بنبرة توحي بأنّه قد يقول المزيد، لو أراد ذلك.

انحنى الملازم للأمام، قائلاً: «بما أنّك أقمتَ لبعض الوقت مع سنيور غرينليف في مونجيبللو، لعلّك تستطيع إخبارنا عن علاقاته عموماً. هذا يهمّنا جدّاً».

«لماذا لا تتحدّثون مع سنيورا شيرود؟»، اقترح توم.

«لقد تحدّثنا معها في روما قبل اختفاء سنيور غرينليف، وسأتحدّث معها مجدّداً ما أن تعود إلى هنا كي تركب السفينة إلى أمريكا. خطّطتُ لمقابلتها مجدّداً... إنّها في ميونخ حاليّاً».

صمت توم مترقباً. الملازم ينتظر منه أن يعلّق بشيء ما، وشعر بأنّه مرتاح تماماً الآن. الأمور ستجري كما تمنّى في أشدّ لحظاته تفاؤلاً: لا تملك الشرطة دليلاً ضدّه أيّاً كان، ولا تشتبه به على الإطلاق! شعر فجأة بأنّه بريء وقويّ وخالٍ من الذنب، تماماً كحقيبته العتيقة التي قشّر عنها لصاقة مستودع الأمتعة في فندق باليرمو. بطريقة توم ريبلي، الحذرة، المتحمّسة، أضاف: «أتذكّر أنّ مارغوري قالت ذات مرّة في مونجيبللو بأنّها لن تذهب إلى كورتينا، من ثمّ غيّرت رأيها لاحقاً لسبب أجهله. إن كان لهذا مغزى...».

«لكنّها لم تذهب إلى كورتينا قطّ!».

«كلّا، لكن فقط لأنّ سنيور غرينليف لم يذهب كما أعتقد. على الأقل، سنيورا شيرود معجبة به كثيراً، إلى حدّ أنّها لن تذهب في رحلة بمفردها ما لم يرافقها».

«هل تظنّ أنّهما تشاجرا؟ أقصد سنيور غرينليف وسنيور ميلايز، بسبب سنيورا شيرود؟».

«لا يسعني أن أجزم، هذا ممكن، أعرف أنّ سنيور مايلز كان مولعاً بها أيضاً».

«آها». عبس الملازم وهو يحاول تحليل كلّ ما سمعه، ثمّ ألقى نظرة على الشرطيّ الشابّ الذي يصغي إلى الحديث باهتمام، على الرغم من أنّ وجهه الجامد يوحي بأنّه لا يملك ما يضيفه.

فكّر توم بأنّ كلامه سيرسم صورة دكي كعاشق يائس، لم يسمح لمارج بالذهاب إلى كورتينا كي تحظى ببعض المرح هناك، لأنّها مولعة بفريدي مايلز. ابتسم لمجرّد التفكير بأنّ شخصاً ما أيّاً كان –خاصّة مارج– يفضّل ذلك الثور الأحول على دكي، لكنّه موّه تلك الابتسامة، فبدَت أشبه بتعبير عن عدم فهمه لما يسمعه. «هل تظنّون فعلاً أنّ دكي يهرب من شيء ما؟ أم أنّ اختفاءه هو مجرّد صدفة؟»، سأل.

«أوه، كلّا، هناك الكثير. أوّلاً، هناك قصّة الشيكات، لعلك قرأت عنها في الصحف».

«أنا لا أفهم مسألة الشيكات تلك عموماً».

شرح له الملازم المسألة. إنّه يعرف تواريخ الشيكات، وعدد الأشخاص الذين يحسبون الإيصالات مزوّرة، وقال إنّ سنيور غرينليف أنكر حدوث تزوير. «لكن عندما طلب البنك قدومه كي يتحقّق من توقيعه، وعندما طلبته شرطة روما لاستجوابه مجدّداً بشأن مقتل صديقه، اختفى فجأة!» طوّح الملازم ذراعيه في الهواء، «هذا يعني أنّه يهرب منّا».

«ألا تظنّون أنّ شخصاً ما قد قتله؟»، سأل توم بلطف.

هزّ الملازم كتفيه، وأبقاهما مرفوعتَين لوهلة. «لا أعتقد ذلك، الوقائع بين أيدينا لا تشير إلى هذا الاحتمال، ليس تماماً، حسناً. لقد تحقّقنا عبر اللّاسلكيّ من كلّ المراكب التي تقلّ مسافرين إلى خارج إيطاليا، على اختلاف أحجامها. إمّا أنّه غادر بزورق صغير، أو أنّه ما يزال مختبئاً في إيطاليا، أو في أيّ مكان آخر من أوروبا بلا شكّ... عادة، نحن لا نسجّل

أسماء من يغادرون البلاد، وربّما يكون سنيور غرينليف قد رحل منذ عدّة أيّام. بأيّ حال، إنّه يختبئ، ويتصرّف كمذنب أيضاً. ثمّة مشكلة ما».

حدّق توم إليه بأسى:

«هل رأيتَ سنيور غرينليف يوقّع يوماً على أيّ من تلك الإيصالات؟ خاصّة في شهري كانون الثاني وشباط؟».

«رأيته يوقّع أحدها» قال توم، «أخشى أنّ ذلك كان في شهر كانون الأوّل. لم أكن برفقته في كانون الثاني ولا في شباط». «هل تعتقدون فعلاً أنّه قتل سنيور مايلز؟!»، سأل وكأنّه لا يصدّق الكلمات التي يقولها.

«لا يملك حجّة غياب مقنعة» ردّ الملازم، «قال إنّه خرج كي يتمشّى بعد أن غادر سنيور ميلايز، لكن لم يره أحد آنذاك». أشهر سبابته في وجه توم فجأة، «كما علمنا من سنيور ڤان هيوستن -صديق السنيور ميلايز- بأنّ سنيور ميلايز عانى صعوبة بإيجاد سنيور غرينليف في روما، وكأنّ هذا الأخير يختبئ منه فعلاً. برأي سنيور ڤان هيوستن، قد يكون سنيور غرينليف غاضباً من سنيور ميلايز، لكنّ العكس غير وارد».

«فهمتُ»، قال توم.

«هكذا!» قال الملازم بطريقة قاطعة وهو يحدّق إلى يدي توم... أم لعلّ توم يتخيّل ذلك؟! لقد وضع خاتمه الشخصيّ في إصبعه مجدّداً، لكن... هل لاحظ الملازم تشابهاً؟! دفع توم يده بشجاعة إلى منفضة السجائر، وأطفأ سيجارته.

«بأي حال» قال الملازم وهو ينهض، «شكراً جزيلاً لك على مساعدتنا سنيور ريبلي. أنت أحد القلائل الذين يقدّمون لنا معلومات عن حياة سنيور غرينليف الشخصيّة، معارفه في مونجيبللو يلتزمون بالصمت... خصلة إيطاليّة للأسف! تعرف، يخشون البوليس!» وقهقه، «أتمنّى أن أتمكّن من التواصل معك بسهولة أكبر، في المرّة القادمة التي أضطرّ فيها لطرح بضعة أسئلة عليك. اقضِ وقتاً أطول في المدن، وأقلّ في الريف... إلّا إن كنتَ مدمناً على أريافنا بالطبع!».

«أنا كذلك!» هتف توم بصدق، «برأيي، إيطاليا هي أجمل بلد أوروبيّ.

بوسعي أن أبقى على تواصل معك في روما إن شئتَ، بحيث تعرف دائماً أين أنا. يهمّني العثور على صديقي، مثلك تماماً». قال ذلك، وكأنّ عقله البريء نسي لتوّه احتمال أن يكون صديقه هذا مجرماً.

أعطاه الملازم بطاقة تحمل اسمه، وعنوان مقرّه في روما، ثمّ انحنى شاكراً: «جزيل الشكر سنيور ريبلي، بوناسيرا».

«بوناسيرا»، ردّ توم.

حيّاه الشرطي الشابّ وهو يخرج، فردّ توم التحيّة بإيماءة من رأسه، ثمّ أغلق الباب.

كاد يطير كالعصفور من النافذة، فارداً ذراعيه! الأحمقان! يلفّان ويدوران حول الأمر، ولا يفهمانه إطلاقاً! لم يحزرا أبداً أنّ دكي يتهرّب من الاستجواب حول التزوير، لأنّه ليس دكي في المقام الأوّل! النقطة الوحيدة التي ناقشاها ببعض الذكاء، كانت شكّهما بأنّ دكي غرينيلف قتل فريدي مايلز، لكن دكي غرينيلف ميت، ميت، ميت كمسمار، أمّا هو توم ريبلي... فآمنٌ!.

التقط سمّاعة الهاتف. «هلّا تصلني بغراند هوتل من فضلك؟»، قال بالإيطاليّة بأسلوب توم ريبلي، «المطعمُ من فضلك... هل لك أن تحجز لي طاولة لشخص واحد، في التاسعة والنصف؟ شكراً لك. باسم ريبلي... ر ي ب ل ي».

سيتناول عشاءً فاخراً الليلة، سيتأمّل غراند كانال في ضوء القمر، ويتفرّج على الجندولات تنساب بتكاسل كما انسابت دائماً منذ الأزل كي تنقل كلّ من يحتفلون بشهر العسل، ويتأمّل الجندوليّين ومجاذيفهم الأشبه بخيالات سوداء فوق الماء، الذي يضيئه القمر. شعر فجأة بالجوع الشديد، سيتناول وليمة شهيّة باذخة، أيّاً كان الطبق المميّز في فندق غراند هوتل، سواء صدر التدرج أو صدر الدجاج، وربّما يبدأ بالكانيلوني مع صلصة الكريمة فوق الباستا الرفيعة، وكأس من نبيذ ڤالبوليسِلا الفاخر، يحتسيها وهو يحلم بمستقبله ويخطّط إلى أين سينطلق من هنا.

خطرت له فكرة لامعة وهو يبدّل ثيابه: بين متاعه، لا بدّ أن يكون بحوزته مغلّفٌ كُتِبَ عليه أنّه لا يجوز فتحه إلّا بعد بضعة أشهر قادمة. بداخله، وصيّة وقّعها دكي، يهبه فيها كلّ نقوده ومداخيله الشهريّة. حسناً، يا لها من فكرة!.

-23-

ڤينيسيا،

28 شباط، 19—

عزيزي مستر غرينليف،

في ظلّ الظروف الراهنة، لا بدّ لي من إبلاغك بأيّة معلومات شخصيّة تتعلّق بريتشارد، خاصّة أنّني أحد آخر الذين التقوا به على ما يبدو.

لقد رأيته في روما حوالي الثاني من شباط، في فندق إنجلترا، بعد يومين أو ثلاثة فقط من وفاة فريدي مايلز كما تعلم. وجدتُه متوتّراً ومنزعجاً، وقال لي إنّه سيغادر إلى باليرمو بمجرّد أن تنتهي الشرطة من التحقيق معه حول مقتل صديقه. بدا لي متلهّفاً للابتعاد، وهو أمر مفهوم بلا شكّ، لكنّني أردتُ إخبارك بأنّ الاكتئاب الذي غمر دكي آنذاك كما شعرتُ، أقلقني أكثر من توتّره الظاهريّ. انتابني إحساس بأنّه سيُقدِم على أمر ما عنيف، وربّما يؤذي نفسه، فضلاً عن أنّه لم يرغب برؤية صديقته مارغوري شرود إطلاقاً، قائلاً إنّه سيحاول أن يتفاداها إن جاءت من مونجيبللو إلى روما لرؤيته بسبب ما حدث. حاولتُ أن أقنعه بالعكس، ولا أعرف إن التقى بها أم لا. مارج تمارس تأثيراً مهدِّئاً على من حولها، ربّما تعلم ذلك.

ما أحاول قوله هو: لقد شعرتُ بأنّ ريتشارد قد يُقدِم على قتل نفسه. حتّى توقيت كتابة هذه الرسالة، لم يعثر البوليس عليه بعد، وآمل بكلّ تأكيد أن يجدوه قبل أن تصلك رسالتي. لا داعي للقول إنّني واثق تماماً ألّا علاقة لريتشارد بمقتل فريدي مايلز، سواء بطريقة مباشرة أم غير مباشرة. أظنّ بأنّ الصدمة والاستجواب الذي خضع له، زعزعا توازنه. هذه الرسالة التي أجد نفسي مضطرّاً لكتابتها لك الآن، هي رسالة كئيبة تجعلني أشعر بالندم، وربّما

لا لزوم لها إطلاقاً... لعلّ دكي يختبئ ببساطة إلى أن تنتهي هذه المسألة المزعجة (وهذا مفهوم قياساً إلى طبعه)، لكنني بدأتُ أشعر بعدم الارتياح مع مرور الوقت، وأظنّ أنّه من واجبي أن أكتب لك هذا، فقط كي أحيطك علماً بالمسألة.

ميونخ،

آذار، 19—

عزيزي توم،

شكراً لرسالتك. كان هذا لطفاً منك. لقد أجبتُ خطيّاً على أسئلة البوليس، وجاء محقّق إلى هنا خصّيصاً كي يراني. شكراً على الدعوة التي وجّهتها لي، لكنّني لن أمرّ بڤينيسيا في طريق العودة. سأذهب إلى روما بعد غد، كي ألتقي بوالد دكي الذي سيأتي بالطائرة. أجل، أتّفق معك بأنّ قيامك بكتابة رسالة له كان فكرة جيّدة.

صدمني كلّ ما حصل! مرضتُ بما يشبه الحمّى المالطيّة، أو بما يطلق عليه الألمان foehn، لكن مع ڤيروس ما مرافق. عجزتُ عن النهوض من السرير طيلة أربعة أيّام كاملة، وإلّا لعدتُ إلى روما في موعد أبكر. لذلك من فضلك، لا تغضب من هذه الرسالة المفكّكة، أو المليئة بالهلوسات ربّما، والتي لا تتعدّى ردّاً رديئاً على رسالتك اللطيفة. أنا لا أشاطرك رأيكَ بأنّ دكي قد أقدم على الانتحار، دكي ليس من هذا النمط... أنا أعرف ما ستقوله، ستقول بأنّ المنتحرين لا يُظهِرون إطلاقاً علامات تَشي بما سيفعلونه... إلخ. كلّ الاحتمالات واردة بالنسبة لدكي، لكن ليس الانتحار! ربّما قُتِل في أحد أزقّة نابولي المظلمة، أو في روما، فمن يعلم هل عاد إلى روما بعد أن غادر صقليّة، أم لا؟! أتخيّل أيضاً بأنّه تخلّف عن التزاماته، إلى درجة أجبرته على الاختباء هرباً منها الآن، أعتقد أنّ هذا هو ما يفعله بالضبط.

أنا سعيدة لأنّك تظنّ أنّ مسألة التزوير هي خطأ، أقصد خطأ من قبل البنك، كما أوافقك الرأي بأنّ دكي تغيّر كثيراً منذ شهر تشرين الثاني، وربّما تبدّل خطّ يده أيضاً. لنأمل أنّ شيئاً ما قد يطرأ، عندما تستلم هذه الرسالة!.

لقد تلقيّتُ برقيّة من مستر غرينليف بشأن روما، يجب أن أوفّر طاقتي للقائه.

لطيف أن أعرف عنوانك أخيراً! شكراً مرّة أخرى على رسالتك ونصيحتك ودعوتك.

أطيب الأمنيات،

مارج

ملاحظة: لم أبلغك بأخباري الجيّدة! هناك ناشرٌ مهتمّ بكتابي «مونجيبللو»، وقال إنّه يريد الاطلاع عليه كلّه، قبل أن يوقّع معي عقداً، لكنّ الأمور تبدو واعدة! لو أنّني أستطيع فقط إنهاء هذا الكتاب اللعين!.

لقد قرّرت أن تتصالح معه، فكّر توم، ولربّما تحدّثت عنه بطريقة إيجابيّة للبوليس أيضاً!.

اختفاء دكي يثير ضجّة كبرى في الصحف الإيطاليّة، كما أنّ المراسلين حصلوا على صور فوتوغرافيّة له، ربّما من مارج أو غيرها. نشرت مجلّة إيبوكا صوراً له وهو يبحر بزورقه في مونجيبللو، ونشرت مجلّة أوجي صوره جالساً على الشاطئ هناك، وكذلك في تراس فندق جورجيو، فضلاً عن صورة له مع فريدي ومارج («عشيقة كلٍّ من دكي المختفي، وفريدي المغدور» كما وصفتها الصحف) وهما مبتسمان يتعانقان، فضلاً عن صورة رسميّة لهربرت غرينليف الأب. أخذ توم عنوان مارج في ميونخ، من الصحف. مجلّة أوجي نشرت قصّة حياة دكي غرينليف على مدى أسبوعين، فوصفته بالـ «متمرّد» خلال سنوات الدراسة، ونسجت قصّة عن حياته الاجتماعيّة في أمريكا وقدومه إلى أوروبا كي يمارس فنّه، بطريقة تحوّل معها في نهاية المطاف إلى مزيج من إرول فلين[1]، وبول غوغان. تنشر هاتان المجلّتان الأسبوعيّتان المصوّرتان باستمرار آخر تقارير الشرطة، إلّا أنّها تقارير عديمة القيمة عمليّاً، تختلط بالنظريّات التي يرغب كتّاب المقالات بتأليفها في كلّ عدد منهما.

1- Eroll Flynn (1909–1959) ممثّل أمريكيّ الجنسيّة أستراليّ الأصل، اشتهر بوسامته وأداء الأدوار الرومانسيّة في أفلام هوليوود. المترجمة.

نظريّتهم المفضّلة حاليّاً، هي أنّ دكي فرّ مع فتاة أخرى، يجوز أنّها من توقّع على الإيصالات، وهما يقضيان وقتاً رائعاً معاً، مختبئَين في تاهيتي أو أمريكا الجنوبيّة أو مكسيكو. ما زالت الشرطة تبحث عنه في روما ونابولي وباريس، وهذا كلّ شيء. لم تظهر أدلّة، سواء بما يتعلّق بمقتل فريدي مايلز، أو عن مشاهدة دكي غرينليف وهو يحمل فريدي أمام منزله، أو على العكس: فريدي الذي يحمل دكي. تساءل توم لماذا تحجب الشرطة هذه المعلومة عن الصحف، ربّما لأنّها تخشى أن تتورّط بقضية قدح وتشهير أمام دكي!.

كان ممتنّاً للصحافة التي وصفته بـ «صديق مخلص» لدكي المفقود، تطوّع من تلقاء نفسه بالإدلاء بكلّ ما يعرفه عن شخصيّة دكي وعاداته، وصدمه اختفاؤه تماماً كسواه من الناس. «سنيور ريبلي، أحد السيّاح الأمريكيّين الميسورين الشباب في إيطاليا»، كتبت مجلّة أوجي، «يعيش الآن في قصر يطلّ على ساحة سان ماركو في ڤينيسيا»، وهو وصفٌ أدخل سعادة قصوى على قلب توم، فقصّه واحتفظ به.

لم يفكّر من قبل بمنزله هنا على أنّه «قصر»، لكن بالطبع، هذا ما يصف به الإيطاليّون أيّ منزل كلاسيكيّ من طابقين، عمره أكثر من مئتي عام، وله مدخل رئيسيّ على الغراند كانال لا يمكن الوصول إليه إلّا بالجندول، أمامه درجات حجريّة عريضة تغوص في الماء، وله أبواب رئيسيّة حديديّة يبلغ طول مفاتيحها ثمانية إنشات، ومن خلفها أبواب عاديّة تُفتَح أيضاً بمفاتيح عملاقة. توم يستعمل عادة «الباب الخلفيّ» غير الرسميّ، الذي يُفضي إلى حارة سان سبيريديوني، إلّا عندما يرغب بإبهار ضيوفه وإحضارهم بالجندول إلى منزله. يبلغ ارتفاع الباب الخلفيّ أربع عشرة قدماً –تماماً كارتفاع السور الحجريّ الذي يحيط بالمنزل، ويفصله عن الشارع– وينفتح على حديقة مهملة نوعاً ما لكنّها خضراء، فيها شجرتا زيتون مليئتان بالعقد، وتمثال عتيق يجسّد صبيّاً سميناً يحمل طبقاً واسعاً ضحلاً، يُعَدّ حوض استحمام للطيور. إنّها الحديقة التي تليق بقصر ڤينيسيّ متداعٍ قليلاً، يلزمه ترميم لن يتمّ إطلاقاً، لأنّه ظهر إلى الوجود بكلّ بهائه قبل قرنين من الزمن. المنزل من الداخل، يشبه تماماً ما يتصوّره توم عن المنزل المثاليّ لعازب متحضّر، على الأقلّ في ڤينيسيا: أرضيّة الطابق السفليّ مبلّطة برخام أبيض وأسود، كلوحة شطرنج

تمتدّ من المدخل الرئيسيّ إلى كلّ الغرف، أرضيّة الطابق العلويّ من الرخام الأبيض والورديّ، أمّا الأثاث فلا يشبه الأثاث إطلاقاً، وإنّما موسيقا من القرن السادس عشر تُعزَف على الهوبوي[1] والناي والڤيولا. لديه خادمان أيضاً، آنا وأوغو، وهما زوجان إيطاليّان شابّان، عملا من قبل في خدمة أمريكيّين قطنوا في ڤينيسيا. بالتالي، يعرفان الفرق بين شراب البلودي ماري وبين الفرابيه بالنعناع والكريمة، ويلمّعان واجهات الخزائن والأدراج والكراسي إلى أن تبدو حيّة بأضواء خافتة شهوانيّة، تتمايل كلّما اقترب المرء منها. الشيء الوحيد الذي يحمل طابعاً عصريّاً نوعاً ما في المنزل، كان الحمّام. غرفة نوم توم تضمّ سريراً عملاقاً، عريض أكثر من كونه طويلاً، وتزيّنها سلسلة من الصور البانوراميّة لمدينة نابولي ما بين عامي 1540–1880، عثر عليها في متجر للأنتيكات. لقد كرّس اهتماماً مطلقاً لتزيين المنزل طيلة ما ينوف على الأسبوع، وهناك نوع من الثقة في ذائقته الآن، لم يشعر به من قبل في روما، ولم توحِ به شقّته هناك بتاتاً. إنّه واثق من نفسه على كلّ الأصعدة حاليّاً.

ألهمته تلك الثقة بالنفس أن يكتب رسالة إلى العمّة دوتي، بنبرة هادئة عاطفيّة متسامحة لم يرغب بأن يستخدمها من قبل، أو لم يكن قادراً على استعمالها. استعلم عن صحّتها الحديديّة، وعن دائرة أصدقائها الخبيثين الضيّقة في بوسطن، ثمّ شرح لها لماذا أحبّ أوروبا، ولماذا ينوي أن يعيش فيها حاليّاً. شرح كلّ ذلك بفصاحة بالغة، نالت استحسانه إلى حدّ أنّه نسخ هذا المقطع على ورقة مستقلّة، خبّأها في درج مكتبه. لقد كتب هذه الرسالة ذات صباح بعد الفطور، جالساً في غرفة نومه بالروب الحريريّ الذي فصّله عند خيّاط في ڤينيسيا، محدّقاً بين حين وآخر من النافذة إلى غراند كانال، وبرج الساعة في ساحة سان ماركو على الجهة الأخرى من القناة. بعد أن انتهى، أعدّ المزيد من القهوة، ثمّ استخدم الآلة الكاتبة المحمولة موديل هرمز بيبي الخاصّة بدكي، لطباعة الوصيّة التي يهبه فيها هذا الأخير مدخوله الشهريّ وأرصدته في البنوك المختلفة، ووقّعها باسم هربرت ريتشارد غرينليف الابن. من الأفضل ألّا يضيف شاهداً على هذه الوصيّة، فكّر، فقد تعترض

1- آلة نفخيّة قديمة، تشبه الأوبو. المترجمة.

عليها البنوك أو مستر غرينليف، وتطالبه باسم هذا الشاهد. فكّر باختلاق اسم رجل إيطاليّ، شخص ما سيقول إنّ دكي دعاه إلى شقتّه في روما كي يضطلع بدور الشاهد، من ثمّ قرّر أنّ يجازف بإبراز وصيّة دون شهود. الآلة الكاتبة بحالة يرثى لها، وتترك على الأوراق علامات مميّزة للغاية كأنّها كتابة بخطّ اليد، فضلاً عن أنّ المستندات الخطيّة لا يلزمها شهود كما سمع من قبل. تمرّن لمدّة نصف ساعة على تقليد توقيع دكي، أرخى يديه أخيراً، من ثمّ وقّع على ورقة مسودّة، وبعدها على الوصيّة بتعاقب سريع... إنّه توقيع مثاليّ، يشبه تماماً توقيع دكي النحيل المتشابك على جواز السفر، وتوم يتحدّى أيّاً كان أن يثبت التزوير! وضع مغلّفاً على أسطوانة الآلة الكاتبة، طبع عليه «إلى من يهمّه الأمر» ثمّ أضاف ملاحظة بأنّه لا يجوز فتحه قبل شهر حزيران من هذا العام. دسّ الوصيّة في جيب جانبيّ من حقيبته، كأنّها كانت هنا منذ فترة طويلة، ولم يكترث بإخراجها من مكانها عندما انتقل إلى المنزل. بعد ذلك، وضع الهرمز بيبي في حقيبتها، نزل للطابق السفليّ ثمّ رماها في مدخل القناة الصغير الذي يمتدّ من الزاوية الأماميّة للمنزل إلى جدار الحديقة، ولا تعبره الزوارق لأنّه ضيّق للغاية. أسعده التخلّص من الهرمز بيبي الآن، على الرغم من أنّه لم يكن مستعدّاً للافتراق عنها من قبل، لقد أدرك بطريقة غير واعية على ما يبدو، بأنّه سيستخدمها يوماً ما لكتابة الوصيّة أو رسالة فائقة الأهميّة، لذلك احتفظ بها كلّ هذه المدّة، فكّر.

تابع توم الصحف الإيطاليّة وكذلك طبعة باريس من هيرالد تريبيون حول قضيّتي غرينليف ومايلز، وقرأها قلقاً متوتّراً كما يليق بصديق لكلٍّ منهما. مع نهاية شهر آذار، اقترحت الصحف بأنّ دكي مات غالباً، قتله الرجل أو الرجال أنفسهم الذين زوّروا توقيعه. قالت إحدى صحف روما نقلاً عن خبير من نابولي بأنّ رسالة باليرمو -تلك التي أرسلها مستر غرينليف نافياً حدوث تزوير- هي مزوّرة بدورها، بينما خالفتها الصحف الأخرى الرأي. أحد رجال الشرطة -ليس الملازم روفيريني- يعتقد أنّ الجاني أو الجناة تجمعهم «علاقة حميمة» بدكي غرينليف، لذلك تمكّنوا من الاطلاع على رسالة البنك، كما امتلكوا ما يكفي من الوقاحة كي يردّوا عليها بأنفسهم. «اللغز لا يتعلّق فقط بمن هو المزوِّر» اقتبست الصحيفة عن الشرطيّ، «بل كيف استطاع الوصول

إلى رسالة البنك، لأنّ موظّف الفندق في باليرمو يتذكّر بأنّه وضع البريد المسجَّل بين يدي غرينليف شخصيّاً، ويتذكّر أيضاً بأنّه كان دائماً بمفرده». المزيد والمزيد من اللفّ والدوران حول الإجابة، من دون تحديدها بدقّة! مع ذلك، صُعِق توم بضع دقائق عندما قرأ الخبر. تفصلهم عن الإجابة خطوة واحدة فقط... ألن يخطوها أحدهم اليوم، أو غداً، أو بعد غد؟! لعلّهم يعرفون الإجابة حقّاً، لكنّهم يحاولون إلقاء القبض عليه متلبّساً. الملازم روڤيريني شخصيّاً يرسل إليه رسائل بين حين وآخر، كي يبقيه مطّلعاً على مجريات البحث عن دكي، لكنّهم سينقضّون عليه قريباً، مسلّحين بكلّ ما يحتاجونه من أدلّة!.

تنامى شعوره بأنّه مُلاحَق، خاصّة عندما يمشي في الأزقّة الطويلة الضيّقة التي تقود إلى باب منزله. زقاق سان سبيريديوني هو عمليّاً مجرّد شقّ بين جدران المنازل الشاهقة، لا توجد فيه دكاكين، وبالكاد يتسرّب إليه ضوء خافت ينيره. تتوالى فيه واجهات المنازل الإيطاليّة الصمّاء المتلاصقة، والأبواب العالية الموصدة بإحكام التي تتماهى مع الجدران. لا مكان يهرب إليه إن تعرّض إلى هجوم، ولا باب سيُفتَح له كي يلجأ إلى أيّ منزل. لا يعرف توم من سيهاجمه، وليس بالضرورة أن يكون أحد رجال الشرطة. خاف من الأشياء عديمة الشكل، عديمة الأسماء، التي تترصّد دماغه كالعفاريت، ولم يستطع أن يمشي في سان سبيريديوني مرتاحاً إلّا إن احتسى بضعة كؤوس من الكوكتيل كي يتغلّب على خوفه، وعندها يسير متمايلاً وهو يصفر.

توم انتقائيّ بالنسبة لحفلات الكوكتيل التي يرتادها، لم يذهب إلّا إلى اثنتين منها فقط في الأسبوعين التاليّين لانتقاله إلى المنزل الجديد. إنّه يختار أشخاصاً محدّدين كي يشرب كأساً بصحبتهم، بسبب تلك الحادثة الصغيرة التي وقعت في أوّل يوم انطلق فيه للبحث عن منزل في ڤينيسيا. الوكيل العقاريّ، مسلّحاً بثلاثة مفاتيح ضخمة، أخذه لرؤية منزل في أبرشيّة سان ستفانو ظنّاً منه أنّ المنزل خالٍ، لكنّ المنزل كان مسكوناً ويستضيف حفلة كوكتيل أيضاً. أصرّت المضيفة على دعوة توم والوكيل العقاريّ لاحتساء كأس، كتعويض عن العناء الذي تكبّداه بقدومها إلى هنا، وعن إهمالها أيضاً: سبق لها أن عرضت المنزل للإيجار قبل شهر، من ثمّ غيّرت رأيها وقرّرت

أن تبقى مقيمة فيه، لكنّها تقاعست عن إبلاغ الشركة العقاريّة بذلك. قبل توم دعوتها، احتسى عدّة كؤوس، ولعب دور الشابّ المتحفّظ اللبق، وقابل ضيوفها جميعهم. بالحكم على طريقة ترحيبهم به، وكيف عرضوا عليه مساعدة لإيجاد منزل، استنتج بأنّهم من سكّان ڤينيسيا القدامى، المتعطّشين لوجوه جديدة. لقد ميّزوا اسمه بالطبع، وارتفعت أسهمه الاجتماعيّة إلى درجة فاجأته هو شخصيّاً، لمجرّد أنّه يعرف دكي غرينليف! من الواضح أنّ هؤلاء الناس سيَدْعونَه إلى كلّ مكان، وسيستجوبونه، وسيعصرونه عصراً لاستخلاص أدقّ التفاصيل، كي يبهِّروا حياتهم الباهتة. تصرّف توم بأسلوب متحفّظ لكنّه ودود، يليق بمَن في مكانته: رجل شابّ حسّاس، غير معتاد على الشهرة الصاخبة، وشعوره الأساسيّ تجاه دكي هو القلق على مصيره. غادر تلك الحفلة بعد أن زوّده الضيوف بعناوين ثلاثة منازل معروضة للإيجار، كي يلقي عليها نظرة (أحدها هو هذا المنزل الذي يقيم فيه الآن)، بالإضافة إلى دعوة لحضور حفلتي كوكتيل، اختار منهما تلك التي استضافتها سيّدة تحمل لقباً نبيلاً: الكونتيسة روبيرتا (تيتي) ديلا لاتا - كاسياغيرا. مزاجه لا يستسيغ الحفلات نهائيّاً في الوقت الراهن، وبدا له أنّه يرى الناس عبر الضباب، ويتواصل معهم ببطء وصعوبة، وكثيراً ما طلب منهم ترديد ما قالوه. على الرغم من شعوره بملل رهيب، لكن لا مانع من استغلال هؤلاء الأشخاص كي يتمرّن، فالأسئلة الساذجة التي يسألونها: «هل شرب دكي كثيراً من الكحول؟»، «لقد وقع في حبّ مارج، أليس كذلك؟»، «أين تعتقد أنّه يختبئ؟»... إلخ، كانت تمريناً جيّداً على الأسئلة الأدقّ التي لا بدّ أن يطرحها عليه مستر غرينليف عندما يراه مجدّداً. بدأ يشعر بعدم الارتياح بعد حوالي عشرة أيّام من تلقّيه رسالة مارج، لأنّ مستر غرينليف لم يتّصل به ولم يرسل إليه رسالة من روما. في أسوأ لحظات خوفه، تخيّل البوليس يخبرون مستر غرينليف بأنّهم يلعبون لعبة مع توم ريبلي، ويطلبون من مستر غرينليف عدم التواصل معه.

فتّش صندوق بريده بحماس كلّ يوم، بحثاً عن رسالة من مارج أو مستر غرينليف. منزله جاهز لاستقبالهما، والردود على أسئلتهما حاضرة في رأسه. هذا أشبه بانتظار لا ينتهي كي يبدأ الاستعراض، كي ترتفع الستارة!

لعلّ مستر غرينليف ممتعض منه، وربّما يشكّ بأمره، لذلك يتجاهله نهائيّاً. لعلّ مارج تحرّضه على ذلك أيضاً! بأيّ حال، لا يمكنه أن ينطلق برحلته، قبل أن يحدث شيء ما... تلك الرحلة العظيمة إلى اليونان بانتظاره! سبق له أن اشترى دليلاً سياحيّاً، وخطّط لمساره بين الجزر اليونانيّة.

أخيراً، في صبيحة الثاني من نيسان، تلقّى اتّصالاً هاتفيّاً من مارج. إنّها في ڤينيسيا، في محطّة القطار.

«سآتي كي أقلّك» قال توم بابتهاج، «هل أتى مستر غرينليف برفقتك؟».

«كلّا، ما يزال في روما. أنا بمفردي. لستَ مضطرّاً للقدوم لاصطحابي، معي حقيبة صغيرة فقط».

«هراء!» قال توم مستميتاً كي يفعل شيئاً، أيّ شي. «لن تعثري على العنوان بمفردك»، أضاف.

«بلى، يمكنني ذلك. منزلك يقع بجانب ديلا سالوتي، أليس كذلك؟ سأركب زورقاً ذا محرّك إلى ساحة سان ماركو، من ثمّ سأركب الجندول».

إنّها تعرف الطريق، فكّر توم، لا بأس. «حسناً، إن كنتِ مصرّة على ذلك!»، قال. فكّر بأنّ من الأفضل إلقاء نظرة أخيرة على المنزل، قبل أن تصل. «هل تناولتِ الغداء؟»، سألها.

«كلّا».

«جيّد. سنتغدّى معاً في مكان ما. انتبهي عندما تركبين الزورق ذا المحرّك»، قال، ثمّ أغلقا الخطّ.

تمشّى ببطء وانتباه في أرجاء المنزل، في الغرفتين الكبيرتين في الطابق العلويّ، من ثمّ في الطابق السفليّ، وفي الصالون... لا شيء، لا شيء تعود ملكيّته لدكي هنا. تمنّى ألّا يبدو المنزل فارهاً للغاية في عينيّ مارج، هناك علبة سجائر فضيّة اشتراها ونقش الأحرف الأولى من اسمه عليها قبل يومين فقط، موضوعة فوق طاولة الصالون. أخذها، وخبّأها في الدرج السفليّ لخزانة غرفة السفرة.

وجد آنا في المطبخ، تحضّر الغداء.

«آنا، لدينا ضيف على الغداء اليوم» قال توم، «سيّدة شابّة».

ابتسمت آنا عند سماعها ذلك. «سيّدة أمريكيّة شابّة؟»، سألت.

«أجل، صديقة قديمة. بعد أن تجهّزي الغداء، يمكنكما الذهاب أنت وأوغو، بوسعنا أن نتدبّر أمرنا».

«حسناً»، أجابت آنا.

آنا وأوغو يعملان هنا من العاشرة صباحاً، إلى الثانية ظهراً عادة. لم يشأ توم أن يبقيا هنا وهو يتحدّث مع مارج. إنّهما يتكلّمان القليل من الإنجليزيّة ولن يفهما محادثة كاملة، لكنّهما سيتنصّتان بكامل انتباههما بلا شكّ عندما سيتحدّث هو ومارج عن دكي، وهذا سيزعجه.

حضّر المارتيني، ورتّب الكؤوس والمقبّلات على صينيّة في الصالون. عندما قُرِع الباب، ذهب وفتحه على مصراعيه.

«مارج! تسرّني رؤيتك! ادخلي»، وأخذ الحقيبة من يدها.

«كيف حالك توم؟ يا إلهي! هل كلّ هذا لك؟!». نظرت حولها، من ثمّ نظرت للأعلى، وتأمّلت السقف العالي المزخرف.

«استأجرته بمبلغ زهيد» قال بتواضع، «تعالي كي نحتسي كأساً. أخبريني، ما هو جديدك؟ هل تحدّثت مع شرطة روما؟». حمل معطفها الشتويّ، وأخذ المعطف المطريّ الشفّاف من يدها، ثمّ وضعهما كليهما على كرسيّ.

«أجل، وتحدّثتُ إلى مستر غرينليف أيضاً. إنّه منزعج جدّاً بطبيعة الحال»، أجابت وهي تجلس على الكنبة.

جلس توم على كرسيّ مواجه لها، ثمّ سأل: «هل من أخبار جديدة حوله؟ يبقيني أحد ضبّاط الشرطة على اطلاع بما يحصل، لكنّه لا يخبرني إطلاقاً بأيّ شيء مفيد».

«حسناً، اكتشفوا أن دكي صرف ما تزيد قيمته على ألف دولار من شيكات المسافرين، قبل أن يغادر باليرمو... قبل أن يغادرها مباشرة. بالتالي، لا بدّ أنّه سافر إلى مكان ما بكلّ هذا المال، ربّما إلى اليونان، أو إفريقيا... من المستحيل أن ينتحر بعد أن يضع ألف دولار في جيبه بأيّ حال».

«بالطبع لا!» وافقها توم الرأي، «حسناً، هذا مشجّع، لكنّني لم أقرأ عنه في الصحف!».

«لا أعتقد أنّهم نشروا الخبر».

«كلّا، إنّهم لا ينشرون سوى التفاهات، عمّا اعتاد دكي على تناوله في مونجيبللو على الفطور!»، قال توم وهو يسكب المارتيني.

«أليس هذا رهيباً؟! الوضع أفضل قليلاً الآن... كان مستوى ما تكتبه الصحف عن دكي في الحضيض، عندما وصل مستر غرينليف إلى روما! أوه، شكراً»، أخذت كأس المارتيني من يده بامتنان.

«كيف حاله؟».

هزّت مارج رأسها، «يُرثى له! يصرّ على أنّ الشرطة الأمريكيّة أكثر كفاءة، وما إلى هنالك، ويتذمّر لأنّه لا يعرف أيّ إيطاليّ... وهو ما يجعل الأمور أسوأ بكثير»، قالت.

«ماذا يفعل في روما؟».

«ينتظر! ماذا بوسع أيّ منّا أن يفعل؟! لقد أجلّتُ سفري مرّة أخرى، وذهبتُ أنا ومستر غرينليف إلى مونجيبللو، وسألتُ الجميع هناك عن دكي، كي يسمع هو بأذنيه في المقام الأوّل... لكن عبثاً! لم يخبرونا بأيّ شيء، دكي لم يعد إلى هناك منذ أن غادر في تشرين الثاني».

«كلّا». ارتشف توم المارتيني، وهو يفكّر بحرص. مارج متفائلة، بوسعه أن يتلمّس ذلك، وتنبض الآن بذلك الابتهاج الحيويّ المعتاد، الذي يذكّره بفتيات الكشّافة، بتلك النظرة التي تشغل الكثير من المساحة، باحتمال أن تُسقِط شيئاً ما أرضاً بحركة مجنونة، بالصحّة المتدهورة والفوضى المبهمة... أحسّ فجأة بأنّها مزعجة للغاية، لكنّه قرّر الاستمرار بلعبته، فنهض كي يربّت على كتفها، ثمّ طبع قبلة صغيرة حنوناً على خدّها. «لعلّه الآن في طنجة أو سواها، يحيا حياة الرفاهية ريثما تهدأ الأمور»، قال.

«حسناً، هذا استهتار لعين، إن صحّ قولك!»، أجابت مارج ضاحكة.

«لم أقصد أبداً أن أفزعكما عندما ذكرتُ اكتئابه... شعرتُ فقط بأنّ من واجبي إبلاغكما بذلك، أنت ومستر غرينليف».

«أفهمك. أجل، أظنّ أنّك فعلت الصواب بإخبارنا.. لكنّني لا أعتقد أنّه مكتئب!». ابتسمت ابتسامتها العريضة تلك، والتمعت عيناها بتفاؤل بدا لتوم جنوناً خالصاً.

طرح عليها أسئلة لبقة عمليّة، عن رأيها بالبوليس في روما، عن الأدلّة التي عثروا عليها (لا شيء يستحقّ الذكر)، عمّا سمعته عن قضيّة مايلز... لا جديد حول هذه المسألة أيضاً، لكنّها تعرف أنّ دكي وفريدي شوهدا أمام شقّة دكي حوالي الثامنة مساءً، وتظنّها قصّة مبالغاً بها.

«ربّما كان فريدي ثملاً، ربّما كان دكي يلفّ ذراعه على كتفه فقط لا غير... كيف لأيّ شخص أن يكون واثقاً تماماً ممّا رآه آنذاك في العتمة؟! لا ينقصنا إلّا ادّعاؤهم بأنّ دكي قتله!».

«هل يمتلكون أدلّة قاطعة، أيّاً كانت، تجعلهم يعتقدون ذلك؟!».

«بالطبع لا!».

«إذن... لماذا لا ينطلق أولئك الأوغاد للبحث عمّن قتل فريدي فعلاً؟! وعن مكان دكي؟!».

«تماماً!» قالت مارج بنبرة قاطعة، «بأيّ حال، البوليس متأكّدون من أمر واحد على الأقلّ، وهو أنّ دكي عاد من باليرمو إلى نابولي. أحد مضيفي السفينة يتذكّر أنّه حمل حقائبه من الكابينة، إلى رصيف ميناء نابولي».

«حقّاً؟!» قال توم، وتذكّر المضيف: شابّ صغير أخرق، أوقع الحقيبة القماشيّة عندما حاول أن يحملها تحت ذراعه. «هل قُتِل فريدي بعد ساعات من مغادرته شقّة دكي؟!، سألها فجأة.

«كلّا، لم يتمكّن الأطبّاء من تحديد توقيت الوفاة بدقّة، ودكي لا يملك حجّة غياب مقنعة... لأنّه كان بمفرده بالطبع. إنّه حظّه العاثر مجدّداً!».

«ولكن... لا يظنّون حقّاً أن دكي قتله، أليس كذلك؟».

«لم يقولوا هذا، لا... لكنّهم يقيّمون هذا الاحتمال. لا يمكنهم الإدلاء بتصريحات متسرّعة يميناً وشمالاً عن مواطن أمريكيّ، ومن ناحية أخرى، لا يوجد مشتبه بهم، فضلاً عن اختفاء دكي... المشرفة على المبنى في روما،

قالت بأنّ فريدي عاد إليها بعد أن صعد إلى شقّة دكي، كي يسألها عمّن يعيش هناك، أو شيئاً ما من هذا القبيل، وقالت بأنّ فريدي بدا غاضباً كأنّه تشاجر مع دكي. قالت أيضاً إنّه سألها هل يعيش دكي بمفرده، أم لا».

«أتساءل لماذا؟!»، علّق توم عابساً.

«لا أعرف، فريدي لا يتكلّم اللغة الإيطاليّة بطلاقة، ولعلّ المشرفة لم تفهم ما قاله. بأيّ حال، إن كان فريدي غاضباً من دكي لسبب ما، فهذا لا يصبّ في مصلحة دكي أبداً».

رفع توم حاجبيه، وقال: «كنتُ لأقول إنّه لا يصبّ في مصلحة فريدي! لعلّ دكي لم يكن غاضباً إطلاقاً». شعر بأنّه هادئ تماماً، بعد أن تيقّن أنّ مارج لا تشتبه بشيء.

«لن أقلق حول هذه النقطة، ما لم ينبثق عنها دليل قاطع. إنّها عديمة الأهميّة برأيي» أضاف، وملأ كأسها من جديد. «على ذكر إفريقيا، هل بحثوا عنه في طنجة؟! لطالما تحدّث عن رغبته بزيارتها»، سأل.

«أعتقد أنّهم أبلغوا الشرطة في كلّ مكان. لِم لا يطلبون من البوليس الفرنسيّ القدوم إلى هنا، كي يتولّوا المسألة؟ الفرنسيّون بارعون للغاية في القضايا المماثلة.. بلا شكّ، هذا مستحيل بطبيعة الحال، إنّها إيطاليا!»، وارتجف صوتها متوتّراً للمرّة الأولى.

«ما رأيك أن نتغدّى هنا؟» قال توم، «يجدر بنا أن نغتنم الفرصة، لأنّ الخادمة تبقى في المنزل خلال موعد الغداء»، قال بمجرّد أن دخلت آنا إلى الغرفة كي تبلغهما أنّ الغداء جهز.

«رائع!» هتفت مارج، «إنّها تمطر قليلاً بأيّ حال».

« الغداء جاهز، سنيور»، قالت آنا مبتسمة وهي تحدّق إلى مارج. لا بدّ أنّها ميّزتها من صورها المنشورة في الصحف، لاحظ توم. «بوسعكما الذهاب أنت وأوغو يا آنا إن أردتما، شكراً لكِ»، قال.

عادت آنا إلى المطبخ، حيث يوجد باب ينفتح على زقاق صغير بجانب المنزل يستعمله الخدم عادة. سمعها توم تشغّل ماكينة تحضير القهوة، بانتظار أن تقتنص لمحة أخرى بلا شكّ.

«أوغو؟! لديك خادمان إذن؟!».

«أوه، الخدم هم أزواج عادة هنا. قد لا تصدّقينني، لكنّني استأجرتُ هذا المكان لقاء خمسين دولاراً في الشهر، من دون احتساب تكاليف التدفئة».

«مستحيل! هذا يعادل عمليّاً إيجارات المنازل في مونجيبللو!».

«صحيح. الدفء رائع بلا شكّ، لكنّني لن أدفّئ الغرف كلّها، بل غرفة نومي فقط!».

«المنزل مريح جدّاً، أليس كذلك؟».

«أوه، لقد شغّلتُ المرجل بأقصى طاقته خصّيصاً من أجلك»، قال توم مبتسماً.

«ماذا حصل؟! هل ماتت إحدى عمّاتك وتركت لك ثروة؟!» سألته مارج، متظاهرة بأنّها ما تزال مندهشة.

«كلّا. لقد اتّخذتُ قراري، سأستمتع بنقودي حتّى آخر قرش. لقد أخبرتك بأنّني لم أحصل على تلك الوظيفة في روما، وها أنا ذا في أوروبا، لا أحمل في جيبي سوى ألفي دولار أمريكيّ. قرّرتُ أن أستمتع إلى أن تنفد نقودي كلّها، وعندها سأعود مفلساً إلى الوطن، وأبدأ من جديد!». سبق له أن شرح لها في رسالته، بأنّ الوظيفة التي تقدّم إليها في روما كانت تسويق السمّاعات الطبيّة في أوروبا لصالح شركة أمريكيّة، لكنّه لم يكن أهلاً لها، ولم يحظَ بإعجاب الرجل الذي أجرى معه المقابلة. أخبرها بأنّ الرجل جاء مباشرة بعد أن تكلّما هاتفيّاً يومها، ولذلك لم يتمكّن من لقائها في حانة آنجيلو كما وعدها.

«على هذا المنوال، لن تكفيك ألفا دولار طويلاً».

أدرك توم أنّها تريد معرفة ما إذا أعطاه دكي نقوداً، أم لا. «ستكفيني إلى الصيف»، قال بلا مبالاة، «بأيّ حال، أشعر بأنّني أستحقّ هذه الرفاهية، لقد أمضيتُ معظم الشتاء بالتجوال حول إيطاليا كالغجر، مفلساً عمليّاً... اكتفيتُ من ذلك».

«أين كنت؟».

«حسناً، ليس مع توم... أقصد ليس مع دكي!» قال ضاحكاً، وغضب بينه

وبين نفسه من زلّة لسانه. «أنت تعتقدين أنّني كنتُ بصحبته طيلة الوقت، لكنّني لم ألتقِ بدكي أكثر ممّا التقيتِه أنت»، أضاف.

«أوه، هيّا!» قالت ولعابها يسيل، بدت له وكأنّها تلحس شرابها.

مزج توم المزيد من المارتيني في الإبريق. «باستثناء تلك الرحلة إلى مدينة كان، واليومين اللذين أمضيتُهما في روما بداية شباط، لم أرَ دكي إطلاقاً»، قال. كلامه ليس دقيقاً تماماً، فقد كتب لها في الرسالة أنّه بقي مع دكي عدّة أيّام بعد عودتهما من رحلة كان، لكنّه شعر بالخزي الآن وهو يجلس معها وجهاً إلى وجه، لأنّها تعرف -أو تعتقد- بأنّه أمضى وقتاً طويلاً مع دكي، وبأنّه ودكي قد يكونان مذنبَين حقّاً بالقيام بما اتّهمتْ به دكي في رسالتها. عضّ على لسانه وهو يسكب كأسين، ولعن نفسه على جبنه.

خلال الغداء، ندم توم كثيراً على اختيار الطبق الرئيسيّ: لحم البقر المشويّ البارد، لأنّ مكوّناته باهظة الثمن إلى درجة خرافيّة في السوق الإيطاليّة. استجوبته مارج عن حالة دكي النفسيّة عندما كانا في روما، بدقّة بزّت رجال الشرطة جميعهم. أجبرته على الحديث عن الأيّام العشرة التي قضاها معه في روما بعد رحلة كان، وسألته عن كلّ التفاصيل، بدءاً من دي ماسيمو -الرسّام الذي تدرّب عنده- وانتهاءً بشهيّة دكي، وموعد استيقاظه صباحاً.

«ما هو شعوره نحوي باعتقادك؟! أخبرني بصراحة، يمكنّني تقبّل الأمر».

«أظنّ أنّه كان قلقاً عليك» أجاب توم بحماس، «أظن... حسناً، إنّها إحدى الحالات الشائعة، رجلٌ يرتعب من فكرة الزواج... هذا أوّلاً».

«لكنّني لم أطلب منه أبداً أن يتزوّجني!»، احتجّت مارج.

«أعرف، ولكن...». أجبر توم نفسه على الاستمرار، مع أنّ للمسألة طعم الخلّ في فمه. «لنقل إنّه لم يستطع تحمّل مسؤوليّة تلك العلاقة، لأنّك أحببته كثيراً. أعتقد أنّه أراد علاقة عاديّة معك». هذا يقول كلّ شيء، ولا شيء في آن واحد.

حدّقت إليه مارج بطريقتها القديمة التائهة لوهلة، من ثمّ استجمعت نفسها بشجاعة وقالت: «حسناً، إنّها قصّة قديمة بأيّ حال. كلّ ما يهمّني حاليّاً، هو معرفة ماذا فعل دكي بنفسه».

غضبها من تواجده بمفرده مع دكي طيلة الشتاء، هو مسألة قديمة أيضاً على ما يبدو، فكّر توم، لأنها لم ترغب بتصديقها في المقام الأوّل، ولم تعد مضطرة إلى التفكير فيها حالياً. «ألم يكتب لك رسالة عندما كان في باليرمو؟»، سألها بحرص.

هزّت مارج رأسها نافية، «كلّا، لماذا؟».

«أريد أن أعرف انطباعك عن مزاجه آنذاك. هل كتبتِ له؟».

«أجل، في الواقع لقد فعلتُ»، أجابت متردّدة.

«ماذا كتبتِ له؟ برأيي، أيّة رسالة ذات نبرة غير ودودة، كانت ستؤثّر عليه سلباً آنذاك».

«آه، يصعب عليّ أن أقول كيف كانت... إنّها ودودة بما يكفي، كما أظنّ. قلتُ له إنّني سأعود إلى الولايات المتّحدة»، أجابت وهي تنظر إليه بعينين مفتوحتين على اتّساعهما.

استمتع توم بالنظر إلى وجهها، استمتع برؤية شخص آخر يتلوّى وهو يكذب. الرسالة التي تقصدها هي تلك القذرة، التي قالت فيها بأنّها أبلغت الشرطة كيف يقضي دكي وتوم أوقاتهما دائماً معاً. «لا أعتقد أنّها مهمّة إذن!»، قال بلطف وعذوبة، واتكأ بظهره على مسند الكرسيّ.

صمتا بضع لحظات، ثمّ سألها عن كتابها، ومن هو الناشر، ومتى ستنهيه، فأجابته مارج بحماس على أسئلته كلّها. تخيّل أنّها ستنفجر من السعادة، لو عاد دكي إليها ونُشرِ كتابُها بحلول الصيف القادم. ستنتفخ كفقاعة، ثمّ تنفجر بصوت عالٍ جميل، هكذا ستكون نهايتها.

«هل يجدر بي أن أبادر بالحديث مع مستر غرينليف؟» سألها، «يسرّني أن أذهب للقائه في روما». لن يسرّه ذلك كثيراً بالطبع، فكّر، فقد رآه العديدون هناك وتعاملوا معه على أنّه دكي غرينليف. «أتعتقدين أنّه يودّ القدوم إلى ڤينيسيا؟ بوسعي استضافته هنا. أين يقيم في روما؟»، سأل.

«يقيم عند صديق أمريكيّ لديه شقّة كبيرة... شخص ما اسمه نورثاب، في ڤيا كواترو نوڤمبري. لطفٌ منك أن تتّصل به، سأدوّن لك العنوان».

«فكرة جيّدة! إنّه لا يحبّني، أليس كذلك؟».

ابتسمت مارج ابتسامة صغيرة، «حسناً، بصراحة... لا! أعتقد أنّ رأيه بك مجحف نوعاً ما، يظنّ أنّك ابتززتَ دكي»، قالت.

«حسناً، لم أفعل ذلك. آسف لأنّني لم أنجح بإقناع دكي بالعودة إلى الوطن، لكنّني شرحتُ هذا له، كما كتبتُ له بألطف طريقة ممكنة عندما علمتُ باختفائه. ألم يحسّن هذا ظنّ مستر غرينليف بي؟».

«بلى على ما أعتقد، ولكن... أوه! آسفة جدّاً توم! أوه، فوق مفرش الطاولة الرائع هذا!» لقد دلقتْ كأس المارتيني فوق المفرش المطرّز، وها هي الخرقاء تحاول تجفيفه بالفوطة!.

ذهب توم راكضاً إلى المطبخ، وجلب خرقة مبلّلة. «لا بأس، لا بأس» قال وهو ينظر إلى خشب المائدة الذي ابيّضَ مباشرة، على الرغم من أنّه جفّفه. لا يأبه إطلاقاً بالمفرش، بل بالمائدة الجميلة!.

«أنا آسفة للغاية!»، كرّرت مارج.

شعر بأنّه يكرهها. تذكّر فجأة سوتيانها المنشور على إفريز النافذة في مونجيبللو... لا بدّ من أنّها ستنشر ملابسها الداخليّة على كراسيه، لو دعاها للمكوث هنا الليلة! أثارت هذه الفكرة اشمئزازه، لكنّه رسم ابتسامة قسريّة على وجهه.

«آمل بأنّك ستسبغين عليّ شرف قبولك بسرير هنا الليلة... ليس سريري بالطبع!» قال ضاحكاً، «لديّ غرفتان في الطابق العلويّ، أنتِ على الرحب والسعة إن رغبتِ باستعمال إحداهما».

«شكراً جزيلاً لك، سأبقى، حسناً»، أجابت مبتسمة.

أعطاها توم غرفة نومه، لأنّ السرير في الغرفة الثانية هو مجرّد كنبة ضخمة، ليست مريحة كسريره المزدوج. دخلت مارج إليها، وأغلقت الباب خلفها كي تحظى بقيلولة صغيرة بعد الغداء. تمشّى توم قلقاً في أرجاء المنزل، متسائلاً عمّا إذا كان هناك شيء ما في غرفته ينبغي إخفاؤه. جواز سفره مخبّأ في بطانة الحقيبة الموضوعة بداخل الخزانة الآن، أمّا جواز سفر دكي فموجود مع بقيّة أغراضه في عهدة الأمريكان إكسبريس في ڤينيسيا. لم يتذكّر وجود أيّ شيء يدينه في الغرفة، فحاول أن يبعد ذهنه عن التفكير بمخاوفه.

لاحقاً، أخذ مارج في جولة على أرجاء المنزل. أراها رفَّ الكتب ذات الأغلفة الجلديّة الفاخرة في الغرفة المجاورة لغرفة نومه، وقال لها إنّها كانت موجودة أصلاً في المنزل. في الحقيقة، الكتب كلّها له، اشتراها بنفسه من روما وباليرمو وڤينيسيا. تذكّر أنّ عشرة منها كانت موجودة في شقّته في روما، وأنّ الشرطي الشابّ الذي جاء بصحبة الملازم روڤيريني انحنى عليها كي يتفحّصها عن كثب. لا داعي للقلق، فكّر، حتّى ولو جاء الشرطيّ نفسه مرّة أخرى. أخذ مارج بعد ذلك كي تتفرّج على المدخل الأماميّ للمنزل، ودرجاته الحجريّة العريضة. لقد انحسر المدّ الآن، وانكشفت أربع درجات، العلويّتان منها مكسوّتان بطحالب كثيفة خضراء زلقة، أشبه بخيوط طويلة، تتدلّى عن الحوافّ كأنّها شَعرٌ أشعث داكن الخضرة. الدرجات مقزّزة برأي توم، لكنّها رومانسيّة للغاية برأي مارج، التي انحنت عليها وحدّقت إلى ماء القناة العميق. شعر برغبة في دفعها إلى الماء.

«هل يمكننا أن نركب الجندول، ونعود عبر هذا المدخل ليلاً؟»، سألته.

«آه، بالطبع!».

سيخرجان لتناول العشاء الليلة، وتوم يخشى الأمسية الإيطاليّة الطويلة التي تنتظرهما، لأنّهما لن يبدآ بتناول الطعام قبل الساعة العاشرة، ومارج سترغب بعد ذلك حتماً بالجلوس في ساحة سان ماركو لاحتساء الإكسبريسو، حتّى الساعة الثانية بعد منتصف الليل.

نظر إلى سماء ڤينيسيا الضبابيّة الغائمة، وتأمّل نورساً يهبط كي يحطّ على درجات منزل آخر عبر القناة. فكّر بمن يتّصل بين أصدقائه الجدد هنا، كي يصطحب مارج لاحتساء كأس في الخامسة عصراً. سيفرح أصدقاؤه جميعهم بلقائها بلا شكّ! قرّر أخيراً أن يتّصل بالإنجليزيّ بيتر سميث - كنغزلي، وهو رجل لديه سجّادة أفغانيّة، وبيانو، وبار مشروبات ممتاز. بيتر هو المضيف الأمثل، فكّر توم، لأنّه يتشبّث بضيوفه ولا يسمح لهم بالمغادرة. بوسعه أن يبقى هو ومارج في منزل بيتر، إلى أن يحين موعد العشاء.

-24-

حوالي الساعة السابعة مساءً، اتّصل توم هاتفيّاً بمستر غرينليف من منزل بيتر سميث - كنغزلي. بدا مستر غرينليف له ودوداً أكثر ممّا توقّع، ومتعطّشاً على نحو مثير للشفقة لنتف المعلومات التي يرميها له عن دكي. بيتر، ومارج، والأخوان فرانشيتي (أخوان وسيمان من تريسته، التقى بهما توم قبل فترة وجيزة) كانوا جالسين في الغرفة المجاورة، ويستطيعون أن يسمعوا كلّ كلمة سيقولها. بالتالي، تصرّف توم على أكمل وجه، وأفضل بكثير ممّا لو اتّصل وحيداً، فكّر.

«لقد أخبرتُ مارج بكلّ ما أعرفه» قال توم، «بوسعها أن تساعدكَ إن نسيتُ شيئاً ما. يؤسفني أنّني لا أستطيع أن أعطي البوليس معلومة مفيدة، ينطلقون منها».

«رجال الشرطة أولئك!» قال مستر غرينليف بخشونة، «بدأتُ أعتقد أنّ دكي قد مات. لسبب ما أو لآخر، الإيطاليّون لا يريدون الاعتراف بذلك، إنّهم يتصرّفون كهواة، أو كسيّدات عجائز يلعبن لعبة المحقّق والمجرم».

صراحة مستر غرينليف حول احتمال موت ابنه، صعقت توم. «هل تظنّ بأنّ دكي قد انتحر، مستر غرينليف؟»، سأل بصوت خافت.

تنهّد مستر غرينليف، وأجاب: «لا أعرف، أظنّ أنّ هذا محتمل، أجل. أعرف أنّ ابني ليس متوازناً يا توم».

«أخشى بأنّني أوافقك الرأي» قال توم، «هل تريد أن تتكلّم مع مارج؟ إنّها في الغرفة المجاورة».

«كلّا، كلّا، شكراً. متى ستعود؟».

«غداً كما قالت. إن رغبتَ بالقدوم إلى ڤينيسيا، ولو في استراحة قصيرة مستر غرينليف، أنت على الرحب والسعة في منزلي».

رفض مستر غرينليف الدعوة. المبالغة ليست ضروريّة، أدرك توم، إنّه يدعو المشاكل للقدوم إليه عملياً، دون أن يتمكّن من كبح نفسه. شكره مستر غرينليف على اتّصاله، وتمنّى له ليلة سعيدة بمنتهى اللباقة.

عاد توم إلى الغرفة التي يجلس فيها الباقون. «لا أخبار جديدة من روما!»، أعلن بأسى للحضور.

«أوه!» قال بيتر، وقد خاب أمله.

«تفضّل بيتر، هذه تكلفة الاتّصال الهاتفيّ» قال توم، ووضع اثني عشر ألف ليرة إيطاليّة فوق البيانو.

«شكراً لك».

«لديّ فكرة!» قال بييترو فرانشيتي باللغة الإنجليزيّة وبلكنة بريطانيّة واضحة، «دكي غرينليف بدّل جواز سفره بهويّة صيّاد نابوليتانيّ أو بائع سجائر متجوّل في روما، كي يحيا الحياة الهادئة التي لطالما تمنّاها. الرجل الذي يستخدم جواز سفر دكي حاليّاً، ليس بارعاً بالتزوير كما يحسب نفسه، واضطرّ للاختفاء فجأة. يجدر بالشرطة أن تقبض على ذاك الذي يعجز عن إبراز بطاقة الهويّة الأصليّة، وأن تكتشف من هو، من ثمّ تبحث عن الآخر الذي ينتحل اسمه... سيتّضح أنّه دكي غرينليف في نهاية المطاف!».

ضحكوا جميعهم، خاصّة توم الذي قهقه بأعلى صوته.

«المشكلة هنا» قال توم، «هي أنّ العديد من الأشخاص الذين يعرفون دكي، رأوه خلال شهري كانون الثاني وشباط...».

«مَن رآه؟!» قاطعه بييترو بعدائيّة الإيطاليّين المعتادة المزعجة، وسط هذه المحادثة التي تزعج توم أكثر لأنّها تدور باللغة الإنجليزيّة.

«حسناً، أنا مثلاً. بأيّ حال، كنتُ سأقول إن التزوير بدأ منذ شهر كانون الأوّل، وفق ما قاله البنك...»، قال توم.

«مع ذلك، إنّها فكرة جيّدة!» قالت مارج التي تحسّن مزاجها بعد كأس الشراب الثالثة، وهي تتمدّد على كرسي الشيزلونغ الخاصّ ببيتر. «إنّها فكرة تتماشى مع طريقة تفكير دكي، ولعلّه نفّذها مباشرة بعد أن عاد من باليرمو،

عندما واجه مشكلة التزوير مع البنك إضافة لبقيّة مشاكله... لا أصدّق قصّة التزوير تلك إطلاقاً، أظنّ أنّ دكي تغيّر كثيراً، إلى حدّ أن خطّ يده تغيّر أيضاً»، تابعت.

«أعتقد هذا أيضاً!» قال توم، «بأيّ حال، البنكان لا يتّفقان على أنّ الإيصالات كلّها مزوّرة... حتّى الخبراء الأمريكيّون مختلفون حول ذلك، وبنك نابولي يسير على هواهم. لم يكن ليلاحظ التزوير أصلاً، لو لم تبلّغه الولايات المتّحدة بذلك».

«أتساءل ماذا كتبت الصحف الآن؟» قال بيتر بإشراق وهو ينتعل حذاءه الأشبه بالخفّ. لقد أخرج قدميه منه قبل قليل، لأنّهما تؤلمانه على الأرجح. «هل أخرج لشرائها؟»، أضاف.

تطوّع لورنزو فرانشيتي بالذهاب، واندفع خارجاً من الغرفة. إنّه يلبس معطفاً قصيراً مطرّزاً ورديّ اللون إنجليزيّ الصنع، وبزّة إنجليزيّة أيضاً، وحذاءً إنجليزيّاً ذا كعب متين. بالمثل، ملابس أخوه بييترو تتبع الطراز ذاته أيضاً، أمّا بيتر فيرتدي ثياباً مصنوعة في إيطاليا من رأسه حتّى أخمص قدميه. لقد لاحظ توم من قبل أنّ من يرتدون الملابس الإنجليزيّة هم إيطاليّون، ومن يرتدون الملابس الإيطاليّة هم إنجليز عادة، سواء في المسرح أو في الحفلات.

وصل أشخاص آخرون مباشرة بعد أن عاد لورنزو بصحيفتَين إيطاليّتين واثنتين أمريكيّتين، تقاسموها فيما بينهم. المزيد من النقاش، المزيد من التخمينات الغبيّة، والكثير من الحماس لأخبار اليوم: تمّ بيع منزل دكي غرينليف في مونجيبللو إلى مشترٍ أمريكيّ، لقاء ضعف السعر الأصليّ الذي طلبه، وسيتحفّظ بنك نابولي على المبلغ إلى أن يطالب به مستر دكي غرينليف.

الصحيفة ذاتها نشرت كاريكاتيراً لرجل جاثٍ على ركبتيه، يبحث عن شيء ما تحت طاولة مكتبه. تسأله زوجته: «هل أضعت زرّ ياقتك؟»، فيجيبها: «كلّا، أنا أبحث عن دكي غرينليف». سبق لتوم أن سمع أيضاً أنّ قاعات المسارح في روما، بدأت بدورها بالبحث عن دكي غرينليف بين من يرتادون المسرحيّات الهزليّة.

أحد الأمريكيّين الذين وصلوا للتوّ، اسمه رودي شيء ما، دعا توم ومارج إلى حفلة كوكتيل في فندقه في اليوم التالي. حاول توم أن يرفض، لكنّ مارج قالت إنّها ستلبّي الدعوة بكلّ سرور. لم يخطر ببال توم أنّها ستبقى هنا، فقد ذكرت شيئاً ما عن المغادرة غداً وهما يتناولان الغداء. حفلة الكوكتيل تلك ستكون قاتلة، فكّر، رودي رجل صاخب، جلف، يرتدي ثياباً فاقعة الألوان، ويدّعي أنّه يعمل بتجارة الأنتيكات. تمكّن توم أخيراً من التملّص، وجرّ مارج كي يغادرا قبل أن تتسنّى لها الفرصة لقبول دعوات أخرى تعني بقاءها لفترة أطول.

مزاج مارج الأرعن، أزعج توم طيلة العشاء الذي تضمّن خمسة أطباق، لكنّه بذل مجهوداً جبّاراً وعاملها بلطف، كأنّه ضفدع لا حول له ولا قوّة، يرتعّش قسراً كلّما سرى فيه تيّار كهربائيّ من إبرة مغروزة بجسمه، فكّر. تجاوب معها، وتحمّس لكلّ ما قالته. قال أموراً من قبيل «لعلّ دكي وجد ضالّته فجأة في الرسم، ورحل بعيداً مثل غوغان إلى إحدى جزر البحر الجنوبيّ»، وهو ما سبّب له الغثيان. نسجت مارج فانتازيات عن دكي، وجزر البحر الجنوبيّ، وأومأت إيماءات كسلى بيديها. الأسوأ ما يزال بانتظاره، فكّر، رحلة العودة تلك بالجندول! كم يتمنّى لو تقضم سمكة قرش يدَي مارج هاتين، لو مدّتهما في الماء. طلب تحلية، على الرغم من أنّه لم يعد قادراً على تناول المزيد من الطعام، فالتهمتها مارج كلّها.

أرادت مارج أن يركبا الجندول بمفردهما بالطبع، وليس في أحد مراكب خدمة النقل المائيّة التي تقلّ عشرة ركّاب معاً، من ساحة سان ماركو إلى درجات كنيسة سانتا ماريّا ديلا سالوتي. استأجرا جندولاً خاصّاً، في الساعة الواحدة والنصف بعد منتصف الليل. أحسّ توم بمذاق بنيّ مسودّ في فمه، بسبب فناجين الإكسبريسو العديدة التي شربها، فضلاً عن قلبه الذي يخفق كجناحي طير، وتوقّع أنّه لن يتمكّن من النوم قبل انبلاج الفجر. إنّه مرهق، لذلك اضطجع في مقعد الجندول بطريقة متكاسلة كمارج، حريصاً على ألّا يمسَّ ساقها بفخذه. مارج ما تزال متحمّسة، تسلّي نفسها الآن بمونولوج عن شروق الشمس في ڤينيسيا، كما شاهدَته في زيارة سابقة على ما يبدو. اهتزاز الجندول الناعم وإيقاع ضربات المجذاف، سبّبا شعوراً بالغثيان لتوم، وبدا له الماء الممتدّ ما بين محطّة ساحة سان ماركو وما بين درجات منزله، لا نهائيّاً.

الدرجات مغمورة تماماً الآن، لا يبرز منها سوى الدرجتين الأولى والثانية، أمّا الثالثة فينساب الماء على سطحها مؤرجحاً الطحالب بطريقة مقرفة. دفع توم أجرة الجندول لا شعوريّاً، لكنّه اكتشف أنّه نسي المفتاح ما أن وقف أمام الباب الكبير. تطلّع حوله بحثاً عن مكان يمكن أن يتسلّق منه، لن يطال حافّة النافذة من الدرج! انفجرت مارج ضاحكة، حتّى قبل أن ينطق بكلمة واحدة.

«نسيتَ المفاتيح! تخيّل! أنا وأنت عالقان أمام الباب، على الدرج، من حولنا الماء الصاخب، وليس معنا مفاتيح!»، قالت.

حاول توم أن يبتسم. بحقّ الجحيم، لماذا سيتذكّر أن يحمل معه مفتاحين بطول قدم تقريباً، ووزن مسدّس؟! التفت، وصاح على الجندوليّ كي يعود أدراجه.

«آه!» ردّ الجندوليّ مقهقهاً، وهو يمضي فوق الماء. «أنا آسف، سنيور! أنا مضطرّ للعودة إلى ساحة سان ماركو، لديّ موعد!» قال، وتابع التجذيف.

«ليس معنا مفتاح!»، صرخ توم بالإيطاليّة.

«أنا آسف سنيور!» أجاب الرجل، «سأرسل لكما جندولاً آخر!».

ضحكت مارج مجدّداً. «أوه، سيقلّنا جندوليّ آخر! أليست ليلة جميلة؟!» قالت، ووقفت على رؤوس أصابعها.

لكنّها لم تكن ليلة جميلة إطلاقاً، الطقس بارد، وبدأ مطر خفيف لزج بالتساقط. فكّر توم بأن ينادي جندولاً من مراكب خدمة النقل المائيّة، لكنّه لم يلمح واحداً. هناك فقط زورق ذو محرّك، يتّجه صوب رصيف ساحة سان ماركو، واحتمال أن يأتي صاحبه لإنقاذهما شبه معدوم. مع ذلك، ناداه توم، لكنّ الزورق المليء بالأضواء والناس تابع اندفاعه نحو الأمام، ورسا على الرصيف الخشبيّ على الجهة الأخرى من القناة. جلست مارج على الدرجة العلويّة، ولفّت ركبتيها بذراعيها، دون أن تفعل شيئاً. أخيراً، اقترب منهما زورق ذو محرّك، أشبه بمركب صيد ثقيل، وتباطأ أمامهما. صرخ شخص ما على متنه: «عالقان في الخارج؟!».

«نسينا المفاتيح!»، ردّت مارج بابتهاج، لكنّها لم ترغب بالصعود إلى

متن المركب. قالت إنّها ستنتظر هنا، ريثما يصل توم إلى الباب الآخر الذي ينفتح على الزقاق. أجابها توم بأنّ ذلك سيستغرق ربع ساعة أو أكثر، وأنّها ستصاب حتماً بنزلة برد لو بقيت جالسة بانتظاره، فوافقت أخيراً على ركوب الزورق. أخذهما صاحبه الإيطاليّ إلى أقرب مرسى على درجات كنيسة سانتا ماريا ديلا سالوتي، ورفض أن يتقاضى مالاً، لكنّه قَبِل ما تبقّى من باكيت السجائر الأمريكيّة الذي عرضه عليه توم.

شعر توم بالرعب في تلك الليلة، وهو يسير في زقاق سان سبيريديوني برفقة مارج، دون أن يعرف السبب. خاف أكثر ممّا لو أنّه يسير بمفرده، أمّا مارج فظلّت تثرثر طيلة الطريق... إنّها لا تخاف من الزقاق!.

-25-

استيقظ توم باكراً في صبيحة اليوم التالي، عندما سمع قرعاً على الباب الخارجيّ. التقط روبه، ونزل للأسفل على عجل: لقد وصلته برقيّة. عاد راكضاً إلى الطابق العلويّ كي يجلب بخشيشاً للساعي، من ثمّ وقف في الصالون وقرأ البرقيّة:

غيّرتُ رأيي سآتي «لزيارتكا» سأصل في 11.45 صباحاً هـ. غرينيلف

ارتجف توم. حسناً، هذا ما توقّعه، فكّر، لكن ليس بالضبط! هل هو خائف من قدوم مستر غرينليف، أم أنّ الوقت ما يزال مبكّراً؟! لم ينبلج الفجر بعد، والصالون رماديّ مروّع. كلمة «لزيارتكا»، تلك أعطت البرقيّة لمسة عتيقة تبعث على القشعريرة. تَرِد في البرقيّات الإيطاليّة عادة، أخطاء طباعيّة طريفة. ماذا لو طبع الموظّف «د» أو «ر»، عوضاً عن حرف «هـ» ذاك؟! كيف سيكون شعوره؟!.

اندفع راكضاً إلى الطابق العلويّ، اندسّ في السرير الدافئ مجدّداً، وحاول أن يعود إلى النوم. تساءل إن سمعت مارج الباب الخارجيّ يُقرَع، وهل ستدخل إلى غرفته أم أنّها ستدقّ بابه الآن؟! لكنّها لم تستيقظ على ما يبدو. تخيّل نفسه وهو يرحّب بمستر غرينليف عند العتبة، ويصافحه بقوّة، وفكّر بالأسئلة التي سيطرحها عليه. ذهنه مشوّش للغاية، وشعر بالخوف وعدم الراحة. إنّه نعسان، يعجز عن صياغة أسئلة وأجوبة محدّدة، لكنّه في الوقت نفسه متوتّر وعاجز عن النوم. أراد أن يعدّ قهوة له ولمارج، كي يتبادل معها الحديث على الأقلّ، لكنّه عاجز عن تحمّل فكرة الدخول إلى الغرفة، ورؤية الملابس الداخليّة وأربطة الجوارب مبعثرة في كلّ مكان. كلّا، لا يطيق هذا المنظر إطلاقاً!.

لكن... كانت مارج هي من أيقظته، بعد أن أعدّت القهوة في المطبخ كما قالت.

«اسمعي» قال توم مبتسماً، «وصلتني برقية من مستر غرينليف فجراً. قال إنّه سيصل عند الظهر».

«حقّاً؟! متى وصلت البرقية؟».

«في الصباح الباكر... إلّا إن كان ذلك حلماً». بحث عن البرقية، «ها هي...»، قال.

قرأتها مارج. « لزيارتكا!!» علّقت وهي تضحك ضحكة صغيرة، «حسناً، جميل. ستحسّن هذه الزيارة مزاجه، كما آمل. هل ستنزل للأسفل، أم أجلب القهوة إلى هنا؟».

«سأنزل»، أجاب توم وهو يرتدي روبه.

سبق لمارج أن ارتدت ثيابها، بنطال فضفاض وكنزة. البنطال من المخمل الأسود، مُتقَن التفصيل، ويلائم شكل جسدها الأشبه بثمرة قرع على خير ما يرام. احتسيا القهوة على مهل، إلى أن وصلت آنا وأوغو في الساعة العاشرة مع الحليب واللفائف وجرائد الصباح. من ثمّ، أعدّ توم ومارج المزيد من القهوة، والحليب الساخن، وجلسا في الصالون. لم تنشر الجرائد شيئاً عن قضيّة دكي، أو مايلز. بعض الأيّام تمرّ هكذا دون أخبار، لكنّ صحف المساء ستنشر شيئاً ما بكلّ تأكيد عن القضيّتين -حتّى لو لم تطرأ مستجدّات مهمّة- على سبيل تذكير القرّاء بأنّ دكي ما يزال مختفياً، ومقتل مايلز ما يزال لغزاً.

ذهب توم ومارج إلى محطّة القطار، لاستقبال مستر غرينليف في الساعة الثانية عشرة إلّا ربعاً. الريح عاتية، البرد قارس، والمطر يهطل ويصفع وجهيهما. احتميا بداخل المحطّة، وراقبا المسافرين يدخلون من البوّابة. ها هو مستر غرينليف يظهر أخيراً، كئيباً حزيناً. اندفعت مارج نحوه وقبّلته على وجنته، فابتسم لها.

«مرحباً يا توم!» قال مستر غرينليف بودّ وهو يمدّ يده كي يصافحه، «كيف حالك؟».

«جيّد جدّاً سيّدي، وأنت؟».

جلب مستر غرينليف معه حقيبة واحدة صغيرة، يحملها حمّال رافقهم على متن الزورق ذي المحرّك، على الرغم من أنّ توم تطوّع كي يحملها بنفسه. اقترح أن يذهبوا إلى منزله مباشرة، لكنّ مستر غرينليف أصرّ على التوجّه إلى الفندق أوّلاً.

«سآتي بمجرّد أن أنتهي من إجراءات الحجز. فكّرتُ بأن أنزل في فندق غريتي، هل هو قريب من منزلك؟»، سأل مستر غرينليف.

«بعيد نوعاً ما... عليك أن تسير إلى ساحة سان ماركو، من ثمّ تستقلّ الجندول من هناك» قال توم، «سننتظرك ريثما تحجز غرفة. فكّرتُ بأن نتناول الغداء معاً... إلّا إن أردتَ رؤية مارج على انفراد لبعض الوقت!». إنّه توم ريبلي مجدّداً، ذاك الذي يمحو شخصيّته.

«لقد أتيتُ إلى هنا لرؤيتك أنت بالدرجة الأولى»، قال مستر غرينليف.

«هل من أخبار؟»، سألت مارج.

هزّ مستر غرينليف رأسه نافياً. إنّه شارد الذهن، يلقي نظرات متوتّرة عبر نوافذ الزورق ذي المحرّك، وكأنّ غرابة المدينة تجبره على النظر إليها مع أنّه لا يستوعب أيّاً ممّا يراه، ولم يعلّق على اقتراح توم بخصوص الغداء. صالب توم ذراعيه، ورسم تعبيراً لطيفاً على وجهه، دون أن ينطق حرفاً... المحرك يهدر هديراً عالياً بأيّ حال. تجاذب مستر غرينليف ومارج أطراف الحديث بعفويّة، عن بعض معارفهما في روما، فاستنتج توم بأنّهما ينسجمان معاً جيّداً، على الرغم من أنّ مارج قالت بأنّها تعرّفت عليه للمرّة الأولى عندما التقته في روما.

ذهبوا لتناول الغداء في مطعم متواضع، يقع بين فندقي غريتي وريالتو، متخصّص بالمأكولات البحريّة التي تُعرَض نيئة على كاونتر طويل في الداخل، طيلة الوقت. أحد الأطباق يضمّ تشكيلة من الأخطبوطات الصغيرة البنفسجيّة التي يحبّها دكي كثيراً، أشار توم إليه وقال لمارج عندما مرّوا به: «من المؤسف أنّ دكي ليس معنا الآن، كي يتلذّذ به». ابتسمت مارج بسعادة، مزاجها دائماً حَسَنٌ عندما توشك على تناول الطعام.

تحدّث مستر غرينليف قليلاً وهم يأكلون، لكنّ ذلك التعبير المتحجّر

ظلّ مرتسماً على وجهه، كما استمرّ بإلقاء النظرات حوله وهو يتكلّم، كأنّه يتمنّى أن يظهر دكي هنا في أيّة لحظة. كلّا، لم تعثر الشرطة على شيء لعين واحد يمكن أن يُعدَّ بمنزلة دليل، قال، كما أنّه سيستقدم محقّقاً أمريكيّاً خاصّاً كي يحاول أن يحلّ القضيّة.

بلع توم ريقه بحذر عندما سمع ذلك، ففي أعماقه أيضاً يدور اعتقاد ملحٌّ -أو أوهام- بأنّ المحقّقين الأمريكيّين أكثر براعة من الإيطاليّين. من ثمّ، أدرك أنّ استقدام المحقّق هو محاولة يائسة كليّاً، وهو ما أدركته مارج أيضاً على ما يبدو، لأنّ وجهها أصبح فجأة حزيناً جامداً.

«إنّها فكرة جيّدة جدّاً»، قال توم.

«هل تظنّ أنّ رجال الشرطة الإيطاليّين أكفّاء؟»، سأله مستر غرينليف.

«حسناً، في الواقع... أجل» قال توم، «يتمتّعون بميزات إضافيّة، وهي أنّهم يتحدّثون اللغة الإيطاليّة، وبوسعهم الوصول إلى أيّ مكان، والتحقيق مع المشتبه بهم بجميعهم. أفترض بأنّ الرجل الذي أرسلتَ بطلبه، يتكلّم الإيطاليّة؟».

«لا أعرف حقّاً، لا أعرف!»، أجاب مستر غرينليف بارتباك. لم تخطر هذه الفكرة بباله من قبل، وأدرك كم هي ضروريّة لتوّه على ما يبدو. «اسمه ماكارون» أضاف، «يُقال إنّه بارع».

هذا المحقّق لا يتكلّم الإيطاليّة على الأرجح، فكّر توم، ثمّ سأل: «متى سيصل؟».

«غداً، أو لربّما بعده. سأعود إلى روما فوراً ما أن يصل». لقد انتهى من طبق لحم العجل بجبنة البارميزان، على الرغم من أنّه لم يأكل الكثير عمليّاً.

«توم لديه منزل في غاية الجمال!» قالت مارج، وبدأت بتناول كعكة الرُّم ذات الطبقات السبع.

حوّل توم نظراته إليها، وابتسم ابتسامة باهتة.

سيستجوبه مستر غرينليف في منزله، فكّر توم، ما أن يجلسا وحيدَين. يعرف أنّ مستر غرينليف يودّ أن يتحدّث إليه على انفراد، ولذلك اقترح أن يشربوا القهوة في المطعم حيث يجلسون الآن، قبل أن تقترح مارج احتساءها في منزل توم، لأنّ القهوة المُفلترة التي يحضّرها هناك أعجبتها.... على

الرغم من ذلك، ظلّت مارج جالسة معهما في الصالون قرابة نصف ساعة بعد أن عادوا. إنّها عديمة الإحساس، قال توم لنفسه. أخيراً، عبس بمرح، وأومأ إليها برأسه صوب الدرج. غطّت فمها بيديها عندما فهمت تلميحه، وأعلنت بأنّها ستصعد إلى الأعلى كي تستلقي قليلاً. إنّها في مزاجها المعتاد المرح الذي لا يُقهَر، ثرثرت مع مستر غرينليف طيلة الغداء، وكأنّ دكي ليس ميتاً ولا يمكن أن يكون كذلك، ونصحته ألّا يقلق كثيراً لأنّ القلق سيسبّب له عسرَ هضم... وكأنّها ما زالت تتمنّى أن تصبح كنتّه ذات يوم، فكّر توم.

وقف مستر غرينليف، وذرع الغرفة جيئة وذهاباً واضعاً يديه في جيبه، كأنّه مدير تنفيذيٌّ على وشك أن يملي رسالة على سكرتيره. لم يعلّق على فخامة المنزل، بل لم يلقِ نظرة واحدة عليه أصلاً كما لاحظ توم.

«حسناً توم» بدأ مستر غرينليف كلامه متنهّداً، «إنّها نهاية غريبة، أليس كذلك؟».

«نهاية؟!».

«حسناً، أنت تقيم في أوروبا الآن، وريتشارد...».

«لا ندري بعد هل عاد إلى أمريكا، أم لا!»، قال توم بمرح.

«كلّا، هذا غير ممكن، وإلّا لأبلغتنا دائرة الهجرة». تابع مستر غرينليف المشي، دون أن ينظر إلى توم. «إلى أين تعتقد أنّه ذهب حقّاً؟ أخبرني بصدق!»، قال.

«حسناً يا سيّدي. ربّما يختبئ هنا في إيطاليا... هذا سهلٌ للغاية إن نزل في فندق ما، دون أن يضطرّ لتسجيل اسمه».

«هل توجد في إيطاليا فنادق لا تسجّل أسماء النزلاء؟!».

«كلّا، ليس رسمياً، لكنّ شخصاً يتحدّث الإيطاليّة بطلاقة كدكي سيتدبّر أمره. في الواقع، إن قام برشوة مدير نزل صغير في جنوبي إيطاليا كي يشتري صمته، بوسعه البقاء هناك حتّى ولو عرف المدير أنّه ريتشارد غرينليف».

«هل تظنّ بأنّ هذا هو ما يفعله حقّاً؟!». نظر إليه مستر غرينليف فجأة، فرأى توم على وجهه ذلك التعبير المثير للشفقة ذاته، الذي لمحه عندما قابله للمرّة الأولى في أمريكا.

«كلّا، أنا... إنّه مجرّد احتمال، لا يسعني أن أقول أكثر». صمت قليلاً، ثمّ أضاف: «يؤسفني أن أقول هذا مستر غرينليف، لكنّني أعتقد بأنّ دكي قد يكون ميتاً».

لم تتبدّل ملامح مستر غرينليف. «بسبب الاكتئاب الذي لاحظتَه عليه في روما؟ ماذا قال لك بالضبط؟»، سأل.

«بسبب مزاجه العامّ» قال توم عابساً، «مقتل مايلز سبّب له صدمة بلا شكّ، إنّه ذلك النوع من الرجال... إنّه يكره الشهرة، أيّاً كان نمطها، ويكره العنف بكلّ أشكاله». لعق توم شفتيه، العذاب الذي يشعر به وهو يحاول أن يشرح ماذا يدور في ذهنه، كان حقيقيّاً. «قال إنّه سيطلق رصاصة على رأسه لو تعرّض لمشكلة واحدة بعد، لأنّه لا يعرف حقّاً ماذا يجب عليه أن يفعل. فضلاً عن ذلك، شعرتُ آنذاك للمرّة الأولى بأنّه ليس مهتمّاً بلوحاته! لعلّه كان إهمالاً عابراً، فالرسم هو ملاذه الدائم».

«هل يأخذ الرسم حقّاً على محمل الجدّ؟».

«أجل»، أجاب توم بصرامة.

نظر مستر غرينليف إلى السقف مرّة أخرى، ويداه خلف ظهره. «من المؤسف أنّنا لا نستطيع العثور على دي ماسيمو ذاك، لعلّه يعرف شيئاً ما. فهمتُ أنّ ريتشارد سافر بصحبته إلى صقليّة»، قال.

«لا أعرفه»، قال توم وقد أدرك بأنّ مارج هي من أخبرت مستر غرينليف بذلك.

«لقد اختفى دي ماسيمو بدوره... إن كان موجوداً أصلاً! أميل للاعتقاد بأنّ ريتشارد اختلق تلك الشخصيّة، كي يقنعني بأنّه يرسم. لم تتمكّن الشرطة من العثور على رسّام بهذا الاسم في... سجلّات الهويّات، أو أيّاً كان ما يطلقون عليها هنا».

«لم ألتقِ به بتاتاً» قال توم، «ذكره دكي لي مرّتين، لكنّني لم أشكّ قطّ بهويّته أو بوجوده»، وضحك ضحكة صغيرة.

«ماذا قلتَ قبل عبارة: لو تعرّض لمشكلة واحدة بعد؟! ماذا جرى لدكي أيضاً؟».

«حسناً، آنذاك لم أكن أعرف ما حدث، أمّا الآن فأظنّ أنّني فهمتُ عمّاذا كان يتحدّث. لقد استجوبته الشرطة حول الزورق الذي تمّ إغراقه في سان ريمو. هل أخبروك عنه؟».

«لا!».

«عثروا على زورق تمّ إغراقه عمداً في سان ريمو، اختفى في اليوم ذاته الذي كنّا فيه أنا ودكي هناك، أو حول ذلك التاريخ... لقد ذهبنا في جولة بزورق مماثل، أحد تلك الزوارق الصغيرة ذات المحرّك التي يستأجرها السيّاح. بأيّ حال، شاءت الصدفة أن يعثروا على الزورق الغارق ملطّخاً ببقع يُشتَبه بأنّها آثار دماء، قبل مقتل مايلز مباشرة. كنتُ أتجوّل في إيطاليا آنذاك، ولم يستطع رجال الشرطة إيجادي، لذلك سألوا دكي عن مكاني... على ما يبدو، اعتقد بأنّهم سيتّهمونه بقتلي أنا!» قال توم، وضحك.

«يا إلهي!».

«أنا أعرف هذه القصّة، لأنّ محقّقاً من الشرطة استجوبني هنا قبل بضعة أسابيع، وقال لي إنّهم استجوبوا دكي حول النقطة نفسها أيضاً. لم أعرف أنّ البحث جارٍ عنّي -ليس بحثاً حثيثاً، لكنّ الشرطة تريد رؤيتي بأيّ حال- إلى أن قرأتُ عن ذلك في إحدى صحف ڤينيسيا... كم هذا غريب! توجّهتُ إلى مركز الشرطة فوراً، وصرّحتُ عن هويّتي». ما يزال مبتسماً، لقد قرّر قبل أيّام بأنّ الخيار الأفضل بالنسبة له، هو أن يقصّ كلّ ما سبق على مستر غرينليف بنفسه، سواء سمع هذا الأخير من قبل بزورق سان ريمو، أم لا. الأفضل أن يسمع القصّة من لسانه هو، على أن يسمعها من الشرطة، التي ستخبره بأنّ توم كان بصحبة دكي في روما بينما حسبَتْه مفقوداً، فضلاً عن أنّها قصّة تتماشى مع ما اختلقه عن اكتئاب دكي.

«لم أفهم تماماً!» قال مستر غرينليف وهو يجلس، مصغياً بانتباه.

«لقد انتهت تلك القصّة، مستر غرينليف، بما أنّنا كلانا أنا ودكي على قيد الحياة. أنا أخبرك بها لسبب واحد، لأنّ دكي عرف آنذاك بأنّ البحث جارٍ عنّي، بعد أن سأله البوليس عن مكاني. لعلّه لم يعرف أين كنتُ بالضبط عندما استجوبوه أوّل مرّة، لكنّه يعرف بأنّني أتجوّل في الريف، ولم يخبرهم

بأنّي عدتُ إلى روما لرؤيته. أتذكّر كلّ هذا، لأنّنا تحدّثنا أنا ومارج هاتفياً في الفندق إبّان تلك الفترة بالذّات، بينما كان دكي في مركز الشرطة. موقفه هو التالي: فليعثر البوليس عليّ بأنفسهم، لن يقول لهم أين أنا!».

هزّ مستر غرينليف رأسه بطريقة أبويّة، نافد الصبر نوعاً ما وكأنّه توقّع أن يتصرّف دكي بتلك الطريقة.

«في تلك الليلة على ما أظنّ، قال دكي إنّه سيطلق رصاصة على رأسه لو تعرّض لمشكلة أخرى... لقد تسبّب لي بإحراج بسيط مع البوليس في ڤينيسيا، لا بدّ أنّهم يحسبونني أحمق لأنّني لم أعرف أنّهم يبحثون عنّي. صدقاً، لم أكن أعرف!».

«امممم!» قال مستر غرينليف، دون أن يبدي اهتماماً.

نهض توم كي يسكب بعض البراندي.

«أخشى بأنّني لا أوافقك الرأي بأنّ ريتشارد انتحر»، قال مستر غرينليف.

«حسناً، ولا مارج بدورها. إنّه مجرّد احتمال كما قلتُ لك، وليس الاحتمال الأرجح برأيي».

«لماذا؟ ماذا تظنّ إذن؟».

«أظنّ بأنّه يتوارى عن الأنظار» قال توم، «هل أقدّم لك براندي، سيّدي؟ أتخيّل أنّ المنزل بارد للغاية بالمقارنة مع أمريكا».

«أجل، إنّه كذلك بصراحة» قال مستر غرينليف وهو يأخذ الكأس.

«كما تعرف، قد يكون في أيّ بلد أوروبيّ، أو في داخل إيطاليا» قال توم، «ربّما رحل إلى اليونان أو فرنسا أو غيرها بعد أن عاد إلى نابولي. لم تبدأ الشرطة بالبحث عنه، إلّا بعد بضعة أيّام من عودته».

«أعرف، أعرف» قال مستر غرينليف مرهقاً.

-26-

تمنّى توم أن تنسى مارج الدعوةَ إلى حفلة الكوكتيل، التي سيقيمها تاجر الأنتيكات في فندق دانييلي، لكن للأسف! عاد مستر غرينليف إلى الفندق حوالي الساعة الرابعة كي يستريح قليلاً، وبمجرّد أن خرج من الباب، ذكّرت مارج توم بحفلة الساعة الخامسة.

«هل ترغبين حقّاً بالذهاب؟!» سأل توم، «أعجز حتّى عن تذكّر اسم الرجل!».

«معلوف. م ع ل و ف» قالت مارج، «أودّ الذهاب أجل، لن نتأخّر».

وهذا ما كان.

انزعج توم، لقد استقطبا الأنظار كأنّهما زوج من لاعبي الأكروبات تحت بقعة الضوء في سيرك. إنّهما شخصيّتان اثنتان لا واحدة فحسب، من الشخصيّات الرئيسيّة في قضيّة غرينليف، مجرّد اسمَين في جعبة أسهم مستر معلوف، الذي أخبر ضيوفه جميعهم بكلّ تأكيد بأنّ مارج شيرود وتوم ريبلي -ضيفا الشرف- سيحضران حفلته اليوم، وها هما هنا فعلاً! هذا غير لائق، فكّر توم، ولا يمكن لمارج أن تلتمس عذراً لمرحها بالقول إنّها ليست قلقة بتاتاً من اختفاء دكي. لقد احتست الكأس تلو الكأس من المارتيني هنا، لأنّه مجّانيّ! وكأنّها لن تشرب قدر ما تشاء في منزله، أو كأنّه سيبخل عليها بالمزيد منه، عندما يأتي مستر غرينليف لتناول العشاء معهما. احتسى توم كأساً واحدة فقط، ببطء، وظلّ واقفاً في الجهة الثانية من الغرفة بعيداً عن مارج. لو حاول أيّ ضيف أن يبادره بالحديث، سيقول إنّه صديقٌ لدكي، وإنّه يعرف مارج معرفة سطحيّة.

«مس شيرود هي ضيفة في منزلي»، قال بابتسامة مضطربة.

«أين مستر غرينليف؟! من المؤسف أنّك لم تجلبه معك»، قال مستر معلوف الذي وقف إلى جواره كالفيل، وبيده كأس ضخمة من كوكتيل مانهاتن. إنّه يلبس بزة من قماش التويد الإنجليزيّ منقوشة بمربّعات فاقعة الألوان، من تلك النقوش التي يحوكها الإنجليز مُكرَهين، فكّر توم، خصّيصاً للأمريكيّين من أمثال رودي معلوف.

«إنّه يرتاح قليلاً» قال توم، «سنراه الليلة على العشاء».

«أوه!» قال مستر معلوف، «هل اطلعتَ على صحف المساء؟». سأل بتهذيب، وملامحه حزينة توحي بالاحترام.

«أجل، قرأتُها»، أجاب توم.

هزّ مستر معلوف رأسه، دون أن يضيف المزيد. تساءل توم عن الخبر التافه الذي كان مستر معلوف سيرويه له، لو قال إنّه لم يقرأ الصحف التي كتبت اليوم أنّ مستر غرينليف جاء إلى ڤينيسيا، ونزل في فندق غريتي بالاس. لم تأتِ على ذكر وصول المحقّق الخاصّ إلى روما قادماً من أمريكا، ولا حتّى عن الاستعانة به في المقام الأوّل، لذلك ارتاب توم بقصّة مستر غرينليف. إنّها قصّة من تلك التي يختلقها الآخرون، أو التي يخترعها خياله الخائف، لا ترتكز إطلاقاً إلى حقائق، وسيشعر بعد أسبوعين بالخزي من نفسه لأنّه انجرّ وراءها، تماماً كاعتقاده بأنّ مارج ودكي كانا على علاقة عاطفيّة في مونجيبللو أو أوشكا على ذلك، وكالخوف الذي دبّ في قلبه في شهر شباط، من أنّ قضيّة تزوير الإيصالات سوف تدمّره وتفضحه لو استمرّ بانتحال شخصيّة دكي غرينليف. قضيّة التزوير تلك انتهت في الحقيقة، آخر المستجدّات هي أنّ سبعة خبراء من أصل عشرة في أمريكا، أصدروا حكمهم بأنّ الإيصالات ليست مزوّرة. كان بوسعه أن يوقّع إيصالاً آخر بعدُ من إيصالات البنك الأمريكيّ، وأن يستمرّ بلعب شخصيّة دكي للأبد، لو لم يغلبه خوفه المُتخيَّل! تعابيره توحي بالتركيز الآن، لكنّه يصغي بجزء من دماغه فقط لما يقوله مستر معلوف، الذي يتصنّع الجديّة والذكاء وهو يشرح له عن الرحلة التي قام بها إلى جزيرتي مورانو وبورانو صباحاً. عبس توم، وركّز بإصرار أشدّ على حياته. الأفضل لو يصدّق قصّة مستر غرينليف عن

المحقّق الخاصّ الذي سيصل قريباً، إلى أن يثبُتَ زيفها، لكن لا يجدر به أن يضطرب أو أن يُبدي ما يشي بخوفه، حتّى ولو كان رفيف أجفانه!.

ردّ شارداً على شيء ما قاله مستر معلوف، الذي ضحك بابتهاج حقيقيّ ثمّ مضى مبتعداً. رمقَ توم ظهرَه العريض بنظرة ساخرة، وأدرك أنّه كان وقحاً -وما زال كذلك- ومن الأفضل له أن يستجمع شتات نفسه، لأنّ التصرّف بلباقة حتّى مع هذه الحفنة من التجّار الوضيعين، الذين يتعاملون بالأنتيكات والقطع التزيينيّة ومنافض السجائر -لمح نماذج من بضائعهم مبعثرة على السرير، في الغرفة التي تركوا فيها معاطفهم- هو جزء من سعيه لتقديم نفسه كجنتلمان. إنّهم يذكّرونه كثيراً بأولئك الأشخاص الذين قال لهم وداعاً في نيويورك، فكّر. إنّهم يزعجونه كثيراً، ويرغب بالهرب منهم. إنّه هنا بسبب مارج في نهاية المطاف، هذا هو السبب الوحيد.

الذنب ذنبُ مارج! احتسى رشفة من المارتيني، حدّق إلى السقف وفكّر بأنّ قوّة أعصابه وصبره سيتيحان له خلال عدّة أشهر أن يتحمّل أشخاصاً من هذا النمط، إن اضطرّ للتواجد بصحبتهم مجدّداً. لقد تحسّن على هذا الصعيد قليلاً منذ أن غادر نيويورك، وسيتحسّن بعدُ أكثر. تأمّل السقف مجدّداً، وفكّر كيف سيبحر إلى اليونان. سينطلق من ڤينيسيا، سيقطع البحر الأدرياتيكيّ من ثمّ البحر الأيونيّ، وسيصل إلى كريت أخيراً، حيث سيقضي الصيف. حزيران! حزيران! يا لها من كلمة حلوة، ناعمة، صافية، كسلى، ومفعمة بضوء الشمس! لم يدم حلم يقظته سوى ثوان معدودة، بأيّ حال. الأصوات الأمريكيّة الصاخبة الخشنة من حوله، اقتحمت أذنيه مجدّداً، وأنشبت مخالبها في أعصاب كتفيه وظهره. ابتعد لا شعوريّاً عن البقعة التي يقف فيها، ومشى صوب مارج. هناك امرأتان غيرها فقط في الغرفة، زوجتان رهيبتان لرجُلَي أعمال رهيبَين. اعترف بينه وبين نفسه بأنّ مارج تبدو أجمل منهما كلتيهما، لكنّ صوتها أسوأ... يشبه صوت هاتين المرأتين، إلّا أنّه أسوأ.

كاد أن يقترح عليها المغادرة، لكنّه سكت، فمن غير اللائق بتاتاً أن يقترح الرجل على رفيقته مغادرة أيّة حفلة. اكتفى بالانضمام إلى المجموعة التي تقف معها، وبالابتسام. ملأ أحدهم كأسه من جديد، مارج تتحدّث

عن مونجيبللو وعن كتابها، والرجال الثلاثة -صلعان، شعر رماديّ عند الصدغين، وجوه دنيئة- بدوا مفتونين بها.

عندما اقترحت مارج بعد عدّة دقائق أن يرحلا، واجها وقتاً عصيباً بالتخلّص من مستر معلوف وحاشيته الذين كانوا كلّهم ثملين نوعاً ما الآن، وأصرّوا على الذهاب لتناول العشاء معاً، ومع مستر غرينليف أيضاً.

«نحن في ڤينيسيا لهذا السبب... لقضاء وقت طيّب!»، ردّد مستر معلوف بغباء، مستغلّاً الفرصة كي يلفّ ذراعه حول مارج ويعتصرها محاولاً إقناعها بالبقاء. لحسن حظّ توم أنّه لم يأكل بعد، وإلّا لتقيّأ كلّ ما تناوله!.

«ما هو رقم هاتف مستر غرينليف؟ دعونا نتّصل به!»، قال مستر معلوف وهو يشقّ طريقه نحو الهاتف.

«يجدر بنا الخروج من هنا!» همس توم بكآبة في أذن مارج، أمسكها بقوّة من ذراعها وجرّها عمليّاً صوب الباب، كلٌّ منهما يبتسم ويومئ برأسه مودّعاً.

«ما المشكلة؟»، سألته مارج عندما أصبحا في الممرّ.

«لا شيء، ظننتُ بأنّ الحفلة بدأت تخرج عن نطاق السيطرة» قال توم، وحاول أن يلطّف كلماته بابتسامة. مارج ثملة قليلاً، لكن ليس إلى درجة تغفل معها عن انزعاجه. أخذ يتعرّق، وجفّف العرق الذي سال على جبينه. «أصابني الإعياء بسبب أولئك الأشخاص!» قال، «يتحدّثون عن دكي طيلة الوقت، على الرغم من أنّنا لا نعرفهم أصلاً، وأنا لا أرغب بالتعرّف عليهم. إنّهم يثيرون الغثيان!».

«هذا مضحك! لم يحدّثني أيُّ شخص البتّة عن دكي، بل لم يذكروا اسمه أصلاً! أظنّ أنّ الوضع الآن، كان أفضل من منزل بيتر البارحة!».

رفع توم رأسه، ولم ينطق بحرف. أولئك الأشخاص ينتمون إلى الطبقة التي يبغضها. لماذا يخبر مارج بذلك، مارج التي تنتمي إلى الطبقة ذاتها؟!.

اتّصلا بمستر غرينليف في الفندق. الوقت ما يزال مبكّراً على العشاء، لذلك تناولوا المقبّلات في مقهى بالقرب من فندق غريتي. حاول توم أن يعوّض عن تصرّفاته خلال الحفلة، بأن يكون لطيفاً ثرثاراً خلال العشاء. مزاج مستر غرينليف كان جيّداً أيضاً، لقد اتّصل هاتفيّاً بزوجته للتوّ، ووجد

معنويّاتها وصحّتها ممتازة. طبيبها يجرّب نظاماً علاجيّاً جديداً منذ عشرة أيّام، قال، ويبدو أنّها تستجيب له أفضل من أيّ دواء تلقّته حتّى الآن.

كان عشاءً هادئاً، روى توم طرفة بسيطة لطيفة، أضحكت مارج كثيراً. أصرّ مستر غرينليف على دفع الفاتورة، وقال إنّه لا يرغب بالذهاب إلى البار بل سيعود إلى الفندق. لقد حرص على اختيار طبق من الباستا ولم يلمس السلطة، لذلك استنتج توم بأنّه يعاني من «إسهال السيّاح»[1]، وأراد أن يقترح عليه دواءً ممتازاً يتوافر في كلّ الصيدليّات، لكنّ مستر غرينليف ليس من أولئك الذين يمكنك أن تقترح عليهم ذلك، ولو على انفراد!.

قال مستر غرينليف إنّه سيعود غداً إلى روما، فوعده توم بالاتّصال هاتفيّاً في التاسعة صباحاً، كي يعرف موعد رحلته. ستعود معه مارج أيضاً، بالتوقيت الذي يختاره. واكباه مشياً إلى فندق غريتي، وبدا أشبه بقطعة من جادة ماديسون تتنقّل في شوارع ڤينيسيا المتعرّجة الضيّقة، بوجه رجل الصناعة الصارم ذاك، وقبّعة هومبورغ الرماديّة.

تمنّى له كلٌّ من توم ومارج، ليلة سعيدة.

«يؤسفني جدّاً أنّه لم يتح لي قضاء وقت أطول معك»، قال توم.

«وأنا كذلك يا بنيّ! ربّما في المرّة القادمة»، قال مستر غرينليف مربّتاً على كتفه.

مشى توم إلى منزله برفقة مارج، بنوع من التألّق. لقد سار كلّ شيء على أفضل ما يرام، فكّر. ثرثرت مارج طيلة الطريق، وقهقهت لأنّ شيّال سوتيانها انقطع فاضطرّت إلى تثبيته بيدها طيلة الوقت، كما قالت. فكّر توم بالرسالة التي وصلته من بوب ديلانسي عصراً. سبق لبوب أن أرسل بطاقة بريديّة كتب فيها بأنّ الشرطة استجوبت جميع القاطنين في مبناه، على خلفيّة احتيال يتعلّق بضريبة الدخل قبل عدّة أشهر. على ما يبدو، استخدم المحتال عنوان مبنى بوب كي يستلم الشيكات، وقام بسحب المغلّفات بكلّ بساطة من حافّة صندوق البريد حيث تركها الساعي. استجوبت الشرطة ساعي

1- نوع من الإنتانات المعويّة، ينجم عن اختلاف الإجراءات والعادات الصحيّة وأنماط الجراثيم، في البلد الجديد الذي يقصده المسافرون. المترجمة.

البريد أيضاً، والذي تذكّر بأنّه قرأ اسم «جورج ماك ألبن» على المغلّفات. ما يحصل طريف للغاية برأي بوب، كما وصف له ردود أفعال بعض القاطنين في المبنى عندما استجوبتهم الشرطة، لكنّ اللغز لم يُحَلّ: من أخذ الرسائل الموجّهة إلى جورج ماك ألبن؟! هذا يبعث على الاطمئنان، فكّر توم، قصّة ضريبة الدخل تلك ظلّت تحوم فوق رأسه بطريقة مبهمة، واثقاً من أنّ الشرطة ستتحرّى عنها ذات يوم، وكان سعيداً للغاية لأنّه لم يتمادَ كثيراً. لن تربط الشرطة بين توم ريبلي وجورج ماك ألبن، ولا يمكنها ذلك إطلاقاً. فضلاً عن ذلك، علّق بوب بأنّ المحتال لم يحاول أصلاً أن يصرف الشيكات.

عندما وصلا إلى المنزل، صعدت مارج إلى الطابق العلويّ كي تحزم حقيبتها قبل أن تؤوي إلى السرير، بينما جلس توم في الصالون كي يقرأ رسالة بوب مرّة أخرى، على الرغم من أنّه مرهق. انتظار الحريّة التي سيحظى بها غداً بعد أن ترحل مارج ومستر غرينليف، كان منعشاً ومفرحاً إلى حدّ أنه لم يمانع السهر طيلة الليل. خلع حذاءه كي يرفع قدميه على الكنبة، ووضع وسادة خلف ظهره، وبدأ يقرأ. «تعتقد الشرطة بأنّ المحتال هو شخص لا يقطن في المبنى، لكنّه يتسلّل بين حين وآخر لأخذ البريد. لا أحد من القاطنين هنا يبدو كمجرم...». يا لغرابة أن يقرأ عمّن عرفهم في نيويورك، إد، لورين... الفتاة خفيفة العقل التي حاولت أن تختبئ في كابينته عندما أبحر من نيويورك! إنّه أمر غريب، لكنّه ليس جذّاباً على الإطلاق! يا لها من حياة بائسة، تلك التي عاشوها هناك متسلّلين حول نيويورك، من وإلى المترو، ووقوفاً في بار مظلم في الجادّة الثالثة كي يتسلّوا ويتفرّجوا على التلفزيون، يذهبون بين حين وآخر إلى حانة في جادة ماديسون أو إلى مطعم جيّد، إن توافر لهم المال... كم يبعث ذلك كلّه على السأم، بالمقارنة مع أسوأ مطعم صغير في ڤينيسيا، بطاولاته التي تغطّيها السلطات الخضراء وصواني الأجبان الرائعة، والندل الودودين الذين يجلبون أفضل أنواع النبيذ في العالم! «أنا أحسدك بكلّ تأكيد، وأنت تجلس هناك في قصر ڤينيسيّ عتيق!» كتب بوب، «هل تركب الجندول طيلة الوقت؟ كيف تبدو الفتيات؟ هل أصبحت مثّقفاً للغاية، إلى درجة أنّك لن تتبادل معنا كلمة عندما تعود؟ كم ستبقى في إيطاليا؟».

إلى الأبد! فكّر توم. لعلّه لن يعود إطلاقاً إلى الولايات المتّحدة. أوروبا

ليست السبب بحدّ ذاتها، بل الأمسيات التي قضاها وحيداً في روما وهنا في ڤينيسيا، وحيداً، يتفحّص الخرائط، أو يستلقي على هذه الكنبة أو تلك متصفّحاً كتب الإرشاد السياحيّ. تلك الأمسيات التي تأمّل فيها ملابسه -سواء ثيابه الخاصّة، أو ثياب دكي- وتلمّس خاتمي دكي في راحتيه، ومرّر أصابعه على حقيبة جلد الظبيّ التي ابتاعها من متجر غوتشي. لقد طلاها بورنيش إنجليزيّ خاصّ بالجلد الطبيعيّ، لا لأنّها تحتاج إلى تلميع، بل لأنّه يعتني بها جيّداً كي يحافظ عليها. إنّه يحبّ امتلاك الأشياء، ليس جمعها بكميّات ضخمة، بل امتلاك بضعة عناصر منتقاة فقط، لا يفترق عنها. هذا يمدّ المرءَ بنوع من الاحترام لذاته، ليس تبجّحاً وإنّما إحساس بالجودة، وبالحبّ الذي يقدّر الجودة. امتلاك الأشياء يذكّره بأنّه موجود، ويجعله يستمتع بهذا الوجود. إنّه أمر بغاية البساطة! ألا يستحقّ هذا شيئاً ما؟! توم «موجود»، ولا يعرف الكثيرون في العالَم كيف يعيشون هذا «الوجود»، حتّى ولو امتلكوا المال. الأمر لا يتطلّب ثروة في الحقيقة، بل ضماناً معيّناً. لقد كان في طريقه لتحقيق ذلك، حتّى عندما أقام في منزل ماك بريمنغر. لقد أعجبته ممتلكات مارك، وهي ما جذبته إلى منزله، لكنّها لم تكن مِلكه هو، توم، ومن المستحيل أن يمتلك أيّ شيء لنفسه بأربعين دولاراً في الأسبوع. شراء الأشياء التي يرغب بها، كان سيستغرق أجمل سنوات عمره، مهما اقتصد. نقود دكي أكسبته تسارعاً إضافيّاً على الطريق الذي بدأه، ستتيح له متعة أن يسافر إلى اليونان، وأن يجمع الفخّار الإتروسكانيّ لو شاء (لقد قرأ مؤخّراً كتاباً ممتعاً عنه، ألّفه أمريكيّ يعيش في روما)، وأن ينضمّ إلى جمعيّات فنيّة لو أراد، وأن يتبرّع لها بالمال. النقود تتيح له على سبيل المثال متعة أن يقرأ أندريه مالرو متى يشاء، مهما تأخّر الوقت، لأنّه غير مضطرّ للذهاب إلى العمل صباحاً. لقد اشترى لتوّه جزأي كتاب مالرو «سيكولوجيا الفنّ» باللغة الفرنسيّة، وباشر بقراءته باستمتاع مستعيناً بالقاموس. فكّر بأن يغفو قليلاً، من ثمّ يقرأ بضع صفحات منه أيّاً كانت الساعة. شعر بالدفء وبالنعاس، على الرغم من أنّه شرب إكسبريسو. انحناء الكنبة يلائم كتفيه، وكأنّه ذراع شخص ما... أو بالأحرى، يلائمه أفضل من ذراعي أيٍّ كان. قرّر أن يقضي الليلة هنا،

على هذه الكنبة بالذات، لأنّها مريحة أكثر من تلك الموجودة في الطابق العلويّ. قد يصعد إلى هناك بعد بضع دقائق، كي يجلب بطّانيّة.

«توم؟!».

فتح عينيه. مارج تنزل الدرج حافية القدمين. جلس، إنّها تحمل صندوقه القديم البنيّ بين يديها!.

«لقد وجدتُ خاتَمي دكي هنا!»، قالت مقطوعة الأنفاس.

«أوه، لقد أعطاني إيّاهما... كي أحفظهما له»، قال توم وهو يقف.

«متى؟».

«في روما، على ما أظنّ». تراجع خطوة للخلف، تعثّر بفردة جذائه فالتقطها في محاولة منه كي يبدو هادئاً.

«ماذا كان سيفعل؟! لِم أعطاك الخاتمين؟!».

لا بدّ أنّها كانت تبحث عن خيط وإبرة، كي تخيط سوتيانها، فكّر توم. تبّاً، لِماذا لم يخبّئ الخاتمين في مكان آخر، بداخل بطانة الحقيبة مثلاً؟!.

«لا أعرف بالضبط» قال، «ربّما كانت نزوة أو ما شابه، تعرفين دكي! قال لي إنّه يريد منّي أن أحتفظ بهما، إن حصل له مكروه».

«إلى أين كان ذاهباً؟!» سألت مارج بحيرة.

«إلى باليرمو، صقليّة». حمل توم فردتي الحذاء بيديه، بطريقة تتيح له استخدام الكعبين الخشبيّين كسلاح. تخيّل الطريقة بسرعة في رأسه: سيضرب مارج بالحذاء، ثمّ يجرّها عبر الباب الأماميّ، ويرميها إلى القناة. سيقول إنّها سقطت، انزلقت فوق الطحالب، ولم يخطر بباله أنّها ستغرق نظراً لأنّها تتقن السباحة.

حدّقت مارج إلى العلبة. «إذن... كان سينتحر!»، قالت.

«أجل، إن نظرتِ إلى الأمور من هذه الزاوية. الخاتمان... هذا يرفع احتمال أن يكون قد انتحر حقّاً!».

«لماذا لم تقل شيئاً عنهما من قبل؟!».

«لقد نسيتُ الأمر كليّاً! وضعتهما في الصندوق كي لا يضيعا، ولم أفكّر بعد ذلك بإلقاء نظرة عليهما منذ أن أعطاهما لي».

«إمّا أنّه انتحر، أو غيّر هويّته... أليس كذلك؟».

«أجل»، أجاب توم بحزن وصرامة.

«من الأفضل أن تخبر مستر غرينليف».

«أجل، سأفعل ذلك. سأخبر مستر غرينليف، والشرطة أيضاً».

«هذا يحسم المسألة عمليّاً!»، قالت مارج.

أرجح توم فردتي الحذاء بيده كأنّهما زوج من القفّازات، لكنّه حافظ عليهما جاهزتين بوضعيّة الهجوم، لأنّ مارج ترمقه بطريقة غريبة الآن. إنّها تفكّر... هل تخدعه؟! هل عرفت ما حصل؟!.

أخيراً، قالت مارج بجديّة: «لا أستطيع أن أتخيّل دكي إطلاقاً من دون الخاتَمَين!».

أدرك توم بأنّها لم تحزر الإجابة، وأنّ عقلها بعيد كلّ البعد عنها. استرخى، وغرق متكاسلاً على الكنبة، متظاهراً بأنّه منشغل بانتعال الحذاء. «ولا أنا!»، وافقها الرأي بطريقة أتوماتيكيّة.

«كنتُ سأتّصل بمستر غرينليف، لولا أنّ الوقت تأخّر! إنّه في سريره الآن، ولن ينام طيلة الليل لو أخبرتُه، أعرف ذلك».

حاول توم أن يدفع قدمه بداخل الفردة الثانية، لقد تلاشت القوّة من أصابعه الرخوة كليّاً. اعتصر دماغه، كي يقول شيئاً ما حصيفاً. «آسف لأنّني لم أذكر هذا الموضوع سابقاً» قال بصوت عميق، «لقد كان أحد تلك...».

«أجل. قيام مستر غرينليف باستقدام محقّق خاصّ الآن، هو أمر سخيف... أليس كذلك؟»، وارتجف صوتها.

نظر توم إليها، تكاد تبكي. أدرك أنّها في هذه اللحظة فقط أقرّت بأنّ دكي قد يكون ميتاً، وبأنّه ميت فعلاً على الأرجح. سار صوبها ببطء. «أنا آسف، مارج. أنا آسف بشكل خاصّ لأنّني لم أخبرك عن الخاتمين من قبل!». طوقّها بذراعه، وبالكاد اضطرّ إلى ذلك، لأنّها مالت عليه بجسدها من تلقاء ذاتها. شمّ عطرها، ستراديڤاري غالباً. «الخاتمان هما أحد الأسباب التي تجعلني أعتقد بأنّه انتحر حقّاً، أو حاول ذلك على الأقلّ!»، قال.

«أجل»، قالت بنبرة منتحبة بائسة. لم تبكِ، بل مالت عليه ورأسها منحنٍ متيبّس، كمن سمع لتوّه نبأ موت شخص ما، فكّر، وهو ما حصل حقّاً!.

«ما رأيك بأن نحتسي براندي؟»، سألها برقّة.

«لا أريد».

«تعالي واجلسي على الكنبة»، قال وهو يجذبها كي تجلس، من ثمّ توجّه إلى الجهة الأخرى من الغرفة كي يسكب كأسي براندي. عندما استدار، كانت مارج قد اختفت، ولم يلمح سوى طرف روبها وقدميها الحافيتين أعلى الدرج.

إنّها تفضّل أن تبقى بمفردها، فكّر. صعد للأعلى كي يناولها كأسها، من ثمّ غيّر رأيه. لن يساعدها البراندي الآن، وهو يعرف ما هو شعورها، لذلك اتّجه بأسى صوب خزانة المشروبات. أراد أن يعيد محتويات كأس واحد فقط إلى الزجاجة، وإذ به يعيد محتويات الكأسين كلتيهما، من ثمّ وضع الزجاجة مكانها بين الزجاجات الأخرى.

غرق في الكنبة مجدّداً، مدّ ساقه فوق مسندها تاركاً قدمه تتدلّى. إنّه مرهق للغاية، ولم يقوَ حتّى على خلع حذائه. مرهق كما كان بعد أن قتل فريدي مايلز، فكّر فجأة، أو بعد أن قتل دكي في سان ريمو. لقد أوشك أن يقتل مارج أيضاً! تذكّر كيف فكّر بدم بارد أن يضرب رأسها بكعب حذائه، إلى أن تسقط مغشيّاً عليها دون أن يسبّب لها جروحاً ظاهرة في أيّ جزء من جسدها، وكيف كان سيجرّها عبر البهو من ثمّ عبر الأبواب الأماميّة بعد أن يطفئ الأنوار كي لا يراه أحد، وكيف لفّق القصّة بسرعة: انزلقت مارج، لكنّه لم يقفز لإنقاذها ولم يصرخ طالباً النجدة، اعتقد ببساطة بأنّها ستسبح عائدة نحو الدرجات، إلى أن... حتّى أنّه تخيّل الكلمات التي سيتبادلها هو ومستر غرينليف لاحقاً! مستر غرينليف مصدوم ومشدوه، وهو -توم- يبدو مصدوماً مثله، لكن ظاهريّاً فقط! تحت قناع الصدمة ذاك، سيكون هادئاً وواثقاً من نفسه، تماماً كما كان بعد مقتل فريدي، لأنّ قصّته عصماء، تماماً كقصّته عن زورق سان ريمو. قصصه جيّدة لأنّه يعيشها في رأسه، إلى حدّ أنّه يصدّقها هو شخصيّاً. لوهلة، سمع صوته يقول: «وقفتُ هناك على الدرجات، وناديتُها. اعتقدتُ بأنّها ستظهر في أيّة لحظة، أو أنّها تخدعني متظاهرة بأنّها غرقت. لم أكن

واثقاً من أنّها تعرّضت إلى أذى! لقد كان مزاجها حسناً للغاية قبل لحظة وهي تقف هنا...». شدّ جسده، هذا أشبه بغرامافون يصدح بداخل رأسه، دراما صغيرة تحدث هنا في صالونه يعجز عن إيقافها. تخيّل نفسه واقفاً مع رجال الشرطة الإيطاليّة ومستر غرينليف أمام الأبواب الكبيرة التي تنفتح على البهو الأماميّ. رأى نفسه وسمع صوته وهو يتحدّث بجديّة... وسيصدّقونه!

لم يكن ذلك الحوار المُتخيَّل هو ما أثار رعبه، ولا هلوساته بأنّه قتل مارج (يعرف أنّه لم يفعل)، بل كيف تذكّر نفسه وهو يقف أمام مارج وفردتا الحذاء في يديه، متخيّلاً كلّ ما سبق بطريقة منهجيّة باردة، فضلاً عن أنّه قَتَل مرّتين من قبل. هاتان المرّتان كانتا حقيقة واقعة، وليس خيالات! بوسعه الادّعاء بأنّه لم يرغب بارتكابهما، لكنّه فعل ذلك. أحياناً، ينسى تماماً أنّه قاتل، لكنّه يعجز عن ذلك في أحيان أخرى، الآن مثلاً. لقد نسي ذلك تماماً بكلّ تأكيد لبضع لحظات اليوم، عندما فكّر بمعنى امتلاك الأشياء، ولماذا يحبّ الحياة في أوروبا.

انقلب على جنبه، ورفع قدميه على الكنبة وهو يتعرّق ويرتجف. ماذا يحدث له؟! ماذا حدث له؟! هل سيتفوّه بالحماقات غداً عندما يلتقي بمستر غرينليف، ويثرثر عن مارج التي سقطت في القناة، وكيف صرخ طالباً النجدة، وكيف قفز في القناة دون أن يتمكّن من العثور عليها؟! وإن كانت مارج واقفة معهما، هل سيُجنّ ويعترف بكلّ ما فعله، ويخون نفسه كأنّه معتوه؟!.

يجب أن يواجه مستر غرينليف بالخاتمين غداً، وأن يكرّر القصّة ذاتها التي رواها لمارج، بعد إضافة المزيد من التفاصيل عليها، كي تبدو أفضل. باشر باختراع تلك التفاصيل، فهدأ ذهنه. تخيّل غرفة الفندق في روما، حيث يقف هو ودكي وهما يتحدّثان، دكي ينتزع الخاتمين من إصبعيه، ويعطيهما له قائلاً: «لا تخبر أحداً بهذا أيضاً!».

-27-

في صباح اليوم التالي، اتّصلت مارج هاتفيّاً بمستر غرينليف في الساعة الثامنة، كي تسأله متى بوسعها هي وتوم أن يأتيا إلى الفندق، ولا بدّ أنّ مستر غرينليف لاحظ اضطرابها. سمعها توم وهي تخبره عن الخاتمين، باستعمال كلماته -كلمات توم- ذاتها، لقد صدّقت قصّته على ما يبدو. مع ذلك، لم يستطع أن يخمّن ردّ فعل مستر غرينليف، وخشي أنّ مسألة الخاتمين ستكشف القصّة بأكملها لعيني هذا الأخير، ومن أنّهما قد يجدانه بصحبة شرطيّ متأهّب لاعتقال توم ريبلي، عندما يذهبان للقائه في الفندق. طغى هذا الاحتمال على الميزة المتمثّلة بأنّه لم يكن موجوداً، عندما سمع مستر غرينليف بالخاتمين للمرّة الأولى.

«ماذا قال؟»، سأل توم عندما أغلقت مارج الخطّ.

جلست مارج المرهقة على كنبة في الجهة الأخرى من الغرفة، وقالت: «يبدو لي أنّه يشاطرني الإحساس ذاته: دكي كان مصمّماً على الانتحار!».

لكن... سيتاح لمستر غرينليف بعض الوقت للتفكير بما سمعه من مارج، قبل أن يصلا، فكّر توم. «متى يريدنا أن نكون عنده؟»، سأل.

«قلتُ له إنّنا سنصل في التاسعة والنصف، أو قبل ذلك، بمجرّد أن ننتهي من القهوة... إنّها تغلي الآن». نهضت مارج، وذهبت إلى المطبخ. سبق لها أن ارتدت بزّة السفر ذاتها، التي كانت تلبسها عندما وصلت. جلس توم حائراً على حافّة الكنبة، وأرخى ربطة عنقه. لقد نام بثيابه هنا على الكنبة البارحة، وظلّ نائماً إلى أن أيقظته مارج عندما نزلت من الطابق العلويّ قبل دقائق. لم يعرف كيف غفا طيلة الليل في هذه الغرفة الباردة، وأحرجه ذلك لأنّ مارج تعجّبت عندما وجدته هنا. عنقه متيبّس، وكذلك

ظهره وكتفه اليمنى، وشعر بأنّه بائس. وقف فجأة، وهتف: «سأصعد إلى الأعلى كي أغتسل».

ألقى نظرة على غرفته في الطابق العلويّ، فاكتشف أنّ مارج قد حزمت حقيبتها وأقفلتها، ووضعتها على الأرض في منتصف الغرفة. تمنّى أن تغادر هي ومستر غرينليف في أحد القطارات الصباحيّة، وهو ما سيفعلانه على الأرجح، لأنّ مستر غرينليف سيقابل المحقّق الخاصّ في روما اليوم.

خلع ثيابه في الغرفة الثانية، من ثمّ دخل إلى الحمّام وفتح صنبور الدوش. ألقى نظرة على نفسه في المرآة، وقرّر أن يحلق ذقنه أوّلاً، لذلك عاد إلى الغرفة كي يجلب ماكينة الحلاقة الكهربائيّة. عادة، يحتفظ بالماكينة في الحمّام، لكنّه وضعها في الغرفة عندما جاءت مارج... هكذا، من دون سبب محدّد. في طريق العودة إلى الحمّام، سمع رنين الهاتف، ومارج تجيب. انحنى فوق درابزين الدرج وأصغى. «حسناً، لا بأس» قالت مارج، «أوه... لا يهمّ إن لم... أجل، سأخبره... حسناً، سنستعجل، توم يغتسل... أوه، سنصل خلال أقلّ من ساعة. باي باي».

سمع توم خطواتها تتّجه صوب الدرج، فقفز للخلف لأنّه عارٍ.

«توم؟» صاحت، «لقد وصل المحقّق الأمريكيّ إلى هنا! اتّصل لتوّه بمستر غرينليف، وقال إنّه في طريقه من المطار إلى الفندق».

«حسناً!» صاح توم، ودخل غاضباً إلى الحمّام. أقفل صنبور الدوش، ووصل ماكينة الحلاقة بمقبس الكهرباء. لنفترض أنّه كان تحت ماء الدوش في تلك اللحظة؟! ستندهه مارج من الأسفل بأيّ حال، لأنّها ستفترض ببساطة أنّه قادر على سماعها. كم سيسعد حين تغادر! تمنّى أن تغادر في هذا الصباح... إلّا إن قرّرت البقاء في ڤينيسيا هي ومستر غرينليف، كي يرَيا ماذا سيفعل المحقّق به. أدرك توم أنّ هذا المحقّق جاء خصّيصاً كي يلتقي به، وإلّا لانتظر عودة مستر غرينليف إلى روما. هل أدركت مارج ذلك يا ترى؟! لا على الأرجح، لأنّ ذلك يتطلّب على الأقلّ الحدَّ الأدنى من القدرة العقليّة على الاستنتاج.

ارتدى توم بزّة فاتحة اللون وربطة عنق، ثمّ نزل كي يحتسيا القهوة.

لقد استحمّ بماء ساخن جدّاً، ويشعر بأنّه أفضل حالاً الآن. لم تقل مارج شيئاً، سوى أنّ قصّة الخاتمين ستصنع فرقاً ضخماً بالنسبة للمحقّق ولمستر غرينليف على السواء، وهي تعني بذلك أنّ المحقّق سيتوصّل إلى الاستنتاج ذاته: دكي كان ينوي الانتحار. تمنّى توم أن تكون مصيبة في كلامها، الأمر كلّه يعتمد على شخصيّة المحقّق، وعلى الانطباع الأوّل الذي سيتركه توم عليه.

إنّه يوم رماديّ بارد آخر، توقّف هطول المطر عند الساعة التاسعة، لكنّه سيتساقط فيما بعد حتّى الظهيرة غالباً. ركب توم ومارج جندولاً من درجات الكنيسة إلى ساحة سان ماركو، من ثمّ تابعا مشياً إلى فندق غريتي. اتّصلا بغرفة مستر غرينليف، الذي قال لهما إنّ مستر ماكارون قد وصل، وطلب منهما الصعود.

فتح مستر غرينليف لهما الباب. «صباح الخير» قال، وضغط على ذراع مارج بطريقة أبويّة. ثمّ رحّب بتوم قائلاً: «توم...».

دخل توم وراء مارج، المحقّق يقف عند النافذة، رجل سمين قصير في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره، يبدو وجهه ودوداً يقظاً، وذكيّاً قليلاً، قليلاً فحسب! هذا كان انطباع توم عنه.

«هذا مستر آلفن ماكارون» قال مستر غرينليف، «هذان هما مس شيرود ومستر ريبلي».

تبادلوا جميعهم عبارة «كيف حالك؟».

لاحظ توم حقيبة يد جديدة على السرير، تتبعثر حولها أوراق وصور فوتوغرافيّة. رمقه ماكارون بنظراته، ثمّ قال: «فهمتُ أنّك صديق ريتشارد؟».

«كلانا صديقاه»، أجاب توم.

قاطعه مستر غرينليف، أراد أن يجلسوا جميعهم أوّلاً. الغرفة واسعة نوعاً ما، مكتظّة بالأثاث، تطلّ نوافذها على القناة.

جلس توم على كرسيّ بلا ذراعين، مُنجَّد بقماش أحمر، بينما جلس ماكارون على السرير، وأخذ يقلّب كومة الأوراق. هناك بضع أوراق منسوخة ضوئيّاً، لاحظ توم، بدت له نسخاً عن الشيكات، فضلاً عن بضع صور فوتوغرافيّة لدكي.

«هل الخاتمان معك؟» سأل ماكارون، وهو ينقل نظرته من توم إلى مارج.

«أجل» أجابت مارج بأسى، وهي تنهض. تناولت الخاتمين من حقيبة يدها، وأعطتهما لماكارون.

مدّ ماكارون الخاتمين في راحة يده إلى مستر غرينليف، وسأله: «هل هذان خاتماه؟»، فأومأ مستر غرينليف بالإيجاب بمجرّد أن لمحهما، لكنّ الانزعاج لاح على وجه مارج لوهلة خاطفة، كأنّها كانت ستقول: «أعرف خاتمَيه كما يعرفهما مستر غرينليف، وربّما أفضل منه!». التفت ماكارون إلى توم، وسأله: «متى أعطاك الخاتمين؟».

«في روما، في الثالث من شباط تقريباً على ما أذكر، بعد بضعة أيّام فقط من مقتل فريدي مايلز»، أجاب توم.

تفحّصه المحقّق بعينين متسائلتين، لونهما بنيّ فاتح، ورسم حاجبه المرفوع تجعيدَتين في جلد جبهته السميك. شعره بنيّ متموّج، مقصوص قصير جدّاً من الجانبين، لكنّ غرّته مفتولة عالياً فوق جبينه، وكأنّه طالب جامعيّ ظريف! لا يمكن للمرء أن يستنتج أيّ شيء من وجه كهذا، فكّر توم، لأنّه مُدَرَّب على إخفاء ما يشعر به صاحبه.

«ماذا قال لك عندما أعطاك الخاتمين؟».

«قال لي إنّه يريدني أن أحتفظ بهما، لو حصل له أيّ شيء. سألته عمّا يعتقد أنّه سيحصل له، فقال إنّه لا يعلم، وقد يحصل أيّ شيء!». صمت توم عمداً، ثمّ أضاف: «لم يبدُ لي مكتئباً في تلك اللحظة بالذّات، أكثر من بقيّة الأيّام. لقد تكلّمتُ معه، ولم يخطر ببالي أبداً أنّه قد ينتحر. كلّ ما عرفته هو أنّه يريد الرحيل بعيداً، هذا كلّ شيء».

«إلى أين؟»، سأل المحقّق.

«إلى باليرمو» قال توم، ونظر إلى مارج. «لا بدّ أنّه أعطاني الخاتمين في اليوم نفسه الذي تحدّثنا فيه أنا وأنت هاتفياً في روما... في فندق إنجلترا. إمّا في ذلك اليوم، أو في اليوم الذي قبله. هل تتذكّرين تاريخه؟».

«الثاني من شباط» قالت مارج بصوت لا يكاد يُسمَع.

ماكارون يدوّن ملاحظاته. «ماذا أيضاً؟» وجّه سؤاله إلى توم، «كم كانت الساعة؟ هل كان ثملاً؟».

«كلّا، دكي يشرب القليل فقط من الكحول. أعتقد أنّ ذلك حصل بعد الظهر، كما طلب منّي ألّا أخبر أحداً عن الخاتمين، ووافقتُ بالطبع. خبّأتهما، ونسيتُ أمرهما تماماً، كما أخبرتُ مس شيرود... لأنّني فرضتُ على نفسي بصرامة ألّا أذكر شيئاً عنهما أمام أحد، كما أظنّ». تكلّم توم دون توقّف، وهو يتأتئ عفويّاً كما يُفترَض حتماً بأيّ شخص في ظروف كهذه، فكّر.

«ماذا فعلت بالخاتمين؟».

«وضعتهما في صندوق قديم... علبة أحتفظ فيها بالأزرار غريبة الشكل».

رمقه ماكارون صامتاً للحظة، استغلّها توم كي يحصّن نفسه، ذلك الوجه الإيرلنديّ الجامد، لكن المتيقّظ، قد يصدر عنه أيّ شيء: سؤال مستفزّ، اتّهام صريح بالكذب... تشبّث توم ذهنيّاً بالوقائع التي اخترعها، مصمّماً على الدفاع عنها حتّى الموت. كاد يسمع أنفاس مارج في الصمت الذي ساد في الغرفة، وأجفله سعال مستر غرينليف الذي بدا هادئاً على نحو ملفت للنظر، بل وكأنّه يشعر بالملل أيضاً. هل توصّل هو وماكارون إلى فرضيّة تدينه، بناءً على قصّة الخاتمين؟!.

«هل دكي هو ذاك النوع من الرجال، الذي قد يعيرك الخاتمين لفترة قصيرة... كتميمة للحظّ الجيّد مثلاً؟ هل قام بشيء مماثل من قبل؟».

«كلّا!» هتفت مارج قبل أن يفتح توم فمه.

بدأ توم يتنفّس براحة، أدرك أنّ ماكارون لا يملك فكرة عمّا يجب أن يستنتجه من قصّة الخاتمين، وما يزال بانتظار إجابته. «لقد أعارني بعض الأشياء من قبل» قال توم، «سمح لي أن أستعير ربطات عنقه وجاكيتاته بين حين وآخر... لكن هذا يختلف عن الخاتمين بالطبع!». اضطرّ لقول ذلك، لأنّ مارج تعرف بلا شكّ عن تلك الحادثة، عندما وجده دكي وهو يجرّب ملابسه.

«لا أستطيع أن أتخيّل دكي من دون الخاتمين!» قالت مارج لماكارون، «إنّه ينزع الخاتم ذا الفصّ الأخضر من إصبعه عندما يسبح، ثمّ يضعه على

الفور بعد أن ينتهي. الخاتمان جزء من هندامه، لذلك أظنّ أنّه إمّا عزم على الانتحار، أو على تغيير هويّته».

هزّ ماكارون رأسه. «هل لديه أعداء؟».

«كلّا، إطلاقاً!» هتف توم، «سبق لي أن فكّرت بذلك».

«هل يخطر ببالك أيّ سبب لرغبته بإخفاء شخصيّته، أو بانتحال شخصيّة رجل آخر؟».

ردّ توم بحذر، وهو يلوي عنقه الذي يؤلمه: «ربّما... لكن هذا مستحيل عملياً في أوروبا. لا بدّ أن يحصل على جواز سفر جديد مختلف، لأنّ أيّ بلد سيطلب منه إبرازه إن سافر إليه، فضلاً عن أنّه مضطرّ لإبرازه حتّى للمبيت في فندق!».

«قلتَ لي البارحة إنّه ليس مضطرّاً لذلك!»، علّق مستر غرينليف.

«أجل، أعني بالنسبة للفنادق الإيطاليّة الصغيرة. إنّه احتمال وارد بالطبع، لكن مع كلّ الضجّة الصحفيّة حول اختفائه، لا أعرف كيف سيختبئ في فندق صغير بتلك الطريقة!» قال توم، «لا بدّ أن يشي به شخص ما ذات يوم».

«حسناً، لقد غادر وأخذ معه جواز سفره كما يبدو» قال ماكارون، «لأنّه دخل بواسطته إلى صقليّة، وأبرزه هناك كي ينزل في فندق كبير».

«أجل»، قال توم.

دوّن توم ملاحظاته لبعض الوقت، من ثمّ رفع رأسه وسأل توم: «حسناً، ما رأيك بالمسألة، مستر ريبلي؟».

لم ينته ماكارون منه بعد، فكّر توم، بل سيقابله على انفراد لاحقاً. «أخشى أنّني أتّفق مع رأي مس شيرود، بأنّ دكي كان عازماً على الانتحار، ومنذ البداية على ما يبدو. لقد أخبرتُ مستر غرينليف بهذا سابقاً».

نظر ماكارون إلى مستر غرينليف الذي لم يعقّب على ما قاله توم، بل نظر إليه بترقّب. شعر توم بأنّ ماكارون ميّال أيضاً للاعتقاد بأنّ دكي ميت، وبأنّ قدومه إلى هنا كان مضيعة للوقت والمال.

«أريد أن أفحص الوقائع مرّة أخرى» قال ماكارون وهو يعود إلى أوراقه،

كي يفكّر على مهل. «آخر مرّة شُوهِد فيها ريتشارد كانت في الخامس عشر من شباط، عندما نزل من السفينة في نابولي عائداً من باليرمو»، قال.

«هذا صحيح» قال مستر غرينليف، «يتذكّر أحد مضيفي السفينة أنّه رآه».

«لكن لا أثر له إطلاقاً بعد ذلك في أيّ فندق، ولم يتواصل مع أحد نهائيّاً» قال ماكارون، وهو ينقل نظراته من مستر غرينليف إلى توم.

«صحيح»، قال توم.

نظر ماكارون إلى مارج، فقالت: «أجل، هذا صحيح».

«متى رأيتِه آخر مرّة، مس شيرود؟».

«في الثالث والعشرين من تشرين الثاني، قبل أن يغادر إلى سان ريمو»، أجابت بحزم.

«هل كنتِ آنذاك في مونغيبللو؟» سألها ماكارون، ولفظ اسم القرية بحرف (غ)، وليس (ج)، كأنّه يجهل اللغة الإيطاليّة تماماً.

«أجل» أجابت مارج، «رأيته للمرّة الأخيرة في مونجيبللو... فاتتني فرصة اللقاء به في روما في شباط».

مارج العزيزة الطيّبة! شعر توم بالودّ تجاهها نوعاً ما، على الرغم من كلّ شيء. في الحقيقة، إنّه يشعر بهذا الودّ منذ الصباح، على الرغم من أنّها تزعجه.

«لقد حاول أن يتجنّب الجميع في روما» قال توم، ولذلك عندما أعطاني الخاتمين... ظنّنتُ بأنّه ينفّذ خطّة ما للتملّص من معارفه جميعهم، كي يعيش في مدينة بعيدة، ويتوارى عن الأنظار لبعض الوقت».

«لماذا برأيك؟».

استفاض توم بالإجابة، وتحدّث عن مقتل فريدي مايلز صديق دكي، وتأثير ذلك على دكي.

«هل تظنّ بأنّ دكي يعرف من قتل فريدي مايلز؟».

«كلّا، لا أظنّ ذلك أبداً».

نظر ماكارون إلى مارج، التي هزّت رأسها وقالت: «لا».

«فكّر للحظة!» قال ماكارون لتوم، «هل تظنّ أنّ هذا يفسّر سلوكه؟! هل تعتقد أنّه يتهرّب من أسئلة الشرطة، من خلال التواري عن الأنظار الآن؟!».

فكّر توم قليلاً، ثمّ قال: «لم ألاحظ ما يشير إلى هذا الاحتمال إطلاقاً».

«هل تظنّ بأنّ دكي كان خائفاً من أمر ما؟».

«لا يسعني أن أتخيّل ما هو هذا الأمر!».

سأله ماكارون إن كان دكي وفريدي مايلز صديقَين حميمَين، وهل يعرف أصدقاء آخرين مشتركين بين هذين الاثنين، هل يدين أحدهما بالمال للآخر، هل لديهما عشيقات؟ -«لا أعرف إلّا مارج فقط»، أجاب توم، وعندها احتجّت مارج قائلة بأنّها لم تكن عشيقة فريدي، لذلك لا يمكن أن تنشب عداوة بين الرجلين بسببها- وهل يحسب توم نفسه أفضل صديق لدكي هنا في أوروبا؟.

«كلّا، لن أقول ذلك» أجاب توم، «أظنّ أنّ أفضل صديقة لدكي هي مارج شيرود، فضلاً عن أنّني لا أعرف أيّاً من أصدقائه الآخرين هنا في أوروبا».

درس ماكارون وجه توم مجدّداً. «ما رأيك بالإيصالات المزوّرة؟»، سأل.

«هل هي مزوّرة حقّاً؟! لا أحد متأكّد من ذلك حسب معلوماتي!».

«الآراء منقسمة هنا» أجاب ماكارون، «يعتقد الخبراء بأنّ الرسالة التي أرسلها دكي إلى بنك نابولي ليست مزوّرة، ممّا يعني أنّه يتستّر على شخص ما، إن وقع التزوير فعلاً. لنفترض جدلاً بأنّ الإيصالات مزوّرة، هل تملك فكرة عمّن يحاول دكي التستّر عليه؟».

تردّد توم للحظة، فقالت مارج: «أنا أعرف دكي، ولا أتخيّل بأنّه يتستّر على أيٍّ كان. لماذا سيفعل ذلك؟».

حدّق ماكارون مجدّداً إلى توم. هل يقيّم صِدقَه، أم يفكّر بكلّ ما قاله له يا ترى؟! عجز توم عن تحديد الإجابة. ماكارون أشبه بتاجر سيّارات أمريكيّ، أو أيّ نمط آخر من التّجار عموماً، فكّر توم. إنّه مرح، لبق، متوسّط الذكاء، قادر على تجاذب الحديث عن البيسبول مع رجل آخر، أو مجاملة امرأة بتعليق غبيّ. لا يبدو خطيراً، لكن من الحكمة ألّا يستهين المرء بخصومه!

راقب توم فمَ ماكارون الصغير الناعم ينفتح، وسمعه يقول له: «هل تمانع أن تنزل معي للأسفل بضع دقائق، مستر ريبلي؟ إن سمح وقتك بذلك».

«بكلّ تأكيد» أجاب توم، ونهض.

«لن نتأخّر» قال ماكارون لمارج ومستر غرينليف.

التفت توم إلى الخلف عندما وصل إلى باب الغرفة، لأنّ مستر غرينليف نهض وكان على وشك أن يقول شيئاً ما لم يسمعه. لاحظ فجأة أنّ المطر يتساقط، مطر خفيف رماديّ متواصل يصفع النوافذ... وكأنّها اللمحة الأخيرة، مشوَّشة، غائمة، ومستعجلة: جسد مارج يبدو صغيراً متكوّراً في الغرفة الكبيرة، مستر غرينليف منحنٍ للأمام كرجل عجوز، يحتجّ على أمر ما... لكنّ الغرفة المريحة هي «شيء»، أمّا الإطلالة عبر القناة إلى حيث يوجد منزله -الذي يحجبه المطر عن الرؤية الآن- فكانت هي «المشهد» الذي قد لا يراه بعد اليوم!.

سأل مستر غرينليف: «هل... هل ستعودان خلال دقائق؟».

«أوه، أجل» أجاب ماكارون بصرامة جلّاد حياديّة.

مشى هو وتوم إلى المصاعد. هل هذه هي الطريقة التي يتّبعونها عادة؟! تساءل توم، كلمةٌ تقال بصوت خفيض في البهو، يسلّمه ماكارون إلى البوليس الإيطاليّ، من ثمّ يعود إلى الغرفة بسرعة كما وعد؟! هناك ورقتان في يد ماكارون، أخذهما من حقيبته. حدّق توم إلى الإفريز التزيينيّ، المنقوش إلى جانب لوحة أرقام الطوابق في المصعد: شعار مزخرف على شكل بيضة، تؤطّرها أربع نقاط بارزة، وبيوض، ونقاط تمتدّ من الأعلى للأسفل. فكِّرْ بملاحظة عاديّة لبقة، عن مستر غرينليف مثلاً! قال لنفسه، وكزّ على أسنانه. آهٍ لو ينجو من التعرّق! صحيح أنّه لا يتعرّق الآن، لكنّ العرق سيغطّي وجهه كلّه بمجرّد أن يصلا إلى البهو. بالكاد تصل قامة ماكارون إلى كتفه، التفت إليه ما أن توقّف المصعد، وسأل بأسى وهو يرسم ابتسامة على وجهه: «هل هي زيارتك الأولى إلى ڤينيسيا؟».

«أجل»، أجاب ماكارون وهما يعبران البهو. «هل ندخل إلى هناك؟»، سأل بنبرة مهذّبة، وهو يشير إلى بار القهوة.

«حسناً»، وافق توم بلطف. البار ليس مزدحماً، لكن لا توجد فيه طاولة منعزلة يجلسان إليها، دون أن يسمعهما الزبائن الآخرون. هل سيتّهمه ماكارون في مكان كهذا؟! هل سيضع الأدلّة أمامه على الطاولة بهدوء، دليلاً تلو الآخر؟!.

جلس على الكرسي الذي سحبه ماكارون من أجله، بينما جلس هذا الأخير وظهره إلى الحائط.

جاء النادل، وقال: «أيّها السيّدان؟».

«قهوة»، قال ماكارون.

«كابوتشينو» قال توم، «هل تفضّل الإكسبريسو أم الكابوتشينو؟».

«أيٌّ منهما بالحليب؟ الكابوتشينو؟».

«أجل».

«كابوتشينو إذن».

طلب توم الكابوتشينو من النادل.

نظر إليه ماكارون، ابتسم فمه الصغير ابتسامة جانبيّة.

تخيّل توم ثلاث أو أربع بدايات مختلفة: «لقد قتلتَ ريتشارد غرينليف، أليس كذلك؟ فَضَحَكَ الخاتمان. ألا تظنّ بأنّك بالغت بمسألة الخاتمين؟»، أو «أخبرْني عن زورق سان ريمو بالتفصيل، مستر ريبلي!»، أو يستنتج شيئاً فشيئاً بهدوء: «أين كنتَ في الخامس عشر من شباط؟ عندما عاد ريتشارد غرينليف إلى نابولي؟ حسناً، لكن أين أقمتَ آنذاك؟ أين أقمتَ في شهر كانون الثاني على سبيل المثال؟ هل بوسعك إثبات ذلك؟»... لم ينطق ماكارون بحرف، بل اكتفى بالجلوس صامتاً وهو يحدّق إلى يديه السمينتين، مبتسماً ابتسامة صغيرة وكأنّ القضيّة في غاية السهولة بالنسبة له، فكّر توم، إلى حدّ أنّه ليس مضطراً لصياغة الحلّ في كلمات.

إلى الطاولة المجاورة، جلس أربعة رجال إيطاليّين يثرثرون كالمجانين، وينفجرون بقهقهات مجنونة أيضاً. أراد توم أن ينأى بنفسه عنهم، وجلس بلا حركة. شدّ عضلاته إلى أن أصبح جسمه صلباً كالحديد، وانقلب التوتّر

المحض إلى درع. سمع نفسه يسأل بصوت هادئ إلى حدّ لا يعقل: «هل تسنّت لك الفرصة للحديث مع الملازم روفيريني، عندما مررتَ بروما؟». بمجرّد أن طرح هذا السؤال، أدرك بأنّ غايته هي معرفة إن كان ماكارون قد سمع بقضيّة زورق سان ريمو، أم لا.

«كلّا، لم ألتق به» قال ماكارون، «وجدتُ بانتظاري رسالة تقول إنّ مستر غرينليف سيلاڤيني في روما، لكنّني وصلتُ أبكر من المتوقَّع، ففكّرتُ بركوب الطائرة كي ألحق به، وكي أتحدّث معك وجهاً لوجه أيضاً». نظر إلى أوراقه، ثمّ سأل: «أيُّ نمط من الرجال هو ريتشارد؟ كيف تصف شخصيّته؟».

هل سيوقع به ماكارون تدريجيّاً؟ هل سيلتقط أدلّة إضافيّة من الكلمات التي سيختارها لوصف دكي؟ أم أنّ كلّ ما يريده حقّاً هو رأيٌ موضوعيّ بحت، لا يستطيع الحصول عليه من والدَي دكي؟.

«لقد أراد أن يصبح رسّاماً» بدأ توم بالكلام، «من ثمّ أدرك أنّه لن يكون رسّاماً بارعاً بتاتاً. تصرّف وكأنّ هذا الأمر لا يهمّه، وكأنّه سعيد تماماً بنمط الحياة التي اختارها هنا في أوروبا». لعق شفتيه، ثمّ تابع: «أعتقد بأنّ الحياة نالت منه. والده، ربّما تعرف ذلك، لم يوافق على ما يقوم به ابنه، فضلاً عن أنّ دكي أوصل نفسه إلى نقطة حرجة في علاقته بمارج».

«ماذا تقصد؟».

«وقعت مارج في حبّه، لكنّه لم يبادلها المشاعر ذاتها. في الوقت نفسه، أمضى وقته معها في مونجيبللو، وظلّت هي تتمنّى...». شعر توم بالأمان أكثر فأكثر، لكنّه تظاهر بأنّه يعاني صعوبة بالتعبير عمّا يدور في رأسه. «لم يناقش الأمر معي إطلاقاً في الحقيقة. إنّه يحترم مارج كثيراً، وكان مولعاً بها للغاية، لكن من الواضح بالنسبة لنا جميعنا –وبالنسبة لمارج أيضاً– بأنّه لن يتزوّجها أبداً. مع ذلك، لم تيأس نهائيّاً! أظنّ أنّ هذا هو السبب الحقيقيّ، الذي دفع دكي لمغادرة مونجيبللو».

أصغى ماكارون بانتباه وتعاطف، كما لاحظ توم، ثم سأله: «ما الذي تقصده بأنّها لم تيأس إطلاقاً؟ ماذا فعلتْ؟».

انتظر توم إلى أن وضع النادل فنجانَي الكابوتشينو المليئَين بالرغوة،

ودسّ الفاتورة بينهما تحت وعاء السكّر، ثمّ قال: «استمرّت بكتابة الرسائل إليه، طالبة منه أن يلتقيا، لكنّها كانت لبقة للغاية في الوقت نفسه، ولم تتطفّل عليه عندما رغب بالبقاء وحده. أخبرني دكي عن كلّ هذا عندما رأيتُه في روما. قال إنّ مزاجه غير ملائم إطلاقاً للقاء مارج بعد مقتل مايلز، وأنّه يخشى من قدومها إلى روما بمجرّد أن تسمع بالورطة التي وقع فيها».

«لِماذا تعتقد أنّه كان متوتّراً بعد مقتل مايلز؟»، سأل ماكارون وهو يرتشف رشفة من الكابوتشينو. زمّ عينيه، إمّا بسبب سخونة القهوة أو بسبب مذاقها المرّ، من ثمّ حرّك الفنجان بالملعقة.

شرح له توم كيف كان دكي وفريدي صديقَين حميمَين، وأنّ فريدي قُتِل بعد بضع دقائق فقط من مغادرة شقّة دكي.

«هل تظنّ بأنّ ريتشارد قتل فريدي؟»، سأل ماكارون بهدوء.

«كلّا، لا أظنّ ذلك».

«لماذا؟».

«لا سبب يدعوه لقتل فريدي. على الأقلّ، ليس على حدّ علمي».

«يجيب الناس عادة، بأنّ الشخص المعنيّ ليس من النمط الذي يقتل أيّاً كان!» قال ماكارون، «هل تظنّ أن ريتشارد هو من النمط الذي يستطيع أن يَقْتُل؟».

تردّد توم، وبحث بجديّة عن الحقيقة. «لم أفكّر بذلك من قبل أبداً! لا أعرف ما هو نمط أولئك القادرين على قتل شخص ما، لكنّه كان غاضباً...»، قال.

«متى؟».

وصف توم مجريات اليومين الأخيرَين في روما، وقال بأنّ دكي كان غاضباً جدّاً ومُحبَطاً لأنّ الشرطة تستجوبه، وغادر شقّته إلى الفندق تجنّباً لاتّصالات الأصدقاء والغرباء. ربط بين هذه النقطة، وبين تزايد إحباط دكي عموماً لأنّ مهارته في الرسم لم تتحسّن كما أراد، ووصفه على أنّه شابّ عنيد فخور بنفسه، يخاف من والده لذلك صمّم على تحدّي رغباته. ووصفه أيضاً بأنّه غريب الأطوار، كريم مع أصدقائه ومع الغرباء على السواء، لكنّه متقلّب المزاج يتحوّل فجأة من شخص يحبّ الحياة الاجتماعيّة، إلى شخص

انعزاليّ كئيب. اختتم بالقول إنّ دكي كان شابّاً عاديّاً للغاية، يحسب نفسه شخصاً فريداً من نوعه. «إن أقدم على الانتحار» قال، «فذلك عائد إلى أنّه أدرك إخفاقاته في بعض المناحي، وعرف عيوبه. الأسهل بالنسبة لي هو أن أتخيّله ينتحر، على أن أتخيّله قاتلاً!».

«لستُ متأكّداً من أنّه لم يقتل فريدي مايلز. ما رأيكَ أنت؟».

توم واثق من أنّ ماكارون صادق تماماً، يتوقّع منه أن يدافع عن دكي الآن، لأنّهما صديقان. شعر بأنّ خوفه تلاشى نوعاً ما، قليلاً فقط، وكأنّه يذوب رويداً رويداً بداخله. «لستُ متأكّداً من ذلك» قال توم، «لكنّني لا أصدّق بأنّه قتله».

«أنا لستُ متأكّداً بدوري، لكنّ هذا يشرح الكثير، أليس كذلك؟».

«أجل» أجاب توم، «يشرح كلّ شيء».

«حسناً، إنّه اليوم الأوّل في العمل فحسب!» قال ماكارون بابتسامة متفائلة، «لم أطّلع بعد على تقرير شرطة روما. سأتكلّم معك مجدّداً على الأرجح بعد أن أعود إلى هناك».

حدّق إليه توم، انتهت المسألة على ما يبدو. «هل تتكلّم الإيطاليّة؟»، سأله.

«كلّا، ليس بطلاقة، أعرف كيف أقرأ بالإيطاليّة، لكنّني أتكلّم الفرنسيّة على نحو أفضل... سأتدبّر أموري» أجاب ماكارون، وكأنّه أمر فائق الأهميّة.

أجل، هذا فائق الأهميّة، فكّر توم. لا يمكن لماكارون أن يستخلص كلّ ما يعرفه روڤيريني عن قضيّة غرينليف بمساعدة مترجم، كما لن يكون قادراً على التجوّل هنا وهناك كي يطرح أسئلة على أشخاص مثل المشرفة على المبنى الذي قطنه دكي غرينليف في روما، وهو الأهمّ. «لقد تحدّثتُ إلى روڤيريني هنا في ڤينيسيا قبل بضعة أسابيع» قال، «بلّغه تحيّاتي».

«سأفعل» قال ماكارون وأنهى فنجانه. «بما أنّك تعرف دكي، إلى أين تظنّه سيذهب كي يتوارى عن الأنظار؟».

سند توم ظهره على مسند الكرسيّ، لقد وصل ماكارون إلى حضيض اليأس على ما يبدو!.

«حسناً، أعرف بأنّ إيطاليا هي مكانه المفضّل، ولن أراهن على فرنسا... إنّه يحبّ اليونان أيضاً، وتحدّث عن السفر إلى مايوركا يوماً ما. إسبانيا بمختلف أرجائها، هي احتمال وارد برأيي».

«فهمتُ»، قال ماكارون متنهّداً.

«هل ستعود إلى روما اليوم؟».

رفع ماكارون حاجبيه، وقال: «أعتقد ذلك، إن حظيتُ ببضع ساعات من النوم. لم أنم منذ يومين!».

إنّه متماسك مع ذلك، فكّر توم. «اعتقد أنّ مستر غرينليف استعلم عن القطارات. هناك قطاران ينطلقان اليوم صباحاً على الأغلب، وربّما تنطلق قطارات أخرى بعد الظهر. مستر غرينليف خطّط للرحيل اليوم»، قال.

«بوسعنا أن نغادر اليوم»، قال ماكارون وهو يمدّ يده إلى الفاتورة. «شكراً جزيلاً على مساعدتك مستر ريبلي. عنوانك ورقم هاتفك موجودان لديّ، إن احتجتُ لرؤيتك مجدّداً».

نهضا كلاهما، ثمّ قال توم: «هل تمانع إن ذهبتُ كي أودّع مارج ومستر غرينليف؟».

لم يمانع ماكارون بالطبع. ركبا المصعد مجدّداً، وكبح توم نفسه كي لا يصفر لحن أغنية «Papa non vuole»، التي كانت تدور في رأسه.

عندما دخل هو وماكارون إلى الغرفة، حدّق توم بإمعان إلى مارج، بحثاً عن أيّة علامات تدلّ على العداء. بدت مارج تراجيديّة نوعاً ما لا أكثر، وكأنّها ترمّلت لتوّها.

«أودّ أن أطرح عليكِ بضعة أسئلة على انفراد أيضاً، مس شيرود» قال ماكارون، «إن لم تمانع ذلك»، أضاف موجّهاً كلامه لمستر غرينليف.

«لا أبداً. كنتُ على وشك النزول للبهو، كي أشتري جرائد»، قال مستر غرينليف.

تابع ماكارون عمله، ودّع توم كلّاً من مارج ومستر غرينليف، قد لا تتاح له فرصة ثانية لتوديعهما إن قرّرا العودة إلى روما اليوم. بعد ذلك، قال

لماكارون: «يسرّني السفر إلى روما إن احتجتَ إلى مساعدتي. بأيّ حال، سأبقى هنا إلى نهاية شهر أيّار غالباً».

«سنتوصّل إلى نتيجة ما بحلول ذلك الوقت» قال ماكارون، مبتسماً تلك الابتسامة الإيرلنديّة الواثقة.

نزل توم ومستر غرينليف إلى بهو الفندق.

«لقد طرح عليّ الأسئلة نفسها مرّة أخرى!» قال توم لمستر غرينليف، «كما سألني عن رأيي بشخصيّة دكي».

«حسناً، وما هو رأيك؟»، سأل مستر غرينليف بنبرة بائسة.

سواء انتحر دكي حقّاً أم توارى عن الأنظار فحسب، الأمران شائنان من وجهة نظر مستر غرينليف، أدرك توم. «أخبرته بما أحسبه الحقيقة» قال، «وهو أنّ دكي قادر على الهرب، وقادر على الانتحار».

لم يعلّق مستر غرينليف على ما سمعه، بل اكتفى بالتربيت على ذراع توم. «وداعاً يا توم»، قال.

«وداعاً» قال توم، «لنبقَ على اتّصال».

كلّ شيء على ما يرام بينه وبين مستر غرينليف، فكّر، وستبقى الأمور كذلك مع مارج أيضاً. لقد ابتلعتِ الطعم حول ما شرحه عن انتحار دكي، وهو ما سيوجّه مسار أفكارها من الآن فصاعداً.

أمضى توم طيلة ما بعد الظهر في منزله، متوقّعاً أن يرنّ الهاتف، أن يتلقّى اتّصالاً واحداً على الأقلّ من ماكارون، حتّى ولو لم تطرأ مسائل هامّة. رنّ الهاتف مرّة واحدة فقط، وكانت المتّصلة هي تيتي، الكونتيسة المقيمة في ڤينيسيا، تدعوه لتناول الكوكتيل عصراً، فقبل دعوتها. لماذا يتوقّع المشاكل من مارج؟! سأل نفسه، لَم تسبّبْ له مشاكل من قبل إطلاقاً، وانتحار دكي هو فكرة ستسيطر على عقلها، وسترتّب كلّ شيء في مخيّلتها الباهتة كي تتماشى معها!.

-28-

اتّصل ماكارون صباح اليوم التالي من روما، وطلب من توم أسماءَ معارفِ دكي في مونجيبللو جميعهم. على ما يبدو، هذا هو كلّ ما أراد معرفته، لأنّه استغرق وقتاً طويلاً بتدوين الأسماء، ومقارنتها بتلك التي زوّدته بها مارج. لائحة مارج شبه تامّة، لكنّ توم لم يغفل اسماً، وزوّد ماكارون بعناوين المنازل التي يصعب الوصول إليها: جورجيو بالطبع، بييترو حارس الزوارق، ماريّا عمّة فاوستو التي لم يتذكّر توم كنيتها، لكنّه شرح لماكارون كيف يصل إلى بيتها بطريقة معقّدة، آلدو البقّال، آل سيشي، ولم ينسَ ستڤنسون العجوز الذي لم يلتقِ به قطّ، وهو رسّام يعيش في عزلة خارج القرية.

استغرق توم عدّة دقائق، إلى أن انتهى من تعداد الأسماء كلّها، ولا بدّ أنّ التحقّق منها جميعها سيتطلّب بضعة أيّام من ماكارون. لم ينسَ أحداً، لكنّه لم يذكر السنيور بوتشي، الذي تولّى مهمّة بيع منزل دكي وقاربه، والذي سيخبر ماكارون بلا شكّ بأنّ توم عاد إلى مونجيبللو كي يرتّب أمور دكي، هذا إن لم تكن مارج قد أخبرته لتوّها. لا يهمّ لو عرف ماكارون هذا، إنّه ليس أمراً خطيراً بأيّ حال، فكّر توم، أمّا بالنسبة لآلدو وستڤنسون وسواهما، فليستخلص منهم ماكارون ما شاء من المعلومات!.

«هل تتذكّر أيّاً كان في نابولي؟»، سأل ماكارون.

«لا أعرف أحداً من معارفه هناك».

«روما؟».

«آسف، لم أره مع أيٍّ من أصدقائه هناك».

«ألم تقابل ذلك الرسّام، دي ماسيمو؟».

«كلّا، رأيته مرّة واحدة فقط، لكنّني لم أتكلّم معه»، قال توم.

«كيف يبدو؟».

«حسناً، لمحته عند زاوية الشارع فحسب. افترقتُ عن دكي عندما كان ذاهباً للقائه، ولم أقترب منه بما يكفي كي أراه جيّداً. يبلغ طول قامته حوالي خمس أقدام وتسعة إنشات، شعره رماديّ، وهو في الخمسين من عمره تقريباً... هذا كلّ شيء! بدا لي متين البنية، وأتذكّر أيضاً أنّ بزّته كانت رماديّة فاتحة».

«امممم... حسناً» قال ماكارون شاردَ الذهن، وكأنّه يدوّن كلّ ما يسمعه. «أظنّ أنّ هذا كلّ شيء، شكراً لك مستر ريبلي»، أضاف.

«على الرحب والسعة. حظّاً سعيداً».

بعد ذلك، انتظر توم بهدوء في المنزل بضعة أيّام، كما سيفعل أيّ شخص عندما يصل البحث عن صديقه إلى نقطة حاسمة، ورفض الدعوات إلى ثلاث أو أربع حفلات. تجدّد اهتمام الصحافة باختفاء دكي، خاصّة عندما وصل إلى إيطاليا محقّق أمريكيّ خاصّ استقدمه والده دكي. جاء بعض المصوّرين من مجلّة يوروبيو وأوجي كي يلتقطوا صوراً لتوم في منزله، لكنّه طردهم بصرامة، بل أمسك مصوّراً لحوحاً من مرفقه وجرّه فعليّاً عبر الصالون صوب الباب. باستثناء ذلك، لم يقع أيّ حدثٍ هامّ خلال تلك الفترة، لا اتّصالات هاتفيّة، لا رسائل، ولا حتّى رسائل من الملازم روڤيريني. تخيّل توم الأسوأ أحياناً، خاصّة عند الغسق حين يبلغ اكتئابه الذروة. تخيّل كيف سيجتمع روڤيريني وماكارون، ويتوصّلان معاً إلى فرضيّة مفادها أنّ دكي اختفى في شهر تشرين الثاني. تخيّل كيف سيتحقّق ماكارون من تاريخ شرائه للسيّارة، وكيف سيشمّ رائحة لعبة خبيثة عندما يكتشف بأنّ دكي لم يعد من رحلة سان ريمو، وبأنّ توم عاد إلى مونجيبللو كي يتدبّر أمر بيع الممتلكات. قيّم مراراً وتكراراً كيف ودّعه مستر غرينليف ذلك الوداع المرهَق اللّامبالي، وفسّره على أنّه عدائيّ، وتخيّل كيف سيثور غضب مستر غرينليف في روما، لأنّ كلّ تلك الجهود لن تتمخّض عن أيّ دليل يقوده إلى دكي، وكيف سيطالب فجأة بفتح تحقيق دقيق حول توم ريبلي، ذلك الوغد الذي أرسله على نفقته الخاصّة كي يعيد ابنه إلى الوطن!.

بأيّ حال، استرجع توم تفاؤله في الصباح دائماً. هناك نقطة إيجابيّة في الأمر، مارج تصدّق أنّ دكي قضى كلّ تلك الأشهر متسكّعاً في روما، ولا بدّ أنّها تحتفظ بكلّ الرسائل، وستعرضها على ماكارون. إنّها رسائل ممتازة، أيضاً! سُرَّ توم لأنّه كتبها كلّها آنذاك بناءً على تفكير عميق، مارج هي الآن رصيد يصبّ لصالحه وليس ضدّه، سرَّ أيضاً لأنّه وضع حذاءه جانباً في تلك الليلة، عندما عثرت مارج على الخاتمين.

راقب الشمس كلّ صباح من نافذة غرفة نومه، تأمّلها تشرق عبر الضباب الشتويّ، وتشقّ طريقها إلى وسط السماء فوق المدينة الوادعة، من ثمّ تبزغ تماماً ويسطع ضوؤها طيلة ساعتين كاملتين قبل الظهر. هذه البداية اليوميّة الهادئة، كانت أشبه بوعدٍ، بمستقبلٍ مفعم بالسلام. الأيّام أصبحت أكثر دفئاً، الضوء أشدّ سطوعاً، والمطر أقلّ، الربيع على وشك أن يصل إلى ڤينيسيا! في أحد هذه الصباحات، بل في أجملها، سيترك المنزل ويركب سفينة إلى اليونان.

اتّصل توم بمستر غرينليف، في مساء اليوم السادس. لا جديد لديه، وتوم لم يتوقّع شيئاً بأيّ حال. مارج سافرت إلى أمريكا، والصحف ستكتب كلّ يوم خبراً عن القضيّة ما دام مستر غرينليف موجوداً في إيطاليا، فكّر توم. بأيّ حال، ذخيرة الصحف العاطفيّة حول قضيّة دكي غرينيلف، بدأت تتلاشى.

«كيف حال زوجتك؟»، سأل توم.

«لا بأس. أظنّ أنّ التوتّر يرهقها أكثر فأكثر. اتّصلتُ بها مرّة أخرى أمس».

«يؤسفني سماع هذا» قال توم. لا بدّ أن يكتب لها رسالة رقيقة، فكّر، بضع كلمات لطيفة، بما أنّ مستر غرينليف بعيدٌ وهي وحيدة. تمنّى لو فكّر بهذا من قبل!.

قال مستر غرينليف بأنّه سيغادر روما مع نهاية الأسبوع، وسيمرّ بباريس، لأنّ الشرطة الفرنسيّة تتابع التحقيق هناك بدورها. سيرافقه ماكارون، وإن لم يتوصّلا إلى شيء في باريس، سيعودان كلاهما إلى أمريكا. «من الواضح بالنسبة لي وللجميع» قال مستر غرينليف، «بأنّه إمّا ميت، أو يتعمّد التواري عن الأنظار. قلبنا العالَم بحثاً عنه... ما عدا روسيا! ربّما... يا إلهي! هل أبدى يوماً إعجابه بذلك البلد؟!».

«روسيا؟! كلّا، ليس على حدّ علمي».

على ما يبدو، رأي مستر غرينليف هو إمّا أنّ ابنه قد مات، أو فليذهبْ إلى الجحيم! وبدا لتوم أن «فليذهب دكي إلى الجحيم» كان الأبرز خلال تلك المحادثة الهاتفيّة.

مساءً، ذهب توم إلى منزل بيتر كينغزلي-سميث، ووجد لديه جريدَتين إنجليزيّتين أرسلهما له صديقه، نشرت إحداهما صورته وهو يطرد مصوّرَ مجلّة أوجي من منزله، وهي صورة سبق له أن رآها في الصحف الإيطاليّة. بالإضافة إلى ذلك، صوره وهو يمشي في شوارع ڤينيسيا وصور منزله هناك، وصلت أيضاً إلى الصحف الأمريكيّة، فقد أرسل له كلٌّ من بوب ديلانسي وكليو بالبريد الجويّ نسخاً عنها مع مقتطفات من صحف الفضائح في نيويورك. المسألة برمّتها مثيرة للغاية من وجهة نظرهما!.

«أنا بخير، لكنّني سئمتُ كلّ هذا!» قال توم، «لقد بقيتُ هنا على سبيل التهذيب فقط، وكي أقدّم المساعدة إن استطعتُ! إن حاول أيّ مراسل آخر اقتحام منزلي، سأطلق عليه الرصاص ما أن يدخل من الباب!». إنّه منزعج بالفعل، ويشعر بالاشمئزاز أيضاً، وهو ما انعكس على صوته.

«أفهمك تماماً» قال بيتر، «سأعود إلى الوطن في نهاية أيّار كما تعلم. أنت على الرحب والسعة لو رغبتَ بمرافقتي، والبقاء معي في منزلي في إيرلندا. المكان هناك هادئ كالقبور، أؤكّد لك».

رمقه توم. سبق لبيتر أن أخبره عن القلعة الإيرلنديّة القديمة التي يملكها، وأراه صورها. لمعت في ذهنه بعض ملامح علاقته مع دكي، وكأنّها ذكريات من كابوس ما، كأنّها شبح شاحب خبيث. قد يتكرّر الأمر ذاته مع بيتر، فكّر توم، بيتر المستقيم، الساذج، الغافل، الكريم، والصديق الطيّب... الفرق الوحيد هو أنّه لا يشبه بيتر كثيراً! ذات مساء، دُهش بيتر حين تحدّث توم بلكنة بريطانيّة، وقلّد أسلوبه بالكلام وطريقته بهزّ رأسه جانبيّاً حين يتكلّم، ووجد ذلك طريفاً للغاية. لم يجدر به أن يفعل ذلك، فكّر توم، وشعر بالخزي من نفسه لأقصى حدّ، لأنّه فكّر -ولو للحظة- بأنّ ما فعله مع دكي قد يتكرّر مع بيتر!.

«شكراً لك» قال توم، «أفضّل البقاء بمفردي لفترة أطول. أنا أشتاق لصديقي دكي كما تعلم، أفتقده كثيراً!». كاد أن يبكي! تذكّر فجأة ابتسامة دكي في أوّل يوم بدآ ينسجمان معاً فيه، عندما اعترف لدكي بأنّ مستر غرينليف هو من أرسله. تذكّر رحلتهما الأولى الجنونيّة إلى روما، وشعر بالحنين إلى نصف الساعة تلك في بار فندق كارلتون في مدينة كان، ثمّ تذكّر كيف كان دكي صامتاً يشعر بالسأم. هناك سبب لسأمه ذاك في الحقيقة، لم يكن مهتمّاً برؤية كوت دازور في المقام الأوّل، فضلاً عن أنّ توم جرّه جرّاً إلى هناك! لو تفرّج على المدينة وحده، لو أنّه لم يكن متعجّلاً جشعاً، لو لم يحكم حكماً خاطئاً غبيّاً على العلاقة بين دكي ومارج، وانتظر ببساطة أن تنتهي علاقتهما من تلقاء ذاتها... لما حصل شيء، ولعاش مع دكي طيلة حياته، يسافر ويحيا ويتمتّع بقيّة عمره، لو أنّه لم يجرّب ملابس دكي في ذلك اليوم....

«أفهمك، تومي صديقي، أفهمك حقّاً» قال بيتر، وربّت على كتفه.

نظر إليه توم من خلال دموعه. تخيّل السفر برفقة دكي على متن باخرة ما، عائدَين إلى أمريكا لقضاء الكريسماس، وتخيّل كيف سيبني علاقة طيبّة بوالدَي دكي، وكأنّه ابنهما الثاني.

«شكراً» قال توم، لكنّ الكلمة صدرت من فمه كغمغمة طفوليّة.

«كنتُ سأحسبك مصاباً بخطب ما حتماً، لولا انهيارك هكذا!»، قال بيتر بتعاطف.

-29-

ڤينيسيا،

3 حزيران، 19—

عزيزي مستر غرينليف،

أثناء قيامي بحزم متاعي اليوم، عثرتُ على مغلّف أعطاني إيّاه ريتشارد في روما، وكنتُ قد نسيته كليّاً لأسباب لم أعد أذكرها. كُتِب على هذا المغلّف: «لا يُفتَح قبل حزيران»، ويصدف أنّنا في حزيران الآن. بداخله، عثرتُ على وصيّة دكي، لقد ترك لي دخله وممتلكاته كلّها! أنا مذهول مثلك الآن بالضبط! بغضّ النظر عن كلمات الوصيّة (مطبوعة على الآلة الكاتبة)، يبدو لي أنّ دكي كان بكامل قواه العقليّة حين كتبها.

أشعر بالأسف والمرارة، لأنّني لم أتذكّر المغلّف في السابق. لعلّه كان سيثبت لنا منذ زمن طويل، بأنّ دكي عازم على الانتحار. لقد خبّأتُه في جيب الحقيبة، ونسيته. أعطاني إيّاه في روما، عندما تقابلنا للمرّة الأخيرة، وكان مكتئباً للغاية.

بإعادة التفكير في المسألة، أرفق برسالتي نسخةً مصوّرة عن الوصيّة كي تطلع عليها بنفسك. إنّها الوصيّة الأولى التي أراها في حياتي، وأنا أجهل تماماً كيف يجب أن تسير الأمور. بماذا تنصحني؟.

من فضلك، بلّغ أرقَّ تحيّاتي لمسز غرينيلف، وكن على يقين بأنّني أتعاطف معكما، وبأنّني آسف لاضطراري إلى كتابة هذه الرسالة. لطفاً، أبلغني برأيك في أقرب وقت على العنوان التالي: مكتب الأمريكان إكسبريس، أثينا، اليونان.

المخلص لك،

توم ريبلي.

إنّه يدعو المشاكل إليه بطريقة ما أو بأخرى! قد ينجم عن هذه الرسالة تحقيق جديد حول أصالة التواقيع، سواء الموجودة على الوصيّة أو على الإيصالات، وسيكون تحقيقاً من ذلك النمط اللحوح الذي تتبعه شركات التأمين على الحياة وشركات الائتمان الماليّ، عندما يكون ما ستدفعه على المحكّ... لكنّ مزاجه فرض عليه ذلك! لقد اشترى تذكرة للسفر إلى اليونان في منتصف شهر أيّار، وأصبحت الأيّام أجمل، ممّا جعله يتململ أكثر فأكثر. أخذ سيّارته التي كانت مركونة في مرآب شركة «فيات» في ڤينيسيا، وساقها عبر برِنَر إلى سالزبورغ ثمّ ميونخ، وبعدها عاد إلى تريسته، ثمّ إلى بولزانو. الطقس كان جميلاً حيثما سافر، ما عدا بعض الأمطار الربيعيّة الخفيفة التي هطلت في ميونخ وهو يتمشّى في «الحديقة الإنجليزيّة». لم يحاول الاحتماء من المطر آنذاك، بل تابع المشي ببساطة مبتهجاً كطفل، لأنّه أوّل مطر ألمانيّ يهطل فوق رأسه! حسابه البنكيّ فارغ إلّا من ألفي دولار أمريكيّ، حوّل بعضها من حساب دكي ووفّر بعضها الآخر من مدخول هذا الأخير الشهريّ، لأنّه لم يجرؤ على سحب المزيد من المال في فترة لم تتجاوز ثلاثة أشهر. لم يستطع أن يقاوم إغراء المخاطرة بمحاولة الاستيلاء على أموال دكي كلّها، وما ستجرّه من عواقب، فقد أصابه السأم بعد كلّ تلك الأسابيع المخيفة الخاوية في ڤينيسيا، وكأنّ كلّ يوم منها يضمن سلامته الشخصيّة، ويؤكّد له على رتابة حياته ووجوده. توقّف روڤيريني عن إرسال الرسائل له، ولا بدّ أنّ آلفن ماكارون قد عاد إلى أمريكا دون أن يقوم بما يتعدّى الاتّصال به هاتفيّاً من روما دون طائل. خمّن توم بأنّه ومستر غرينليف قد توصّلا إلى الاستنتاج بأنّ دكي إمّا ميت، أو مختفٍ بإرادته، وبأنّ متابعة البحث عنه هي محاولة عقيمة، كما توقّفت الصحف بدورها عن نشر أخبار دكي، حتّى الهامشيّة منها. بالتالي، انتاب توم شعور بالخواء والعطالة كاد أن يدفعه إلى الجنون، إلى أن انطلق بسيّارته إلى ميونخ. عندما عاد إلى ڤينيسيا، كي يحزم حقائبه ويغلق منزله استعداداً للسفر إلى اليونان، أصبح ذلك الشعور أسوأ: إنّه على وشك أن ينطلق إلى اليونان، إلى تلك الجزر العتيقة المليئة بالبطولات، لكن كتوم ريبلي الصغير الخجول الحقير، مع ألفي دولار فقط في جيبه تتناقص تدريجيّاً، وسيضطرّ إلى التفكير مرّتين قبل أن يشتري ولو كتاباً عن الفنّ الإغريقيّ. هذا لا يُطاق!.

في ڤينيسيا، اتّخذ قراراً بأن يحوّل رحلته المرتقَبة إلى ملحمة بطوليّة. سيرى الجُزر اليونانيّة، وسيسبح للمرّة الأولى ككائن شجاع حيٍّ يتنفّس، وليس كطفيليّ نكرة من بوسطن. إن أبحر ووقع مباشرة في أيدي رجال الشرطة في ميناء بيرايوس، سيكون قد تمتّع على الأقلّ بأيّامه الأخيرة، وهو يقف في مقدّمة السفينة وسط الرياح، فوق البحر ذي اللون النبيذيّ القاتم، كما فعل جايسون أو يوليسيس عندما عادا إلى الوطن. لذلك، كتب تلك الرسالة إلى مستر غرينليف، وأرسلها بالبريد قبل ثلاثة أيّام من موعد رحلته. سيستغرق وصولها إلى أمريكا أربعة أو خمسة أيّام، ولن يتسنّى لمستر غرينليف أن يرسل برقية إلى ڤينيسيا كي يحتجزه هناك، ويحول بينه وبين السفر. فضلاً عن ذلك، من الأفضل أن يتصرّف بطريقة عفويّة حول موضوع الوصيّة، وألّا يتيح لأيٍّ كان التواصل معه طيلة أسبوع آخر أو أكثر إلى أن يصل إلى اليونان، وكأنّ الحصول على أموال دكي لا يهمّه، ولذلك لم يؤجّل الرحلة التي خطّط لها مسبقاً بعد أن عثر على الوصيّة.

قبل يومين من موعد الرحلة، ذهب توم لتناول الشاي في منزل تيتي ديلا لاتا-كاسياغيرا، الكونتيسة التي التقاها عندما بدأ البحث عن منزل يستأجره في ڤينيسيا. أدخلته الخادمة إلى الصالون، فحيّته الكونتيسة تيتي بتلك العبارة التي لم يسمعها منذ أسابيع: «أوه، تشاو توماسو! هل رأيت صحف المساء؟ لقد عثروا على حقائب دكي ولوحاته هنا، في مكتب الأمريكان إكسبريس في ڤينيسيا»، واهتزّ قرطاها لفرط حماسها.

«ماذا؟!». توم لم يقرأ الصحف، فقد كان مشغولاً للغاية بحزم متاعه.

«اقرأها. خذها. كلّ ثيابه مودعة هنا منذ شهر شباط! أُرسِلَت من نابولي، لعلّه هنا في ڤينيسيا!»، قالت الكونتيسة.

باشر توم بالقراءة. لقد انفكّت عقدة الحبل المربوط حول قماش الكانڤاه، كتبت الصحيفة، وعندما قام الموظّف بربطها مجدّداً، لاحظ توقيع «ر. غرينليف» على اللوحات. ارتجفت يدا توم، بحيث اضطرّ إلى إمساك الصحيفة من طرفيها كي يثبّتها، وقرأ أنّ البوليس يفحصون كلّ الموجودات بدقّة الآن، بحثاً عن البصمات.

«لعلّه حيّ!»، صاحت تيتي.

«لا أظنّ ذلك... لا أفهم كيف يثبت هذا أنّه على قيد الحياة؟! لعلّه قُتِل، أو أقدم على الانتحار بعد أن أرسل الحقائب... فضلاً عن أنّها مودعة تحت اسم مختلف، فانشو...»، ردّ توم، وانتابه شعور بأنّ اضطرابه أفزع الكونتيسة التي تجلس جامدة على الكنبة، وهي تحدّق إليه. لملم شتات نفسه بحزم، واستجمع شجاعته ثمّ قال: «أرأيتِ؟ إنّهم يفحصون كلّ الموجودات بحثاً عن بصمات، لن يفعلوا ذلك لو كانوا متأكّدين من أنّ دكي هو من أرسل الحقائب. لماذا يودِعُها هناك تحت اسم فانشو، إن أراد استرجاعها بنفسه فيما بعد؟! حتّى جواز سفره موجود بين الأغراض! لقد أودَع جواز سفره أيضاً!».

«لعلّه يتخفّى وراء اسم فانشو! أوه! يا إلهي! أنت بحاجة إلى بعض الشاي». وقفت تيتي، ونادت الخادمة: «جوستينا! الشاي من فضلك، على الفور!».

غرق جسد توم في الكنبة، وهو ما يزال ممسكاً بالجريدة أمام عينيه. ماذا عن عقدة الحبل حول جسد دكي؟! ألن تنفكّ الآن أيضاً بسبب حظّه العاثر؟!.

«آه! أنت متشائم للغاية يا عزيزي!»، قالت تيتي وهي تربّت على كتفه. «إنّها أخبار طيّبة! لعلّ البصمات التي سيعثرون عليها هي بصماته، ألن يُفرحكَ ذلك؟! عندما تسير في شوارع ڤينيسيا غداً، لعلّك ستجد نفسك وجهاً إلى وجه مع دكي غرينليف، الملقّب بسنيور فانشو!». ضحكت الكونتيسة ضحكة مرحة مجلجلة، ضحكة طبيعيّة تماماً وكأنّها تتنفّس.

«كتبوا هنا أنّ الحقائب مليئة بكلّ أشيائه... عدّة الحلاقة، فرشاة الأسنان، حذاء، معطف... تجهيزات كاملة!» قال توم، مدارياً رعبه بالأسى. «لا يعقل أن يكون حيّاً، ويترك وراءه كلّ هذا! لا بدّ أنّ القاتل قد عرّاه وأودع ثيابه هنا، لأنّها الطريقة الأسهل للتخلّص منها».

صمتت تيتي قليلاً بعد أن سمعت ذلك، ثمّ قالت: «ألا يمكنك أن تؤجّل اليأس قليلاً، إلى أن تظهر نتيجة البصمات؟ ألم تكن ذاهباً برحلة ممتعة غداً؟! ها هو الشاي!».

الرحلة بعد غدٍ، فكّر توم، ممّا يتيح لروڤيريني وقتاً كافياً لأخذ بصماته،

ومقارنتها بتلك الموجودة على الحقائب والكانفاه. حاول أن يتذكّر كم عدد السطوح المستوية في إطارات اللوحات أو الأغراض الأخرى في الحقائب، التي يمكن للشرطة أن ترفع البصمات عنها؟ لا يوجد الكثير منها، باستثناء عدّة الحلاقة. مع ذلك، قد تعثر الشرطة على ما يكفي من الأجزاء واللطخات، كي تعيد تشكيل عشر بصمات كاملة! السبب الوحيد الذي يدعوه للتفاؤل، هو أنّ بصمات أصابعه غير موجودة في سجلّات الشرطة، وقد لا يطلبونها نظراً لأنّه ما يزال بعيداً عن الشبهات. لكن، ماذا لو حصلوا على بصمات أصابع دكي الحقيقيّة من مكان ما؟! ألن يرسلها مستر غرينليف من أمريكا على الفور، لمطابقتها مع تلك التي سيعثرون عليها هنا؟! قد يعثرون على بصمات أصابع دكي في أيّ مكان، على أغراضه هناك في أمريكا، في منزله في مونجيبللو...

«توماسو! اشربِ الشاي!» قالت تيتي، وهي تضغط بلطف على ركبته للمرّة الثانية.

«شكراً لك».

«سترى بنفسك، إنّها خطوة نحو الحقيقة، نحو معرفة ماذا حصل فعلاً. الآن، دعنا نتحدّث عن أمر آخر، بما أنّ هذا الخبر يحزنك! إلى أين ستذهب بعد أن تصل إلى أثينا؟».

حاول توم أن يحوّل مسار أفكاره إلى اليونان. بالنسبة له، اليونان مُذهَبة، بذهب دروع المحاربين، وبذهب شمسها الشهيرة. تخيّل تماثيل حجريّة وجوهُها هادئة قويّة، كمنحوتات النساء تلك في معبد إركثيون. لا يرغب بأن يسافر إلى اليونان، بينما خَطرُ أخذ بصماته يحوم فوق رأسه! هذا سيدمّره، سيشعر بالوضاعة وكأنّه أحقر جرذ يزحف في مجارير أثينا، بل أحقر من أوسخ شحّاذ سيدنو منه في شوارع تسالونيكي! دفن وجهه بين يديه، وبكى. اليونان انتهت، انفجرت كبالون ذهبيّ!.

لفّت تيتي ذراعها المكتنزة الصلبة حوله، وقالت: «توماسو! ابتهج! انتظر حتّى يظهر سببٌ يدعوك للإحباط!».

«لا أعرف لماذا لا تدركين أنّه نذير سيّئ!» قال توم يائساً، «حقّاً لا أعرف!».

-30-

النذير الأسوأ، كان أنّ روڤيريني -رسائله عادة صريحة، وودودة للغاية- لم يتواصل معه قطّ بخصوص حقائب دكي ولوحاته التي عثروا عليها في ڤينيسيا. لم يغمض جفن لتوم طيلة الليل، وقضى اليوم التالي وهو يذرع منزله جيئة وذهاباً، في محاولة للانتهاء من الأشغال الصغيرة اللّانهائيّة المتعلّقة برحيله. دفع أجور آنا وأوغو، دفع فواتير التجّار المختلفين، وتوقّع أن تدقّ الشرطة بابه في أيّة لحظة، ليلاً أو نهاراً. التناقض بين هدوئه وثقته بنفسه قبل خمسة أيّام، وبين خوفه الراهن، كاد أن يمزّقه. لم يستطع أن ينام، ولا أن يأكل، ولا أن يجلس ساكناً. المفارقة الساخرة المتجسّدة في رثاء آنا وأوغو لحاله، وفي الاتّصالات الهاتفيّة التي انهالت عليه من أصدقائه، كي يسألوه عن رأيه بما حصل فعلاً لدكي على ضوء موجودات الحقائب، بدت له أكبر ممّا يستطيع احتماله. من المثير للسخرية أيضاً، أنّه يستطيع إبداء انزعاجه وتشاؤمه ويأسه أمامهم، دون أن يشكّوا به! برأيهم، كلّ ما يمرّ به الآن من انفعالات هو أمرٌ طبيعيّ تماماً، فلعلّ دكي قد قُتِل حقّاً في نهاية المطاف. جميعهم يظنّون بأنّ وجود كلّ أغراضه -بما في ذلك عدّة الحلاقة- في حقائب تمّ إيداعها في ڤينيسيا، هو مسألة فائقة الأهميّة.

من ثمّ، هناك الوصيّة. سيستلم مستر غرينليف رسالة توم بعد غد، ولعلّ الشرطة ستكون قد تأكّدت من أنّ البصمات ليست بصمات دكي بحلول ذلك الوقت، وربّما تعترض سفينة «هيلينز» كي تأخذ بصمات توم. لن يرحمه أحد لو اكتشفوا بأنّ الوصيّة مزوّرة، كما ستنكشف الجريمتان اللتان ارتكبهما تلقائيّاً، بسهولة فائقة.

عندما وضع توم قدمه على متن سفينة «هيلينز»، شعر بأنّه شبح يمشي. شبح لم يأكل ولم ينم، يُغرِق جسَدَه بالإكسبريسو، وتسيّره أعصابه المرتجفة.

أراد أن يستفسر عن وجود لاسلكيّ على متن السفينة، لكنّه كان متأكّداً من وجوده سلفاً، لأنّها سفينة ضخمة نسبيّاً، ذات ثلاث طبقات، وقادرة على نقل ثمانية وأربعين مسافراً. انهار بعد خمس دقائق من قيام المضيف بنقل أمتعته إلى الكابينة، وآخر ما يتذكّره هو أنّه ارتمى على السرير مستلقياً على بطنه، إحدى ذراعيه ملوية تحته، وكان مرهقاً إلى حدّ أنّه عجز عن تغيير وضعيّته. عندما استيقظ، اكتشف أنّ السفينة قد بدأت بالإبحار، متأرجحة بلطف وفق إيقاع جميل يوحي باحتياطيّ هائل من القوّة، وبوعد بالانطلاق للأمام دون توقّف ودون عوائق، وكأنّها ستكتسح كلّ ما قد يعترض طريقها. شعر بأنّه أفضل حالاً، عندما تقبّل بأنّ الذراع التي نام عليها، تتدلّى إلى جانب جسده مشلولة الآن كأنّها عضو ميت رخو، يتأرجح ويصطدم به وهو يمشي عبر الممرّ، بحيث اضطرّ إلى تثبيتها بذراعها الأخرى. ساعته تشير إلى العاشرة إلّا ربع، والظلام دامس في الخارج.

في أقصى اليسار، تلوح يابسة ما، قد تكون جزءاً من يوغوسلافيا، وخمسة أو ستّة أضواء خافتة بيضاء. فيما عدا ذلك، لا يوجد سوى بحر أسود وسماء سوداء، سماء سوداء دامسة ابتلعت الأفق. لعلّهم يبحرون الآن في برزخ أسود، لكنّه لا يشعر بأيّ شيء يعيق تقدّم السفينة الثابت، كما أنّ الريح تهبّ حرّة على وجهه كأنّها قادمة من فضاء لامتناهٍ. لا أحد هنا على ظهر السفينة سواه، المسافرون جميعهم في الأسفل الآن، يتناولون العشاء كما يعتقد. بدأت ذراعه تعود إلى الحياة، تمسّك بمقدّمة السفينة حيث تفترق زاويتها إلى شعبتين على شكل حرف V ضيّق، وأخذ شهيقاً عميقاً. تصاعدت في أعماقه الشجاعة والتحدّي، ماذا لو أنّ عامل اللاسلكيّ يتلقّى في هذه اللحظة بالذّات، رسالةً تطلب اعتقال توم ريبلي؟! سيقف بثبات كما يقف الآن تماماً، أو قد يلقي بنفسه عن مقدّمة السفينة، وهو التعبير الأقصى عن الشجاعة والنجاة من وجهة نظره. حسناً... ماذا لو؟! من حيث يقف، يمكنه سماع أصوات بيب بيب بيب خافتة، تنبعث من غرفة اللّاسلكيّ في أعلى السفينة، لكنّه ليس خائفاً! هذا هو... هكذا تمنّى أن يكون شعوره عندما يبحر إلى اليونان! تأمّل الماء الأسود من حوله دون أن ينتابه الخوف، هو أمر جيّد يعادل بطريقة ما أو بأخرى رؤيةَ الجزر اليونانيّة تنبثق أمامه، وها

هو ذا في عتمة حزيران الرقيقة، يتخيّل الجزر اليونانيّة الصغيرة، وتلال أثينا التي تغطّيها المباني، والأكروبوليس.

على متن السفينة، هناك امرأة عجوز تسافر برفقة ابنتها، وهي امرأة في الأربعينيّات من عمرها، غير متزوّجة، ومتوتّرة إلى درجة لا تُعقَل، بحيث لا تستطيع الاستمتاع بأشعّة الشمس لفترة تتجاوز ربع ساعة، دون أن تقفز عن الكرسيّ وتعلن بصوت عالٍ أنّها «ذاهبة كي تتمشّى». على النقيض منها، الأمّ هادئة للغاية وبطيئة، رجلها اليمنى مشلولة نوعاً ما وأقصر من اليسرى، ممّا يضطرها إلى تثبيت نعل إضافيّ سميك على فردة حذائها اليمنى، فضلاً عن أنّها عاجزة عن المشي دون أن تتوكّأ على عصا. في نيويورك، كانت هذه السيّدة ستدفع توم إلى الجنون بكلّ تأكيد، بسبب بطئها ورقّة أسلوبها التي لا تتبدّل، أمّا هنا على ظهر السفينة، فقد شعر بحافزٍ ما يدفعه إلى قضاء وقته بالجلوس على الكرسيّ إلى جوارها، يحدّثها ويصغي إلى حكاياتها عن حياتها في إنجلترا، وعن اليونان التي زارتْها آخر مرّة عام 1926، من ثمّ يصطحبها كي يتمشّيا على مهل حول السفينة، فتستند العجوز على ذراعه، وتعتذر المرّة تلو المرّة عن العناء الذي يتكبّده من أجلها، لكن من الواضح أنّها تستمتع باهتمامه بها، كما أنّ الابنة ابتهجت لوجود شخص آخر يزيح عبء الاعتناء بأمّها عن كاهلها.

ربّما كانت مسز كارترايت حادّة الطباع في شبابها، فكّر توم، وقد تكون السبب في العصاب الذي تعاني منه الابنة. لعلّها تشبّثت بابنتها وأبقتها ملتصقة بها، فاستحال على الابنة بالتالي أن تحيا حياة طبيعيّة، أو أن تتزوّج. لعلّ مسز كارترايت تستحقّ في الواقع ركلة تطيح بها عن ظهر السفينة، عوضاً عن مرافقتها في نزهة تدوم ساعاتٍ، أو الإصغاء لثرثرتها. لكن، هل يهمّ ذلك حقّاً؟! هل يوزّع العالَم الحلوى على الناس دائماً؟! هل أعطى توم حصّته من الحلوى؟! توم يحسب نفسه محظوظاً إلى درجة لا تُصدَّق، نظراً لأنّ أمره لم يُفتَضَح بعد ارتكاب جريمتي قتل، إنّه محظوظ منذ أن انتحل شخصيّة دكي، وما زال كذلك حتّى هذه اللحظة. لقد ظلمه القَدَر بقسوة في الجزء الأوّل من حياته، فكّر، من ثمّ عوّضه بأكثر ممّا يستحقّ خلال الفترة التي قضاها مع دكي وما بعدها. على الرغم من ذلك، شعر بأنّ أمراً ما سيحصل

في اليونان، وقد لا يكون جيّداً بالضرورة. لقد دام حظّه الجيّد أطول ممّا ينبغي! حسناً، لنفترض أنّهم أوقعوا به بسبب بصمات الأصابع والوصيّة، وحكموا عليه بالإعدام على الكرسيّ الكهربائيّ؟! هل سيكون ذلك الموت في الكرسيّ الكهربائيّ مؤلماً إلى الدرجة نفسها؟ أمّ أنّ الموت بحدّ ذاته في سنّ الخامسة والعشرين سيكون تراجيديّاً للغاية، إلى درجة يقتنع معها بأنّ كلّ ما فعله خلال تلك الأشهر كلّها منذ تشرين الثاني وحتّى الآن، لم يكن جديراً بالمحاولة؟! قطعاً لا!.

لا يندم على شيء، سوى أنّه لم يرَ العالَم كلّه بعد. يرغب برؤية أستراليا، والهند. يريد أن يزور اليابان، من ثمّ أمريكا الجنوبيّة. تأمّلُ فنونِ تلك البلدان سيكون بحدّ ذاته جائزة رائعة على كلّ ما قام به خلال حياته، فكّر. لقد تعلّم الكثير عن الرسم، حتّى عندما قلّد لوحات دكي التافهة. عندما زار غاليريهات الفنون في كلٍّ من روما وباريس، اكتشف في أعماقه ولعاً بالرسم لم يدركه من قبل، أو لعلّه لم يكن موجوداً أصلاً. لا يرغب بأن يصبح رسّاماً، فكّر، لكنّ متعته القصوى ستتلخّص باقتناء اللوحات التي تعجبه إن توافر له المال، وبتقديم الدعم للفنّانين الشباب المعوزين.

شرد بأفكاره تلك وهو يتمشّى مع مسز كارترايت على ظهر السفينة، مصغياً إلى مونولوجاتها المملّة. مسز كارترايت تحسبه فاتناً، وأخبرته عدّه مرّات بحماس كم أضاف وجوده معها إلى متعة الرحلة، كما اتّفقا على اللقاء في أحد فنادق كريت في الثاني من تموّز. كريت هي النقطة الوحيدة التي ستتقاطع فيها دروبهما، لأنّ مسز كارترايت وابنتها تسافران في رحلة خاصّة بالباص. أذعن توم لاقتراحاتها كلّها، على الرغم من أنّه لا يتوقّع إطلاقاً أن يراها مرّة أخرى بعد أن ترسو السفينة. تخيّل كيف ستقبض الشرطة عليه مباشرة، وترحّله على متن سفينة أخرى -أو لربّما بالطائرة- إلى إيطاليا. لم تصل بلاغات لاسلكيّة تطلب اعتقاله على حدّ علمه، لكن لماذا سيخبرونه باستلامها؟! يتمّ توزيع نشرة إخباريّة خاصّة بالسفينة يوميّاً، صفحة واحدة صغيرة منسوخة بآلة التصوير الضوئيّ توضَع على الطاولات أثناء تناول العشاء أمام كلّ شخص. هذه النشرة تُعنى بأخبار السياسة الدوليّة فقط، ولن تذكر قضيّة غرينليف بتاتاً حتّى ولو استجدّ طارئ هامّ. خلال تلك الرحلة القصيرة، عاش توم في

مناخ عجيب تراوح ما بين اللعنة، وما بين الشجاعة البطوليّة والإيثار. تخيّل سيناريوهات غريبة: ابنة مسز كارترايت تسقط في الماء، فيقفز خلفها وينقذها مثلاً، أو أنّه يشقّ طريقه عبر الأمواج المتلاطمة التي تتدفّق من ثغرة في جدار السفينة، كي يسدّها بجسده. أحسّ بأنّه مسكون بقوّة وشجاعة خارقتين.

عندما اقتربت السفينة من البرّ اليونانيّ، كان توم واقفاً عند حافّتها هو ومسز كارترايت التي روت له كيف تبدّل ميناء بيرايوس منذ أن رأته آخر مرّة، ولم يستقطبه حديثها البتّة. الميناء موجود هنا، وهذا كلّ ما يهمّه. الميناء ليس سراباً، بل كتلة صلبة بوسعه أن يسير فوقها، وبين المباني التي تغطّيها إن استطاع الوصول إليها.

رجال الشرطة مزروعون على الرصيف! رأى أربعة منهم، يقفون متصالبي الأذرع ويراقبون السفينة. ساعد توم مسز كارترايت حتّى آخر لحظة، وسندها بلطف عندما عبرت حافّة السلّم المتحرّك الذي يصل بين السفينة وبين رصيف الميناء، ثمّ ودّع ابنتها بابتسامة. يتوجّب عليهم جميعهم انتظار استلام أمتعتهم، في الصفّين المخصّصَين لحرفي (ر) و (ك)، من ثمّ ستغادر الأمّ وابنتها على الفور إلى أثينا على متن الباصّ الخاصّ. مع قبلة مسز كارترايت التي ما تزال دافئة ورطبة نوعاً ما على خدّه، استدار توم ومشى ببطء صوب رجال الشرطة. لن يثير جلبة، فكّر، بل سيخبرهم بنفسه من يكون. هناك كشك جرائد ضخم خلفهم، ففكّر بشراء صحيفة، لربّما سيسمحون له بذلك! حدّق رجال الشرطة بهم وهم ما يزالون متصالبي الأذرع، إنّهم يرتدون زيّاً موحّداً أسود اللون، وقبّعات لها واقيات للعيون. ابتسم لهم توم ابتسامة باهتة، فلمس أحدهم قبعته وابتعد جانباً... لم يقبضوا عليه! توم يسير الآن بين اثنين منهم، مباشرة أمام كشك الجرائد، جميعهم يحدّقون إلى الأمام ولا يكترثون به.

ألقى توم نظرة إلى الصحف المتنوّعة في الكشك، وشعر بالدوار والضعف. تحرّكت يداه أوتوماتيكيّاً كي يأخذ صحيفة روما المألوفة، التي يعود تاريخها إلى ثلاثة أيّام مضت. سحب بعض الليرات الإيطاليّة من جيبه، فأدرك فجأة أنّه لا يحمل عملة يونانيّة، لكنّ صاحب الكشك أخذ النقود منه عن طيب خاطر وكأنّهما في إيطاليا، وناوله الباقي بالليرة كذلك.

«سآخذ هذه أيضاً»، قال توم بالإيطاليّة، وانتقى ثلاث صحف إيطاليّة أخرى، وصحيفة هيرالد تربيون الفرنسيّة. رمق رجالَ الشرطة، إنّهم لا ينظرون إليه.

استدار، ومشى صوب المنطقة المظلّلة على رصيف الميناء، حيث يتجمّع المسافرون بانتظار استلام متاعهم. حيّته مسز كارترايت بابتهاج، لكنّه تظاهر بأنّه لم يسمعها وتابع المشي إلى أن وقف في الصفّ المخصّص لحرف (ر)، وفتح الصحيفة الإيطاليّة الأقدم، التي يعود تاريخها إلى أربعة أيّام.

«لم يتمّ العثور على روبرت. إس. فانشو، الشخص الذي أودع متاع غرينليف»، قال العنوان الغريب في الصفحة الثانية. قرأ توم العمود الطويل المكتوب تحته، ولم يجذب انتباهه سوى الفقرة الخامسة منه: «أكدّت الشرطة قبل بضعة أيّام، بأنّ البصمات الموجودة على الحقائب واللوحات، تطابق تلك التي تمّ العثور عليها في شقّة غرينليف المهجورة في روما. بالتالي، لا بدّ بأنّ غرينليف هو من أودع اللوحات والحقائب شخصيّاً».

فتح توم صفحة أخرى، وها هو الخبر ذاته مجدّداً: «بما أنّ البصمات على الحاجيّات في الحقائب، تتطابق مع تلك التي عثروا عليها في شقّة سنيور غرينليف في روما، استنتجت الشرطة بأنّ سنيور غرينليف هو من حزم متاعه وأرسله إلى ڤينيسيا. تعتقد الشرطة حاليّاً أنّه أقدم على الانتحار بالقفز عارياً في الماء، أمّا الفرضيّة البديلة فهي أنّه يحيا حاليّاً تحت اسم مستعار هو روبرت إس. فانشو، أو غيره من الأسماء المزيّفة. فضلاً عن ذلك، هناك فرضيّة ثالثة تقول بأنّه قُتِل بعد أن وضَّب متاعه أو أجبِر على توضيبها، ربّما بغية تضليل الشرطة بواسطة البصمات...بأيّ حال، استمرار البحث عن (ريتشارد غرينليف) هو عمليّة عقيمة، لأنّه لا يحمل جواز سفر بهذا الاسم، على افتراض أنّه ما يزال حيّاً».

ارتجف توم، وأصابه الدوار، وآلمته عيناه بسبب أشعة الشمس المتوهّجة التي تتسلّل من تحت حافّة المظلّة. تلقائيّاً، تبع الحمّال الذي أخذ متاعه إلى كاونتر الجمارك، حيث حاول أن يستوعب ماذا يعني ذلك الخبر بالتحديد، وهو يرمق حقيبته المفتوحة التي فتّشها ضابط الجمارك على عجل. الخبر

يعني بأنّهم لا يشتبهون به إطلاقاً! الخبر يعني بأنّ بصمات الأصابع هي دليل على براءته! الخبر لا يعني بأنّه لن يدخل السجن فحسب، ولن يموت، بل إنّهم لا يشتبهون به البتّة! إنّه حرٌّ... ولكن الوصيّة!.

استقلّ توم الباص إلى أثينا. جلس إلى جواره أحد المسافرين، ممّن شاركوه الطاولة ذاتها أثناء تناول العشاء في السفينة، لكنّ الرجل لم يبادره بالتحيّة، ولم يكن بوسع توم أصلاً أن يجيبه لو تحدّث معه. لا بدّ أن يجد بانتظاره رسالة تتعلّق بالوصيّة، في مكتب الأمريكان إكسبريس في أثينا، إنّه واثق من ذلك. لقد حظي مستر غرينليف بوقت كافٍ للردّ، ولربّما عهد بالمسألة مباشرة إلى محاميه. لربّما لن يجد توم بانتظاره في أثينا، سوى ردٍّ مهذّب سلبيّ من قبل المحامي، لكن لعلّ الرسالة التالية ستصله من البوليس الأمريكيّ وتتّهمه بالتزوير. لعلّ الرسالتين كلتيهما وصلتا إلى الأمريكان إكسبريس الآن! تلك الوصيّة ستفسد الأمر برمّته!.

نظر توم من النافذة إلى المشهد الطبيعيّ البدائيّ الجافّ، دون أن يستوعب ما يراه. لعلّ البوليس اليونانيّ بانتظاره الآن في الأمريكان إكسبريس، لعلّ رجال الشرطة الأربعة الذين رآهم سابقاً في الميناء، ليسوا شرطة بل جنوداً عسكريّين!.

توقّف الباص، فنزل توم، وأخذ متاعه، ثمّ أوقف تاكسي.

«هل لك أن تتوقّف في مكتب الأمريكان إكسبريس، من فضلك؟» سأل بالإيطاليّة، لكنّ السائق فهم «الأمريكان إكسبريس» على الأقلّ، وانطلق في الاتّجاه المطلوب. تذكّر توم كيف قال الكلمات ذاتها لسائق التاكسي في روما، حين غادرها إلى باليرمو. كم كان واثقاً من نفسه آنذاك، بعد أن خدع مارج في فندق إنجلترا!.

انتصب في جلسته عندما لمح لافتة مكتب الأمريكان إكسبريس، ونظر حول المبنى بحثاً عن الشرطة... لعلّهم في الداخل! طلب من السائق أن ينتظره، وبدا على هذا الأخير أنّه فهم ما سمعه على الرغم من أنّ توم تكلّم بالإيطاليّة، لأنّه لمس قبّعته دليلاً على الموافقة. كلّ شيء يتمّ بسهولة مريبة، تماماً كتلك اللحظة التي تسبق انفجاراً ما. ألقى توم نظرة على بهو مكتب

الأمريكان إكسبريس، لا شيء غير عاديّ. هل سينقضّون عليه، بمجرّد أن ينطق اسمه؟!.

«هل وصلت رسائل باسم توم ريبلي؟»، سأل بالإنجليزيّة، وصوت خفيض.

«ريبلي؟ هلّا هجأت الاسم لي من فضلك؟».

هجّأ توم اسمه

استدارت الموظّفة، وسحبت ثلاث رسائل من إحدى الكوّات.

لم يحصل شيء!.

«ثلاث رسائل»، قالت الموظّفة بالإنجليزيّة وهي تبتسم.

إحداها من مستر غرينليف، الثانية من تيتي في ڤينيسيا، والأخيرة من كليو، تمّ تحويلها من روما إلى هنا.

فتح توم رسالة مستر غرينليف:

عزيزي توم،

لقد استلمتُ رسالتك المؤرّخة بتاريخ الثالث من حزيران.

لم نُفاجأ كثيراً أنا وزوجتي كما ظننتَ، نعرف كلانا كم كان ريتشارد مولعاً بك، على الرغم من أنّه -جرياً على عادته- لم يذكر ذلك إطلاقاً في أيّ من رسائله. كما نوّهتَ أنت، هذه الوصيّة تدلّ ببالغ الأسى على أنّ ريتشارد أقدم على الانتحار. إنّه استنتاج قبلناه أخيراً، الاستنتاج البديل الوحيد، هو أنّ ريتشارد اختار اسماً آخر، واختار كذلك لأسباب تخصّه وحده أن يدير ظهره لعائلته.

توافقني زوجتي على رأيي، بأنّنا يجب أن ننفّذ ما رغب به ريتشارد بالروح ذاتها، بغضّ النظر عمّا فعله بنفسه. لذلك، وبما يخصّ الوصيّة، أنت تحظى بتأييدي شخصيّاً. لقد وضعتُ نسخة الوصيّة التي أرسلتَها بين أيدي المحامين، الذين سيبقونك على اطلاع حول ما يحرزونه من تقدّم على صعيد نقل وديعة ريتشارد البنكيّة، وممتلكاته الأخرى إلى اسمك.

مرّة أخرى، شكراً لك على المساعدة التي قدّمتها لي، عندما كنتُ في إيطاليا.

لنبقَ على تواصل،
أطيب الأمنيات
هربرت غرينليف.

هل هذه مزحة؟! الورقة المختومة بشعار شركة بورك -غرينليف بين يدي توم، بدت أصليّة- سميكة، محبحبة قليلاً، وترويسة شعار الشركة مطبوعة في أعلاها - فضلاً عن ذلك، لن يمزح معه مستر غرينليف مزحة كهذه، ليس الآن ولا بعد مليون عام!

عاد إلى التاكسي التي تنتظره. إنّها ليست مزحة! كلّ شيء له الآن! مال دكي، وحريّته هو... وهذه الحريّة، ككلّ ما عداها، بدت له مشتركة، مشتركة بينه وبين دكي. بوسعه أن يشتري منزلاً في أوروبا، ومنزلاً ثانياً في أمريكا لو أراد ذلك. ثمن منزل دكي في مونجيبللو ما يزال محفوظاً في البنك، بانتظار من يطالب به، لكنّه فكّر فجأة بإرسال ذلك المبلغ إلى آل غرينليف، بما أنّ «دكي» عرضه للبيع قبل أن يكتب وصيّته! ابتسم، وفكّر بمسز كارترايت. سيأخذ لها باقة من الأوركيد عندما يلتقيان في كريت، إن كان هناك أوركيد في كريت أصلاً!.

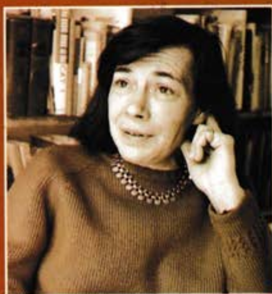
تخيّل كيف سيصل إلى كريت، إلى تلك الجزيرة المتطاولة، وجبالها الجافّة التي تتوّجها فوهات بركانيّة متعرّجة. تخيّل النشاط والحماس الذي سيدبّ على رصيف مينائها، ما أن يرسو زورقه. سيتراكض الصبيان الحمّالون كي يحملوا متاعه، متلهّفين لنقوده، وسيكون معه الكثير من النقود يوزّعها عليه، نقود كثيرة تكفي كلّ شيء وكلّ الناس. رأى أربعة أشخاص يقفون دون حراك على رصيف الميناء المُتَخيَّل ذاك، أربعة رجال شرطة كريتيّين ينتظرونه، ينتظرونه بصبر وأذرعهم متصالبة. تيبّس جسده فجأة، وغامت عيناه. هل سيجد الشرطة بانتظاره، في كلّ ميناء يزوره؟! في الإسكندريّة؟! في اسطنبول؟! في بومباي؟! في ريو دي جانيرو؟!.

لا داعي للتفكير بذلك الآن، أرجع توم كتفيه للخلف واسترخى. لا داعي لإفساد متعة رحلته هذه، بالقلق من رجال شرطة افتراضيّين... حتّى لو وجدهم ينتظرون على رصيف ميناء ما، لن يكونوا بانتظاره هو بالضرورة!.

«A donda, a donda?» قال سائق التاكسي، الذي يحاول أن يتكلّم بالإيطاليّة كي يفهمه توم.

«إلى فندق، من فضلك» قال توم، «إلى الفندق الأفضل، الأفضل، الأفضل!».

لم يلتقيا بمارج كثيراً طيلة ثلاثة أو أربعة أيّام، سوى على الشاطئ. كانت لطيفة جدّاً معهما، ابتسمت وثرثرت تماماً كما في السابق، وربّما أكثر، لكن بتهذيب يشي بالبرود. لاحظ توم بأنّ تصرّفها هذا يقلق دكي، لكن ليس كثيراً على ما يبدو، لأنّه لم يتحدّث معها على انفراد منذ أن انتقل توم للعيش في منزله، ولازمه لحظة فلحظة.
أخيراً، كي يبرهن توم لدكي بأنّه ليس غافلاً عمّا يحصل، قال له بأنّ مارج تتصرّف بغرابة. «أوه، إنّها مزاجيّة» قال دكي، «لعلّ تأليف الكتاب لا يسير على ما يرام. مارج لا تحبّ أن ترى أحداً عندما تنشغل بالعمل».
إذن، العلاقة التي تجمع دكي ومارج هي ما توقّعه منذ البداية: مارج تحبّ دكي أكثر ممّا يحبّها، استنتج توم.
بأيّ حال، استمرّ توم بتسلية دكي، لديه العديد من القصص الظريفة التي يرويها له عن معارفه في نيويورك، بعضها حقيقيّ والآخر مختَلَق. أبحرا في زورق دكي يوميّاً، ولم يحدّد أيٌّ منهما إطلاقاً تاريخاً لرحيل توم، لأنّ دكي يستمتع بصحبته كما هو واضح.



أفسح توم دائماً حيّزاً لدكي كلّما أراد أن يرسم، لكنّه كان مستعدّاً دائماً في الوقت ذاته لترك ما في يده، ومرافقته في نزهة، أو الذهاب للإبحار، أو حتّى مجرّد الجلوس وتبادل الأحاديث. بدا دكي سعيداً أيضاً لأنّ توم يأخذ تعلّم اللغة الإيطاليّة على محمل الجدّ، ويمضي ساعتين يوميّاً بدراسة كتب القواعد والمحادثة.
كتب توم رسالة إلى مستر غرينليف، وأبلغه بأنّه سيبقى مع دكي لبضعة أيّام، وأنّ دكي سيزور الولايات المتّحدة لفترة قصيرة في الشتاء، وأضاف بأنّه سينجح غالباً بإقناعه بالبقاء لفترة أطول. برأيه، هذه الرسالة تبدو جيّدة جدّاً بما أنّه يقيم مع دكي الآن، أفضل من تلك التي قال فيها إنّه ينزل في فندق في مونجيبللو. قال أيضاً بأنّه ينوي البحث عن وظيفة عندما تنفد نقوده، وربّما يعمل في فندق القرية. إنّها ملاحظة عابرة ذات هدف مزدوج: تذكير مستر غرينليف بأنّ الستمئة دولار التي أعطاه إيّاها قاربت على الانتهاء، وإقناعه بأنّه رجل شاب لا يتوانى عن العمل كي يكسب معيشته. أراد أيضاً أن يترك انطباعاً حسناً على دكي، فأعطاه الرسالة كي يقرأها أوّلاً قبل أن يرسلها.

